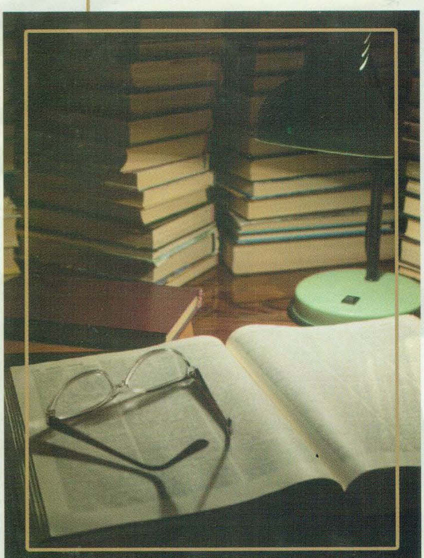
آداب

الطبعة الثانية

آفاق المعرفة
AFAQ ALMAAREFA

الناطق الأخرس

حديث القراءة والكتب



فهد بن عسكر الباشا

النَّاطِقُ الأَخرَس

حَدِيثُ القِرَاءَةِ وَالكُتُب

النَّاطِقُ الأَخْرَس

حَدِيثُ القِرَاءَةِ وَالكُتُب

فَهْد بن عَسْكَر البَاشَا

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الباشا، فهد بن عسكر

النَّاطِقُ الأَخْرَس./ فهد بن عسكر الباشا الرياض، ١٤٤٥هـ.

٤٠٨ ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٥-٢-٩٢٠٨٥-٦٠٣-٩٧٨

١- القراءة والكتب

أ. العنوان

١٤٦٣/ ١٤٤٥

ديوي ٠٢٨,١

رقم الإيداع: ١٤٦٣/ ١٤٤٥

ردمك: ٥-٢-٩٢٠٨٥-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الأستاذ أحمد عطيَّة؛ معلِّمي عندما كنتُ في الصفِّ الرابع الابتدائي، والذي لمَّا علمَ أنني لا أملك قَلمًا أوقفني بجانبِ السبورة ووبَّخني أمام الطلّاب صارخًا في وجهي: «كيف تأتي إلى المدرسةِ من غير قلم؟ القلم سلاح!»، وكان يمدُّ كلمة سلاح هذه مدًّا مرعبًا، فتعلَّمتُ منه احترام القلم وكرهتُ المدرسة!

فهرس المحتويات

كتب المؤرخ البريطاني الكبير ماكولي إلىٰ فتاةٍ ناشئة يقول لها في ردٍّ علىٰ رسالةٍ وصلَتْه منها: «أشكر لك رسالتَكِ الرقيقة، ويسرُّني دائمًا أن تكون فتاتي الصغيرة سعيدة، ولا شيء يروقني مثلُ أن أراها مُحِبة للكتبِ مقبلةً عليها، لأنها حينما تبلغ من العمرِ ما بلغَته ستجد أنها خيرٌ من أكلِ الفطائر والحلوىٰ والألعاب وسائر مشاهد الدُّنيا، ولو جعلني إنسانٌ أعظمَ ملوك الدُّنيا، وحباني القصورَ والحدائق، وأحسنَ الأطعمة والعربات، وأفخرَ الثياب ومئات الخدم والحشم؛ علىٰ شريطةِ ألَّا أقرأ الكتب- لما قبلتُ أن أكون ملكًا، ولآثرتُ أن أكون رجلًا فقيرًا في عُلِّيَّةٍ وعندي مجموعةٌ وافرة من الكتبِ، علىٰ أن أكون ملكًا زاهدًا في القراءة».

المقدمة

- لم أكن أعلم أنَّ ترك القراءة من أكبرِ الآثام.
- إنها ليست إثمًا. رغم أنَّ العالم سيكون مكانًا أفضل لو كان هجرُ القراءة إثمًا[1].

(١) المكتبة ص٧١-٧٢ - زوران جيفكوفيتش.

هناك حكاية تُروىٰ في وادان (موريتانيا) عن شحَّاذٍ في القرنِ الخامسَ عشر وصل إلىٰ بوابات المدينة بأسمالٍ بالية، وكانت علاماتُ الجوع باديةً علىٰ مَلامحهِ وجسده الهزيل. اصطُحِب إلىٰ المسجد، فأُطعِمَ وكُسِي، ولم يُفلح أحدٌ في التعرُّفِ علىٰ اسمه أو المدينة التي وُلِدَ فيها. تحسَّنَت أحوال الشحاذ بعد ذلك، فأضحىٰ يعيش بين الكتب؛ إذ لم يَلفِت انتباهَه شيءٌ في وادان غير كتبها، فكان يُمضي الساعات الطِّوال يقرأ وينهل من العلومِ بصمتٍ مطبق. أخيرًا، بعد عدة أشهر من هذا السلوك المحفوف بالغموض، نَفِدَ صبرُ الإمام وخاطبَ الشحاذ الذي كان حريصًا علىٰ كتمِ علمه قائلًا: «كُتِبَ أنَّ الذي يحتفظُ لنفسهِ بالعلمِ لن يكون مُرحَّبًا بهِ في الجنَّة. وكُل قارئ إنْ هوَ إلا فصلٌ في حياةِ كتاب، وإذا لم يوصل عِلمه إلىٰ الآخَرين فكأنه حَكَمَ علىٰ الكِتاب بالوأد. أترجو مصيرًا كهذا للكُتب التي خدَمَتك علىٰ أكملِ وجه؟»[1].

* * *

هذا كتابٌ شرَعتُ في تأليفهِ قديمًا، ثم -لظروفٍ قاهرة- لم ألبَثْ أن هجَرتُه وصرفتُ النظر عنه، فحبستُ فكرته سنواتٍ عديدة من غيرِ حكمٍ واضحٍ صادر في حقِّها.

أُهمِلَت الفكرة في زنزانةِ العقل الانفرادية، ولم تُستجوَب ثم تُعلن براءتها، ويُطلق سَراحها سوىٰ في (جناح ٩، غرفة رقم ٢) بمستشفىٰ الحرس الوطني في

(١) المكتبة في الليل ص١٣٢ بتصرُّفٍ غير يسير.

مدينةِ الرياض عندما كنتُ مرافقًا مع والدي رحمه الله تعالىٰ[1].

موضوعُهُ مُحبَّبٌ إلىٰ شُداةِ العلم والمعرفة؛ يأنسون به، ويتوقون إليه، ويألفون الحديث عنه ولا يَملُّون منه، وكيف لا يكون هذا حالهم ما دام عن القراءة والكتب.

كانت مادة المؤلف مكتملةً لديَّ تنتظر الترتيب والإخراج، ولكنِّي ظللتُ -كعادتي- أُسوِّف وأُماطل ملفاتي المتراكمة لا ألتفتُ إليها، وهذا حالي حتىٰ وقفتُ علىٰ كلمةٍ لشاعرِ الألمان يوهان غوته يقول فيها: «إنَّ مَن أراد أن يُنجز أمرًا ينبغي أن يُقيِّد نفسه!»[2]، فعزمتُ أمري وقيَّدتُ نفسي كما قيَّدَ الفرزدق رِجله في شبابهِ، وإن كان ما يتَغيَّاه ابنُ غالبٍ بفعله جليلًا جدًّا[3]، أما أنا فيرحمني الله ويغفر لي.

هذه خطوتي الأولىٰ، أما الثانية: فإني رأيتُ أن ما لديَّ من اقتباساتٍ ومعلومات أحتاج إليها في الكتاب بعضها موسوم وبعضها غُفْل، فاضطُرِرتُ، وألزمتُ نفسي إعادةَ كثيرٍ من الكتبِ لإثبات مصدرِ كل ما أرويه وأنقله؛ احترامًا للقارئ الكريم.

والخطوة الثالثة وهي سبب تأخر إخراج هذا الكِتاب؛ تهذيب المُسوَّدات وتشذيبها، وضبط النصوص وترتيبها؛ حتىٰ بلغ بي الأمر أنني أعدتُ مقالاتٍ بتمامها بعد أن جاوزتُ العشرين صفحةً! ورأيتُني في هذا أُشبِه ما قرأته عن الكاتب

---

(١) بدأَت معاناة والدي مع المرض عندما دخل المستشفىٰ أولَ مرة يوم الاثنين الساعة الحادية عشرة ليلًا ٧/ ٦/ ١٤٤٣هـ، الموافق ١٠/ ١/ ٢٠٢٢، فمكث علىٰ سرير المرض حتىٰ انتقل إلىٰ رحمة الله في الساعة الثالثة عصرًا من يوم الأحد، ثانيَ أيام عيد الأضحىٰ ١١/ ١٢/ ١٤٤٣هـ الموافق ١٠/ ٧/ ٢٠٢٢م. فاللهم اغفر له وارحمه، واجعل ما أصابه تكفيرًا ورِفعةً له. آمين. أرجو من القارئ الكريم ألا يبخل علىٰ والدي بدعوةٍ صادقة.

(٢) عُصارة الأيام، ص٢٨٨.

(٣) في (البداية والنهاية - طبعة التركي)، ج١٣ ص٥٢ روىٰ معاوية بن عبدالكريم عن أبيه أنه دخلَ علىٰ الفرزدق فتحرَّك، فإذا في رِجلهِ قيْدٌ، فقلتُ: ما هذا؟ فقال: حلفتُ ألَّا أنزعه حتىٰ أحفظ القرآن.

النمساوي بيتر هاندكه الذي تحدَّث مرةً عن بشاعةِ طبعه، وأنه قد يكتب أحيانًا أربع مُسَوَّدات تكون ساحةً للمعارك؛ يُصحِّح ويُنقِّح حتىٰ يفقد الإيقاع، يُبدِّل كثيرًا حتىٰ يبدوَ الأمر مرعبًا، يقترب من الكلمات فتلتهمه![1].

ولم تكن هذه المراجعات والتصحيحات، والحذف والإضافات، لولا أنني كنتُ مُكبَّلًا بـ(لعنة الكمال) كما سمَّاها الغربيون. أخذتُ أَنشُد فيما أكتبُ وأنقل (الكمال) المُعطِّل للمشروعات العِلمية والأعمال العظيمة. وكلما فرَغتُ، قلت: لعلِّي أستزيد من القراءة في هذا الباب، وإذا استزدتُ وأضفتُ، قلتُ: لِأُراجعْ هذه الصياغةَ وهذا التركيب، وإذا رضيتُ عمَّا رجعتُ إليه وأعدتُ بناءه، قلتُ: لِأستطردْ هُنا لمزيدٍ من الشرحِ والإيضاح... وهذا دأبي، وقد مضَت عليَّ الشهورُ مهرولًا في مكاني![2].

وبَيْنا أنا كذلك حتىٰ قرأتُ ما كتَبَهُ الشاعر الأمريكي تيد كوزر (١٩٣٩ - ....) الذي لم ينَل حقَّه من الشهرة إلا في ٢٠٠٤ حين عُيِّن من قِبَل مكتبة الكونغرس (شاعر أمريكا المتوَّج)، ثم تعزَّزَت هذه الشهرة في العام التالي حين حصل علىٰ جائزة (بوليتزر) المرموقة عن كتابِهِ (مَسرَّات وظِلال). بيد أن هذه الشهرة لم تُغيِّر نمط حياته، حيث لا يزال يعيش مع زوجتِهِ وكلبه في منزلِهِ الريفي؛ يعتني بحديقته، ويشعر بالامتنان علىٰ كل يوم جديد كما يقول[3].

---

(١) في خندق واحد، ص٨٨.

(٢) وتُعجبني كلمةُ أستاذ البلغاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وهي من رسالةٍ له إلىٰ العماد الأصفهاني فيها استدراكٌ عليه: «إنه قد وقع لي شيءٌ، وما أدري أوقَع لك أم لا، وها أنا أخبرك به: وذلك أني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتابَه في يومِهِ إلا قال في غدِهِ: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ هذا لكان يُستحسَن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل، وهذا مِن أعظمِ العِبرِ، وهو دليل علىٰ استيلاء النقصِ علىٰ جملةِ البشرِ». [راجع مقدمة كتاب (كشف الظنون) آخر التقسيم الخامس].

(٣) ليل ينبتُ تحت الأظافر، ص٨.

نعَم، كِدتُ أنسىٰ شاهدي، أقول: حتىٰ قرأتُ ما قاله في مقدمة الكُتيِّب الذي كتبه عن عائلةِ والدته (أضواء علىٰ أرض الظلام): «هذا كِتابٌ أجَّلتُ كتابته أكثرَ من خمسين عامًا؛ لأنني أردتُ به أن أبلغ الكمال، فلم يكن ذلك، ولن يكون أبدًا».

فكأني انتبهتُ إلىٰ معنًىٰ لا أجهلهُ، وإنما يفرُّ مني لسببٍ ما، ولكني لم أُشفَ من تلك اللعنة تمامًا. وعُدتُ لما كنتُ فيه من العَجْنِ والطحنِ في مُسوَّداتي حتىٰ أصابني الإعياءُ وأنهكني هذا العمل، فكان أن وقَفتُ بأمرِ الله علىٰ قولين في موضعين مختلفينِ كان فيهما شفائي مما أعاني.

أما الأول فهو قولٌ للشيخِ عبدالفتاح أبو غدَّة رحمه الله في مقدمةِ كتابه (الرسول المعلِّم ﷺ وأساليبه في التعليم)؛ فإنه كتبَ بعد أن ذكر موضوع كتابه الطريف والفريد الذي افتتحه منذ أكثرَ من ثلاثين سنة: «وقد مضىٰ علىٰ تأليفِه هذا الوقتُ الطويل، منتظرًا اللمسات الأخيرة لزيادة الكمال، وكم أماتت رغبةُ الكمال إنجازَ كثيرٍ من جليل الأعمال! كما أمات التَّراخي والتسويفُ كثيرًا من فريدِ التأليف!». فخشيتُ أن أُدفَن وأنا في طلبِ ما لا يُدرَك![1].

والقول الآخر للماوَرْدي رحمه الله في (أدب الدُّنيا والدِّين)، يقول: «ومما أُنذِرُك به من حالي: أنني صنَّفتُ في البيوع كتابًا، جمعتُ فيه ما استطعتُ من كتبِ الناس، وأجهدتُ فيه نفسي، وكدَدْتُ فيه خاطري، حتىٰ إذا تهذَّب واستكمل، وكدتُ أُعجب به، وتصوَّرتُ أنني أشدُّ الناس اضْطِلاعًا بعِلمه- حضَرَني وأنا في مجلسي أعرابيَّان، فسألاني عن بيعٍ عقَداه في الباديةِ علىٰ شروطٍ تضمَّنَت أربعَ مسائل، لم أعرف لشيءٍ منها جوابًا، فأطرَقْتُ مُفكِّرًا، وبحالي وحالهما معتبِرًا.

---

(١) لبورخيس كلمة معبِّرة يقول فيها: «لو لم نطبع كُتبَنا لبقينا نُصحِّحُها إلىٰ أن نموت!». [مذكرات قارئ ص٩].

فقالا: ما عندك فيما سألناك جوابٌ وأنت زعيمُ هذه الجماعة؟!

فقلتُ: لا.

فقالًا: إيهًا لك. وانصرَفا.

ثم أتيا مَن قد يتقدَّمه في العلمِ كثيرٌ من أصحابي، فسألاه فأجابهما مُسرعًا بما أقنعَهما، وانصرفا عنه راضِيَين بجوابه، مادِحَينِ لعلمه، فبقيتُ مرتبكًا وبحالهما وحالي مُعتبِرًا، وإنِّي لعَلىٰ ما كنتُ عليه في تلك المسائل إلىٰ وقتي.

فكان ذلك زاجرَ نصيحة، ونذيرَ عِظة، تَذلَّل لهما قِيَادُ النفس، وانخفضَ بهما جَناح العُجْب؛ توفيقًا مُنِحتُه، ورشدًا أُوتيتُه، وحقٌّ علىٰ من ترَك العُجب بما يُحسِن أن يدَع التكلُّف لما لا يُحسن، فقديمًا نُهي الناس عنهما، واستعاذوا بالله منهما.

ومِن أوضحِ ذلك بيانًا: استعاذة الجاحظ في كتابِ (البيان) حيث يقول: (اللهم؛ إنا نعوذ بك من فتنةِ القول؛ كما نعوذ بك من فتنةِ العمَل، ونعوذ بك من التكلُّف لما لا نُحسن؛ كما نعوذ بك من العُجب بما نُحسن، ونعوذ بك من شرِّ السلاطة والهذر؛ كما نعوذ بك من شرِّ العِيِّ والحَصَر)»[1].

فعلمتُ أنني مهما اجتهدتُ وطلبتُ وبلَغتُ = مُقصِّرٌ وناقص، فنفَضتُ عني ما عَلِق بي من بقايا تلك اللعنة، التي كان من أمرها معي ما أخبرتُكم به ورَويتُه لكم.

* * *

والآن؛ لا بد أن أُنبِّه قارئَ هذا المؤلف إلىٰ أمرين مهمَّين.

الأول: أنك أيها الكريم واقفٌ فيه علىٰ كثيرٍ من الاستطرادات والهوامش، ولم يكن هذا -عَلِم الله- رغبةً بارِدة في تسويدِ الصفحات وتضخيم الكتاب، بل شعور مُلحٌّ بالإفادة دُفِعتُ إليه دفعًا في مواضعَ عديدة. وسترىٰ بنفسك أنَّ كل إضافة

---

(١) أدبُ الدُّنيا والدِّين، ص١٢٧.

هامشيَّةٍ ليست من صميمِ الموضوع أو استطرادٍ جنَح بك بعيدًا عن عُنوان المقال؛ لا بد أن يكون مقرونًا بفائدةٍ فريدة، أو نكتةٍ مفيدة، أو توسُّع ضروري دَعَت إليه الحاجة.

وهذا لا يعني أنني أُنكر اتِّصافي بما سمَّاه الطنطاوي[1] -رحمه الله- مرةً (بالعيب)، ومرةً أخرىٰ (بالعلَّة)، وثالثة (بالداء)، وهو الاستطراد كما تعلم؛ فإنه لَصيقٌ بي لا أستطيع الفَكَاكَ عنه والهروبَ منه، وإن بذَلتُ من الجُهدِ ما بذَلت.

أما الأمر الثاني: فسترىٰ عددًا لا بأس بهِ من المراجع والمصادر التي أشرتُ إليها في إثباتي لكل ما أنقل وأُفيد، وهذا لا يعني أني أُزكِّيها أو أنصح بقراءتها، وإنما هي أمانةٌ عِلمية قادتني إلىٰ الحِرص التام علىٰ توثيقِ كل ما أُتحفُك به. بل إن بعض الكتب التي أثْبَتُّ عُنواناتها في الهامشِ كنت قد استخرجتُ منها ما أريد بمنقاشٍ صغيرٍ جدًّا، وتكاد تخلو من فائدةٍ غير ما أنت واقفٌ عليه في المتن.

ولا يَعزُب عن عقلك أيضًا أن كلَّ مصدرٍ يُحيل أو يشير الكاتبُ إليه يكشف جزءًا مهمًّا من سيرته الذاتية، ألم يقل الكاتب الفرنسي فاليري لاربو يومًا: «الجزء الأساسي من السيرةِ الذاتية لأيِّ كاتبٍ يقوم علىٰ قائمةِ الكتب التي قرأها»[2] ولعلَّ الناقد والكاتب المغربي عبدالفتاح كيليطو كان مؤمنًا بهذا القول؛ حيث يقول في أحد حواراته: «يُمكن أن أقول إن سيرتي الذاتية هي سيرةُ قراءاتي»[3].

* * *

---

(١) أكثر الطنطاوي -رحمه الله- في كتبهِ من الإلماع إلىٰ الاستطراد، وكان يطلب من قُرَّائهِ دائمًا أن يحتملوه منه. راجِع الذكريات فقط: ج١ ص١٩ ، ج٢ ص٤٦، ج٥ ص١٦٧، ج٧ ص٥٠، وص١٢٦، ج٨ ص٣٧٧!.

(٢) قصر الكُتب، ص١٥٤.

(٣) مسار، ص١٤٠.

بعد نشْرِ كتاب (أمراؤنا الشعراء) لعبدالله كنون، تناوَله الأستاذ عبدالرحمن الفاسي بالنقدِ، فردَّ بعد ذلك كنون علىٰ نقدِ الفاسي، فكان مما كتَبه في مقدمةِ ردِّه -بعد شُكر الناقد علىٰ اهتمامهِ بكتابه- قولُه: «فإن الكتاب الذي يُقتنىٰ ويُقرأ من أوله إلىٰ آخِره يُعد ناجحًا حقًّا، ثم إذا بعَث قارئَه علىٰ التفكيرِ في شأنه والكتابةِ حوله فإن نجاحه يكون عظيمًا. ونعوذ بالله من كتابٍ لا يُقتنىٰ، فإذا اقتُنِي لم يُقرأ، فإذا قُرِئ لم يُقرأ كلُّه، فإذا قُرِئ كلُّه لم يَبعث في نفسِ قارئه شعورًا لا بالاستحسان ولا بالاستهجان، ولا يَلبث بعدَما يُلقيه من يدهِ أن ينساه ولا يعود يخطر له ببال. هذا النوع من الكتبِ محكومٌ عليه بالإعدامِ من يومِ ظهوره؛ علىٰ حدِّ ما قال الشاعرُ فيما هو من هذا الواد:

يموتُ رَديءُ الشِّعر من قَبلِ أهلِهِ   وجيِّدُه يبقىٰ وإن ماتَ قائلُهْ!»[1].

وإنِّي لَأرجو أن يُحدِثَ هذا الذي بين يدَيك بعضَ النجاح الذي عنَاه كنون -رحمه الله-، وأستعيذ بالله مما استعاذ منه؛ فإن الحرَكة التي يبعثُها كتابٌ ما في الأجواء الثقافية المُحيطة به، تكون خيرَ دافعٍ إلىٰ مزيدٍ من العطاء، أما إذا عمَّ الصمتُ وسادَ السكون بعده نشرِه؛ فهذا هو الذي يَدفن الكُتَّاب وهم أحياء.

ولا أشك بأنَّ كثيرًا من المؤلفين إذا نشرَ الواحد منهم كتابًا له = فعل كما يفعل المازني -رحمه الله- عندما جهرَ بما تنطوي عليه نفسُ غيره قائلًا: «وأعترفُ أن

---

(١) واحة الفِكر، ص١٠٠-١٠١. والبيت الذي ذكَره كنون لدعبل الخزاعي، من أبياتٍ له تُعجبني وأردِّدها كثيرًا، يقول فيها (في ديوانه ص١٨٠-١٨١ جمع وتحقيق: الدجيلي ١٩٦٢):

نعَوْني ولمَّا يَنْعَني غيرُ شامتٍ   وغيرُ عدوٍّ قد أُصيبَت مَقاتِلُهْ
يقولون: إنْ ذاق الرَّدَىٰ مات شِعرُهُ   وهَيْهاتَ، عُمْرُ الشعر طالت طَوائلُهْ
سأَقْضي ببيتٍ يَحمدُ الناسُ أمْرَهُ   ويَكثُر مِن أهلِ الرِّواية حامِلُهْ
يموتُ رَدِيُّ الشِّعرِ من قَبْلِ أهلِهِ   وجَيِّدُهُ يَبْقىٰ وإنْ ماتَ قائلُهْ

أول كتابٍ لي أخرجتُه -وكان ديوانَ شعر سامحني الله وعفا عني- أفرَحَني، فكنتُ لا أنفكُّ أتناوله وأتأمَّلُ غلافه وورقه، وأقلِّب صفحاته وأقرأ فيه وأنا جذلٌ مزهوٌّ، وأستقصي أن أسمع مدحه والثناءَ عليه، فإذا فاتني ذلك اشتهيتُ أن أسمع ولو قدحًا؛ فإن كل ذِكرٍ ولو بالسُّوء خيرٌ من الإهمال كأنه لم يكن!»[1]

ومن الطبيعيِّ جدًّا أن يرجوَ كُلُّ كاتبٍ لإصداره أن يحقِّق نجاحًا باهرًا يُفرحه ويُسلِّيه عما ناله من الإرهاقِ في جمعِهِ وكتابته، ويدفعُه إلىٰ تقديمِ أضعافِ ما قدَّمه من العطاء المعرفي، ولكنْ أخشىٰ أن يكون حالي شبيهًا بحالِ كافكا الذي قال بأنه لمَّا نشر كتابه الأول (تأملات)، تحدَّث مع السيد أندريه (صاحب أكبر شركة بيعِ كتب في براغ) وأخبره بأنه باع إحدىٰ عشْرةَ نسخةً فقط من كتابه؛ يقول كافكا: «أنا اشتريتُ بنفسي عشْرَ نُسخ، كم أتلهَّف لمعرفةِ مَن ذلك الذي اشترىٰ النسخةَ الحادية عشرة!»[2].

ولكني علىٰ أية حال مهما كان مصيرُ مؤلَّفي هذا فلن أفعل كما فعل الكاتبُ الأرجنتيني (ريكاردو جيرالديس ١٨٨٦-١٩٢٧)، الذي أخبرنا بورخيس عنه بأنه عندما نشرَ كتابه الذي يحمل عنوان El Concerro de Cristal، لم يبع منه سوىٰ نسخٍ قليلة جدًّا. فما كان منه إلا أن رمىٰ بالنسخ التي لم تُبَع، وهو في ذروةِ يأسه، في بُحيرةٍ صغيرة كانت تقع وسَط أملاكه! يُعلِّق بورخيس: «لقد كانت فكرة التخلُّص من الكتبِ بإلقائها في قعرِ البحيرة، فكرةً في غايةِ البشاعة»[3].

* * *

(١) العمر الذاهب، ص٢٥٨.

(٢) كافكا قال لي (أحاديث وذكريات)، ص٦.

(٣) محاورات بيونس آيرس، ص١٠١.

وهنا وقفة؛ قد يتساءل القارئ عن التناقض الظاهر في عُنوان الكتاب؛ لذلك لا بد من القول إجابةً عن التساؤل المحتمل: إنه مأخوذٌ من وصفِ ذاك الذي قال عنه مارون عبود في (آخر حجَر) بأنه «أولُ من حضَّ الناس علىٰ مؤاخاةِ الكتب، وانبرىٰ للدِّفاع عن الكتابِ منذ ألفٍ ومائتي سنة، ذاك هو الجاحظ الذي اجتمعَ في شخصهِ الضِّدان: الحلاوة والبشاعة». العنوان مأخوذٌ من وصفهِ الشهير للكتاب: «ومَن لك بواعظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغْرٍ، وبناسكٍ فاتِك، وبناطقٍ أخرَس، وببارِدٍ حار...»[1] فهو ناطقٌ مجازًا؛ إذ إنه يُفصِحُ عما يحمل بين دَفَّتَيه من أفكار، وأخْرَس؛ لأنه معدودٌ في جملةِ الجمادات التي لا تنطق. وهكذا اجتمع في الكِتاب الضِّدان: النُّطق والخَرَس، كما اجتمعَ في أبي عثمان القبحُ والجمال!

* * *

ومما يجب إثباته في هذا الموضع شكرٌ خاص لأستاذي وأخي د. عبدالرحمن بن حسن قائد؛ فقد كان لتصويباتهِ وتوجيهاته ونصائحه وتشجيعه = أثرٌ كبير ومُثمر؛ فله اليدُ الطُّولَىٰ في ظهور الكتاب بهذا الشكل الذي تراه. رضي الله عنه وأجزل مثوبته.

* * *

لعلِّي أختم هذه المقدمة التي أكْثَرتُ عليك فيها وتشعَّبَت موضوعاتها بما قاله عبدالعزيز الخانجي في آخِر مقدمتهِ لكتاب (بدائع الخيال): «لقد أطلتُ عليك الحديثَ وخرَجتُ بك عن موضوع المقدمة، دون أن أُحدِّثك عن محتوياتِ الكتاب ومزاياه كما هي العادة في المقدماتِ، ولكنْ ما لي والتعرُّضَ لهذا الأمر! فالكتابُ بين يديك -وقد نقَدتَ ثمنه بلا ريب- فاقرَأه وانقُدْه ووازِنْ بين ما دفعتَهُ من ثمنٍ

---

(1) الحيوان، ج١، ص٣٩.

وبين ما استفَدتَه من مُطالعته، فإذا وجدتَ نفسك رابحًا فاطلب من المولىٰ أن يُعينني علىٰ السيرِ في هذا السبيل. أما إن كنتَ تجده تافهًا لا يستحقُّ ما بذلتُهُ أنا من وقتٍ في تأليفهِ، وما صرَفتَهُ أنتَ من وقتٍ في القراءة، فعامِلْني إذ ذاك بجميلِ صُنعك، واعلَمْ أنَّ لي من حسنِ النية خيرَ شفيع، والسلام!».

إكسيرُ الخلود

«أعظم متعة في الحياة هي متعة القراءة»[1].

(١) القول للناقد هازلت، علي أدهم (مقالات متنوِّعة)، ص٧٤ - إعداد: نبيل فرج. وأذكر قول الطنطاوي -رحمه الله- في (فصول في الثقافة والأدب)، ص١٧٩: «ولقد جرَّبتُ اللذائذ كُلها، فما وجدتُ أمتعَ من الخلوةِ بكتاب».

ما زِلتُ مذ ألِفتُ القراءة، ووعَيتُ عظيمَ مقامها؛ أسجُدُ لله شكرًا إذ هيَّأ لي أسبابَ محبَّتها وإدراكَ نعمتها. ولا أُبالغ أبدًا عندما أقول -ولعلي قُلت هذا في مكانٍ ما-: إنَّ أعظم نعمةٍ وَهَبني إيَّاها الوهَّابُ الكريم بعد الإسلام هي نعمة القراءة. بها تَبَدَّىٰ جَهلي، ونَمَتْ معرفتي، وتخلَّصتُ نفسي مما لحقها من أوضارِ العالم الخارجي.

إذا أحبَّ ابنُ آدم القراءة جرَت منه مَجْرىٰ الدَّم، وغدَت أُنسَه وأنيسَه؛ فتجده مُسرِفًا في الحديثِ عنها، والتذكيرِ بأهميَّتها، ويتوق دائمًا إلىٰ الاحتكاكِ بأهلها ومعرفةِ كل مشاركٍ له بعشقها، بل تراه في أغلبِ أوقاته يتَلفَّت ويتلقَّف ما حوله رغبةً في ممارستها. ألا ترىٰ كيفَ أنَّ ثرفانتس صاحِبَ الرواية الخالِدة (دون كيخوتي)(1) كان يُطالع من فرطِ حُبِّهِ للقراءة، حتىٰ قُصاصات الورق المرميَّة علىٰ قارعةِ الطريق!(2).

أوَلا ترىٰ أنَّ كاتِب هذه السطور -ولعلَّ مِثله الآلاف- كان يتناول الجرائد والمجلات والكُتيِّبات الصغيرة في صالوناتِ الحلاقة -قبل فايروس كورونا طبعًا- ليقرأَها ويُقلِّبَها وإن كانت مكتوبةً باللغةِ الأُردية!

كنتُ قديمًا ألومُ بعض عُشَّاقِ القراءة علىٰ مُبالغاتهم -أو ما كنتُ أحسبها كذلك- بوصِفها ومدحِها والتغزُّلِ بها حتىٰ ذُقتُ ما ذاقوا. ويَدْهمُني الآن قول

---

(١) لِنرسُم الأسماءَ حسب النُّطق الإسباني لا الفرنسي الشائع، فنكتب ثرفانتس بدلاً من سرفانتس، ودون كيخوتي بدلًا من دون كيشوت. [هامش: أعمال كيليطو، ج١، ص٩٣ - ترحيل ابن رشد - دار توبقال].

(٢) تاريخ القراءة لمانغويل، ص١٩، وكان العقاد -كما أخبرَنا الهدلق نقلاً عن أحد أساتذته في كتابه (ميراث الصمت والملكوت)، ص١٧٥- في طفولتِهِ يقرأ أوراق الجرائد التي تُلَفُّ بها السندوتشات!

«أقوىٰ شعراء العربية نبضاتِ قلب، وأعمقُهم حِكمةً، وأصدقُهم إفصاحًا عن خفايا النفسِ وأعرَفُهم بأسرارها، وأبعدهم شهرةً وأخلدهم أثرًا»[١]:

وعَذَلتُ أهلَ العِشقِ حتىٰ ذُقْتُهُ!

فهِمتُ الآن وشعرتُ بدقةٍ وصف سومرست موم عندما شبَّه القارئَ الذي يُحرَم من ممارسة القراءة بالمُدمِن[٢] الذي يُحرم من جَرْعتِه! يكتب في (عُصارة الأيام): «إنَّ القراءة عندي راحةٌ كالحديث، أو لعب الورق عند الآخَرين، بل إنها أكثرُ من ذلك؛ إنها ضرورة[٣] لو حُرِمتُ منها لحظةً لثارت نفسي كما تثور نفسُ مُدمنٍ حُرِم من جرعته، وخيرٌ عندي أن أقرأ جدولًا زمنيًّا من ألَّا أقرأ شيئًا علىٰ الإطلاق».

وقد كتبَ قبل ذلك مُخبِرًا عن نفسهِ وعشقه للقراءة وحالة الفضول التي اجتاحَتْه في سِنِّ الثامنةَ عشْرة: «وأخذتُ أقرأ كل ما يقع تحت يدي، لقد بلغ بي الفضولُ درجةً رغبتُ معها أن أقرأ تاريخ البيرو، أو مذكِّرات راعي بقر، كما رغبتُ أن أقرأ بحثًا عن الشِّعر البروفنسالي»[٤].

* * *

(١) هو المتنبِّي بلا شك! علىٰ هامش الأدب والنقد، ص٧٨ - علي أدهم - دار المعارف.

(٢) ولفظة الإدمان هذه معبِّرة عن حال عُشَّاق القراءة، نقرأ في أول مقالٍ للإبراهيمي: «أنا مُدمن قراءة من عهد الصِّغر..» [آثاره ٤/ ٣٧٢]. وفي (رجال من التاريخ) للطنطاوي، ص١٤ يقول: «أنا مدمن القراءة، يومي كلَّه إلا ساعات العمل، أُمضيه في المطالعة ومُحادثة الكُتب، من يومِ أتقنتُ القراءة، قبل سبعين سنة، وأنا أقرأ». وفي (تربية سلامة موسىٰ)، ص١٥٩ أشار إلىٰ إدمانه القراءة. وفي مذكرات نجيب الكيلاني، ص٢٧: «كانت متعتي الكبرىٰ في القراءة، ويُخيَّل إليَّ أنني لم أكن لأشبعَ منها أبدًا، لقد أصبحَت نوعًا من الإدمان إنْ صحَّ التعبير».

(٣) ولنذكُر قول مانغويل الشهير -وإن كان فيه مبالغةٌ كبيرة-: «القراءة ضروريةٌ للحياة كالتنفُّس». وفي كتاب (جنتلمان المكتبات)، ص١٦: «يهتمُّ مانغويل بالقراءة لا بوصفها ترَفًا، بل نشاطًا إنسانيًّا ضروريًّا».

(٤) عصارة الأيام، ص٩٧-٩٨.

العاشِق لا تطمئنُّ نفسه ولا يَطيب فؤاده إلا بلِقاءِ معشوقه، فتراه يتحيَّن الفُرَصَ ويلجأ إلىٰ الحِيَلِ للظفَرِ ولو بلحظةٍ عابرةٍ للنظرِ إليه والاجتماع به. إذا استشعرتَ هذا فلا يأخذ بلُبِّكَ العَجبُ إذا علِمتَ أنَّ الأديب الكبير مصطفىٰ صادق الرافعي رحمه الله كان إذا زاره زائرٌ في مكتبهِ جلسَ قليلًا يُجيبه، ثم لا يلبث أن يتناول كتابًا مما بين يدَيه ويقول لمُحدِّثهِ: تعالَ نقرأ... وتعال نقرأ هذه -كما يقول العريان- معناها أن يقرأ الرافعي ويستمع الضيف، فلا يكفُّ عن القراءةِ حتىٰ يرىٰ في عينَيْ مُحدِّثه معنًىٰ ليس منه أن يستمرَّ في القراءة[1].

ونحنُ إذا قفزَنْا إلىٰ الوراء وعبَرْنا القرونَ السالِفة، وقَفْنا علىٰ خبرٍ قريبٍ عجيبٍ يُروىٰ عن العالِمِ النَّحْوي الكوفي أحمد بن يحيىٰ المشهور بثعلب، وأنه كان لا يُفارقهُ كتابٌ يَدرُسُه، فإذا دعاه رجلٌ إلىٰ دعوةٍ، شرَطَ عليه أن يُوسع له مقدارَ مِسْورَة -وهي المتَّكَأ من الجلد- يضعُ عليه كتابًا ويقرأ![2].

والقارئ الحقيقي لا يُبالي بالمكانِ والزمان عندما يكون بصحبةِ كتابه؛ يقرأ ويُطالع ويتصفَّح في كلِّ وقتٍ وفي أي موضع. كتَبَ المازني مرةً: «وليس لي طريقةٌ خاصة، أو وقت خاص للقراءة؛ فكل وقتٍ صالحٌ لذلك، وكل مكان أستطيع فيه القراءة ولو كان حمَّامًا بغير ماء!»[3] نعم؛ قد يُفضِّل الوقتَ المناسِب للاختلاء بكتابه، والمكان الهادئ للاستمتاع به، ولكن إذا تعسَّر ذلك -وهو كذلك لدىٰ أغلبِ أبناء الطبقة الكادحة في عصرنا، عصر المادة، الذين لا تمسح العرَق من جبينِ واحدهم سوىٰ وسادتِه ساعةَ نومه-، أقول: إذا لم يتيسَّر الوقتُ والمكان المناسبان،

---

(١) حياة الرافعي، ص٣٣.

(٢) قيمة الزمن عند العلماء، ص٧٦. وسبب وفاة هذا العالم -بعد تقدير الله- أنهُ كان يمشي وفي يده كتابٌ ينظر فيه، وقد شغَله عما سواه، فصدَمَته دابة فسقَط علىٰ رأسه. حُمِل بعد ذلك إلىٰ منزلهِ وهو كالمختلِط يتأوَّه من رأسه، فتُوفيَ بسبب ذلك الحادث رحمه الله.

(٣) العمر الذاهب، ص١٦٩.

فإنه لا يُمانع أن يقرأ واقفًا أو ماشيًا، في الحافلةِ أو الشارع، في الحَرِّ أو القرِّ. والشيء بالشيء يُذكر؛ ذهبتُ في أحد أيام نجمِ الجوزاء[1] لتغيير زيتِ السيارة، وبَيْنا كان العامل المُجتهِد مُنهمكًا بأداءِ واجبه جادًّا في كسبِ رِزقه، قلتُ في نفسي لعلِّي أستغل الوقت وآخُذ كتابي فأقرأ منه ما تيسَّر. جلستُ مقابل حُفرة الزيت علىٰ مقعدٍ كأنَّ الحرب العالمية الثانية قد نهشَت أطرافَه. وكان يقفُ بعيدًا مني رجلٌ في عَقدهِ الخامس -تقريبًا- أتىٰ لتغيير زيت سيارته أيضًا، أزعجَني بنظراتِهِ التعجُّبيَّةِ التي كان يرمقني بها بين فَينةٍ وأخرىٰ حتىٰ خِلتُني كائنًا فضائيًّا له شارب هتلر يرتكب محظورًا في كوكبِ البشر! المهم، لقد انتفعتُ بذلك الوقت ولم يقطَعْني عن قراءتي سوىٰ قولِ العامل: «غيِّر فلتر؟». فكانت حواراتٌ بيني وبينه غيرُ صالحةٍ للروايةِ والنشر.

الشاهد أنني لم أكن أشعر في تلك اللحظة أن المكان غيرُ مناسب للاطِّلاع والقراءة. وهنا أذكر هنري ميللر الذي قرأ المجلداتِ الضخمةَ والصعبة وهو محشورٌ بين ركَّابِ الحافلات! فقد أخبرنا قائلًا: «علىٰ مدىٰ أربع سنوات، في طريقي جَيئةً وذَهابًا من مكاتبِ شركة بورتلاند الأبدية للإسمنت... قرأتُ أثقل الكتب. قرأتُ وأنا واقف، محشورًا من الجوانبِ كلِّها بين رُكَّاب حافلاتٍ متشبِّثين مِثلي. ولم أكن فقط أقرأ خلال تلك الرحلات علىٰ متن الحافلاتِ المرفوعة، بل كنتُ أحفظ غيبًا فقراتٍ طويلةً من تلك المجلدات الصُّلبة جدًّا جدًّا. وإذا لم يكن لهذا إلا فائدةٌ واحدة؛ فقد كانت تدريبًا قيِّمًا علىٰ فنِّ التركيز»[2].

---

(١) تظهر الجوزاء في ٣ يوليو وأيامها ٢٦ يومًا، وفيها يشتدُّ الحر ويَلفح وجهَك لهيبُ السَّمُوم، وقد قال النابغة قديمًا:

ويوم من الجوزاءِ مُسْتوقِدَ الحَصىٰ   تكادُ عِضاهُ البِيدِ منهُ تحرَّقُ

[شرح قصيدة محمد العبدالله القاضي في الأنواء والنجوم، ص٥٠ - خالد العجاجي]

(٢) الكتب في حياتي، ص٣٧٤.

وهذا ما كان يفعلهُ أيضًا جبرا إبراهيم، الذي كان كلما ركب الحافلة من شقتهِ إلىٰ الكليَّة، أو إلىٰ لقائهِ بلميعة، كان يحرص علىٰ وجودِ كتابٍ في جيبهِ يقرأ فيه أثناء حرَكة الحافلة البطيئة طوال شارع الرشيد، أو شارع الإمام الأعظم ذَهابًا وإيابا.

فيقول: «وعديدةٌ هي الكتبُ التي قرأتُها في تلك الجَيْئات والرَّوحات، وبعضها يحتاج إلىٰ تركيزٍ وتمعُّن ولا يُيسرهما صعودُ الركاب ونزولهم، حين يتوقف كلَّ مائتي مترٍ أوأقل!»[1].

وقبل ما يَزيد عن اثني عشَر قرنًا كان الفتح بن خاقانَ يحمِلُ دائمًا كتابه في خُفِّهِ، فإذا قامَ من بين يدَي المتوكل ليقضيَ حاجته أو ليُصلِّيَ؛ أخرجه لينظر فيه وهو يمشي حتىٰ يبلغ الموضعَ الذي يُريد، ثم يصنع مثلَ ذلك في رجوعهِ إلىٰ أن يأخذ مجلسه[2].

والصادق الرافعي أيضًا، كان لا يُرىٰ في المقهىٰ أو القطار أو الديوان إلا وفي يده كتابٌ؛ يقول العريان عنه: «وكان في أول عهدهِ بالوظيفة كاتبًا بمحكمةِ طلخا، فكان يُسافر من طنطا كلَّ يوم ويعود، فيأخذ معه في الذَّهابِ والإياب مَلازِمَ من كتاب، أيَّ كتاب، ليقرأَها في الطريق. وفي القطارِ بين طنطا وطلخا وبالعكس، استظهَر كتاب نهج البلاغة في خُطبِ الإمام علي، وكان لم يبلغ العشرين بعد!»[3] رحمه الله، لمَّا أقعَده الصَّمَم عن مُحادثةِ البشر في عالمهِ الخارجي، أدمن مُحادثتهم في الكتبِ، فكان يقرأ كلَّ يوم ثمانيَ ساعات متوالية، ولا ينهض عن كرسيِّه حتىٰ يوجِعَه قلبُه![4].

---

(١) شارع الأميرات (فصول من سيرة ذاتية)، ص١٩٩.

(٢) تقييد العلم، ص١٨٠.

(٣) حياة الرافعي، ص٣٣.

(٤) حياة الرافعي، ص٢١٦.

وأخبرَنا علي عبد الرازق عن أخيه الفيلسوف الأزهري مصطفىٰ عبد الرازق بأنه كان رحمه الله يحبُّ القراءة حبًّا يكاد يطغىٰ علىٰ كل هواياته؛ «فهو لا يفتأ يقرأ في جميعِ حالاته. وقد كنتُ أعجَبُ له إذ أراه يقرأ وهو فرِحٌ أو حزين، غاضبٌ أو راضٍ، مريضٌ أو سليم، كلما تيسَّرَت له القراءة. وهو الذي علَّمَنا أن نقرأ ونحن نقطع الطريقَ مُشاةً بين بيتنا والجامع الأزهر في مطلعِ كلِّ صباح قرابةَ ساعة، وفي مساءِ كل يوم كذلك»[1].

ومما ذكره أُمبرتو إيكو عن شأن القراءة في حياةِ والده قوله: «أبي كان قارئًا شرهًا في شبابِه. ولمَّا كان لدىٰ جدي ثلاثة عشر ابنًا، فقد كانت الأسرة تكافح لتلبيةِ احتياجاتها، وما كان جدي ليقدر علىٰ شراء الكتب. فكان يذهب -أي والده- إلىٰ كشك الكتب ويقف يقرأ في الشارع. وإذا أدرك انزعاج المالك من رؤيته واقفًا بجوار كشكه، كان أبي يترك هذا الكشك إلىٰ التالي، ليقرأ ثمة جزءًا ثانيًا من الكتاب، وهكذا. تلك صورة أدَّخرها مثل كنز. ذلك السَّعي العنيد إلىٰ الكتب»[2].

أما الأديب الكبير والكاتب الساخر إبراهيم عبد القادر المازني فأحوالُه وأطواره مع القراءة أطولُ وأعقدُ من أن يَبسُطَها قلمي في هذهِ المساحة، وقد كفَانا مؤنةَ هذهِ المشقة الأديبُ المُحقِّق والأريب المدقق د. عبد الرحمن قائد في مقدمتهِ الباذخة لكتابهِ (العمر الذاهب - رحلة المازني المعرفية من القراءة إلىٰ الكتابة).

والمهم ها هُنا أنَّ المازني كان من عادتهِ -كما يذكر عن نفسهِ- ألَّا يبرَح بيته إلا وفي يده كتاب، ويقول: «كنتُ لا أكاد أستقرُّ في التِّرام حتىٰ أفتح الكتاب وأُقبِل عليه، وأنصرفَ عن الدنيا التي حولي حين أخرج للرياضة. كنتُ أتخيَّر الطرقَ المهجورة، فأميل إليها؛ ليتسنَّىٰ لي أن أقرأ في كتابي وأنا آمِنٌ»[3].

---

(١) أساتذتي، ص١٧٤.

(٢) بيت حافل بالمجانين ص٣٣٢.

(٣) العمر الذاهب، ص١٠٩.

وفي موضعٍ آخَر: «وكنتُ لا أتخطَّىٰ عتبة البيت إلا متأبطًا كتابًا، ولا تمضي عليَّ ليلةٌ إلا طالعتُ في بعضِها قليلًا أو كثيرًا... وكانت الكتبُ أنيسي في وحدتي، وسَميري في خُلوتي، وكنتُ أستغني بها عن مُتَع الحياة ولذَّات العيش...»[1].

وأنتَ حتىٰ تفهمَ قوله: «كنتُ، وكانت» راجع مقدمة الدكتور المشارَ إليها آنفًا.

وعلىٰ ذِكر تأبُّطِ الكُتب، لما تحدَّث العقاد عن صديقهِ المترجم محمد السباعي في تقديمه لكتاب (قصص روسيَّة)، قال: «ومما أستَبْقيه من ذِكريات ذلك العهد النَّضِر أنني زرتُ حلوان -وكان يسكنها يومئذٍ- فسألتُ عنه، فلم يعرفه أحدٌ إلا حين وصفتُه لبعض الباعة بأنه الرجل الذي يتأبَّط الكتبَ حيث سار، فقال: نعم، نعم، عرَفته! وصحِبَني إلىٰ منزله...»[2].

وعـودًا إلىٰ المازني، من طريفِ ما ذكَره عن نفسهِ وإدمانه القراءةَ، قولُه: «وتزوَّجتُ، وفي صباح ليلة الجلْوَة دخلتُ مكتبتي وردَدتُ الباب، وأدَرتُ عيني في رفوفِ الكتب، فراقَني منها ديوان (شيلِّي)، فتناولتُه وانحطَطْتُ علىٰ كرسيٍّ وشرَعتُ أقرأ، ونسيتُ الزوجة التي ما مضىٰ عليها في بيتي إلا سوادُ ليلة واحدة! وكانوا يبحثون عني في حيثُ يظنون أن يجدوني؛ في الحمَّام وفي غرفة الاستقبال وفي المَنْظرة[3]، حتىٰ تحت السرير بحَثوا، ولم يخطر لهم قطُّ أني في المكتبة؛ لأني عريسٌ[4] جديد لا يُعقَل في رأيهم أن يهجر عروسه هذا الهجرَ القبيح الفاضح.

وكانت أمي في (الكِرار)[5] أو المخزن تُعِدُّ ما لا أدري لهذا الصباح السعيد،

---

(١) العمر الذاهب، ص١٩٧-١٩٨.

(٢) مقدمات العقاد، ص١٣٠.

(٣) مكانٌ من البيت يُعد لاستقبال الزائرين. (هامش العمر الذاهب).

(٤) فائدة: من لحن القول، ص١٠٣: العروس لفظ يستوي فيه الرجل والمرأة، أما العريس بالياء فلم يُنقل عن العرب.

(٥) غرفة تُخزَّن فيها حوائج البيت من المواد الغذائية. (هامش العمر الذاهب).

فأنبَأوها أني اختفيتُ كأنما انشقَّت الأرض فابتلعتني، وأنهم بحثوا ونقَّبوا في كل مكان فلم يعثروا لي علىٰ أثر، فما العمل؟

فضحِكَت أمي، وقالت: ليس في كلِّ مكان! اذهبوا إلىٰ المكتبةِ فإنه لا شكَّ فيها. فقالت حماتي وضرَبت علىٰ صدرها بكفِّها: في المكتبة؟! يا نهار أسود! هل هذا وقتُ كتب وكلام فارغ؟!

فقالت أمي بجزَع: اسمعي، كلُّ ساعة من ساعات الليل والنهار وقتُ كتب. افهمي هذا وأريحي نفسك؛ فإنَّ كلَّ محاولةٍ لصرفهِ عن الكتب عبَث.

فقالت حماتي: لو كنتُ أعرف هذا! مسكينةٌ يا بنتي، وقَعتِ وكان ما كان.

فقالت أمي: هل تكون مسكينةً إذا وطَّدَت نفسها علىٰ هذه المعرفة؟ ويَحْسُن أن تكبحي لسانَكِ، وأن تدَعي الأمر لبنتِك؛ فإنه من شأنها. فلم تكبَحْ لسانها، بل قالت: لو كانت ضرَّةً لكان أهون!»[1].

وخبرُ المازني هذا ذكَّرني بما رُويَ عن العلَّامةِ عبد الله بن عمر بن يحيىٰ باعلوي المتوفَّىٰ بحضرموت سنة ١٢٦٥هـ، وقد زُفَّت إليه زوجتُه، فلمَّا دخل غرفة الزفاف وجدَ عندها بعض الماشطات، فتناول كتاب (الإرشاد) للشيخ إسماعيل بن المقري اليمني الشافعي، فانشغَلَ به، وخرَجَت الماشطات ولكن الشيخ لم ينتبه لخروجهنَّ لانشغالهِ التام بالمطالعةِ والقراءة، فاستمرَّ علىٰ هذه الحال عدة ساعات والزوجةُ مُسندة، ولم يلتفت إليها حتىٰ أذَّن الفجر![2].

وفي ترجمةِ ابن رجب الحنبلي ت٧٩٥هـ رحمه الله: «وكان لا يعرِفُ شيئًا من أمور الدنيا، فارغًا من الرياسة، ليس لهُ شُغل إلا الاشتغالَ بالعلمِ. حدَّثنا شيخنا شهاب الدِّين بن زيد: أن زوجته مرَّةً دخلت الحمَّامَ، وتزيَّنَت، ثم جاءتهُ فلم يلتفت

(١) العمر الذاهب، ص٦٥-٦٦.

(٢) قيمة الزمن عند العلماء، ص١٤٧.

إليها، فقالت -غاضبة-: ما يريد الواحدُ منكم إلا مَن يتركُهُ مثل الكلب! وقامت وتَرَكَته»(١).

وأنتَ أيها القارئ الكريم لا تعجب لهذه الأخبار، أو يُداخِلْ نفسَك شكٌّ حول صِدقها؛ فإنَّ علاقة طالبِ المعرفةِ بالقراءة أكبرُ من كلِّ مبالغةٍ قرأتَها، وأعظمُ من كلِّ خبرٍ عجيبٍ وقفتَ عليه.

بل وإليكَ ما سأَزِيدك وأُزوِّدكَ به؛ مُدمِن القراءة لم يَعد يراها فقط وسيلةً للمتعةِ أو التسلُّح المعرفي، بل أصبحَت في نظرهِ تِرياقًا ناجعًا يقضي علىٰ الهمِّ والضيق، ويُساعد في تحقيقِ سلامة النفس والجسد. كتبَ الشاعر النمساوي ريلكه في إحدىٰ رسائله: «أنا لا أُفكِّر في العمل، بل فقط في استعادةِ صحتي بواسطة القراءة»(٢).

ورحِم الله شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميَّة الذي حدَّث تلميذه ابن قيِّم الجوزية يومًا فقال: «ابتدأ بي مرضٌ، فقال لي الطبيب: إن مُطالعتك وكلامَك في العلمِ يَزيد المرض. فقلتُ له: لا أصبر عن ذلك، وأنا أُحاكمك إلىٰ عِلمك؛ أليسَت النفسُ إذا فرِحَت وسُرَّت قويَت الطبيعة، فدفَعَت المرض؟ فقال: بلىٰ! فقلتُ له: فإنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلمِ، فتَقْوىٰ به الطبيعةُ فأجدُ راحةً. فقال: هذا خارج عِلاجنا»(٣).

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء، ص١٣٩.

(٢) تاريخ القراءة، ص٢٩٤.

(٣) روضة المحبين، ص١٠٩. وقد أخبرني الشيخ نظر الفاريابي أنه كان في مجلسِ الشيخ عبدالله ابن عقيل ت١٤٣٢هـ، وكانوا قد أحضَروا له طبيبًا للكشف، فلما قاس ضغطه قال له: نبضات قلبك ضعيفة لا تُساعدك علىٰ هذا الإرهاق، فلا بد أن ترتاح. فقال الشيخ: دَع عنك هذا الكلام، أنا سعادتي في هذه، وأشار إلىٰ تلاميذِه، وأن راحته في دروسه وقراءة الكتب عليه.

ووقَفتُ علىٰ كلمةٍ لفيلسوف السياسة الفرنسي مونتسكيو يقول فيها: «لم يُصِبْني حزنٌ إلا وانتشَلَتني منه القراءة»[1].

وقد أشـارَ الفيلسوف الفرنسي ميشيل أونفري في أيامنا هذه -أيام الحَجْر الصحي بسبب فايروس كورونا- أنَّ الكُتب شكَّلَت بالنسبةِ إليه وسيلةً للخروجِ من المآزق التي واجَهها[2].

أما إليف شافاك الروائية التركية الشهيرة صاحبة (قواعد العِشق الأربعون) فقد صرَّحَت قائلةً: «أنا أعتقد أنَّ الكُتب وحدها ما أنقَذَني من الجنون». وتقول أيضًا بأنها -أي الكتب- هي التي أنقذَتها من الرَّتابة والغضب وتدمير الذات، وعلَّمَتها الحب[3].

وعبَّاس خضر عندما كُسِرَت رِجله في حادثٍ سيَّارة بالخرطوم وألجأَته الظروف للاعتزال، لم تكن نفسُه لتنجوَ من الأدواء لولا فزعُه إلىٰ القراءة التي أنقَذَته من عُزلتِه القاتلة في حجرته الضيِّقة التي كانت الكتبُ فيها علىٰ أرففٍ بحذاءِ سريره أو تعلوه. وقد عبَّرَ عن حالتِه القرائية إبَّان تلك الحادثة بقوله: «وقرأتُ كل ما طالت يدي من كتب، والتهمتُ كل ما يُقرأ. وكان بجواري في الفندق طَلَبَةٌ مِصريون في الجامعة -فرع القاهرة- استعنتُ بكتبهم الدراسية والعاطفية علىٰ سدِّ نهَمي إلىٰ القراءة»[4].

وهنا تجلَّىٰ لي مشهد (ستونر) لما باتَ واهنًا جدًّا ولم يعُد باستطاعتهِ السير، فقضىٰ أيامه ولياليَه في غرفةٍ خلفيةٍ صغيرة. «جلبَت له إديث الكتبَ التي أرادها، ورتَّبها علىٰ طاولةٍ صغيرة بجوار فِراشه الضيق، لئلا يُجهد نفسه في الوصول إليها».

---

(١) متعة القراءة، ص٧٥.

(٢) مائدة كورونا، ص١٦٢.

(٣) تكلمي الآن، أو اصمتي للأبد! ص١٣٨. وحياة الكتابة، ص٢١.

(٤) ذكرياتي الأدبية، ص٨٠-٨٢.

ولماذا كل هذا؟ «كان وجود الكتب بجواره يبعث علىٰ الراحة»[1].

وعلىٰ ذكرِ عبَّاس خضر بوُدِّي أن أُثبت معلومةً فريدة عنه قرأتُها في سيرته (خُطًىٰ مشيناها)، وهي أن الرجل الذي يُعَد صاحبَ الفضل في نقلهِ مرحلةً متقدمة في عالمِ الأدبِ كان أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب! قال في حديثهِ عنه إنه «رجلٌ كَسيح مُقعَد، يُحمَل من بيتهِ الذي يُشبه المخزن إلىٰ ناصيةٍ بجوار الجامع، وما أكثرَ أهل الخير يحملونه إلىٰ (المخزن) في المساء وإلىٰ الناصيةِ في الصباح، ويدقُّون له الأوتاد والعِصِيَّ التي يُثبت فوقها (خيش) يقيه شمسَ الصيف ومَطر الشتاء، والذين يجودون عليه بما يَفيض عن حاجتهم من الطعام، ثم الذين يشترون له من الأسواق (كتب الشعر) ذاتَ الورق الأصفر والأغلفة المحلاة بصورة أبي زيدِ الهلالي أو صورة الناعسة أو عزيزة يونس... والرجل أُمي لا يقرأ ولا يكتب... إنه يُشير بيدٍ مرتعشةٍ وهو يضحك لي متودِّدًا أو يحاول ذلك فتستعصي عليه عضلاتُ وجهه، إلىٰ (طاقةٍ) في الحائطِ فوق رأسه، فأمدُّ يدي بداخلها وأُخرج تلك الكتبَ وأنفضُ عنها التراب، وأجلس إلىٰ جواره وأقرأ... ويستغرق كِلانا أيَّ استغراق، حتىٰ لا نشعر بالزمن إلا عندما يؤذِّن المؤذن لصلاةِ المغرب. ربما لا ننتبه لأذان الظهر أو العصر، ولكن أذان المغرب يُنذرنا بانطفاءِ المصباح الذي أقرأ علىٰ ضوئه: غروب الشمس!»[2].

هذا الرجل اسمه عبد الجواد العاجز، مَن يكون؟ هل يعرفهُ أحد؟ ليس له وجودٌ في التاريخ إلا في هذهِ الكلمات التي أثبتَها خضر في سيرته بدافعِ الوفاء وذِكر الجميل. وكم من الأشخاص الذين يكون لهم بالغُ الأثر في حياتنا وحياة غيرِنا ثم بفضلهم -بعد الله- يكون لنا شأنٌ عظيمٌ في الوجود، وتُعرَف أسماؤنا وآثارنا، وهم لا يُذكَرون ولا يُعرَفون، وكأنَّ الأيام قد اغتالَتْهم وأطعمَتنا إياهم فبزَغْنا واندَثروا!

(١) ستونر، ص٢٩٥.
(٢) خُطًىٰ مشيناها، ص٥٥.

فكم أحترم ذاك الذي يذكر جميلَ الآخَرين عليه ولا ينساه؛ لذلك لم أنسَ يومًا رجلًا اسمه محمد سعيد البسيوني، اسمٌ مجهول، لن تجد له وجودًا وإن اجتهدتَ في التنقيب والبحث، هذا الرجل الذي لم يُفلِح بالحصول علىٰ شهادةٍ جامعيةٍ هو الذي صنعَ الدكتور عبدالوهاب المسيري -رحمه الله. قال عنه المسيري في لقاءٍ له بأنَّهُ كان شخصيةً نادرةً في حياته، وأنه «أستاذه الأكبر»، ولولاه لما كان عبدالوهاب المسيري عبدالوهاب المسيري![1]

وجاء علىٰ ذكرهِ في سيرته أيضًا، فمِمَّا قاله عنه: «وفي الإسكندرية، قابلتُ شخصيةً أسطورية: محمد سعيد البسيوني، هذا العبقري المغمور الذي تتلمذَ علىٰ يدَيه العشَرات من مُثقَّفي الإسكندرية.. هو أسطورةٌ حقيقية؛ سحابة سخيَّة تُمطر علىٰ مَن حولها ولا يُعرف كُنْهُها. حينما كنا فِتْية نجلس علىٰ شاطئ سبورتنج كان يُحدثنا في كلِّ شيء: عن الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، والأدب السوفيتي في القرن العشرين، عن معنىٰ نتائجِ انتخابات البلَدية في إيطاليا، عن أعمال جوته، ومؤلفات عبدالرحمن بدوي وتطوُّر فكر ماركس، ويُعرفنا علىٰ أشعارِ عبدالوهاب البياتي وعبدالصبور وأراجون وبابلو نيرودا وناظم حكمت (الذي عشقتُ شِعره وقرأتُ معظم ما تُرجم منه إلىٰ العربية والإنجليزية، وتأثرتُ به). وكان سعيد سخيًّا للغاية يُزوِّدنا دائمًا بالكتب، فقد كانت مكتبتُه الخاصة ثريةً إلىٰ أقصىٰ حدٍّ...»[2].

لعلَّنا أطَلْنا الاستطراد! نعود إلىٰ حديثنا عن أثرِ القراءة في النفسِ والجسد.

كلنا يعرف الأديب اللبناني بولس سلامة ومعاناتَه الطويلة مع الألم. يا له من رجلٍ جَلْد، استعصَتْ هِمَّته علىٰ فِراشِ المرض، وأبىٰ صبره علىٰ مَباضع الجرَّاحين، واقرأ ما كتَبهُ في مقدمةِ كتابٍ فلسفي ألَّفه في ستةِ أشهرٍ وهو طريحُ الفراشِ خَدِينُ

---

(١) لقاءٌ في اليوتيوب مع الدكتور بعنوان (حديث الذكريات)، الدقيقة ٠٠:٤٦.

(٢) رحلتي الفكرية، ص١٣٥.

الألم! «وأحسِبُ أنَّ كتابي هذا هو المحاولة الأخيرة التي قمتُ بها في فتراتِ هُدنة الألم، بعد تِسعَ عشرة عمليةً جراحية، ومرضٍ احتَلَّني منذ ستَّ عشْرة سنة ١٩٣٦، ولم يزَل يُسمِّرني جريحًا علىٰ سريرٍ لم أبرَحْه منذ سنواتٍ عشر ١٩٤٣»[١] يكتب بعد ذلك: «وإني لأتحدَّىٰ الوُجوديِّين -لأن الكتاب في الفلسفةِ الوجودية- بل التَّاريخ والأساطير أن يكون آدميٌّ واحد عانىٰ ما عانيتُ من جِهةِ النَّكبات!»[٢]. وهذا ما جعَل النَّقادةَ الكبير مارون عبود يكتب في (نقداتُ عابر): «إنَّ عمَلك يحملني علىٰ الشكِّ بآلامِك، ولكن ما أعرفهُ عن صِدقك يهتف بي: قِف، فوقفتُ مُمجِّدًا بطولتَك». المهم، إلىٰ أين تظن هذا الجريح المبتلَىٰ قد فرَّ مما يُقاسيه؟ يُخبرنا بنفسهِ قائلًا: «عكَفتُ علىٰ المطالعةِ في تلك الآونة فِرارًا من ألمَين: أولهما وجع الجسم وهو الأدنىٰ، وثانيهما ألم النفس وهو الأشدُّ الأعمق. وأفضلُ ما تلوذ به النفسُ في هذه العزلة الخنَّاقة كتابٌ نفيس»[٣]. وكان قد جرَّبَ وجعَ الألمَين عند منعِه من مُسَكِّنهِ الخاص بعد العمليات، فيقول: «وكان أشدَّ ضُروب الحِرمان -علىٰ وفرةِ ما لقيتُ منها- مَنْعي من المُطالعةِ بعد العمليات الجراحية»[٤].

ولهذا أحاطَ الفراغ الرهيب المُخيف بأحمد أمين عندما حُرِمَ القراءة والكِتابة بأمرِ طبيب العيون، والفراغ -كما قال- أدهىٰ ما يُمْنىٰ بهِ الإنسان[٥]، ومثله نجيب محفوظ الذي كتب: «أكبر هزيمة في حياتي حِرماني من مُتعةِ القراءة بعد ضعف نظري»[٦].

---

(١) الصراع في الوجود، ص٧.
(٢) الصراع في الوجود، ص٢٤.
(٣) مذكرات جريح، ص٨٨.
(٤) حكاية عمر، ص١١٩. وقد اختصر في ص٢٣٣-٢٣٤ الداء الذي ألَمَّ بجسده وأنهكَ قُواه.
(٥) حياتي، ص٣٥٢.
(٦) أخيار وأشرار وظُرفاء وثقلاء، ص٢٢٣ .

ويعجبني قول أوديل -في (مكتبة باريس)- عندما كانت في المستشفىٰ عند الجنود المصابين إبَّان الحرب العالمية الثانية: «يتَّسع الجَناح لمائة وخمسين سريرًا، وعشرات الجنود الذين جُرِحوا جَرَّاء القصف علىٰ طولِ الجبهة. كانوا يتألَّمون، ولا يتمتَّعون بالخصوصية. لا أُسَر ورفاق قادرون علىٰ زيارتهم. أرواحهم واهنة. حرَصتُ علىٰ وضعِ الكتب للجنود علىٰ الطاولةِ الصغيرة قربَ السرير. ستُعينهم القراءةُ علىٰ التفكير في أمورٍ أخرىٰ غير آلامهم، ستُقدِّم لهم خصوصيةً ذهنية هم في أمَسِّ الحاجة إليها»[١].

وماذا عن سيرخيو بيتول؟ يرىٰ هذا الرجلُ أن القراءة هي التي أنقَذَته من الموت!

كان هذا الكاتب والمترجم المكسيكي قد أُصيب في طفولتِهِ بالملاريا، وظلَّ طريحَ الفراش مُدةً تزامنَت مع إصابته بعددٍ من المتاعبِ الصحية أوقاتًا طويلة، وفي مدةِ لزوم المنزل عرَّفَته جَدته علىٰ أعمال مؤلفين مثل جول فيرن وتشارلز ديكنز. صرَّح مرةً للتلفزيون الإسباني في مقابلةٍ عام ٢٠٠٢ أنَّ القراءة أنقذَت حياته، إذ قال: «أنا علىٰ يقينٍ من أنني لو لم أقرأ جول فيرن الذي التهمتُ كلَّ أعماله تقريبًا لانتهىٰ أمري، وكنتُ سألقىٰ حَتْفي بسرعةٍ كبيرة، أو كنتُ سأظل طريحَ الفراش إلىٰ الأبد»[٢].

وأرىٰ أنه من المناسب هنا أن أُذكِّر بقصةٍ عجيبة لعضو الكونغرس المكسيكي أيضًا فيكتور كوينتانا، وكيف أنَّ كتابًا عن كرة القدم كان سببًا في نجاتِهِ من الموت! يقول الكاتب الأوروغواني إدواردو غاليانو: «حين كتبتُ (كرة القدم في الشمسِ والظل) -وهو كتابٌ ماتع- أردتُ أن يفقد محبُّو القراءة خوفهم من كرة القدم،

(١) مكتبة باريس، ص١٧٧.

(٢) في خندق واحد، ص٢٠١-٢٠٢.

وأن يفقد محبُّو كرة القدم خوفَهم من الكتب. لم يخطر ببالي البتَّة شيءٌ غير هذا، لكنَّ عضوًا سابقًا في الكونغرس المكسيكي فيكتور كوينتانا، قال لي إن الكتاب أنقذَ حياته. وقصة ذلك أنه في منتصف عام ١٩٩٧م، تم اختطافه من قِبَل قتَلةٍ مأجورين، استُؤجِروا لمعاقبته علىٰ كشفهِ بعضَ الأعمال القذرة، فكان أنْ طرَحوه أرضًا وأوثَقوا رِباطه، وراحوا يركلونه حتىٰ شارف علىٰ الموت، وقبل أن يُجْهِزوا عليه برصاصة، بدَؤوا النقاشَ حول كرة القدم -وهذا في غاية الغرابة!-. ورغم أن فيكتور كان أقربَ إلىٰ الموت منه إلىٰ الحياة أدْلىٰ بدَلْوه في النقاش. وانبرىٰ يَروي لهم قصصًا من كتابي، ومع كل حكاية من تلك الصفحات، كانت ثَمَّة دقائقُ تُضاف إلىٰ حياته. مرَّ الوقت، والقصص تجيء وتمضي. وفي الأخير ترَكه القتَلة، مضروبًا ومُحطَّمًا، لكنه حي»[١].

أمَّا مات هيغ الذي عانىٰ من الاكتئاب طويلًا، فيقول عن الكتب والقراءة التي كانت من الأسباب الرئيسة في بثِّ الحياة في روحهِ التي أنهكَها الألم: «كذلك الكتب. كنتُ أقرأ وأقرأ وأقرأ بشدةٍ لم أعرفها من قبل. أقصد أنني لَطالما اعتبرتُ نفسي ذلك الشخصَ الذي يحبُّ الكتب. ولكنْ هنالك فرقٌ بين حب الكتب والحاجة إليها. لقد كنتُ بحاجةٍ للكتب، لم تكن قراءتها مجردَ رفاهية بالنسبة لي في تلك الفترة، لقد كانت الكتبُ مادةً شديدة الإدمان. أظنُّني قرأتُ في تلك الأشهر الستة كتبًا أكثرَ مما قرأته خلال سنوات الجامعة الخمس.

هنالك فكرةٌ قائلة إن الإنسان إمَّا أن يقرأ ليهرب من شيءٍ ما أو ليجدَ شيئًا ما. لا أرىٰ فرقًا بين الاثنين، إننا نجد أنفسنا خلال عملية الهروب، الأمر لا يتعلَّق بمكاننا الآن، بل بالمكان الذي نريد الوصولَ إليه. لقد كانت الكتب بحدِّ ذاتها أسبابًا

---

(١) حياة الكتابة، ص١١. واقرأ في الكتاب، ص٩٣ كيف بدَّدَت الكتب والقراءة مخاوف ماريو يوسا من الطيران.

للبقاء علىٰ قيد الحياة. كل كتاب كُتِبَ ليكون مُنتجَ العقل البشري في حالةٍ معيَّنة من حالاته. ضع كلَّ هذه الكتب معًا، وستحصل علىٰ المجموع النهائي للعقلِ البشري. في كل مرة كنتُ أقرأ فيها كتابًا عظيمًا، كنتُ أشعر أنني أنظر إلىٰ خريطة، خريطةٍ للعثور علىٰ كَنز، وهذا الكنز الذي كنتُ أتتبعه هو ذاتي...»[1].

وفي آخرِ كتابهِ يقول في نصائحهِ الأربعين التي يرجو أن تُساعد كلَّ من يقرؤها: «اقرَأْ كتابًا دون التفكير في إنهائه، اقرأ وحسب، استمتع بكلِّ كلمة، جملة، مَقْطع. لا تتمنَّ نهايته، ولا تتمنَّ استمراره للأبد». وفي نصيحةٍ أخرىٰ بعد ذِكره كُتَّابًا ينصح بالقراءة لهم، يقول: «اقرأ ما تريد، الكتب احتمالاتٌ عديدة، إنها طرقٌ ومَخارج للعالم، تمنحك الخيارات عندما تعتقد أنك لا تملكها، بإمكانها أن تتحوَّل إلىٰ أوطان أيضًا»[2].

في (أيام القراءة) يكتب بروست: «هناك مع ذلك بعض الحالات، بعض الحالات المرَضيَّة إذا جاز القول، من الاكتئاب الروحي الذي فيه يمكن أن تُصبح القراءة نوعًا من النظام الشافي وتكون مسؤولة، عبر تشويقٍ متكرِّر، عن إعادة إدخال عقلٍ كسولٍ إلىٰ عالم الروح. الكتب تلعب إذن بالنسبةِ إليه دورًا مُشابهًا لدور الطبيب النفسي إزاءَ بعض النوبات العصبية»[3].

فلا نعجب بعد كلِّ هذا إذا قرَأْنا في (مكتبة ساحة الأعشاب) لإيريك دو كيرميل علىٰ لسانِ أستاذة الآداب والكُتبية ناتالي: «أستطيع أن أشهد، بفضلِ تجرِبتي، قارئةً وكُتُبيَّةً، أنَّ علاج الكُتب أعمقُ من علاجِ مضادَّات الكآبة. فالكتب قادرةٌ علىٰ أن توقظ الرغبة في الحياة. تُنتج تنقُّلاتٍ داخليةً تستطيع فيما بعدُ أن تدفع المرء إلىٰ

---

(١) أسباب للبقاء حيًّا، ص١١٨-١١٩.

(٢) أسباب للبقاء حيًّا، ص٢٠٧-٢٠٩.

(٣) أيام القراءة، ص٣٩-٤٠.

الحركةِ والفعل». وفي الصفحةِ التالية: «في الحقيقةِ، ينبغي للأطباء أن يَصِفوا لِمَرضاهم وصفةً لأجل الصيدلية، وزيارةً للمكتبة!»[1].

* * *

ولأنَّ القراءة تقود صاحبها إلىٰ بحورِ المعرفةِ التي لا سواحلَ لها، وتكشف له عوالمَ فسيحة لا يُحيط بها الوصف، وتخلق في نفسِه نهَمًا للاستزادة من الإحساسِ بالحياة كما يقول العقاد؛ فإنَّ عاشقها لا يتوانىٰ في التضحيةِ بأي شيء رغبةً في الظفَرِ بها.

ها هو الكاتب الصيني مو يان يُخبرنا عن عطَشِهِ الدائم منذ طفولته لقراءة الكُتب والجهد الذي كان يبذله من أجلِ الحصول علىٰ ورقةٍ يقرؤها! يقول: «كانت الكُتب من الأشياءِ النادرة في الريفِ الجائع، وليس بوُسعِنا الحصولُ عليها، وكنا نُحضِّر طعامنا بطحنِ حبوب الذُّرة بالرَّحىٰ الحجَرية اليدوية، وصادفَ أنَّ لأحدِ أصدقائي كتابَ قصة مصوَّرة (كومكس) وكنتُ أعمل عندهم علىٰ الرَّحىٰ مقابلَ أن أقرأ القصة، فكان يقرأ لي صفحةً واحدة مقابل كلِّ دورةٍ لحجَر الرحَىٰ، أو يتركني أقرأ فيها وأنا أُدير الرحىٰ... وبعدها بدأتُ أجوب القُرىٰ المجاورة سعيًا وراء قراءة الكتب لدىٰ مَن يملكونها، ثم أعود إلىٰ قريتي مسحورًا»[2].

وأظنُّك الآن أدركتَ جيِّدًا الدافع الذي جعلَ الجاحظ يكتري (يستأجر) دكاكينَ الورَّاقين فيَبيتُ فيها للنظر![3].

وكثيرٌ من عُشَّاق القراءة، والذين تَعوقهم بعضُ الضغوطات عن ممارستها بأريحية وحرِّيةٍ تامَّة، يُضطَرون إلىٰ المغامرةِ واقتناصِ الأوقات الضيِّقة لممارستها والتلذذ بها.

---

(١) مكتبة ساحة الأعشاب، ص٢٥٢-٢٥٣.

(٢) عصيان الوصايا، ص١٣٢.

(٣) معجم الأدباء، ٥/ ٢١٠١.

في مقابلةٍ مع الشاعر عبدالله الفيصل أكبرِ أبناء الملك فيصل -رحمهما الله-، سُئل: متىٰ وأين بدأتَ القراءة بتركيزٍ وعناية، وهل أنت قارئٌ جيِّد للكتب والصحف؟ فأجاب: «مِن أول عمري وأنا أحبُّ القراءة وأُحبُّ الأدب، أتذكر أيامَ الابتدائي، وكنتُ مغرمًا بقراءة أمَّات الكتب؛ مثل صُبح الأعشىٰ، عبارة عن ١٥ جزءًا، كنتُ أقرؤه باستيعاب.

كانت أمي لا تُحب أن أسهر، فتأتي تُطفئ النور عليَّ وتجعلني أنام، فكنتُ أضع جزءًا من أجزائهِ تحت المخدة وأُمسك كتابًا ثانيًا، ولما تطفئ النور وتذهب وتتأكد أني سأنام، أقوم وأفتح النور وأمسك الكتاب وأقرأ، وقد لا أنتبه لنفسي بعضَ الأحيان إلا مع شروقِ الشمس، فأغسل وجهي وألبَس وأذهب إلىٰ المدرسة»[1].

ونذكر الفيلسوف الإيطالي فيكو الذي كان يُطيل السهَر ليلًا في القراءة والتعلُّم، «فكانت أمُّه تجده في أعقاب الليالي جالسًا إلىٰ طاولتِه مُنهمكًا في قراءة الكتب، فكانت تُؤنِّبه بشدَّةٍ وتأمره بالذَّهاب إلىٰ فراشه، ولكنَّها تجده في الصباح شاحبًا واهنًا دون أن يَبرح مكانه!»[2].

وذِكرُ المخدَّة في خبرِ عبدالله الفيصل يقودنا إلىٰ عبد الحميد جودة السحَّار الذي حدَّثنا في سيرتهِ أنه في أول صِباه كان يقضي وقتَ الصباح في إجازةِ الصيف الطويلة بقراءةِ الكتب التي كان يَصُفُّها تحت وسادته![3].

---

(١) هؤلاء من الألفِ للياء ص٧٢. وفي كتاب (جُدُدٌ وقُدماء، ص٢٨٣) لمارون عبود حديث عن عبد الله الفيصل وديوانه وحي الحرمان. من المواقف الطيِّبة للأمير عبد الله، أنه بعد وفاة العقاد اتصل علىٰ أنيس منصور يسأله إذا كان يُمكن عملُ شيء لأسرته أو إحياء ذِكراه، وهل أوصىٰ بشيء ليقوم به نيابةً عنهم احترامًا لوصيته؟ فأخبره أنيس منصور أن العقاد لم يترك وصيةً بشيء لأحد. [في صالون العقاد ص٦٤٥- دار الشروق].

(٢) من مقدمة المترجم أحمد الصمعي لكتاب (العلم الجديد) لفيكو.

(٣) هذه حياتي، ص١٨٤.

ومما رواه لنا الروائي شفكوريكي عن شبابهِ وبعد وصفهِ للأوضاع في تشيكوسلوفاكيا الشيوعية، وحديثِه عن القواعدِ الصارمة التي كانت تحكم ذلك المجتمع. يذكر لنا إحدىٰ هذه القواعد: «في تمامِ الساعة التاسعة مساءً يجب إطفاءُ النور. علىٰ الفتيان أن يستيقظوا باكرًا في الساعةِ السابعة صباحًا» أي إنهم كانوا يحتاجون إلىٰ عشرِ ساعات من النوم. فكان في هذه الحالة مُضطَرًّا إلىٰ أن يقرأ في فِراشه، وهذا الفعل من المحظورات في تلك البقعة التي يعيش فيها. يُكمل مخبرًا عن طقسهِ القرائي واختبائهِ أسفلَ لحافه: «وألتقطُ المصباح اليدوي الموجود تحت حشية السرير، وأبدأ رحلة التمتُّع بالقراءة، وكنتُ أقرأ وأقرأ وأقرأ، إلىٰ أن كنتُ -غالبًا بعد منتصف الليل- أنام منهكًا من سعادةٍ نفسية بالغة»[1]. وتأمَّل جمالَ هذهِ النتيجة: «مُنهكًا من السعادة».

ونقرأ في (الهامسون بالكتب) قول دونالين ميلر متحدثةً عن نفسِها: «إنني قارئةٌ أنتمي إلىٰ تلك الفئة من القرَّاء الذي يقرؤون علىٰ ضوءِ مِصباح الجيب تحت الأغطية». وتُضيف موضِّحةً علاقتها الوطيدة بالكتب أنها من أولئك الذين «يحملون كتابًا معهم أينما ذهبوا، ولا ينظرون إلىٰ فاتورة موقع أمازون الإلكتروني خاصة. وأختار حقائب اليد علىٰ أساسِ إنْ كان بإمكاني حشرُ كتابٍ ذي غلافٍ ورقي فيها أم لا، وتكون كتبي أولَ الأشياء التي أحزمها في حقيبة السفر...»[2].

وقد ذكَرَت دونالين ميلر في أول كتابها هذا عندما كانت تشكر كلَّ مَن دعمها وساندَها في تأليف الكتاب أمرًا لطيفًا يُظهر جانبًا من الرومانسيةِ التي يتمتَّع بها بعضُ الرِّجال وما يقومون به من تضحياتٍ قليلًا ما تصدع بها الألسنة وتُدوِّنُها الأقلام ويحفظها التاريخ، تقول عن زوجها: «أما زوجي (دون) فهو يعلم عن تعليمِ القراءة

(١) تاريخ القراءة، ص١٨١.

(٢) الهامسون بالكتب، ص٢٨.

أكثرَ ممَّا ينبغي لأي زوجٍ معرفته؛ فقد قرأ كل مسوَّدة كتبتُها عدة مرات، وقام بِكَيِّ ملابس العمل خاصتي علىٰ مدار ثمانية أشهر، وجلَب لي العشاء وأنا جالسةٌ أمام الكمبيوتر كل ليلة تقريبًا».

ومرةً أخرىٰ الشيء بالشيءِ يُذكر، مِن طريفِ ما ذكَره جبرا إبراهيم عن زوجتِهِ لميعة أثناء حديثه عنها قولُه: «شيء واحد رفَضَت لميعة أن تتعلَّمَه، وهو كيف تغلي القهوة. كنتُ أنا دائمًا من يُحضِّر القهوة، لي ولها، وأخذَت عليَّ عهدًا قاطعًا بأن أظل، ما دُمنا علىٰ قيدِ الحياة، أغلي قهوتها وقهوتي كلَّ يوم... وبقيتُ علىٰ عهدي طوال أربعين سنة كاملة، حتىٰ النهاية»[1].

وذِكرُ السَّرير والفِراش والأغطية يدفعني إلىٰ سَوْقِ خبَرٍ طريفٍ ذَكَرَهُ توفيق الحكيم في سيرتهِ عن بداياتهِ في عالمِ القراءة، وذلك لمَّا كان يتخفَّىٰ بمطالعاتهِ القَصصية عن عيونِ أهلهِ؛ لأنَّ والدَه لم تكن تُرضيهِ هذه المُطالَعات، ولم يكُن -كما يقول ابنه- يُدرك أنَّ لكُلِّ سِنٍّ قراءاتِها، يقول: «كان يُعاملني، كأغلبِ آباء هذهِ العهود، كما لو كنتُ في مثلِ سِنِّه، كان يَفرِضُ عليَّ ما يُحبه هو وما يُقدِّره من مطالعات».

لذلك تمرَّدَ -ونهاية القمع التمرُّد- الشابُّ الصغير توفيق، فيُحدِّثنا قائلًا:

«كنتُ أتسلَّل حاملًا الكُتب لأقرأها تحت سريري. كان ذلك السَّرير مفروشًا بملاءةٍ تتدلَّىٰ أطرافها إلىٰ الأرضِ، حاجبةً من يختفي تحته كأنها ستارة مُسدَلة، فما كان أحدٌ يراني أو يكشف مكاني. لكن تلك الملاءة أو الستارة كانت تحجب عني النُّور. فما كنتُ أبالي أحيانًا، وكنتُ أمضي أقرأ في الظلامِ حتىٰ أعجز عن تمييزِ الأسطُر، فأخرج خُفيةً وأُحضر شمعةً أُشعلها وأعاود القراءة علىٰ ضوئها. هكذا

---

(١) شارع الأميرات، ص٢٦٥.

كانت تسير الأمور... إلىٰ أن حدث ذات يوم أنْ جاء موعدُ الغداء، فجعَلوا يُنادون عليَّ وأنا مُستغرِقٌ في قراءتي، ثم فَطِنتُ إلىٰ ندائهم المُتكرِّر، فخرجتُ من تحتِ السَّريرِ مهرولًا تاركًا من ارتباكي الشمعة موقدة! وبينما نحنُ منهمكون في طعامِنا إذا بصُراخٍ يتعالىٰ في الطريقِ والجيرانُ يتصايحون: (حريقة! حريقة!) فارتاعت والدتي وأرادت النُّهوضَ لتتحرَّىٰ الخبر، فأجلَسَها والدي مُطمْئِنًا قائلًا: (لا ترتاعي، إنها ولا شك حريقة في الشارعِ بأحدِ الحوانيتِ الصَّغيرة والجيران والمارَّة من دأبِهم التهويل!).

لكن، لم تمضِ لحظةٌ حتىٰ كان الطَّرْقُ علىٰ بابِنا نحن، والنَّاس يَصيحون بنا: عندكم حريقة! عندكم حريقة! وهنا أفاقَ أهلي ونهَضوا فَزِعين مرتاعين يبحثون في أنحاءِ المنزل. وإذا الحجرةُ التي أنام فيها قد تَصاعد منها الدُّخان وتأَجَّجَ فيها اللَّهَب.. وظلَّ الجميع يُكافحون النِّيران حتىٰ أُطفِئَت.. وظلَّ والدي يبحثُ عن سببِ هذا الحريق ويسأل ويتحرَّىٰ بدِّقته، وأنا ساكِتٌ منكمش لا أنبسُ بحرف»[1].

أما جان جاك روسُّو فإنَّ نهَم القراءة الذي أصابه كاد أن يقضيَ عليه؛ إذ إنه كان يجلس الساعاتِ الطِّوالَ يقرأ مختبئًا في صوان الملابس حتىٰ يُصاب بالدُّوار الشديد!

ولنذكر شيئًا من قصته مع القراءة. يقول في اعترافاته: «ولستُ أدري كيف تعلمتُ القراءة؛ ولستُ أذكر إلا مُطالعاتي الأولىٰ وتأثيرها فيَّ.. وكانت أمي قد خلَّفَت بعض الروايات فأخذنا -أنا وأبي- نقرؤها بعد العشاء. ولم يكن القصد، في أول الأمر، إلا التوسُّل بكتبٍ مشوقة لأجل تدريبي علىٰ القراءة. لكن اهتمامنا

---

(١) سجن العمر، ص٨٤-٨٥.

لم يلبث أن ازداد حتىٰ تعوَّدْنا أن نتناوبَ القراءة بلا انقطاع، فسلَخْنا لياليَنا علىٰ هذا الشاغل. ولم يكن في وُسعنا أن ندعَ الكتاب إلا وقد وصَلنا إلىٰ نهايته»[١].

ويُكمل قصته مع القراءة في موضعٍ آخَر، فيقول: «فردَّ عليَّ ذلك مَيلي إلىٰ المطالعة وكنتُ قد فقدتهُ منذ وقتٍ مديد. لكنَّ المطالعة، وقد جعلتُ أختلس فُرَصَها من ساعاتِ العمل، باتت ذنبًا جديدًا عادت عليَّ منه عقوباتٌ جديدة. فما لبث هذا الميل، إذ هيَّجَه القسر، أن تَحوَّل إلىٰ هوًىٰ، فإلىٰ هيَجان. كانت لاتريبو، وهي مؤجِّرةُ كتب مشهورة، تُمِدُّني بكل لون وصنف، فأُقبل علىٰ الغثِّ والسمين لستُ أتخيَّر، بل أقرأ كلَّ شيء وأنا علىٰ النهَمِ عينه. كنتُ أقرأ إذ أنا إلىٰ منضدةِ العمل، وأقرأ إذ أنا بطريقي إلىٰ بعضِ ما كُلِّفتُ القيامَ به، وأقرأ وأنا مختبئٌ في صوان الملابس، فأذهل عن نفسي هناك الساعاتِ الطِّوالَ حتىٰ يعتريَني الدُّوار لفرطِ ما قد قرأت؛ ولم أكن آتي من أمر إلا المطالعة. وكثيرًا ما ترصَّدَني مُعلِّمي، ففاجَأني، وضربَني، واستولىٰ علىٰ الكتب.

وكم من كتبٍ مُزِّقَت، أو أُحرقت، أو ألقيَت من بعض النوافذ! وكم من مؤلفات ظلَّت عند لاتريبو ناقصةَ الصفحات! وكنتُ إذا نفِدَت نقودي، وفَّيتُ لاتريبو بقمصاني ورباطات عنقي وثيابي؛ وكنتُ كلَّ يوم أحد، أحمل إليها نفقةَ جيبي وقدرُها ثلاثة دراهم»[٢].

وآخرُ وقفة هنا مع الروائية الأمريكية إليزابيث جيلبيرت التي كتبَت في رسالةٍ لها تقول: «كنتُ طفلةً مطيعة. قضيتُ شبابي خائفةً من التورُّط في المشاكل، (في الواقع ما زلت حتىٰ الآن أخشىٰ الوقوعَ في المشاكل) كنتُ الفتاةَ التي تُنظِّف ماحيات

---

(١) الاعترافات، ص٣٧.

(٢) الاعترافات، ص٧٧.

السبورة خلال فترة الراحة. لو رأيتني آنذاك كنت ستكرهني حتمًا. وذات يوم في سنة ١٩٨٦ تغيَّبتُ عن المدرسة. كنتُ صغيرةً وقتَذاك ولم يكن هذا سلوكًا مثاليًّا. كذَبتُ علىٰ والدتي في ذلك الصباح ولم أركب حافلةَ المدرسة. اختبأتُ وانتظرتُ حتىٰ غادرَت أمي المنزل قاصدةً عملَها، فما لبثتُ أن تسلَّلتُ عائدةً إلىٰ المنزل. أعدَدتُ وعاءً كبيرًا من الفشار وانغمستُ في قراءةِ روايةٍ لـ (إرنست همنجواي). لم تكن من الروايات المقرَّرة علينا في المدرسة، كانت رواية أقرؤها بدافعٍ من الشغف وحده. اكتشفتُ (همنجواي) مؤخرًا، وكل ما أردتهُ هو أن أكون وحدي مع (لمن تُقرع الأجراس؟) تمكَّنتُ بالفعل من قضاء ثلاث ساعات كاملة في القراءةِ بهدوءٍ قبل أن أُضبَط مُتلبِّسة. (اتصلت المدرسةُ بأمي وأبلغَت عن تغيُّبي). دفعتُ ثمنًا باهظًا لتغيُّبي عن المدرسة، وهو البقاء في المدرسة بعد مواعيد الانصراف، ومحاضرات أُلقِيَت علىٰ مَسامعي من والدَيَّ المحبَطَيْن من سلوكي المَشين. لكن الأمر كان يستحقُّ كلَّ هذا العناء. كانت تلك الساعات الثلاث من بينِ أسعدِ أوقات حياتي، حيث أعطَتْني لمحةً عابرةً عما قد يحمله المستقبل. أدركتُ أنني حينما أكبر سأكون قادرةً علىٰ قراءةِ ما أريد وقتَما أريد، وأدركتُ أنني سأكون قادرةً تماما دومًا علىٰ إسعاد نفسي بنفسي. وقد تبيَّن لي صحةُ الأمر تماما، أيتها الكتب: شكرًا لك»[1].

* * *

عاشِق القراءة لو حُرِم من كلِّ شيء سوىٰ القراءة، لما أحسَّ بأنَّ هناك ما ينقصه؛ لأنه يراها نعيمًا مقيمًا يُغنيه عن كلِّ شيء في الوجود. والعكس، لو حُرِمَ منها وحوله كلُّ نِعَم الوجود لأحسَّ بأنَّ مفهوم النِّعمةِ معدومٌ في حياته!

وفي ظنِّي أن هذا هو الذي جعَل العقاد يُجيب طاهر الطناحي عندما سأله في

(١) خدش عظم الحياة، ص٢٧.

آخِر حياته قائلًا: إنَّ بناء جسمك، وما أراهُ من قوةِ صحتك ومثابرتك علىٰ العملِ في الشيخوخة، يُبشِّر بأنك ستصلُ إلىٰ سنِّ المائة أو تزيد، فماذا يكون شعورك وقتَئذٍ، وما هو الكتاب الذي ستؤلفه؟ أجاب: «أنا لا أتمنىٰ أن أصل إلىٰ سنِّ المائة كما يتمنَّاه غيري، وإنما أتمنىٰ أن تنتهيَ حياتي عندما تنتهي قدرتي علىٰ الكتابة والقراءة، ولو كان ذلك غدًا، ولو توفَّرَت لي الصحة وبلغتُ المائة، فإني أؤلف كتابًا أُسميه: (تَجارِب مائة عام) أو (قرنٌ يتكلَّم)»[1].

ظلَّ رحمه الله عاشقًا للقراءةِ وفيًّا للكتبِ حتىٰ آخِر لحظةٍ في حياته؛ فإنه عند وفاته كان علىٰ مكتبهِ كتابان كان يُطالعهما، الأول (في أعقاب الثورة المصرية) لعبد الرحمن الرافعي، وكان قد توقَّف عند ص٥٥ التي تحمل عُنوانين: الأزمة الدستورية وإقالة الوزارة. أما الثاني فكان (شعر من المهجر) لمحمد قرة علي، ولم يكن يقرأ صفحاته بطريقةٍ منتظمة. وبين صفحات الكتابين كَتَبَ علىٰ ورقتَين منفصلتين -بالحبرِ الأسود الداكن- ملاحظاته[2].

وتمنِّي العقاد أن تنتهيَ حياته إذا انتهت قدرتُه علىٰ القراءةِ والكتابة، يُذكرنا بمانغويل الذي قال بأنه لو توقَّف عن القراءة لمات![3].

وهنا أذكر ما كتبه وديع فلسطين عن سلامة موسىٰ الذي كان يتمنَّىٰ ألَّا يُفارقه

---

(١) مجلة الهلال - العدد ٤ - أبريل ١٩٦٤. في لقائه الشهير مع أماني ناشد، والذي كان قبل وفاته بشهرين فقط، سألَته عن حالة قراءته اليوم، فأجاب -وكان في الرابعةِ والسبعين من عمره- أنه لا يستطيع أن يَزيد علىٰ ثلاث ساعات متقطِّعة، بينما كان في شبابهِ يقرأ ليلةً كاملة، يُمسك بالكتاب عند غروب الشمس ولا يتركه إلا بعد الفجر! ويقول إنه كان يجلس ثمانيَ ساعات متواصلة يقرأ فيها فلا يتعب، لا من جهةِ النظر أو الجسم.

(٢) الأيام الأخيرة في حياةِ هؤلاء، ص٥٤-٥٥. وفي (ميراث الصمت والملكوت)، ص١٧٥ أنَّ العقاد في الليلةِ التي تُوفي فيها كان يقرأ كتابًا عن جيولوجية إفريقيا.

(٣) جنتلمان المكتبات، ص١٦.

الكتاب إلىٰ آخِر لحظةٍ من عمره، وهي أمنيةٌ تحقَّقَت؛ لأن وديع فلسطين عندما زارهُ في مستشفاه في فِراشِ مرَضه الأخير، ألْفَىٰ الكتب متراصَّةً إلىٰ جواره[1].

وقريبًا قرأتُ عند الزِّرِكْلي في ترجمة العلَّامة المعلِّمي صاحب (التنكيل) أنهُ لما عاد إلىٰ مكة ١٣٧١هـ عُيِّن أمينًا لمكتبةِ الحرم المكي سنة ١٣٧٢هـ فكانَ فيها إلىٰ أن شوهد يومًا مُنكَبًّا علىٰ بعض الكتب وقد فارق الحياة[2].

* * *

ومَن أدمَن المُطالعة، وخالطَت القراءة لحمه ودمه؛ رأىٰ أنَّ في رائحةِ المُجلَّدات أكسجين السعادة، وبين صفحات الكُتبِ إكسير الخلود. لذلك حتىٰ وإن أضعَفَت بَصَرَهُ الشيخوخةُ -أو ذهبَ بسببِ عارِضٍ آخر-، وأوهنَت جَسَدهُ صروفُ الأيام؛ لن يكفَّ عن المحاولةِ بالتلذُّذِ بالقراءة وإن كانت بعينَيْ غيره!

الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (١٨٥٩-١٩٤١) معلومٌ عنه إدمانُه للقراءة، وكان كلما تقدَّم به العمر، راح يلتهم الكتبَ التهامًا؛ يجلس علىٰ كرسيِّه المفضَّل منذ ساعات الفجر الأولىٰ والكتاب في يده، ولا يترك كرسيَّه حتىٰ يفرغ من الكتابِ الذي بين يديه! وكانوا يأتون له بالطعامِ فلا يلتفت إليه، بل يظل جالسًا علىٰ كرسيِّهِ لا يتحرَّك، وربما وضَعوا له الطعام وعادوا فأخذوه دون أن يَمَسَّه أو يُحِسَّ بهم! وهذه حياته، حتىٰ إذا ما ضعف بصرُه واستعصَت القراءة عليه، جاءه أحفادُه -بأمرهِ- يقرؤون عليه كلَّ جديد من الكتب.

سألوه يومًا عندما تقدَّمَت به السِّنُّ ولم يعد قادرًا حتىٰ علىٰ الإنصاتِ والتركيز:

---

(١) وديع فلسطين يتحدث عن أعلامِ عصره، ج١ ص٢٧٩.

(٢) الأعلام، ج٣، ص٣٤٢. وعلىٰ النقيض (في الأعلام أيضًا، ج٣، ص٣٠١) في ترجمةِ السيوطي أنه كان يُلقَّب بابن الكتب؛ لأن أباه طلب من أمِّهِ أن تأتيَه بكتابٍ ففجَأَها المخاض، فولدَته بين الكتب!.

أَلَا تنوي أن تُريح ذِهنَك المكدود؟ فأجاب: «ماذا يحدث عندما يشعر المرء أنه يقترب من اليومِ الذي سيُصبح فيه سجينَ بيته لا يبرحُه، إنه يحرص علىٰ أن يُزوِّده بكلِّ جديد حتىٰ لا يشعر بالملل في وحدته، وكذلك العقل. قد يَشيخ الجسم ويهرم، أما العقل فيبقىٰ حيًّا متَّقدًا باحثًا عن المعرفةِ سائلًا دومًا: هل مِن مزيد؟»[1].

وهذا شاعرُ الإنجليز جون ملتون بناته الثلاث كُنَّ يقرَأْن له دون أن يفهَمْن ما يقرَأْنه حينما ضعف بصرُه وعجز عن متابعةِ القراءة، وفي السنواتِ الأخيرة من حياتهِ فَقَدَ بصَرهُ تمامًا ونظَم كتابَيه الخالدين (الفردوس المفقود) و(الفردوس المستعاد) وهو مكفوف البصر![2].

وأبو البقاء عبد الله بن الحسين العُكْبَري ت٦١٦هـ قال عنه ابنُ النجار -كما في ذيل الطبقات لابن رجب-: «قرَأتُ عليه كثيرًا من مُصنَّفاته، وصَحِبته مدَّةً طويلة... وكان مُحِبًّا للاشتغال والإشغال -أي للتعلُّمِ والتعليم-، ليلًا ونهارًا، ما يمضي عليه ساعةٌ إلا وواحدٌ يقرأ عليه، أو يُطالع له، حتىٰ ذُكِرَ لي أنه بالليل تقرأ له زوجتُه في كُتبِ الأدبِ وغيرها»[3].

أما بورخيس -الذي كانَ جوهرُ الحقيقة بالنسبةِ إليه يكمُن في الكُتبِ؛ قراءتها، تأليفها، الحديث حولها- فكُلنا يَعرِفه، وكُلنا يعرِف ذاك الذي اشتُهِر بالقراءةِ له قبل أن يُعرَف بالكتابةِ عنه وعنها. أخبرنا مانغويل أنه لسنواتٍ عديدة منذ ١٩٦٤ حتىٰ ١٩٦٨ كان محظوظًا حدَّ الكفاية بأن يكون من بينِ العديدين الذين تَشرَّفوا

---

(١) مجلة العربي، العدد ١٧٠، ١ يناير ١٩٧٣.

(٢) علي أدهم (مقالات متنوعة)، ص٣١١. وهنا تذكرتُ ما جاء في (الأعلام)، ج٣، ص١١٨ في ترجمة الشاعر سليم عنجوري: «وكان كثير النظم، قليل النوم، وقد أخبرني بدمشق سنة ١٩١٢ أنه منذ ثلاثين سنة لم ينَم أكثر من ثلاث ساعات في اليوم، تتناوبُ بناتُه السهر معه، يخدمنه ويكتبنَ ما يُملي من نظمٍ وغيرِه.

(٣) المشوِّق إلىٰ القراءة وطلب العلم، ص٧١.

أن يقرَؤوا لكاتبِ الأرجنتين وناقدِها وشاعرها الكبير، بل للاسمِ الأشهَر في عالمِ الأدبِ في القرن العشرين. يكتب مانغويل: «كان بورخيس يأتي إلىٰ بيغماليون[1] أواخِرَ الظهيرة، وهو في طريقِ عودته من عملِهِ كمدير للمكتبة الوطنية. ذات يوم، بعد اختيارِهِ عُنوانَين من الكتب، سألني إن كان لديَّ شيءٌ آخَر أفعله، وما إذا كنتُ أستطيع أن أحضر وأقرأ علىٰ أسماعِهِ في أوقاتِ المساء، حيث إنَّ والدته، وقد بلغَت التسعين، أصبحَ التعبُ ينال منها بسهولة».

لنقف، ونُثبت هنا ما قاله بورخيس في (هوامشه) عن والدتِهِ بعد أن ذكَر فِكرها وترجماتها: «لقد كانت دائمًا بالنسبةِ لي رفيقة، بالذات في السنين الأخيرة حين عميتُ، وصديقة متفهِّمة وغفورة. وتولَّت منذ سنوات وحتىٰ وقت قريب كلَّ المهام السكرتارية، والرد علىٰ الرسائل والقراءة لي وكتابة ما أُمليه. كما أنها رافقَتني في سفراتي داخل البلاد وخارجَها في مناسبات عديدة. لم أُفكِّر بهذا آنذاك، لكنها هي التي وطَّدَت مسيرتي الأدبية بهدوءٍ وبشكلٍ مؤثر»[2].

يُكمل مانغويل: «كنتُ في السادسة عشرة. قبلتُ، وكنتُ أزور بورخيس ثلاثَ أو أربع مرات في الأسبوع في الشقةِ الصغيرة التي يتقاسمها مع أمِّهِ والخادمة فاني»[3].

كانت وفاة بورخيس في الرابع عشر من حزيران/ يونيو ١٩٨٦، في جنيف، وكان آخر كتاب قُرئ له، من قِبَل ممرضة تتحدَّث الألمانية في ذلك المشفَىٰ، هو هاينرش أو فتردنغن لنوفاليس، وهو الكتاب الأول الذي قرأه في جنيف أيامَ

---

(١) مكتبة ألمانية في بيونس آيرس يعمل بها مانغويل، وكان بورخيس زبونًا دائمًا لها، وكانت مَجْمعًا للمُهتمين بالأدب.

(٢) هوامش سيرة، ص١٦.

(٣) مع بورخيس، ص١١-١٢.

مراهقته[1].

* * *

فأقول -صادقًا- بعدَ كلِّ ما سرَدتُ؛ لم يكن هنري ميللر مبالغًا عندما ذكر كثرة ارتياده للمكتبة العمومية ليقرأ، ثم كتبَ واصفًا شعورَه في تلك اللحظات: «وكأني كنتُ أتَّخذ لي مقعدًا في الجنة!»[2].

أختم -وفي جَعبتي الكثير- بقولٍ للعميد طه حسين من مقالٍ له عن (زاد الشعب) -وهو القراءة-، يقول: «إنَّ الحثَّ علىٰ القراءة خيرُ ما يُوجَّهُ إلىٰ الأفرادِ والجماعات في جميعِ الأُمم والشعوب، وفي الشعوبِ العربية بوجهٍ خاص، بل هو خيرُ ما وُجِّه إلىٰ الإنسان منذ تَحضَّر إلىٰ الآن»[3].

---

(١) مع بورخيس، ص٩٢. فائدة هامشية: كان بورخيس يتحدث الإسبانية والإنكليزية والفرنسية والألمانية، وقبل أن يُتوفىٰ كان قد تعلَّم اللغة العربية! [كتاب: في جوٍّ من الندم الفكري، ص٣٠] لعبدالفتاح كيليطو. وراجع للاستزادة حول هذا الموضوع الجزء الأول من أعماله، ص٣٨٧.

(٢) الكتب في حياتي، ص٣٨٥.

(٣) ماذا نقرأ، ص٢٩. يقول دوهاميل في [دفاع عن الأدب]، ص١١٥-١١٦: «الأستاذ القدير.. هو من يغرس في نفوس تلاميذه تذوق الكتب والتحمُّس لها».

مهد المعارِف المقدَّس

«وأُجنُّ بالكتاب قُبيل شرائه وعند شرائه، وأبيتُ ليلةً وأنا أحلم به»[1].

(١) فيض الخاطر، ج١، ص١١٩.

عن التضحيةِ في سبيلِ الكُتب، وحال سُوقها، وجنون اقتنائها، وغرائب زبائنها، وخلائق بعض تُجَّارها، ومُباهاة الجَهلة بها؛ يتحدَّث هذا المقال.

في كتاب الحيوان يُسطِّر الجاحظُ التاليَ: «ومَن لم تكن نفَقتُه التي تخرج في الكتبِ، ألذَّ عنده من إنفاقِ عُشَّاق القِيان، والمستهتَرين بالبُنيان[1]؛ لم يبلغ في العلمِ مبلغًا رَضيًّا. وليس يَنتفع بإنفاقِه، حتىٰ يُؤْثِر اتِّخاذ الكتب إيثارَ الأعرابي فرَسَه باللبَنِ علىٰ عياله، وحتىٰ يُؤمِّل في العلمِ ما يُؤمِّل الأعرابيُّ في فرسِه»[2].

ونُريد هاهنا لذةَ الإنفاق في الكُتبِ عند عُشَّاقها، ولسنا مَعنيِّين في هذهِ المساحة بمسألةِ الانتفاع من الإنفاقِ في سبيلها.

شُدَاة المعرفة أيًّا كانت منزلتهم في درَجاتها، ومهما كان حظُّهم من العلمِ؛ يشعرون بنشوةٍ مُسكِرة وشعورٍ لذيذٍ ساحِر عندما يدخلون إلىٰ مكانٍ تُباع فيه الكتب! يُصابون بشيءٍ حيَّرهم هم أنفسهم؛ فكيفَ لغيرهم إدراكُ كُنهِه. شيءٌ يدفعهم إلىٰ ضرورةِ اقتناءِ عددٍ من هذه الكتب التي يرَونها مصفوفةً أمام نواظرهم.

لحظةَ اعتمالِ رغبة الشراء بداخلهم تختفي فِكرةُ مراعاة الرصيد البنكي أو الاقتصاد المالي في عقولهم، لا وجود في تلك اللحظة لأيِّ حقيقةٍ سِوىٰ «لذة شراء الكتب».

إذا فهم القارئُ هذا فلن يُكبِّل طُمأنينةَ فؤاده العَجبَ عندما يقرأ ما سنُورده من تضحياتٍ عظيمة قدَّمها أربابُ العِلم، والسابحون في بحرِ غرامِ الكُتب.

* * *

(١) المستهتَرُ: المولَعُ بالشيء المُنهمِك فيه. (هامش عبدالسلام هارون).

(٢) الحيوان، ج١، ص٥٥.

بداءةً لا بد أن أعترفَ بأني لا أُحبُّ أن أُقدِّم أحدًا علىٰ أبي الفرج ابن الجوزي -رحمه الله- الذي أخبرنا عن حالهِ قائلًا: «ما أشبعُ من مُطالعةِ الكُتب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أرَه فكأني وقَعتُ علىٰ كنز...» ثم يقول بعد ذلك: «ولو قلتُ: إني طالعتُ عِشرين ألف مجلَّدٍ؛ كان أكثرَ، وأنا بعدُ في الطلب»(١).

واقرَأْ ما كتَبه في رسالتهِ لابنهِ: «واجتهِدْ يا بُنيَّ في صِيانةِ عِرضك من التعرُّض لطلبِ الدُّنيا، والذُّلِّ لأهلها، واقنَعْ تُعَز. واعلم -يا بُنيَّ- أنَّ أبي كان موسرًا وخلَّف ألوفًا من المالِ، فلما بلَغتُ، دفَعوا لي عِشرين دينارًا ودارَين، وقالوا لي: هذه الترِكةُ كلها، فأخذتُ الدنانير واشتريتُ بها كُتبًا من كتبِ العلم، وبِعتُ الدارين وأنفقتُ ثمنها في طلبِ العلم، ولم يبقَ لي شيءٌ من المال. وما ذلَّ أبوك في طلبِ العِلم قطُّ، ولا خرَجَ يطوفُ البُلدان كغيره من الوُعَّاظ، ولا بعَثَ رُقْعةً إلىٰ أحدٍ يطلُبُ منه شيئًا قطُّ، وأمورهُ تجري علىٰ السَّداد، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]»(٢).

وإنْ أذِن لي القارئ الكريم -وأعلمُ أنه سيفعل-؛ فإنِّي لا أستطيع مجاوزةَ ابن الجوزي قبل أن أذكرَ شيئًا من رسالتهِ النافعة لابنه هذا.

ابن الجوزي تزوَّج في حياتهِ مرتَين، فأنجبَ من زوجتهِ الأولىٰ عشَرة أولاد، خمسةَ ذكور وخمسَ إناث، مات من الذكورِ أربعة؛ منهم ابنه عبدالعزيز الذي ماتَ مسمومًا بالموصل سنة ٥٥٤هـ، وبقي علي أبو القاسم. وعليٌّ هذا هو الذي كتَب له رسالتَه الشهيرة: (لَفْتة الكبد إلىٰ نصيحة الولد). إلا أنه لم ينتفع بها، وكان عاقًّا سيِّئ الطباع. استغل هذا العاقُّ محنةَ أبيه، فأخذ كتبه التي جاهد واجتهد بجمعِها، وباعها

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي، ص٧٨٩ - طبعة طارق عوض الله.

(٢) صيد الخاطر، ص٥٠٩ - طبعة دار القلم.

بأبخسِ الأثمان. تُوفي سيئُ الطِّباع سنة ٦٣٠هـ(١).

ومما أحبُّ نقله هنا من رسالتِهِ قولُه: «والكَسَلُ عن الفضائل بئس الرفيقُ، وحبُّ الراحةِ يورثُ من الندمِ ما يَرْبو علىٰ كل لذَّةٍ، فانتبِهْ واتعَب لنفسك. ولقد كنتُ أدور علىٰ المشايخِ لسماعِ الحديثِ، فينقطعُ نفَسي من العدوِّ لئلا أُسبَق، وكُنتُ أُصبِحُ وليسَ لي مأكلٌ، وأُمسي وليسَ لي مأكلٌ، ما أذلَّني الله لمخلوقٍ قط، ولكنهُ ساق رِزقي لصيانةِ عِرضي، ولو شرَحتُ لكَ أحوالي لَطال الشَّرحُ. واعْلَم -يا بُني- أن الأيام تُبسَطُ ساعات، والساعات تُبسَطُ أنفاسًا، وكلُّ نفَسٍ خِزانةٌ، فاحذر أن يذهبَ نفَسٌ بغير شيءٍ، فترىٰ في القيامةِ خِزانةً فارغة فتندم. ولا يُؤْيِسْك -يا بُنيَّ- من الخير ما مضىٰ من التفريطِ؛ فإنه قد انتبه خلقٌ كثير بعد الرُّقاد الطويل. وعليكَ بالعُزلة؛ فهي أصلُ كل خيرٍ، واحذر من جَليسِ السُّوء، ولْيَكُن جلساؤكَ الكُتُبَ، والنَّظرَ في سِيَرِ السَّلف. واستُرْ نفسك بثوبَين جميلَين لا يُشْهِرانك بين أهل الدُّنيا برِفعتِهما، ولا بين المتزهِّدين بِضَعتِهما. وراعِ عواقب الأمور يَهُن عليك الصبرُ عن كُلِّ ما تشتهي وما تكرَه، وإن وَجَدتَ من نفسك غفلةً فاحمِلْها إلىٰ المقابِرِ، وذكِّرها قُرب الرَّحيل.» وقال في آخرها: «... تشاغلَ سلَفُنا بالتِّجارةِ والبيعِ والشراء، فما كان من المُتأخرين مَن رُزق همَّةً في طلبِ العلمِ غيري، وقد آلَ الأمرُ إليك، فاجتهد ألَّا تُخيِّبَ ظنِّي فيما رجَوتهُ فيك ولَكَ، وقد أسلَمتُكَ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وإيَّاه أسألُ أن يوفِّقك للعلمِ والعمل. وهذا قدْرُ اجتهادي في وصيَّتي، ولا حول ولا قوة إلا باللهِ العليِّ العظيم، والحمدُ لله مُزيدِ الحامدين، وصلَّىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلم».

* * *

(١) صيد الخاطر، ص١٦. راجع الرِّسالة فهي مطبوعة، وتجدها في آخرِ طبعة دار القلم المذكورة آنفًا، ص٤٩٩-٥١٤.

وإذا كانت «دُنيا طالِب العلمِ مكتبتهُ»[1] كما يقول الطنطاوي، فإنَّ لذَّته وواجبه المفروض لزيادةِ الأُنس فيها؛ اقتناء الكُتب. ويُعجبني ما جاء في ترجمةِ ابن قيِّم الجوزية في (البداية والنهاية) لابن كثيرٍ رحمهما الله، قال عنه: «وكان حَسَن القراءة والخُلُق، كثيرَ التودُّد، لا يَحسُد أحدًا ولا يؤذيه ولا يَستعيبُه، ولا يحقد علىٰ أحد، وكنتُ مِن أصحبِ الناس له وأحبِّ الناس إليه..» إلىٰ أن قال: «واقتنىٰ مِن الكتبِ ما لا يتهيَّأ لغيرهِ تحصيلُ عُشرِه من كتبِ السَّلفِ والخلَف...»[2].

ولْآخُذْك الآن عارفًا بفضلك وسَعةِ اطِّلاعك لنقف معًا علىٰ ما قام بهِ بعضُ الأعلام من التضحياتِ في سبيلِ العلمِ وعِشق الكتب.

نقرأ في ترجمةِ أبي جعفر القَصْري المتوفَّىٰ سنة ٣٢١هـ: «كان فقيهًا ورِعًا سريعَ الدمعة، يقول عن نفسه: (لي أربعون سنة ما جفَّ لي قلم)... كان رُبما باع بعض ثيابه واشترىٰ بثمنهِ كتابًا، أو رُقوقًا لنسخِ كتاب»[3].

ومِن أعجبِ ما أنت قارئٌ ما جاء في كتابِ ابن رجب عن الإمام طلحة العَلْثي قال: «بِيعَت كتبُ ابن الجواليقي في بغداد، فحضَرها الحافظُ أبو العلاء الهَمَذَاني، فنادَوا علىٰ قِطعةٍ منها: ستِّين دينارًا، فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستِّين دينارًا، والإنظار من يوم الخميسِ إلىٰ يوم الخميس. فخرج الحافظ، واستقبل طريقَ همَذان، فوصل، فنادىٰ علىٰ دارٍ له، فبلغَت ستين دينارًا. فقال: بيعوا. قالوا: تبلغ أكثرَ من ذلك. قال: بيعوا. فباعوا الدار بستين دينارًا فقَبضها، ثم رجع إلىٰ بغداد. فدخلها يوم الخميس، فوفَّىٰ ثمنَ الكتب، ولم يشعر أحدٌ بحالهِ إلا بعد مُدَّة»[4].

---

(١) الذكريات، ج١، ص١٧. ولو أردتُ تحريفها لقُلت: «جَنة طالِب العِلم في الدنيا مكتبته».

(٢) (البداية والنهاية - طبعة التركي)، ج١٨، ص٥٢٤.

(٣) صفحات من صبرِ العلماء، ص١٩٤.

(٤) صفحات من صبرِ العلماء، ص ٣٢٣.

وأحمد بن قاسم الحجَّار ت١٢٧٨هـ الذي بلغَت قيمةُ مكتبته ٤٠ ألفًا، كان شَغوفًا باقتناء الكتب، حتىٰ إنه رأىٰ كتابًا يُباع، ولم يكن معه دراهمُ، فنزع بعضَ ثيابه التي عليه وباعها واشترىٰ الكتاب![١].

وفيما يخصُّ بيع الملابس لاقتناء الكتب أذكر ما قرأتُه عن الأديبِ الكبير الدكاترة زكي مبارك بأن شيخه المرصفي سألهُ مرة: هل عندك نسخةٌ من لسان العرب؟ فلما أجابه بالنفي، قال: «تبيع جبَّتك وقُفطانك وتشتري نسخةً من لسان العرب»[٢].

وقد كتبَ بعد ذلك مُخبرًا عن حالهِ في فرنسا: «بِعتُ أثوابي لأشتريَ مجموعةً من مؤلفات جان جاك روسو، وفيكتور هوجو، وشاتوبريان»[٣].

وعبد الفتاح أبو غدة القائل: «والكتب في حياةِ العالِم تحلُّ منه محلَّ الرُّوح من الجسدِ، والعافيةِ من البدن»[٤] اضطُرَّ يومًا لبيع الشال الذي ورثه من والدهِ لشراء بعض الكتب. يقول: «وعرَضَت لي يومًا بعضُ كتبٍ نادرةٍ تُهمني جدًّا، ورغبتُ في اقتنائها، ولكني كنتُ في إملاقٍ شديد، فلا سبيل إلىٰ شرائها! وقلِقَ قلبي وخاطري جرَّاءَ ذلك، فبِعتُ (شالتي)[٥] التي ورثتُها من أبي رحمه الله تعالىٰ في سوقِ الحراج،

(١) صفحات من صبرِ العلماء، ص٢٧٧.

(٢) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص٢٧. حرَصتُ علىٰ أن تكون النماذج الآتية من المعاصرين؛ وذلك أن قُرب المدة يُضاعف التأثير. وهذا ما أسعىٰ إليه هنا.

(٣) زكي مبارك بقلمِ زكي مبارك، ص٥١.

(٤) صفحات من صبرِ العلماء، ص٢٥٦.

(٥) الشَّالةُ والشالُ: قِطعةُ نسيجٍ رهيفٍ من الصوفِ الناعم الرفيع النفسِ الملوَّن، تكادُ تكونُ مُرَّبعةً في حجمها، تزيدُ علَىٰ المتر طولًا، وتُقارِبهُ أو تكون نحوَ ثُلثَيه عرضًا، ذات خطوطٍ ونقوشٍ ملوَّنة جميلة، تُصنع في بلاد العجم (إيران وما جاورها)، وكانت تُعرَفُ في بلادنا باسم (الشَّال العَجَمي)، ويَلبسُها الرِّجالُ فيَلُفُّها لابسُها حِزامًا علىٰ وسطِ الثوب العربي المفتوح، وتُوضعُ الصغيرة الرفيعةُ المستطيلة منها علىٰ العُنق في الشتاء لدفع البرد. [هامش أبو غدة].

واشتريتُ تلك الكتب، وأرحتُ قلبي وخاطري، وفرِحتُ باقتنائها ووصولي إليها فرَحًا عظيمًا أنساني فقْدَ الشالة، والحمدُ لله»[١].

وكتبَ عنه ولدُه سليمان في ترجمتِهِ له: «وقد أمْلقَ والدي بعد وفاة والدِه رحمهما الله تعالىٰ، حتىٰ مرَّ به يومٌ وهو لا يملك إلا اللِّباس الذي عليه، كما أنه منَع نفسه في أثناء الطلب بمصر من الفاكهةِ حتىٰ يشتريَ بثمنها كُتبًا عوضًا عنها».

وكان من شدّةِ تعلُّقهِ بالكتاب، -كما يقول الشيخ محمد فوزي فيض الله- ينام ليلًا وعلىٰ وجههِ الكتاب الذي اشتراه في يومه، لا يؤجِّل مطالعته لغده[٢].

وهذا ذكَّرني بكلمةٍ لإسماعيل والد العلامة أحمد تيمور باشا، وكان كما يقول البيومي ذا علمٍ وفضل، فقد حرَص علىٰ تثقيف عقله، وإنارة ذِهنه، فأكثَر من المطالعة، واقتنىٰ الكتب والصُّحف النافعة. يقول: «إني لَأستحي أن أرىٰ الكتاب فلا أتصفَّحُه»[٣].

ولا بد أن يَسوقنا الحديث إلىٰ أحمد أمين الذي كان يُجنُّ بالكتاب قُبيل شرائه وعند شرائه، ويَبيت ليلته وهو يحلم به، ولا يسمح لنفسه بالنومِ ليلة الشراء قبل تصفُّحِه ومعرفةِ ما فيه. يكتب في مقالةٍ له في (فيض الخاطر) عن لذَّةِ الشراء: «بالأمس ضَحِك مني بائعُ الكتب القديمة، إذ رآني أُقلِّب في الكتبِ، وأذهب ذات اليمين وذات الشِّمال، وأصعد الكرسي وأنزل من عليه، والكتب بعضها عتيقٌ بالٍ قد غُلِّف بالتراب وأكَلَته الأرَضة، وكلها وُضعت حيثما اتفق، لم يُعْنَ فيها بترتيبٍ حسَب الموضوع ولا حسَب الحجم ولا حسب أي شيء، ولم يبذل أي جهد في

---

(١) صفحات من صبرِ العلماء، ص٢٧٨-٢٧٩.
(٢) عبدالفتاح أبو غدة، ريحانة المحدثين وقدوة المحققين، ص١١٤.
(٣) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، ج٢، ص٦.

تنظيفها وعرضها؛ فكتبٌ في الأرض، وكتبٌ في السماء، وكتبٌ في الرفِّ، وكتبٌ علىٰ المقاعد، وكتبٌ في الممشىٰ؛ والبائع رجل تقدَّمَت به السن، زهدَ البيع وزهد الشراء، وإنما يبيع ويشتري لأنه اعتاد أن يبيع ويشتري؛ كل ما في أمره أنه فضَّل أن يجلس في الدُّكان علىٰ أن يجلس في البيت، إذ يرىٰ الرائحين والغادين، ويستقبل الزائرين، ومن حينٍ إلىٰ حين يبيع كتابًا أو كتابين.

وسط هذه المكتبة المغمورة بالكتب، والمغمورة بالتراب، والمغمورة بالفوضىٰ، انغمستُ ببذلتي البيضاء، القريبة العهد بالكَواء، أبحث عن كتبٍ نادرة أشتريها، وأتصفَّح كتبًا أتعرُّف قيمتها، فضحك إذ رأىٰ غرامًا بالكتب يُشبه الجنون، ورغبةً في البحثِ والشراء تُشبه الخَبل.

لا تضحك -يا سيدي- فإنما هي لذَّة الشراء أصيب الناسُ بها جميعًا...»

ثم أفاض في الحديثِ عن لذةِ الشراء التي اختلف الناسُ في مقدارِ الإصابة فيها، منهم المسرف وفيهم المعتدِل[1].

وقبل أن نترك أحمد أمين لا بأس بإثباتِ ما ذكره عنه ولدُه حسين في كتابهِ عنه، يقول: «كنا أحيانًا نجد صعوبة في إقناعِ والدي بحاجتنا إلىٰ حلّةٍ أو حذاءٍ جديد، صعوبة تُغضبنا منه. أما فيما يتعلَّق بالكتبِ، فالباب مفتوحٌ علىٰ مِصراعَيه نشتري منها ما أحبَبْنا. فهو يأذنُ لنا بأن نأخذ من مكتبةِ النهضة المصرية التي تتولَّىٰ نشر مؤلفاته أيَّ عدد من الكتبِ دون قيد، ثم تُحاسبه المكتبة في آخر العام. وقد كنتُ أكثرَ أبنائه استغلالًا لهذه الرخصة ولم يحدث أنِ اعترضَ أبي علىٰ إسرافي في هذا الاستغلال إلا مرةً واحدة، حين قرأ في كشفِ الحساب السنوي اسم كتاب في

---

(١) فيض الخاطر لأحمد أمين، ج١، ص١١٥-١١٩.

تاريخ العالم من خمسة عشر مجلدًا بلغ ثمنه أربعين جنيهًا!»[١] فلا عجب أن يكتب بعد ذلك جلال أمين عن أخيه حسين في رسالةٍ بتاريخ ٢٧/ ٥/ ١٩٥٨م: «حسين بالذات يُفني عمره -بدون مبالغة- في القراءة»[٢].

ولأن الكُتب والمكتبة هما -كما يقول عبدالله كنون- «دعامة الحياة الفكرية في كلِّ الأمم، ومَظهر النشاطِ الأدبي، ونتيجة خِصْب العقول وتفتُّح القرائح»[٣]؛ كان الكُتَّاب والأدباءُ والمفكرون والمثقفون يَحرِصون -مهما كلَّفهم ذلك وضحَّوْا من أجله- علىٰ التزوُّدِ من الكتبِ وتوسُّع مكتباتهم للنهوضِ بأنفسهم، والسموِّ بأفكارهم، والتفرُّد بأقلامهم. لذلك نجد جبرا إبراهيم جبرا يكتب: «أنا مُبتلًىٰ بعشق الكِتاب، كان عليَّ أن أشتريَ الكتب بالجملة، بالعشَرات، فأقعَ من أجلها في مآزِق مالية، تمامًا كمَن يُنفق (حاله وماله) علىٰ امرأةٍ استبدَّت بعقله وعواطفه دون رحمة، مع الفارق، وهو أن هذا المعشوق قد يحرمُك من الطعام لبضعة أيام وليالٍ كلَّ مرة، ولكنَّه يُغذِّيك عقلًا وعاطفةً طول عمرك، ويبقىٰ رصيدًا لك تعتمد عليه دائمًا ولا تَخيب»[٤].

ونقرأ في حديثِ وديع فلسطين عن سيِّد قطب: «وقال لي إنه يُقتِّر علىٰ نفسهِ في معيشته كي يستطيعَ شراء ما يحتاج إليه من كتب، ولو كانَ عليه أن يختار بين شراء جورب عوضًا عن جوربهِ المثقوب وبين شراء كتاب، لَفضَّل شراء الكتاب»[٥] والمفكر عبدالوهاب المسيري يُخبرنا في سيرتهِ الفكرية الرائعة جدًّا عن بدايات نهَمِه للقراءة والمعرفة، وحاجته الشديدة إلىٰ شراء الكتب عندما كان في الإسكندرية:

---

(١) في بيت أحمد أمين، ص٥١.
(٢) أخي العزيز (مراسلات حسين وجلال أمين)، ج١، ص١٦٧.
(٣) واحة الفكر، ص٤٣.
(٤) معايشة النمرة وأوراق أخرىٰ، ص٤٦.
(٥) وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره، ج١، ص٢٨٣-٢٨٤.

«وقد بدأتُ في اقتناء الكتب، وهي عادةٌ غير معروفة في أوساطِ أبناء التجار (كان والدي -رحمه الله- يقول لي دائمًا: انتهِ مما عندَك من كتب، ثم اشترِ غيرها بعد ذلك). ولذا لم يكن من الممكن أن أطلب ثمنًا للكتب التي أشتريها، مما كان يتطلَّبُ مُناورات كثيرة. بل كنتُ أحيانًا أستغني عن ساندوتش[1] الفسحة الصغيرة الذي كنتُ أشتريه من كانتين المدرسة، لأشتريَ بثمنه كتابًا»[2].

ويكتب صاحب (الجمر والرماد) هشام شرابي: «كنا نُحب الكتب حبًّا جمًّا، وكنا نتأبَّطُها أينما ذهبنا، كما كنا نشتريها بأسعارٍ باهظة. كان لكلٍّ منا مكتبتُه الخاصة التي كانت بمثابةِ التعبير المادي عن مركزنا كمثقَّفين. فكلما كثر عدد الكتب في حوزةِ أحدنا ازدادت، بنظره وبنظرنا، قيمتُه كمفكر... أصبح لديَّ في نهايةِ دراستي في الجامعةِ مكتبةٌ تضم مئاتِ الكتب، اقتنَيتُها كتابًا كتابًا، ودفعتُ ثمن كلٍّ منها بحِرمان نفسي من مَلذَّاتِ الحياة»[3].

ومما ذكره محمد كرد علي عن شيخ العروبة أحمد زكي باشا أنه «لما دخل في خدمةِ الحكومةِ خصَّصَ نصف راتبه الشهري لشراء الكتب.»[4].

ومن ولَعِ شيخ العروبة بالكتبِ أنه اعتاد قراءةَ صفحة الوفَيات في جريدة الأهرام؛ إذ ربما وجد إشارةً ما دالَّةً علىٰ وجود مكتبات خاصَّة لأحد أولئك المتوفَّين، فيشتريها بالجملة. ونجح زكي في جمعِ ستِّ مكتبات كاملة -علىٰ الأقل- بهذه

---

(١) فائدة عن أصل كلمة سَنْدوتش، في معجم الدَّخيل، ص١٢٥ أنها منسوبة إلىٰ جون مُنتاغو إرل سندوتش الرابع (١٧١٨-١٧٩٢)، وهو من رجالات الدولة البريطانية، وكان مُدمن قمار. سُمِّي الرغيف باسمه عام ١٧٦٢؛ لأنه أمضىٰ هذا العام كاملًا علىٰ مائدة القمار، وقد أعدَّ له هذا النوع من الرغيف ليسهلَ عليه تناولُه وهو يُقامر.

(٢) رحلتي الفكرية، ص١١٨.

(٣) الجمر والرَّماد (ذكريات مثقف عربي)، ص٣٩-٤٠.

(٤) المعاصرون، ص٥٠-٥١.

الطريقة[1] وكان يعترف بأن الكتب كما أنَّ فيها لذَّتَه فإن فيها شقاءَه وتعبه، فيقول: «كلما سعيت للتخلُّص من هذه الأحبولة تشابَكَت خيوطها، واستحكمَت حلقاتها، فأنا أمدح الكتب رغم أنفي، وأسعىٰ إلىٰ جمعها، وإن كنت أكرهها؛ لما تجرُّه من تعبِ القلب وفراغ الجيب وضياع الكسب»[2].

ومُحدِّث المدينة النبوية الشيخ حماد محمد الأنصاري -رحمه الله- كان يُنفق جُلَّ مرتبه الشهري في شراء الكُتب، ولا يبقىٰ منه إلا النزر اليسير لقوته وقوت عياله، بل كان يُضطر في بعض الأحيان إلىٰ الاستدانة![3].

ومن أخصِّ مَن عرَفتُ جنونًا بالكتبِ واقتنائها أخي الأكبر عبد الله؛ فإنَّ مذهبه في شرائها عجيب. يبتاع كتبًا في كلِّ فن؛ الشريعة، التاريخ، الطب، الحيوان، الأدب، النبات، الفلسفة، الجغرافيا... وغيرها، وقد لا يطَّلع علىٰ ما يقتنيه منها، ويُعلِّل فعلهُ هذا بقوله: «لعلَّه سيأتي مَن ينتفع بها في المستقبل»، وقد صَدَق؛ فقد انتفعتُ بما اقتناه من الكتب قديمًا. وهو متهوِّرٌ جدًّا في شراء الكتب، وقد يَضطرُّهُ هذا التهوُّر في كثيرٍ من الأحيان إلىٰ أن يستدينَ لمكافحةِ صروف الأيام.

وعن الخطَّاط محمد علي صابر العراقي ت١٩٤١ نقرأ في مذكرات الرَّجب: «كان مولَعًا باقتناء الكتب، وإذا اقتنىٰ كتابًا فإنه ينْكبُّ عليه ليستوعبَ ما فيه بنَهمٍ شديد، كأنه يخاف أن يُفلِتَ الكتابُ من بين يديه». ونُقِل عن بعض معاصريه أنه «كان يصرف جلَّ راتبه في اقتناء الكتب»[4].

---

(١) أحمد زكي باشا الملقَّب بشيخ العروبة، ص٣٧. وفي إعادة اكتشاف التراث الإسلامي لأحمد الشمسي، ص٢١٩.

(٢) أحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة، ص٢٩٤.

(٣) قصة مكتبة، ص٢٣.

(٤) هامش ص٨٩، في مذكرات قاسم الرَّجب.

وفي كتاب (سائح في دنيا الله) يُحدِّثنا الكاتب القريب إلىٰ قُرَّائه الحبيب إلىٰ قلوبهم عبد الوهاب مطاوع: «كنتُ أُنفق معظم مصروفي الأسبوعي في شراءِ الكتب، خاصةً خلال عطلة الصيف، فيتبدَّد مصروفي في اليومين الأوَّلين من الأسبوعِ، وأمضي بقيته خاويَ الوفاض أقترضُ من شقيقي الأكبر ما أستعينُ به علىٰ نفقتي، أو أطلب نجدةً إضافية من أمي، حتىٰ تَنبَّه أبي يرحمه الله إلىٰ ذلك، وبدلًا من أن ينهرَني لتبديدِ مصروفي فيما لا يفيد، كما فعل آباءُ بعض زملائي معهم- منحَني تصريحًا بأن آخُذ من مُوزِّع الصحف الذي يأتي إليه كلَّ صباح بالأهرامِ ما أريد من الكتبِ الدورية التي توزَّع مع الصحف، علىٰ أن يُحاسبه الموزع علىٰ ثمنها في المساءِ مع ثمَن الصحيفة، فرفع بذلك عني عِبئًا ماليًّا باهظًا، وشجَّعني علىٰ مُواصلةِ القراءة، وأسهم بذلك في تحديدِ مساري في الحياة. إذ ربما لو كان قد نهَرني أو انتقد سوءَ تصرفي في نقودي كما فعل غيرُه مع أبنائهم لكنتُ قد زهدتُ في القراءةِ في هذه السنِّ المبكرة، واتخذتُ لنفسي خطًّا آخر في الحياة»[1].

أما الكاتب الجبَّار عبَّاس العقاد فأمرهُ مع الكتب والقراءة معلومٌ لدىٰ الجميع، ولكن لا بد من ذكرِ شيءٍ يسير عنه. يكتب مخبرًا عن بداياتهِ في طريق المعرفة واقتناء الكتب: «كان الكتاب من الطبعةِ الأزهرية يُباع بقرشين أو ثلاثة قروش، ويشتمل أحيانًا علىٰ ثلاثةِ كتب بين المتن والحاشية والتذييل. وكانت هذه الكتب تُباع في دكانٍ إلىٰ جانبِ المدرسة من أصنافِ العطارة والحبوب ولوازم أهل الريف، ومنها ما كان يرتفع إلىٰ خمسة قروش، أو إلىٰ عشرة قروش كالمقامات والدواوين.

ولم يكن مصروفي يَزيد علىٰ خمسةِ مِلِّيمات في اليوم، إلا ليُدرك خمسةَ قروش في الأسبوع، أتسلَّمُها كلَّ يوم خميس، فلا أشتري بها مأكولًا أو فاكهة، ولا أذهب

---

(١) سائح في دنيا الله، ص٣٥.

بها إلىٰ ملعبِ البهلوان... فإذا كان معي ثمنُ الكتاب اشتريته لساعته، وإلا أعطيتُ العطَّار قرشين بعد قرشين حتىٰ يتمَّ الثمن المطلوب. وبهذه الطريقة قرأتُ العِقد الفريد، وثمرات الأوراق، والمستطرَف، والكشكول، والمخلاة، ومقامات الحريري، وبعض الدواوين»[1].

وعن العقاد أيضًا في كتاب (عصر ورجال): «كان يُسرف في القراءة، ويحشدُ في بيته مئاتِ الكتب، يشتريها من حُر ماله»[2].

ونجد الصحافي حافظ محمود يكتب عنه: «لقد كان -الكتاب- كلَّ شيء في حياةِ العقاد، كان نصف مُرتبة للرغيف ونصفه للكتاب». ومن أعجبِ ما رواه لنا -حافظ محمود- في هذا الشأن أن العقاد أثناء الحرب العالمية الثانية توسَّط صديقًا له لدىٰ القيادة العسكرية للحُلفاء بالقاهرة (في طلبٍ عجيب بالنسبةِ لمهامِّ هذه القيادة. وكان هذا الطلب هو أن تُحضر له من لندن أحدثَ مؤلفات برناردشو وغيرها من المؤلفات التي ظهرَت في هذه الأثناء، ولا سبيل لتسويقها خارجيًّا في ظروفِ الحرب!)[3].

وإذا أردنا أن نأخذ مثالًا غَربيًّا فإن كولن ويلسون يفرض نفسَه علينا؛ لنأتيَ علىٰ ذكره في هذهِ المساحة، يكتب في (حُلم غايةٍ ما): «كانت العادة عند زيارة أيةِ قرية قريبة منا، أن أسأَل عن المكتبة فيها، وعند عودتنا تكون السيارة في العادة مليئةً بشتىٰ صنوف الكتب». ثم تحدَّث بعدها عن منزله الكبير الذي غصَّ مع الوقت بالكتب ولم يستطع بعد ذلك إضافةَ رفٍّ واحد في أي مكان منه، حتىٰ لو كان في المطبخ!

---

(١) أنا، ص٤٠.

(٢) عصر ورجال، ص٢٤٦.

(٣) المرجع مقال في مجلة الناشر العربي، العدد ١٤ / ١ يوليو ١٩٨٩. المصدر كتاب: عمالقة الصحافة.

وبعد ذِكره نوعيةَ الكتب التي يُحبُّ اقتناءها قال مُخبرًا عن وَلَعه بشراء الكتب: «منذ كنتُ طفلًا أحببتُ شراء الكتب المستعمَلة، وهكذا وجدتُ نفسي في منزلي الجديد الملآنِ كتبًا، كمن حقَّق أحلامه باقتناء ما يُحب من الكتب التي طالما حلَمَ بقراءتها، وقد اقتنيتُ الكتب بلا هوادة، كمن يطلب الخلودَ لأجل أن يتوفَّر له الوقت الكافي لقراءة كل هذه الكتب... عندما بلغتُ منتصف الأربعينات من عمري، أدركتُ أنني لستُ بقادرٍ علىٰ قراءة كل تلك الآلاف من الكتب... وأحسبُ أن هذه الشهوة الجامحة والمنفلِتة تجاه الكتب.. هي شكلٌ من أشكال الجنون في أقلِّ تقدير. هذا ما حصل في نهاية الأمر، إذن: أرىٰ نفسي ساكنًا في منزلٍ يعجُّ بالكتب.. في كل الأمكنة: في المطبخ وغرف النوم ومدخل البيت... وبلغ بي الأمر أنني لم أعد أقرأ أيَّة مراجعات حديثة للكتبِ؛ خشية أن لا أكون قادرًا علىٰ مقاومةِ الإغراء العنيف في إضافةِ المزيد من الكتبِ إلىٰ منزلي المتخَم بالآلاف منها»[١].

وفي موضعٍ آخر: «من الطبيعي للغايةِ أنني أنفقتُ الكثير علىٰ اقتناء الكتب.. ففي عام ١٩٦١ كان في حوزتي خمسة آلاف كتاب.. وفي عام ١٩٦٣ صار لديَّ عشَرة آلاف كتاب.. أما اليوم فقد ارتفع العدد إلىٰ ما يُقارب الخمسة والعشرين ألف كتاب.. وربما كانت هذه الحقيقة توضِّح بما لا يقبل أيَّ شك لِمَ لَمْ نكن ندَّخر أيَّ مال؟!»[٢].

ومن طريفِ أخبارِ عُشَّاق الكتب ما سمعتهُ من أبي إسحاق الحويني في لقاءٍ له، قال إنَّ فرَحه بشراء كتاب (الكامل في ضعفاءِ الرجال) لابن عَديٍّ كان أعظمَ من فرحتِهِ بيوم زواجه، وكان قد اشتراه في اليوم الثاني من زواجه! وعندما قال له المذيع: سوف تُغضِب الأهل منك، قال: لا؛ لأنهم يحبون الكتاب أكثر مني. وكان

---

(١) حلم غاية ما، ص٧٨=٨٠.

(٢) حلم غاية ما، ص٤٢٣.

قد اشتراه بمائة جنيه يوم الاثنين ٢٥/ ٦/ ١٤٠٥هـ، الموافق ١٨/ ٣/ ١٩٨٥م. ومن مَحبتِهِ له أنه قد ينام أحيانًا والكتاب في حضنه![1].

وقبل أن نختم هذا الجزء من المقال، لا بد لنا أن نُشير إلىٰ أولئك الذين يبتاعون الكتبَ بأغلىٰ الأثمان لا ليقرَؤوها، بل ليتباهَوا بطبعاتها القديمة، وليس لنا أن نحكم علىٰ الآخرين أو نتحكَّم في هواياتهم ورغباتهم، ولكنَّنا نقول رأيًا هو من أيسرِ حقوقنا. إذا كان من يفعل ذلك من أهلِ العِلم الكبار الذين دلَّت علىٰ منزلتهم العِلمية آثارُهم ومؤلفاتهم، فقد نجد لهم عُذرًا -وإن كان الأصل من اقتناء الكتب الاستفادةَ منها لا أن تُعامَل معاملة التُّحَف في المكتبة-، أما إذا كان هذا المتتبِّع للطبعات القديمة ليس ممَّن شَهِد له واقعُه بالمعرفةِ والعِلم، فهذا العِشق -وللناس فيما يعشقون مذاهبُ- لن يدلَّ إلا علىٰ عميقِ غَوصهِ في مستنقعات الجهل! نسأل الله السلامة.

وهنا أذكر ما كتبه المازني في مقالِ (الشهرة والجماهير): «خطر لي وأنا أُدير هذا في نفسي أنَّ في العالمِ من أبناء اللغة العربية أكثرَ من مائةِ مليون، وأن مِن هؤلاء نحوَ عشَرةِ ملايين يقرؤون ويكتبون، فكم من هؤلاء يقرأ ابنَ الرومي والمتنبيَ والمعرِّي والشريف وأبا تمام والبُحتري وأبا نُواس وغيرَهم وغيرهم...؟ لا أكثر من بعضةِ آلاف قليلة. وجُلُّ هؤلاء يقتنون الكتب كما يقتنون التُّحفَ ويرصُّونها للزينة لا للاطلاع، ويتخذونها كما يتَّخذون السجاجيدَ والزهريَّات والصورَ وما إلىٰ ذلك»[2].

والعقاد في مقالٍ له أيضًا عن سوق الورَّاقين يكتب: «هـذه كتبٌ جديدة قديمة، معروضة للبيع بعد طولِ احتباسها علىٰ الرفوف، وهي جديدة لأنها غيرُ

(١) فيديو في اليوتيوب تحت عنوان (جَولة في مكتبة الشيخ الحويني) الحلقة الرابعة.
(٢) مجلة الرِّسالة / العدد ٢٩٥ / ٢٧ فبراير ١٩٣٩م.

مفضوضة ولا مقروءة، وقديمةٌ لأنها اشتُرِيَت منذ عهدٍ بعيد. لماذا اشتراها المشتري وهو لا يقرؤها، ولعلَّه لم يكن ينوي أن يقرأها؟ هنا العجبُ من بعض الأخلاقِ والعادات. فقد عرَفتُ أناسًا يُغالون بشراء الكتب علىٰ قدر قِدَمِها في الطبعِ ونُدرتها في الأسواق؛ وأناسًا يَبذُلون في الكتابِ من الثمن علىٰ قدرِ سَعة الهامش وصلاح الكعب للتجليد!»[1].

ومن الأخبارِ الشهيرة في هذا الباب ما أوردَه صاحب نَفْح الطِّيب، وإليك الخبر: «قال الحضرمي: أقمتُ مرةً بقُرطبة، ولازمتُ سُوق كتبها مدَّةً أترقَّب فيها وقوعَ كتاب كان لي بطلبهِ اعتناء، إلىٰ أن وقع وهو بخطٍّ جيِّدٍ وتسفيرٍ مَليح[2]، ففرحتُ به أشدَّ الفرح، فجعلتُ أزيد في ثمنهِ، فيرجع إليَّ المنادي بالزيادةِ عليَّ، إلىٰ أن بلغ فوق حدِّه، فقلتُ له: يا هذا أرِني مَن يَزيد في هذا الكتاب حتىٰ بلَّغه إلىٰ ما لا يُساوي، قال: فأراني شخصًا عليه لباسُ رياسة، فدنَوتُ منه، وقلت له: أعزَّ الله سيِّدَنا الفقيه، إنْ كان لك غرضٌ في هذا الكتاب ترَكتُهُ لك فقد بلغَتْ به الزيادة بيننا فوق حدِّه؛ قال: فقال لي: لستُ بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكنِّي أقمتُ خِزانةَ كتب، واحتفلتُ فيها لأتجمَّل بها بين أعيانِ البلد، وبقي فيها موضعٌ يَسَع هذا الكتاب، فلمَّا رأيتُهُ حسَن الخط جيِّدَ التجليد استحسنتُه، ولم أُبالِ بما أزيد فيه، والحمدُ للهِ علىٰ ما أنعم به من الرِّزقِ فهو كثير؛ قال الحضرمي: فأحرَجَني، وحَمَلَني علىٰ أن قلتُ له: نعم لا يكون الرِّزقُ كثيرًا إلَّا عند مثلِك، يُعطىٰ الجوز مَن لا عنده أسنان! وأنا الذي أعلمُ ما في هذا الكتاب، وأطلبُ الانتفاع به، يكون الرِّزق عندي قليلًا، وتَحُول قلَّةُ ما بيدي بيني وبينه»[3].

---

(١) الرِّسالة / العدد ٣٩٥ / ٢٧ / يناير ١٩٤١م.

(٢) التسفير: التجليد [هامش النفح].

(٣) نفحُ الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري، ج١، ص٤٦٣.

وهُنا تذكَّرتُ تلك الأبياتَ الرائقة المنسوبة للشافعي -أو لصالح عبد القدُّوس-:

فإذا سمِعتَ بأنَّ مجدودًا حَوَىٰ عُـودًا فأثمرَ في يديـهِ فصـدِّقِ
وإذا سمعتَ بـأنَّ محرومًا أتىٰ مـاءً لِيَشـرَبَهُ فغـاضَ فحقِّقِ
لو أنَّ بالحِيَل الغِنىٰ لوَجَدتَني بنُجومِ أرجـاءِ السَّمـاءِ تَعَلُّقي
لكنَّ مَن رُزِق الحِجا حُرِمَ الغِنىٰ ضِـدَّانِ مُفترِقـانِ أيَّ تـفـرُّقِ[1]
وأحَـقُّ خلـقِ الله بالـهمِّ امـرؤٌ ذو هِـمَّـةٍ يُبْلَـىٰ بـرِزقٍ ضيِّـقِ
ومِن الدليلِ علىٰ القضاءِ وحُكمِه بؤسُ اللَّبيبِ وطِيبُ عيشِ الأحمقِ![2]

ومما نحفظه لحبيب:

ينالُ الفتىٰ من عيشهِ وهو جاهلٌ ويُكدي الفتىٰ في دهرهِ وهو عالمُ
ولو كانت الأرزاقُ تجري علىٰ الحِجا هلكنَ إذن من جهلِهنَّ البهائمُ
فلم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ ولا المجدُ في كفِّ امرئٍ والدراهمُ[3]

* * *

إذا أردنا الوقوفَ علىٰ أخبارِ زبائن المكتبات وباعتها، ومعرفةَ بعضِ طبائعهم وغرائبهم؛ فلا بد لنا من مجالسةِ الكتبيِّين أو قراءة ما وثَّقوه في مذكراتهم ويومياتهم. لذلك من الصعب جدًّا مجاوزةُ مذكرات الكُتبي الشهير قاسم الرَّجب.

---

(١) يقول المتنبي -من قصيدته في رثاء جَدَّته- :
وما الجمعُ بين الماءِ والنارِ في يدي بأصعبَ من أن أجمع الجدَّ والفهما
(٢) شذرات الذهب في أخبارِ من ذهب، ج٣، ص٢٣.
(٣) من قصيدتِه التي مطلّعها: «ألم يأنِ أن تروىٰ الظِماء الحوائمُ».

كتبَ في مذكراتهِ عن المحامي عبَّاس العزاوي قائلًا: «وكان أكبرَ زَبونٍ للسوق وللكتاب»، وأنه كان يتردَّد إلىٰ السوق أربعَ مرات أو أكثر في كل يوم، فلا يفوته كتابٌ مطبوع أو مخطوط.

ويُخبرنا بعدها عن ذلك الزَّبون العجيب الذي علىٰ كثرةِ ما ابتاعه من الكتبِ لم يستفِدْ شيئًا، بل ظلَّ علىٰ جهلهِ وعاميَّتِه، وفي خبَرهِ عبرةٌ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] من أهل القراءة والكتب.

يقول الرَّجب: «وأشهرهم رضا النقاش أو رضا الأعرج كما يُعرَف بيننا، فهذا لا يدعُ كتابًا إلا اقتناه، لا سيَّما الكتب الحديثة، وبوجهٍ خاص ما يبحث منها في الشؤون الجنسية، ومن شدةِ اهتمامه بالكتبِ وحرصه علىٰ اقتنائها فإنه يمرُّ يوميًّا بالمكتبات كافةً كبيرِها وصغيرها، وحتىٰ باعة الصحف في الأكشاك، ثم ينجو من سؤاله عن الكتب. وإذا بلَغه أن إرساليةً ستصل إلىٰ واحدٍ منهم فإنه لا يذهب في ذلك اليوم إلىٰ بيته، بل يبقىٰ مُلازمًا له ولو إلىٰ نصف الليل، فيفتح الصناديقَ بنفسه ويحملها كلَّها ويُنظمها فيُساعدنا جميعًا لكي يخرج بكتابٍ من تلك الكتب يشتريه بتخفيضٍ بسيط، ويذهب به مسرورًا، وأنا واثقٌ - بل أجزم- بأنه لم يفتح كتابًا من كتبِه أو طالَعه منذ عرَفْناه، وتراه يمزح مع كلِّ صاحب مكتبة فيؤول به الحال إلىٰ (الشتُّومة) وبَذيء الكلام والتندُّر من أهل المكتبات كافة، والكل يعرفونه فلا يزعلون منه، ومع مُجالسته أربابَ المكتبات وأكثرَ الأدباء والعلماء فإنه ما زال عاميًّا لم يستفد شيئًا مما اقتنىٰ».

ومن أطرفِ ما ذكر الرَّجب من زبائن الكتب العلامة الجليل والفقيه الكبير الشيخ أمجد الزهاوي، الذي كان يقتني كُتبَ الحديث والفقه والتفسير، وقليلًا من كتب التاريخ والأدب، وعندما يختار الكتب ويريد شِراءها فإنه لا يُساوم علىٰ أثمانها علىٰ الرغم من أن أصحاب المكتبات لا يَقرُّ لأسعارهم قرار.

وعند تمام الموافقة علىٰ شراءِ صفقة الكتب فإنه لا يدفع ثمنها حتىٰ يُلقِّن البائع صيغةَ البيع الشرعية؛ كأن يقول له: (إنني اشتريتُ منك كذا وكذا بملغٍ قدره كذا، فهل وافقتَ؟) فيقول البائع: وافقتُ، فيدفع إليه الثمنَ ويقول له: هل قبضتَ؟ فيقول البائع: نعم، قبضتُ، فيتسلَّم الكتب!

وذكر الرَّجب عن الشيخ أمجد الزهاوي بأنه «إذا أراد الدخول إلىٰ المكتبة، فإنه لا يدخلها قبل أن يخلعَ نعلَيْه ويضعَهما تحت إبْطِه، وهو بهذا يتحاشىٰ أن يدوسَ ورقة؛ إذ ربما كان في تلك الورقة لفظُ الجلالة».

ولْيحذَر الباعة في المكتبات من أمثال النَّحْوي ابن الخشَّاب؛ فإنه كان زَبونًا من نوعٍ خاص! مما ذُكر عنه أنه إذا حضر سوقَ الكتب وأرادَ شراء كتابٍ غافَلَ الناسَ وقطع منه ورقة، وقال: «إنه مقطوع!» ليأخذَه بثمنٍ بَخْس[1].

وإذا كان الشيخ الزهاوي لا يُساوم علىٰ أثمان الكتب عند شرائها فإن الشيخ جواد الدجيلي ت١٩٥٩ يُناقضه تمامًا؛ إذ كان -كما يقول الرَّجب- يُساوم حتىٰ يَعْرق الجبين! قال عنه: «ومن أصدقاء السوق وزبائنه الذين كانوا لا ينقطعون يومًا عن التردُّد إلىٰ المكتبات، الشيخ جواد الدجيلي المحامي، وكان لا يشتري كتابًا إلا إذا كان مطبوعًا في بولاق؛ فهو يُفضِّله علىٰ غيره حتىٰ لو فاقه تحقيقًا وحُسنَ إخراج، وكان يُساوم حتىٰ يَعرَق الجبين، وربما كان لَجوجًا في طلبهِ الكتبَ، فإذا اشترىٰ يُطول الكلام علىٰ السعر شهرًا أو أكثرَ حتىٰ يُعجِزَك فتُضطَر إلىٰ بيعه، وبعد كل هذا فإنه سوف يقرأ لك نبذًا من المقامات مُبتدِئًا بإذا خُيِّرتَ بين دُرّةٍ مفقوطةٍ ودرةٍ منقودة فمِلْ إلىٰ النقد، أي إنه سوف يدفع إليك نقدًا، فلا يشتري بالنسيئة»[2].

---

(١) معجم الأدباء، ج٤، ص١٤٩٥.

(٢) مذكرات الرَّجب، ص٥٠-٥١.

وهناك كلمة لافتة لجيمس لاكنجتن الـذي كـان يُدير مكتبة (تيمبل أوف ذا ميوزس) الواقعةَ في (فينسبري سكوير) في لندن، والتي كانت تُعدُّ إحدىٰ أجملِ مكتبات القرن الثامن عشر. كان هذا الرجل يرفض التخلُّصَ من الكتب غير المَبيعة، ويعمد إلىٰ بيعها بأثمانٍ أقلَّ من سعرها الأصلي؛ لذلك قال كلمته التي كانت بمنزلةِ القاعدة عندَه: «الكتب هي مفاتيحُ المعرفة والعقل والسعادة، ويحقُّ لكلِّ فرد، أيًّا كان وضعُه الاقتصادي، أو طبقتُه الاجتماعية، أو جنسه، أن يحصل عليها بثمنٍ زهيد»(١).

وهذه الكلمة تُجبِرُني لأذكرَ ذلك الصديق الذي روىٰ فِعله أنيس منصور ولم يُسمِّهِ، يقول عنه: «كان لنا صديقٌ من أغربِ الشخصياتِ وأهمِّها في مساعدتنا علىٰ شراء الكتب وقراءتها، وكان في أول حياته يعمل في مكتبةِ (سميث).. وكنا طلبةَ لا نقدر علىٰ شراء كل ما نحتاج إليه، فكان يُعطينا الكتب الجديدة التي تمزَّقَت أوراقها بسببِ الشحنِ والتفريغ ولا يتقاضىٰ ثمنَها، وحتىٰ عندما أصبَحت عنده مكتبة كان يُيسِّر علىٰ أصدقائهِ شراءَ الكتب، وكثيرًا ما يتردَّد في طلبِ ثمنها»(٢).

ومما لا شكَّ فيه أن الزَّبون المفضَّل لدىٰ أهل المكتبات هو الذي يدفع مبالغَ طائلة في الكتب؛ ولهذا كان إرنست هيمنغواي زَبونًا مفضَّلًا ومحبوبًا عند مكتبة شكسبير الباريسية، كتبَت سيلفيا بيتش عنه: « كان الزبون الذي أحببناه والذي لم يُوقِعْنا في مشكلات، شابًّا يُمكنك رؤيته في كل صباح بزاوية شكسبير أند كومباني يقرأ المجلات، أو للكابتن ماريات، أو غيرها من الكتب. كان ذلك الزبون هو إرنست هيمنغواي، الذي قدم إلىٰ باريس في نهاية ١٩٢٠م حسبما أذكر. (الزبون المفضل) كما أطلَق علىٰ نفسه، كان لقَبًا لا يُمكن لأحد منازعتُه عليه. حمَلْنا إجلالًا عظيمًا

---

(١) زيارة مكتبات العالم، ص٤٥.

(٢) من مقال (إنها دواوين لشاعر بكل اللغات) - أنيس منصور - الشرق الأوسط.

لزبون لم يكن زائرًا عاديًّا فحسب، بل يُنفق أموالًا علىٰ الكتب، وتلك صفة مُرْضية لصاحب مكتبةٍ صغيرة...»[1].

ونجد شون بيثل يذكر من صفات زَبونه المثالي مستر ديكن أنه كان يدفع ثمَن الكتب التي يشتريها دون مُساومة. نقرأ في يومياته: «الزبون الأول (في الساعة ١٠:٣٠ صباحًا) كان واحدًا من زبائننا المنتظِمين القلَّة: مستر ديكَن، رجلٌ حُلو الحديث في منتصف أعوامه الخمسين، بخطٍّ الخصر المعتاد الذي يُميِّز الرجالَ في منتصف العمر غير النشيطين؛ شعره الأسود الخفيف ممشَّط علىٰ قمةِ رأسه بالطريقة التي يُحاول بها الرجالُ إقناعَ الآخرين أنهم ما زالوا يملكون عُرفًا غزيرًا. ملابسه كما هو واضح مفصَّلة جيِّدا، لكنه لم يرتدِها كما يجب: ثمة انتباهٌ صغير لتفاصيل مثل ذيل القميص، أزراره، أو أزرار البنطلون الأمامية. يبدو كما لو أن أحدًا حشا ملابسَه في مدفعٍ وأطلقها عليه، ومهما تكن الطريقة التي نزلَت بها عليه فإنها بقيَت عالقة. من نواحٍ عديدة، هو زَبونٌ مثاليٌّ؛ لا يتصفَّح الكتب أبدًا ولا يدخل أبدًا إلا إذا كان يعرف ما يريد. طلبهُ يكون عادةً مُرفقًا بقُصاصة من صحيفةِ التايمز فيها نقدٌ للكتاب، يُقدِّمها لمن يكون مِن بيننا علىٰ الكاونتر. لغته مصقولة ومنتقاةٌ، ولا يخوض في حديثٍ أبدًا لكنَّهُ ليس بالفظِّ أبدًا ويدفع ثمن كتبه دائمًا دون مساومةٍ. عدا هذا، لا أعرف أيَّ شيءٍ عنه، ولا حتىٰ اسمه الأول. في الواقع، غالبًا ما تساءلتُ لماذا يطلب الكتب من محلِّي بينما يستطيع أن يطلبها عبر أمازون. ربما لا يملك كومبيوتر، ربما لا يريد واحدًا. أو ربما هو من سلالةٍ منقرضةٍ تفهم أنَّ عليها، إذا ما أرادت للمكتبات ألَّا تفنىٰ، أن تدعَمها[2].

(١) مكتبة شكسبير الباريسية، ص١١١.

(٢) يوميات بائع كتب، ص١٨.

وكما ذكرَ بيثل في يومياته بعض النماذج المبهجة من الزبائن لباعة الكتب، فقد ذكَر أيضًا نوعًا من الزبائن مُبَغَّضًا إلىٰ أنفسهم، ومنهم ذلك العجوز الذي دخل عليه في تشرين الثاني ٢٠٠١، في الشهر الذي اشترىٰ فيه بيثل المكتبة، يقول: «كان رجلٌ عجوز يتصفح الكتب في قسمِ تاريخ الملاحة. جاء إلىٰ الكاونتر وسأل: (أين تضع المشعلة)؟[1] احترتُ، سألتُه ماذا يقصد. أجاب (من أجل كتبك. أنا لم أرَ في حياتي نُفايةً مثلها. كلُّها لا تصلح سوىٰ للمشعلة). كان ذلك أولَ لقاءٍ لي بزبونٍ فظٍّ بأصالةٍ، وحينَذاك كنتُ لم أزَل مُفعمًا بالشكِّ حول المكتبة، المخزون وما كنت أفعله. لحسن الحظ، كان زَبونٌ آخَرُ يشهد الحدث، وشاعرًا بضيقي، انبرىٰ قائلًا: (في الحقيقة، هذا أفضلُ قسم تاريخِ ملاحة رأيته يومًا في أي مكتبة. إذا كان لا يعجبك فيَحسُن بك أن تغادر). غادر الرجل العجوز»[2].

وفي يومياتهِ يُعرِّض بيثل بأولئك الذين يُبالغون في ظاهرهم بمحبَّةِ الكتب والقراءة وهم أبعدُ الناس عنها، فيقول: «الناس المولَعون بالكتب حقًّا هم نُدرةٌ من النوادر، برغم وجود أعدادٍ كبيرةٍ ممن يدَّعون ذلك. مثل هؤلاء من السهل التعرُّف عليهم، غالبًا يُقدِّمون أنفسهم بوصفهم (أهل كتب). قد يرتدون تيشيرت، أو يحملون حقيبةً، عليها شعاراتٌ تؤكد بالضبط حُبَّهم للكتب، لكن الوسيلة الأكثر تأكيدًا للتعرُّف عليهم هي أنهم لا يشترون كتبًا أبدًا!»[3].

وقد ذكر خبرَ تلك المرأة التي دخَلتَ مكتبتَه وهي تصيح «أنا في بيئتي! كتب!». يقول: «ثم واصلَت الصُّراخ بأسئلةٍ موجَّهةٍ لي لمدة ساعة وهي تتهادىٰ في أرجاء المكتبة مثل (بجعةٍ جليلة) كما يصف غوغول زوجة سوباكيفيتش في (النفوس

---

(١) Bonfire : نار تُضرم في الهواء الطلق - المورد. [هامش المترجم].

(٢) يوميات بائع كتب، ص١٤٣.

(٣) يوميات بائع كتب، ص٥٩.

الميِّتة). وكما هو متوقَّع، لم تشترِ شيئًا»[١].

وهذه السيدة لا تبعد عن حالِ جمع غفير ممن نراهم في مَعارض الكتب يتهادَون في الممرات بلا هدف، ولعلَّهم لو أرادوا أن يُظهروا لغيرهم معرفتَهم بالكتب فلن يُجاوزوا حالَ أولئك الذين ذكرَتْهم جين كامبل في كتابها عن زبائن متاجر الكتب وأقوالهم الغريبة! ومما ذكرَتْ قولَ زبون دخل متجر أدنبرة يسأل عن كتابٍ بلونٍ أخضر كي يتناسقَ مع ورق التغليف الذي اشتراه![٢].

وآخَر دخل متجر ريبنغ يارنز للكتب الواقعَ أمام محطة هايغيت شمال لندن سائلًا البائعةَ: «إنني أبحث عن كتاب بهذا الحجم (يشير بيدَيه للحجم الذي يريده). لديَّ مساحةٌ فارغة في الرفِّ وأريد للكتاب أن يُغطِّيَ هذه المساحة. إنها تُزعجني فعلًا». فلما سألته البائعة: ما نوع الكتاب الذي تُفضله؟ أجاب: لا يُهمني نوعه طالما أن حجمه مناسب[٣].

ونختم بذلك الزوج الذي دخل المتجر آنِفَ الذكر قائلًا للبائعة: أودُّ أن أشتريَ كتابًا لزوجتي. ردَّت البائعة: أي نوع من الكتب؟ قال: لا أعلم. كتاب.. ورديٌّ؟ النساء يُحبِبن اللون الوردي، أليس كذلك؟![٤].

* * *

والحديث عن زبون المكتبة مرتبطٌ بالحديثِ عن البائع فيها، ومما اشتُهِر -للأسف- بين كثيرين من زبائن المكتبات جهلُ الباعة فيها! والجهل علىٰ أيةِ حالٍ قبيحٌ في الإنسان، ولكنه يكون أشدُّ قبحًا إذا اتّصف بهِ بائعُ كتب أو الموظفُ بالمكتبة.

---

(١) يوميات بائع كتب، ص١٠٨.

(٢) أشياء غريبة يقولها الزبائن في متاجر الكتب، ج١، ص١٨.

(٣) أشياء غريبة يقولها الزبائن في متاجر الكتب، ج١، ص٩١.

(٤) أشياء غريبة يقولها الزبائن في متاجر الكتب، ج٢، ص٤٢.

ومن التجارِب الشخصية؛ في معرِض الرياض الدولي للكتاب سنة ١٤٣٨هـ، كنتُ في جَناح دارٍ شهيرةٍ جدًّا (لُبنانية)، ومن عادتي ممازحةُ البائع وفتحُ حوارٍ معه، وذلك أني أحرِص دائمًا علىٰ خلقِ جوٍّ من التعاملِ الإنساني في هذا العُرس الثقافي؛ لكي لا نكون مجردَ آلتَين مطحونتين في عصرِ المادة البغيض؛ بكم هذا الكتاب؟ ب٦٠، تفضل.. ثم فراق صامت دون وداع. المهم، سألتُ البائع عن كاتبٍ مشهورٍ كُتبه لا تُطبَع إلا عندهم، وذكرتُ له كتابًا من كتبه ذكَر فيه فكرةً وأردتُ النقاش فيها من بابِ الإثراء المعرفي، ولكن قبل أن أبدأ سألتُهُ: هل قرأتَ الكتاب؟ فأجاب: لا. فقلتُ: قرأت أيَّ كتاب له؟ -لأن المؤلِّف يُكرِّر الفكرة في كل كتبه تقريبًا-، فأجاب، وهذهِ كلماته بدون تحريف: «لا، ما لي في وَجَع الراس!». فأوجعَني رأسي من قوله، ولم أبتَعْ من هذه الدار في تلك السنة أيَّ كتاب لأسبابٍ أخلاقية لن أزعج القارئَ بها.

يقول المسيري في رحلتهِ: «وعرَفتُ مكان المكتبة الحجازية، وكان صاحبها رجلًا مثقَّفًا يُساعدنا علىٰ اختيار الكتب (علىٰ عكسِ بائعي الكتب في هذه الأيام الذين يتَّسمون بالجهل المطبق، فاهتمامهم بالكتاب ينتهي عند سِعره ولونه!)»[1].

والرَّجب يُوثِّق شهادته حول هذا الموضوع قائلًا: «ويلاحظ جهل باعة الكتب، فإنَّ الكثيرَ منهم لا يعرف القراءة أو الكتابة، والبعض الآخَر دخل المدارسَ الليليَّة أخيرًا فتعلَّم قليلًا، ومن كان يعرف الكتابة والقراءة لم تكن عنده الرغبةُ في قراءة شيء»[2].

---

(١) رحلتي الفكرية، ص١٣٧.

(٢) مذكرات قاسم الرَّجب، ص٥٥.

وعندما ذكر -أعني الرَّجب- نعمان الأعظمي صاحب المكتبة العربية وهي كُبرىٰ المكتبات في السوق والعراق كافةً، وأنه عارفٌ بالكتب، ذوَّاقٌ باختيارِ ما ينشره ويطبعه من الكتب القديمة، قال: «علىٰ أنَّ الرجل لم يكن يُحبُّ المطالعة!»[1].

وفي موضعٍ آخر يقول: «وفي سنة ١٩٣٧ استقدمَت وزارة المعارف مديرَ مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت ليتولَّىٰ تنظيم المكتبة العامة في بغداد وفهرسَتها، فاتصل بي وأرادني أن أُعِينه علىٰ معرفةِ الكتب وأجزائها؛ وسبب ذلك أن هذا الرجل درَس النظريات، وتعلَّم طريقة ديوي العشرية في تصنيفِ الكتب؛ شأنه في ذلك شأن مديري المكتبات العامة ومُلاحظيها عندنا، فهُم في الغالبِ لا يعرِفون شيئًا ممَّا في بطونِ الكتب التي تحت تصرُّفِهم وفي مُتناوَلِ أيديهم، فإنْ سألتهم أن يدلُّوك علىٰ مرجعٍ من المراجع أو موضوعٍ من الموضوعات استعصىٰ عليهم الأمر؛ فكلٌّ منهم يُشبه الآلة الصمَّاء التي لا تَعي ما تفعل، وما ذلك إلا لأنهم لا يُطالِعون فيوسعون معلوماتهم ويُنمون ثقافتهم وينتفعون مما في مكتباتهم من كتب.

إن المطلوب ممن يَشغَل هذه الوظيفةَ أن يكون عونًا للسائل، ومرجعًا للَّذين يرتادون هذه المكتبات، ولا يكتفي بنظريات ديوي. ولقد رأيتُ العجب من بعض موظفي تلك المكتبات، ولمستُ فيهم الضَّحالة والجهل في معرفةِ الكتب»[2].

هلَّا اقتدىٰ باعةُ الكتب بأولئك الذين ذكَرهم زوران جيفكوفيتش قائلًا: «هؤلاء ليسوا مجردَ باعة متجولين لا يعرفون عن بضاعتهم إلا بعض المعلومات اليسيرة. يرىٰ الشخص مظهرهم أشعثَ شبيهًا بالمتشرِّدين ويرىٰ المكانَ الذي يعرضون بضاعتهم فيه فيَحتقرهم، لكنه إنْ تبادل بِضع كلماتٍ معهم سيكتشف بسرعة أنهم

---

(١) مذكرات قاسم الرَّجب، ص٣٨-٣٩ وكان الأعظمي إذا باع كتابًا يتغزَّل به، ويطرق مجلدًا بمجلد ليظهر له صوتًا كما يفعل باعةُ الأحذية، ويصيح (كل الصيد في جوفِ الفرا).

(٢) مذكرات قاسم الرَّجب، ص١٤٩-١٥٠.

خبراءُ ضَليعون بعالم الكتب. فعندما تُبدي اهتمامًا بأحد الكتب المعروضة، ينبري البائعُ بتقديم كَنزٍ من المعلوماتِ عن المؤلف، والناشر، والنقد الذي تلقَّاه الكتاب، وآراء القرَّاء به، والطبعات السابقة أو اللاحقة له. بل قد تسمع أحيانًا تاريخًا مفصَّلًا عن نسخةٍ محدَّدة، تكون أكثرَ متعةً وإثارة من بقية النسخ. وكانت هذه المعلومات صحيحةً ودقيقة، كما لو أنك قد اطَّلعتَ عليها في موسوعةٍ أدبية. ولا شيء لدىٰ هؤلاء الباعة يُخفَىٰ أو يُدبَّج ليبدوَ أكثر إثارةً من حقيقته، كما هو متوقَّع من أولئك الذين لا يُهمهم سوىٰ الترويج لبضائعهم. بل إنك أحيانًا تشعر بأنهم يقصدون بما يحكونه لك ثَنْيَك عن شراء الكتاب!»[1].

ولكي نهرب من فخِّ الإفراط في السلبية؛ نقول: من الملاحَظ في عصرِنا تبدُّلٌ واضح في الحال؛ فإننا نجد اليوم بعض المكتبات يُشرِف عليها شبابٌ مجتهدون علىٰ درايةٍ بالكتبِ وفحواها، وما إن تتجاذب مع أحدهم أطرافَ الحديث حتىٰ يُبهج روحك بسَعة اطِّلاعهِ وإلمامهِ بمحتوىٰ جُلِّ ما يبيعه من الكتب. وأخصُّ أصحاب المتاجر الإلكترونية لبيع الكتب؛ فإن جُلَّهم من الشبابِ الطامحين الذين لم يبنِ واحدُهم قصره العامَّ لبيع الكتب إلا من طوبِ المعرفة الشخصية.

* * *

وما دُمنا لم نخرج من المكتبةِ ولا نزال بين أرفُفِها؛ فلا بأس بإثبات خبرِ العقاد عندما عثرَ علىٰ كتابٍ له عليه تعليقاتٌ مهمَّة بعد فقده بخمسٍ وعشرين سنة! يقول: «ولو علم بائعُه سِرَّه عندي لغالىٰ بثمنه، ولكنه أعطانيه وهو مُفرِّط فيه مسرورٌ بما نقَدتُه من ثمنٍ قليل بالقياس إلىٰ رغبتي فيه، كثيرٍ بالقياس إلىٰ رغبة البائع في تصريفه»[2].

---

(١) المكتبة، ص٨٠.

(٢) مجلة الرِّسالة، (في سوق الوراقين) - العدد ٣٩٥ - ٢٧ يناير ١٩٤١.

ومن الطرائف ما ذُكر عن الكاتب الساخر برناردشو من أنه كان يُقلِّب بعض المجلدات في إحدىٰ المكتبات، فعثَر علىٰ كتابٍ من تأليفه. فلما فتحه قرأ عبارة إهداء مكتوبة بخطٍّ يده إلىٰ صديقٍ له، فأدرك أن الصديق باع الكتاب الذي أهداه إياه إلىٰ المكتبة. فما كان من شو إلا أن ابتاع كتابه من المكتبة ثم أرسله مرةً أخرىٰ إلىٰ صديقه، بعد أن كتب عليه إهداءً جديدًا قال فيه: «مع تحياتٍ متجددة من جورج برنارد شو!»[1].

وإياك أن تفعل مثل فعل صديقُ برناردشو هذا؛ فإن للإهداء قيمةً ثمينة لا يَجمُل -بل يَقبُح- أن تَبخسَه إياها. وللدلالة علىٰ قيمة الإهداء؛ أنقل ما كتبه عباس خضر في كتابهِ (هؤلاء عرَفتهم) من ترجمةِ محمد سعيد العريان، يقول: «كان سعيد العريان من النوعِ الذي يبحث عن شخصيةٍ كبيرة يتعلَّق بها، وقد استنفدَتْ علاقته بالرافعي أغراضًا بعد وفاةِ الرافعي وكتابة مقالاته عن حياتهِ بعنوان (حياة الرافعي) نُشِرَت بالرِّسالة ثم جُمعت في كتابٍ أعطاني نسخةً منه من غير إهداءٍ مكتوب، فتأثرتُ في نفسي: هل كان ذلك (جَلْيطة) منه؛ إذ كان استصغارًا لشأني؟ كنتُ طالبًا في دارِ العلوم، وفي مرةٍ من مرَّات شدتي وأزماتي المالية بعتُ تلك النسخة لطالبٍ زميل بخمسة عشر قرشًا، وكان ثمنها المسعر عشرين قرشًا. قلتُ لنفسي: لقد قرأته فليس بي حاجةٌ إلا إلىٰ ثمنه، وفي أعماقي إرضاءٌ لنفسي لعدمِ الإهداء المكتوب»[2].

وقد وجد عباس خضر يومًا كتابًا من كتبه وعليه إهداءٌ له يُباع ضمن كتبٍ أخرىٰ في سوق الأزبكية بثلاثةِ قروش، وهذا الكتاب كان قد أهداه لرجلٍ في منصبٍ كبير، فتعجَّب من ذلك، فيقول: «هداني التفكير إلىٰ أن يكون أحدُ العاملين بمكتبهِ من السُّعاة والفراشين قد (لملم) ما هناك من كتبٍ وأوراق وباعها بالأقة أو الكيلو. إنها كارثةٌ علىٰ أي حال»[3].

---

(١) مجلة الهلال/ العدد ٩ / ١٩٤٧. و(من كتبي - اعترافات قارئة عادية) ص٦٩ - آن فاديمان.
(٢) هؤلاء عرَفتُهم، ص١٢٠.
(٣) ذكرياتي الأدبية، ص٨٢.

ولا أظن حقيقة الأمر فيما هداه تفكيرُه إليه! وإليك خبر رواية (رادوبيس) لنجيب محفوظ؛ فإنه يشرح الكثير.

عندما صدرَت الرواية كان نجيب محفوظ فرِحًا بها جدًّا، فيُخبرنا عبد الحميد السحَّار قائلًا: «وتم طبع القصة، وجاء نجيب محفوظ إلىٰ المكتبةِ وفي جَعْبتهِ قائمةٌ بأسماء جهابذة الأدب الذين سيُهدي إليهم قصتَه، وجلس يتفنَّن في الإهداء، ويُحسِّن خطَّه وهو بادي البِشْر، وإنها لَأجمل لحظة في حياةِ الأديبِ الناشئ تلك التي يجلس فيها يخطُّ علىٰ الصفحةِ الأولىٰ أسماءَ العمالقة الذين يرفع إليهم جهد الليالي والأيام!»[1].

ولكن ماذا كان بعد ذلك؟ يُكمل السحَّار: «في ذاتِ يوم، ذهبتُ أنا ونجيب إلىٰ إحدىٰ المكتبات لشراء بعض الكتب، فلفَتَ نظرَنا وجودُ نسخةٍ من قصةِ (رادوبيس) فأخذناها فرحين، وما إنْ فتَحنا غلافها حتىٰ عَلَت الدهشةُ الوجوه؛ كانت النسخة من النسخِ التي أهداها نجيب إلىٰ أحدِ العمالقة وكلُّ ما يرجوه أن يتفضَّل العبقري الكبير بقراءتها، ولم يَدُر بخلدِهِ أبدًا أنه سيجدها يومًا بين الكتبِ المعروضة للبيع. ولم نجد تفسيرًا معقولًا لوجود النسخة المهداة في مكتبةٍ عامة، فدَفَعنا الفضولُ لسؤال صاحب المكتبة، فإذا به يُقرِّر في بساطةٍ أن العبقري الكبير قد اعتاد أن يُبدل الكتب التي تُهدىٰ إليه بكتبٍ هو في حاجةٍ إليها، ومنذ ذلك اليوم تعلَّمتُ ألَّا أُهديَ العباقرة كتبًا، فقد قرَّ في ضميري أن الكتاب الذي يُهدىٰ لا يُقرَأ!»[2].

* * *

الكتاب اليوم -كما قال دوهاميل- إنْ لم يكن الأداةَ الوحيدة للثقافة الحقيقية فهو بلا ريبٍ الأداةُ الأساسية. لذلك علىٰ الشعوبِ الواعية والتي تسعىٰ إلىٰ السموِّ

(١) صور وذكريات، ص١٩٠.
(٢) صور وذكريات، ص١٩٦.

والدرَجات السامقة في سُلَّم الحضارة أن تهتمَّ بداءةً وقبل كل شيء بالكتاب؛ لأنه أهمُّ وسيلة لتنوير العقل، وإذا استنار العقل قادَ صاحبه إلىٰ النهضةِ المرجوَّة.

وكيف يكون الاهتمام بالكتاب؟ بدعم القائمين علىٰ طباعتهِ ونشره وبيعه. لا بد للدولةِ المُتحضِّرة إذا أرادت بلوغَ قُلل الأمجاد أن تُذلِّل الصِّعاب في طريقِ تجارة الكتاب.

يقول الكاتب الموسوعي المثقَّف علي أدهم: «ما أحسِبُ أنَّ هناك خِلافًا في أنَّ الكتاب عاملٌ هام من عواملِ الحضارة الحديثة، وأداةٌ من خيرِ أدوات التثقيف، وأن تجارة الكتب تؤدِّي خدمةً جليلة للمُجتمع الإنساني، وأن مِن حقِّها أن تُيسَّر لها الأسبابَ لأداء هذه الخدمة علىٰ الوجه المُرضي»[1].

لا بد من دعمِ العاملين في تجارةِ الكتب لضمان أولًا جودةِ خدمتهم، ثم استمراريَّة وجودهم، حتىٰ لا يكون مصيرُ بعض المكتبات كمصيرِ مكتبة (كتالونيا) العريقة، التي بعد أن كانت -لأكثرَ من ثمانين عامًا- منارًا للمَعرفةِ والقراءة، أضْحَت عَلَمًا للوجبات السريعة! ولأترك خورخي كاريون يَرْوي لنا خبَرها مع إثباتٍ للورقةِ الوداعية التي كتبَها مديرها.

«خلال الأشهر الأولىٰ من سنةِ ٢٠١٣، تابعتُ تَحوُّل مكتبة قديمة يقترب عمرها من المائة عام، إلىٰ فرعٍ من سلسلة مطاعم (ماكدونالدز). كان للمسألة بُعدٌ رمزيٌّ واضح دون شك، لكن ذلك لم يُخفِّف من حدَّةِ الصَّدمة. أنا متأكدٌ من أن (كتالونيا)، المكتبة التي بدأَت نشاطها عام ١٩٢٤، لم تكن الأولىٰ التي تتحوَّل إلىٰ مطعمٍ للوجباتِ السريعة، لكنها كانت المرةَ الوحيدة، بالنسبةِ لي، التي أُراقب فيها عن كَثبٍ مثلَ هذا التحوُّل. كنتُ قد اعتَدتُ المرور أمام مدخلها الزجاجي، صباحَ

---

(١) علي أدهم (مقالات متنوعة)، ص٦٧.

كلِّ يوم، لثلاثة أعوام متتالية. في كثيرٍ من الأحيان، كنتُ أدخلها لأُلقيَ نظرة، أو أسأل عن إصدارٍ ما، أو أشتريَ كتابًا. فجأةً، ظلَّت ستائرها المعدِنيَّة مُسدَلة في الواجهة، ثم وضع أحدهم ورقةً غير ملصَقة بإحكام، كُتب فيها: (بَعد نشاطٍ ثقافي استمرَّ لثمانيةٍ وثمانين عامًا، وبعد أن ظلَّت تَفتح أبوابها لاثنين وثمانين سنة في روندا سان بير ٣، وبعد نجاتها من أهوالِ الحرب الأهلية، ومن الحريقِ المروِّع الذي تعرَّضَت له، ومن نزاعاتٍ تتعلَّق بحقوق المِلْكية.. تُعلن مكتبة كتالونيا عن غَلق أبوابها إلىٰ الأبد.

كانت الأزمة التي تعرَّضَت لها تجارةُ الكُتب قد أدَّت إلىٰ ركودٍ في المبيعات في السنواتِ الأربع الأخيرة، فاستحال معها مواصلةُ نشاطنا في ظلِّ هذه الظروف.

كان اتخاذُ هذا القرار بالغَ الصعوبة، وتسبَّب لنا في حزنٍ وألمٍ شديدَين. حاولنا التوصُّل إلىٰ حلٍّ مناسب، لكن ذلك كان متأخرًا، علىٰ الأرجح، فلم نعثر علىٰ أيِّ حلٍّ ممكن. لم يكن بإمكاننا تأجيلُ هذا القرار لحرصنا علىٰ تنفيذِ جميع التزاماتنا المفروضة قبل إنهاء المشروع. كان التأجيل سيؤدي إلىٰ أوضاعٍ أكثرَ سوءًا.

بينما نُعلن عن هذا القرار؛ نَوَدُّ أن نتوجَّه بالشُّكر لكلِّ مَن عمل معنا، ولجميع المؤسسات التي تعاونَت معنا، وبخاصةٍ دار نشر سيليكتا، ولزبائننا الذين نعرف العديدَ منهم من عقودٍ وأجيال. نشكر أيضًا مؤلفينا وناشرينا وموزِّعينا، فبفضل جهودهم المشتركة استطعنا في مكتبةِ كتالونيا المساهمة في المشهدِ الثقافي في كلٍّ من كتالونيا وبرشلونة. الآن، وفي المستقبل، وفي كلِّ هيئةٍ تتخذها الثقافةُ كي تنتشر، هناك أفرادٌ ومؤسَّسات يعملون علىٰ إبقاءِ الأدب، والثقافة المكتوبة بشكلٍ عام، علىٰ قيدِ الحياة. لسوء الحظ، لن تكون مكتبة كتالونيا جُزءًا من ذلك المستقبل).

مدير المكتبة، ميكيل كولومر. برشلونة، السادس من يناير ٢٠١٣»[١].

(١) زيارة لمكتبات العالم، ص٢٩٥-٢٩٦.

ومن المناسِب جدًّا هنا التذكيرُ بكلمات جبرا إبراهيم القائل: «ولكننا، وقد غدَا الكتابُ في حياتنا اليومية بأهميةِ الماء والهواء والغذاء، جعَلنا نأخذه كأمرٍ مُسلَّم به، وننسىٰ خُطورته، وكثيرًا ما نغفل عنه، كما لو أننا نغفل عن الهواء الذي نتنفَّس، ونُعامله وكأنه أقلُّ شأنًا من شيشَين من الكبابِ أو نصفِ دجاجة مشويَّة في التنُّور. وقد رأيتُ حوانيتَ كانت تبيع الكتب، فخسر أصحابُها ما استثمروه فيها من نقود، أو لم يكسبوا بالمقادير التي توقَّعوا، فحوَّلوها إلىٰ مطاعم سندويتش وفلافل، وإذا النقود تَدْفُق عليهم دَفْقَ السيول. وكم تمنَّيتُ لو أنني أرىٰ يومًا ما هو عكس ذلك، فأجد صاحبَ مطعم، وقد أثْرَىٰ من إشباعِ بطون الناس، يُحوِّل المطعمَ إلىٰ مكتبة؛ أملًا في إشباع عقولهم»[1].

ولا أُخفيك أيها القارئ اليَقِظ أنَّ طاري الدجاجة ذكَّرَني بجلال الذي ترك الحياة العِلمية والكتب واعتزل لتربية الدجاج! مَن جلالٌ هذا؟ هو جلال بن إسماعيل مظهر ت١٩٨٨م، وإليك ما قاله وديع فلسطين عنه: «كان حَريًّا بأن يكون امتدادًا لأبيه في اهتماماتِه الفِكرية والعِلمية، حيث اشترك مع أبيه في ترجمةِ كتاب (أحداث شهيرة من التاريخ)، وانفرَد بنشرِ عدة كتب؛ منها (مآثر العرب علىٰ الحضارة الغربية)، ولكنه سرعان ما بَرِم برُكود الحياة الفكرية، وسيطرةِ الفِكر الدعائي الإعلامي علىٰ الحياةِ الثقافية، فاعتزل في الضَّيعةِ في برقين يُربِّي الدَّجاج. ولمَّا سألتُه عن هذا التحوُّل في حياته، قال: إنه يتكيَّف مع طبائع الدجاج، بأيسرَ ممَّا يتكيَّف مع طبائعِ البشر، وإن حياة الرِّيف ببساطتها أهنأُ من حياةِ المدن بكلِّ ضجيجها وصخبها ومنافساتها التي تُقطَع فيها الرقاب حسَب التعبير الإنكليزي. ولما سألتُه: ألا تحنُّ إلىٰ الكتبِ والأوراق؟ قال في نغمةٍ يائسة: وما الفائدة من علمٍ لا ينتفع به صاحبُه؟ فإنْ سكَبْناه

---

(١) معايشة النمرة، ص٤٣-٤٤.

علىٰ الورقِ لم نجد ناشرًا ولا قارئًا إلا بشِقِّ الأنفس. فدعني يا صاحبي أُربِّي الدجاج وأحصد بيضةً كل صباح، وسوقُه رائجةٌ بحمد الله»(١).

وهذه المرحلة من اليأسِ التي تنقل صاحبَها من معاشرةِ العِلم والكتب إلىٰ مُخادَنة البَيض والدَّجاج؛ هي لا ريب مرحلةٌ مؤسفة ومحزنة جدًّا، ولو كان بين الدجاج الذي أَلِفَ صُحبتَها جلال مظهر دجاجةٌ حكيمة تُشبه تلك التي كتبَ مذكراتها إسحاق الحسيني، لأرشدَتْه إلىٰ الصواب، وأخبرَتْه بأنَّ اليأس وِسادةُ الضعيف ولا يَجمُل بأهلِ العِلم، وأن العمل اليسير في لحظةِ الرُّكود العظيم قادرٌ علىٰ صُنع الفارق، وستقول كما قالت دجاجة الحسيني بالغةُ الحِكمة: «إنَّ العالم الذي يتردَّىٰ في الشقاءِ كالليلةِ الحالكة الظلام، فالشَّرارة الصَّغيرة تُحدِث فيها نورًا عظيمًا، وكذلك النفس المُصلِحة التي تُبعَث في وسطِ الشقاء العالمي، تُحدِث فيه نورًا عظيما»(٢).

وعلىٰ كُلِّ حال، يجب أن لا يغفل المشتغلون في تجارةِ بيع الكتب عن ملاحظة الكاتب آر إم ويليامسون في كتابهِ (لمحات من متجر كتب قديم) والذي صدرَ عام ١٩٠٦م، وهي: «لا ينبغي مقارنةُ القلائل الذين يَجْنون ثرواتٍ من خلال بيع الكتب بالكثيرين الذين لا يكسبون أكثرَ من مصدرِ رزقٍ متواضع. أسعدُ الرجال في هذا المجال ليسوا الأكثرَ ثراءً، بل هم الأكثر رضًا، الرجال الذين يُحبون مهنتهم، والذين

---

(١) وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره، ج١، ص٨١. ذكَّرَني هذا بما قرأته في (خُطَىٰ مشيناها)، ص٢٤٨ عن الشاعر المصري «أبي الحسن الجزَّار» الذي عاد إلىٰ الجزارة بعد أن تركَها واشتغل بالشعر، فرأىٰ أنه لم يفعل إلا أن صار يقول الشعر في «الكلاب» ويمدحُهم ويرجو صِلاتهم، وأنه انحدر إلىٰ هذه الحال بعد أن كان جزَّارًا «قد الدنيا» تقف علىٰ بابهِ الكلاب وترجو عطاءه من العظام! وأدعو إلىٰ قراءة مقالٍ كتبه الطناحي عن جزارٍ ناقدٍ مثقف لقيه في مقهىٰ بالإسكندرية. المقال بعنوان: الجزار الثالث، مجلة الهلال، العدد ١٠/ ١ أكتوبر ١٩٩٥م.

(٢) مذكرات دجاجة، ص١٦١.

ينظرون إلىٰ مهنةِ شراء الكتب وبيعها علىٰ أنها امتيازٌ كبير»[1] فالأصل حُبُّ هذه المهنة والرِّضا بما تُدرُّه عليك وإنْ قل.

وقبل الانتقال إلىٰ الخاتمة أحبُّ أن أذكر رجلًا له فضلٌ كبير في حفظِ التراث العربي، وهو الذي قال عنه عبد السلام هارون: «وقد رأيتُ هذا الرجلَ في صِباي، وعرَفتُ فيه الإخلاصَ للعلمِ وحده، إذ لم يكن المال عنده إلا في المرتبة الثانية». هو محمد أمين بن عبدالعزيز الخانجي، يقول عنه شيخ العربية محمود شاكر: «عرَفتهُ في أول أيامي، طالبًا للعلم، كان رجلًا برًّا، نبيل النفس، فوجَدتُ من عطفه وكرمِه، ومن تأييده وحثِّه، ما أعانني علىٰ أن أتزوَّد من العلمِ ما شاء الله أن أتزوَّد، لم يكن عالمًا، ولكنه كان يجمع للعلماء أصولَ علمهم، وينشرها بين أيديهم، ويُغريهم بالحِرصِ عليها، فقلَّ أن تجدَ عالمًا أو أديبًا في زمنهِ، لم يكن لهذا الرجل النحيف الضئيل الخافت فضلٌ عليه، يذكره الذاكر مُحسنًا في ذكره، وينساه الناسُ مسيئًا في نسيانه. ذلك هو أمين الخانجي، الكتبي الذي أحبَّ الكتابَ العربيَّ كأنه تراثُ أبيه وأمِّه»[2].

* * *

سيكون ختام المقال شذَرات أنتخبها من كلامِ الشاعر والطبيب الفرنسي الكبير دوهاميل، وهي في الجزء الأول من كتابهِ (دفاع عن الأدب)، والذي تناولَ فيه مشكلة الثقافة وأهمُّ وسيلة لنشرها وهو الكتاب. يرىٰ دوهاميل تَقهقُرَ أهمية القراءة لدىٰ النَّشء وضرورة الكتاب في حياتهم، وذلك بسببِ التطور الآلي الذي يشهده العالم، فاليوم تحتلُّ السينما والراديو -كما يقول- المنزلة السامية في نفوسِ الشباب، وهذا ما ساهم في تدنِّي أوضاع الكتاب وجعل تجارةَ بيع الكتب في حالةِ

---

(١) اعترافات بائع كُتب، ص٧٥.

(٢) راجع (مدخل إلىٰ تاريخ نشر التراث العربي)، ص٥٩ وما بعدها، للطناحي.

احتضار! سأقتطعُ ما أراه مناسبًا من كلامهِ وأدعو القارئَ المهتمَّ إلىٰ مراجعتهِ كاملًا في مصدره الذي ذكرت.

يقول دوهاميل: «وكان مَن يتتبَّع عن كثبٍ سَير تلك الظاهرة يعلم أن تجارة الكتب في ضيقٍ شديد. حقًّا إن الكثير من الكتبِ لا يزال يُنشَر، ولكنها صحوةُ صناعةٍ تحتضر فتُجازف بكلِّ ما لديها، لتوهمَ نفسها بأنها لم تزَل في قوةِ الحياة.»[1].

«لو أننا فقدنا دفعةً واحدة كلَّ تلك الكتب التي ازدهرَت في ظلالِها حضارتنا المرهَفة المعقَّدة لما استطعنا أن نعرف كيف نُحضِّر بعض المنتجات الكيماوية، أو أن نبنيَ طائرة أو نربِّي حيوانات، أو نزرع أرضًا مَواتًا، أو أن نحلَّ عددًا لا حصر له من المشكلات، بل لما استطعنا عندئذٍ أن نطهوَ بعض المأكولات. وأضيف إلىٰ ذلك أننا سنجد مشقةً كبيرة في استخدامِ ملَكاتِنا، والرجوعِ إلىٰ قواعدِ أخلاقنا، والتغلُّب علىٰ شهواتِ نفوسنا، إذن لن تكون تصرفاتُنا عندئذٍ إلا تصرفاتِ متوحشين أو وحوشٍ تعِسة. والمكاتبُ العامة لا تكفي حاجاتِ الناس؛ ولذا يمتلك كلٌّ منهم -مهما كان فقيرًا ومهما ضَعُف استقراره- مكتبةً صغيرة شخصية، هي كَنزُه الذي يعتزُّ به، فكلُّ إنسان يشعر بالحاجة إلىٰ أن يجد في مُتناولهِ وتحت بصره وسائلَ حياته، فهو يقتنيها لا لأن الكتاب هو أخصُّ زينات المنزل، ولا لأنه ينشر في الأماكنِ التي يُحلِّيها عبيرًا أليفًا نافذًا من الروحية، بل لأنه يجد فيها ما يركن إليه في ساعةِ ضلالٍ أو انحلال أو شك أو فراغٍ نفسي. ولتتصوَّر ماذا تكون حياتك في مكانٍ مريح ولكنه خالٍ من الكتب؛ فإنك لن تلبث حينئذٍ أن تحسَّ بالنُّفرة وضيق الصدر»[2].

وعن الطِّباعةِ والخطر المُحيط بها يقول: «لن أنقطَّع عن أن أقول لمعاصرينا إن قضية الطباعة مُقدَّسة، ولكنها في خطرٍ مُحدق، وإن تذوَّق القراءة في اضمحلالٍ تام، وإنه من الواجبِ أن نبحثَ عن علاجٍ لهذه الظاهرة التي أعتبرها كارثةً علىٰ

(١) دفاع عن الأدب، ص٦٩.
(٢) دفاع عن الأدب، ص٧٩.

الجنسِ البشري، وأنا أفعل ذلك مدفوعًا بإيماني الحارِّ بأني أخدمُ بقولي هذا الهيئةَ الاجتماعية التي وُلِدتُ فيها، بل أخدم الإنسانَ في ذاته. وصيحتي لا تذهب في وادٍ خرِبٍ؛ إذ إن أصواتًا أخرىٰ قد ارتفعَت. ولقد اقتُرحَت حلول. أما عن نوعِ تلك الحلول وقيمتها فمعظمها فيما أحسب رديءٌ حتىٰ ولو كانت صادرةً عن نزعةٍ خيِّرة. ولقد حاول باعةُ الكتب وحدهم تقريبًا حتىٰ اليوم أن يبحثوا عن وسيلةٍ يُقاومون بها انصراف الجمهور عن المطبوعات، ولنترك الآن إلىٰ ما بعد تلك المشكلة الخطيرة؛ مشكلة الإعلان التي تحدَّثتُ عنها أكثرَ من مرة والتي يلوح لي أنه قد أُسيءَ فهمها. لقد ظنَّ تجار الكتب - رغبةً منهم في أن يُثيروا حماسة جمهورٍ ذاهل غافل موزَّعِ الأهواء- أنهم يُحسنون صنعًا إذ يُحَلُّون تجارتهم بأنواعٍ من المغرياتِ لا تمتُّ إلىٰ بضاعتهم بصِلة، فحاولوا لكي يبيعوا الكتب أن يَبيعوا معها شايًا (ومشروبات رُوحية)، وبذلك همُّوا بأن يُحولوا محلاتهم إلىٰ ما يُشبه (صالون مقابلات) يستطيع أن يلتقيَ فيه الزبائن ويجلسوا ويتمتَّعوا بكافةِ المَسرَّات. وعندي -كما قلتُ في كتاب غير هذا- أن المكتبة الحقيقية يجب أن تكون كندوةٍ يجتمع فيها المثقَّفون ليتبادَلوا الآراء ويتحدَّثوا عما يُفضِّلون ويتعرَّفوا أذواقَ الآخرين، وفي الحقِّ أني لا أريد أن أُثبِّط من محاولاتٍ خيِّرة تعمل بقصدٍ طيِّب، ولكنني لا أرىٰ خيرًا في أن نُخضِع قضية الكتاب التي هي أخطرُ قضايا الساعة إلىٰ عاداتِ الصالونات»[1].

وحبَّذا التأمُّل في واقعك وأنت تقرأ كلام دوهاميل الآتي: «ولقد رأينا منذ حين فنانةً روحيَّةً موهوبة، تكتب إلىٰ الناشرين الباريسيين خطاباتٍ جميلةً مؤثرة، تقترح عليهم احتيالًا جديدًا. كانت تريد لكي تجذب القرَّاء أن تُنظِّم عند باعةِ الكتب في

(١) ونُخالف الناقد الكبير في رأيِهِ هذا، ونعذره لاختلاف العصر. كل شيء يُسهم في خلْقِ الوِداد بين الكتاب والشباب مُرحَّبٌ به. والندوات الثقافية التي تُقام في بعضِ المكتبات ظاهرةٌ صحية تُنبئ عن نهضةٍ فكريَّة حقيقية.

باريس ورُبما بمدن الريف أيضًا حفلاتٍ موسيقية يشترك فيها فنَّانون معروفون! وفي الحقِّ أن الإنسان لا يملك ألَّا يتأثَّر لكل هذهِ المحبة الكريمة، ولكني أُعلن أن كل هذه المحاولات نابيةٌ بل مُستطيرة الشرَر. ثم ماذا؟ الكتاب مُستقرُّ التفكير الإنساني، والمهد المقدَّس لكل معرفةٍ وكل تجرِبة، ثم نُضطر لكي نكسبَ له أنصارًا ومُحبين أن نضربَ علىٰ الطبل وننفخ في المِزمارِ، وأن نستعين بالمغنِّين والممثلين ومَن إليهم! ومن يُدْرينا! لعلَّنا نلجأُ في المستقبلِ إلىٰ الحُوَاة والراقصين علىٰ الحبال! ما هذا؟! نريد أن نعود برجلِ القرن العشرين القلِق الشاردِ اللُّب إلىٰ احترامِ القيم الروحية والعقلية، وأن نردَّه إلىٰ التفكيرِ والتأمل، فنُضطرُّ في سبيلِ ذلك إلىٰ أن نسكبَ له الخمرَ في القداح، وأن نعزف له علىٰ آلاتِ الطرب، بل وأن نرقص معه؟ المكاتب معابدُ الروح، فهي الأمكِنة التي يُدرك فيها الإنسانُ سِرَّ عظَمتِه الحقيقية، ومع ذلك تَرانا مُضطرِّين إلىٰ أن نُقدِّم فيها أفلامًا مجَّانًا، ثم ماذا؟! يا إلهي! بطاقاتُ تبغ وأعوادٌ من صابون الذقن وزجاجاتٌ من ماء الأسنان. ألا إنه لو صحَّ ذلك وقد صارت الأمور إلىٰ هذا الحد لَحُقَّ لنا أن نقول إن العالم في مرضٍ شديد. لا لا، يجب أن نُفهم الجمهورَ أن الأمر يتعلَّق بمصلحته هو. فالرخاء والعدل الاجتماعي ومسرات الحياة الزمنية ولَذائذها، وبالجملةِ التقدُّم في كافةِ مظاهرة المُحَسَّة، كل هذا خاضع لرياضةِ ملكاتنا العقلية رياضة مطَّرِدة منسجمة، وإنه بدون الكتاب الذي هو مستودَعُ تراثنا الروحي الأمين، ستُصبح حياةُ الفرد وحياة الجماعة عُرضةً لأن تهويَ في نوعٍ من البربريةِ لن يستطيع علىٰ الأرجح أبناؤنا ولا أحفادنا أن يرَوا لها نهاية. ويجب أن نُفهم جمهور الناس الصادقِي العَزْم أن تقديس الروحيات هو الشرطُ الأساسي لكلِّ حياةٍ نبيلة جميلة خِصبة، وأن الكتاب هو رمزُ ذلك التقديس. وما يجوز أن نَحمل رجلَ الشارع علىٰ الاعتقادِ بأنه إذا اشترىٰ كتابًا سيشهد حتمًا جلسةً في سامر، أو ساعةً في أوبرا بل ولا (دور صراع) أو مسابقة ثيران. فإن كان

رجل القرن العشرين لم يَعُد يستطيع أن يُحب القراءة لذاتها فلْينصرِفْ عنها، وبذلك نضعُ علىٰ الأقل حدًّا لتلك المهزلة المزْرِية بالذكاء الإنساني»[1] ولن يكون هناك ختامٌ للمقالِ خيرًا من هذهِ الصرخةِ الأخيرة التي ألقاها دوهاميل في وجهِ رجل القرن العشرين والذي يليه!

(١) دفاع عن الأدب، ١٢٧-١٣٠.

النَّفاذ إلى المخ!

«والكتاب الذي لا يُغيرنا لا يُربينا»[1].

---

(١) من كلام عمر مسقاوي - أعمال مالك بن نبي الكاملة، ج٥، ص٢٦٨٩.

يقول السيِّد أبو النجا: «القراءة تُنمِّي الفرد، والفرد يُنمِّي المجتمع، ولن تكون تنميةٌ بغير قراءة. فالقراءة هي جهاز الاستقبال الذي يفتحه القارئُ علىٰ الدُّنيا فيغترفُ بعينَيهِ ما فيها من جديد. والفرد الذي لا يقرأ يوقف التيار الفِكري الذي يربطهُ بالعالَم، ويحكم علىٰ نفسهِ بالعزلة، وعلىٰ عقلهِ بالجمود، وعلىٰ مَلَكاتهِ بالتحجُّر»[1].

وهذا الذي يَذكره أبو النجا -أعني تنمية الفرد، وانفتاحه علىٰ العالَم بعقلٍ حُرٍّ ومَلَكاتٍ مُتجدِّدة- لن يتحقَّق لأيِّ قارئ سِوىٰ القارئ الجادِّ اليَقِظ الذي لا يهتمُّ بعدد الكُتب التي قرأَها في السَّنَةِ، بل مَحطُّ اهتمامه وتركيزه؛ ماذا استفاد في سنَتهِ من الكُتبِ التي قرأَها.

والقُرَّاء -وحديثي هنا عن الفوضويِّين (بالمعنىٰ الحَسَن للكلمة، إن كان لها معنًىٰ حسَن!) الذين لا يحجزهم تخصصٌ ولا يُقيِّدهم مذهب- علىٰ اختلافِ مَشاربهم واتجاهاتهم وقدراتهم العقلية؛ يتَفاوتون في الانتفاعِ من المقروءِ.

مِنهم مَن جعلَ المُتعة أُسَّ منهجه، فأخذَ يقرأ في كل شيء ولا يقف عند أيِّ شيء، يَفرُغ من كتابٍ فيَشرع في آخَر، وهكذا، يعيش حياةً قرائيَّة -ولا أقول مَعرفية- خاليةً من التأمُّل ولا يعرف فيها الهضم.

وهذا النوع من القُرَّاء تجده مصابًا بالتُّخمةِ، ويشتكي دائمًا من الجوع! ومَن كان هذا حالَه؛ لن يُحقِّق المستوىٰ المقبولَ ولن يصل إلىٰ المأمول، وسيظل عقلهُ رخْوًا لا يقدر علىٰ مُجابهةِ الكُتب التي تحتاج إلىٰ جُهدٍ وجَلَدٍ، وعقلٍ نشِطٍ، وطاقةٍ ذهنيةٍ عالية.

---

(١) لماذا نقرأ، ص٨٤.

وآخَرُ هو عكسُ الأول؛ لا يهتمُّ بالكمِّ إطلاقًا، والقراءة عنده وسيلةٌ معرفيةٌ لتحقيق غايةٍ منشودة؛ وهي التغيير المطلوب في ذاتهِ والغير. لا يرفع الرايةَ البيضاء مُستسلمًا للكُتبِ العسيرة، بل يَطْرب لمُجالَدتها حتىٰ تلينَ شدَّتُها وتذهبَ حِدَّتها، وهذا ما أسهَم في مضاعفةِ قدراته العقلية وتطويرِ مَلَكاتِه النقدية. لذلك يَحرِص في كثيرٍ من أوقاتهِ علىٰ هضْمِ ما يقرأ بإدامةِ التأمُّل.

أما الثالث الذي يُمثِّل -في ظنِّي- النسبةَ الكُبْرىٰ من القُرَّاء؛ مَن يجمع في قراءتهِ بين الأمرين: تحصيل منفعةٍ وتحقيق مُتعة، يُدرك مُراد بعض الكُتبِ وتُعجِزُه أخرىٰ. إذا استثقل كاتبًا هجَر صُحبته، وإن أضْجرَه كتابٌ عسير لم يُعذِّب نفسه للإحاطةِ بمَغْزاه.

* * *

لذلك فإني أقول أوَّلًا: علىٰ القارئ النابهِ الحَصيف -في البداءة، وقبل كل شيء- إذا أرادَ تحقيق الفائدة المرجوَّة من قراءة الكتب؛ أن يجعل دافعه طلبَ المعرفة والسَّعي في طريقِ العلمِ؛ لبلوغ السموِّ النَّفسي، والنهضة بالنظر العقلي، وامتلاك الوسيلة الموصلة إلىٰ غايةِ التغيير المنشودة.

ولا تنسَ وصيَّة الصادِق الرافعي رحمه الله تعالىٰ لأبي ريَّة في آخِر جَوابهِ علىٰ الرِّسالة السادسة: «اقرَأْ كُل ما تصِل إليه يدُك؛ فهيَ طريقةُ شيخنا الجاحظ، وليكن غرَضُك من القراءةِ اكتسابَ قريحةٍ مستقلَّة، وفِكرٍ واسع، ومَلَكة تَقْوىٰ علىٰ الابتكار»[1].

ثم أقول ثانيًا: لا تتناوَلِ الكتاب قبل تهيئةِ نفسك للتواصل مع كاتبه، وكأنك في موعدٍ مع إنسان يودُّ أن يُخبرك شيئًا مهمًّا، ولا تغِبْ عن ذهنك تلك النصيحةُ الفريدة

---

(١) رسائل الرافعي، ص٢٢.

التي أتحفَ بها عبدُ الشكور ابنَه محمود، الذي كان يُكنُّ احترامًا كبيرًا للكتابة، ولكنه يراها مسؤوليةً خطيرة كما يقول ابنُه، قال عبد الشكور لابنه: «اكتُب كأنَّ العالَم كلَّه سيقرأ لك، واقرأ كأنَّك الشخص الوحيد الذي كُتِبَ له الكتاب»[1].

ونصيحةُ والد محمود ذكَّرَتني -وهذا استطرادٌ عزيزي القارئ- بتلك النصيحة التي أثَّرَت كثيرًا في روحِ الشاعر والفيلسوف محمد إقبال، والتي سمعها من والدِهِ رحمهما الله. يُحدِّثنا إقبال قائلًا: «تعوَّدتُ أن أقرأ القرآن بعد صلاةِ الصُّبح كلَّ يوم، وكان أبي يراني، فيسألني ماذا أصنع؟ فأُجيبه: أقرأ القرآن» وظلَّ علىٰ ذلك مدةً طويلة، يسألهُ والده السؤالَ ذاتَه، فيُعيد إقبال الإجابةَ ذاتَها، ومرةً قال لوالده: «ما بالُك يا أبي! تسألني نفس السؤال، وأُجيبك جوابًا واحدًا، ثم لا يمنعُك ذلك عن إعادةِ السؤال من غدٍ؟! فقال: إنما أردتُ أن أقول لك يا ولدي؛ (اقرأ القرآن كأنما نَزَلَ عليك!). ومنذ ذلك اليومِ بدأتُ أتفهَّمُ القرآن، وأُقبِلُ عليه، فكان مِن أنوارهِ ما اقتبستُ، ومن دُرَرهِ ما نظَمت»[2].

ولإتمام نصيحة عبد الشكور لابنه، أُثْبِتُ كلمةً توجيهية لأستاذ الفلسفة المِصْري زكي نجيب محمود، يقول فيها: «اقرأ وكأنَّ الذي معك ليس كتابًا من صفحاتٍ مرقومة بحروفٍ وكلمات، بل كأنك تتحدَّث مع مؤلِّف الكتاب، اقرأ وكأن الذي معك هو الرجل الحيُّ يَعرِض عليك فكرتَه أو خِبرتَه بصوتٍ مسموع؛ ففي هذه الحالة ستجد نفسك مدفوعًا إلىٰ مُساءلته ومراجعته جزءًا جزءًا ومعنًىٰ معنًىٰ، وهكذا تكون القراءة الحيَّة بفاعليتها الذهنية»[3].

---

(١) كنت صبيًّا في السبعينيات، ص٣٥٥.

(٢) ديوان إقبال - الأعمال الكاملة، ج١، ص٣٤.

(٣) شغف القراءة، ص٢٣.

علىٰ القارئ أن يكون يَقِظًا؛ يُحاسِب المؤلفَ ويوقِفُه ويُناقشه، ولا يجب أن يكون ذا عقلٍ كسولٍ خاملٍ يستقبل كلَّ ما يقرأ بخضوعٍ تام، وكما قال مانغويل في تعريفاتِهِ للقارئ المثالي بأنه: «القادر علىٰ تشريحِ النَّص، تقشير الجلد، النَّفَاذ إلىٰ مُخِّ العظم، تتبُّع كلِّ شِرْيان وكلِّ وريد، ثم يُنهض علىٰ قوائمهِ كائنًا جديدًا رهيفًا مُعافًىٰ. القارئ المثالي ليسَ مُحنِّطَ حيوانات! القارئ المثالي يُخَلْخِل النَّص»[١].

لا بد من خَلْخلةِ النَّص، ولن يتأتَّىٰ ذلك دون إعادة المقروء؛ فإنَّ تَكرار قراءة بعض الكُتب المهمة من أهمِّ الوسائل المُعينة علىٰ الفهمِ، وهذا الفِعل يدلُّ علىٰ جِديَّة القارئ وأنه قارئٌ خلّاق علىٰ حدِّ قول فلاديمير نابوكوف الذي كتبَ مرةً: «القارئ الجيِّد، القارئ العظيم، القارئ النَّشِط والخلَّاق هو قارئٌ يُعيد ما يقرأ»[٢] بل إنَّ نابوكوف يرىٰ أن القارئ الحقيقي هو الذي يُعيد قراءةَ الكتب، يقول: «لكي تكون قارئًا حقيقيًّا عليك أن تُعيد قراءة الكتاب الذي بين يدَيك. ففي القراءة الأولىٰ يكون الكتاب جديدًا بل غريبًا عليك كلَّ الغرابة، المحكُّ عندي هو القراءة الثانية للكتاب»[٣].

وأُذكِّرُك بقول أمير البيان شكيب أرسلان في سوانحهِ: «إذا كنتَ قرأتَ أحدَ الكتب مرةً فلا تقل: قد قرأتُه وتنصرف عنه، بل اقرأه مرةً ثانية وإن كان نفيسًا فثالثةً. ففي كلِّ مرة تجد فيه شيئًا جديدًا. وإن كنتَ قرأتَ الكتاب شابًّا ثم قرأتَه شيخًا تجد الكتاب غيرَ الكتاب»[٤] وقد كرَّر مؤكِّدًا ومُذكِّرًا في موضعٍ آخَر: «قلتُ لك مرة: إذا قرأتَ كتابًا وأنت شابٌّ فلا تحتقر أن تُراجعه وأنت شيخ. فإنَّ الكتاب ينمو وينضج بنموِّك ونضجِك. وقد ينقص بكمالك بعض الأحيان»[٥].

---

(١) فن القراءة، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٢) داخل المكتبة خارج العالم، ص٧٨.

(٣) في خندق واحد، ص٢٢٤.

(٤) سوانح أفكار لأمير البيان شكيب أرسلان مع موجز سيرته، ص٧٧.

(٥) سوانح أفكار لأمير البيان شكيب أرسلان، ص٩٨. وكما قال دوهاميل: «الكتب كالرِّجال تتغيَّر بالنضوج». [دفاع عن الأدب، ص١٩٧].

والعقاد كتبَ مرةً: «والكتاب لا تعرف قيمته البتَّة من قراءةٍ واحدة، ووجب على الناقد أن يُكرِّر قراءته في حالَيْ سآمته ونشاطه قبل أن يحكم عليه»[(١)].

وفي موضعٍ آخر من كتابهِ (الفصول) يقول: «فلا أدري مِن أين داخَلَ القراءَ أن الكتاب إنما يُقرَأ قراءةً واحدة.. أنت تنمو بعقلك أكثرَ من نموِّك بحواسِّك، فأنتَ أَحْرىٰ أن تُعاود النظرَ فيما يمتحن به نموُّ الفكر. ومن كان يفهم أن قراءة الكتاب شيءٌ غيرُ الإتيان علىٰ كلماته، وأنَّ دَرْسه مطلبٌ غيرُ استظهار صفحاته، فعليه، بلا ريبٍ أن يُكرِّر قراءته كلَّما استطاع؛ لأن كتابًا تُعيد قراءته مرتين هو أغنىٰ وأكثرُ من كتابين تقرأ كلًّا منهما مرةً واحدة»[(٢)]

وكانَ خلاصة دستور العقاد في المطالعة كما أخبرنا أنَّ «كتابًا تقرؤه ثلاثَ مرات أنفعُ من ثلاثةِ كتب تقرأ كلًّا منها مرة واحدة»[(٣)].

لذلك نقرأ عن الفيلسوف الإيطالي فيكو أنه كان يُكرِّر قراءةَ الكتب المهمة ثلاث مرات؛ المرة الأولىٰ لفهم وحدته، والمرَّة الثانية لاكتشاف السلسلة التي تربط بين مُختلِف موضوعاته، والمرَّة الثالثة للتمعُّن في أشكالِ لُغته وفي جمالِ أفكاره الخصوصية»[(٤)].

أما روبرتسون دافيز فيُنبهنا علىٰ طريقته قائلًا: «ينبغي أن يُقرَأ الكتاب الجيِّد مرتين؛ الأولىٰ في سَنوات الصِّبا، والثانية حينما تتقدَّم بنا السن، الأمر مثل بِنايةٍ جميلة التصاميم يتأمَّلُها الإنسان مرةً علىٰ ضوء الشمس، ومرَّةً ثانية وقت الظهيرة، ومرَّةً أخيرةً علىٰ نور القمر. إننا نقرأ أكثرَ مما ينبغي، وأسرعَ مما ينبغي»[(٥)].

---

(١) الفصول، ص٢٥٥.

(٢) الفصول، ص٨٦.

(٣) أنا، ص٤١.

(٤) العلم الجديد، ص٢٠.

(٥) رائحة الحِبر، ص٧٩.

ومانغويل في مقال [قارئ في غابة المرآة] يُخبرنا أن: «الكتاب يُصبح كتابًا آخَر في كل مرة نُعيد فيها قراءتَه»[1].

وكارنيجي عندما أراد الإشارة إلىٰ كيفيةِ تحقق المنفعة التامة من كتابهِ الشهير (دع القلق وابدأ الحياة)، قال: «فإذا أردتَ أن تحصل علىٰ فائدةٍ حقيقية دائمة من هذا الكتاب، فلا تحسب أنَّ مُطالعتك إياه مرةً واحدة تكفي، فبعد أن تقرَأه بإمعان، ينبغي أن تُخصص بِضع ساعات كلَّ شهر لتُراجعه مرة أخرىٰ. احتفظ به علىٰ مكتبك ليكون في مواجهتك كلَّ يوم، تصفَّحْه بقدر ما تستطيع، وتذكَّرْ أن تطبيق هذه المبادئ لن يُصبح عادةً راسخة ما لم تُداوم علىٰ مراجعتها وتنفيذها يومًا بعد يوم»[2].

والدكاترة زكي مبارك ذكر يومًا ما أن «الكتاب كالصديق لا تعرفه من أول مرة، وإنما تعرفه وتصل إلىٰ أسرارهِ بعد تَجارِبَ طِوال»[3] وهذا ما كان يفعله الناقد المغربي عبدالفتاح كيليطو مع الكتب العشرين التي يُكرِّر قراءتها باستمرار، وكان من بينها (أسرار البلاغة) للجُرجاني، فيقول: «أقرؤُها باستمرارٍ وأكتب عنها. لماذا؟ لأنني أشعر بأنها لا تبوح لي بكلِّ أسرارها دَفْعةً واحدة، وأنها ضَنينةٌ بمعناها فلا تجود بِقِسطٍ منه إلا لمن يُواظب علىٰ الإمعان فيها»[4].

هناك كتبٌ مُهمة قد تقرؤها مرةً واحدة أو مرتين، وتكون عند قراءتك لها في مستوًىٰ ثقافيٍّ ومعرفي يَقصُر بك عن إدراك مَغْزاها، أو الوقوفِ علىٰ مَراميها، أو الإحاطة بما تمتاز به من مَناقب أو ما يكتنفُها من مَثالب. فلا بد من تَكْرار قراءتها بعد أن يشتدَّ عُود معرفتك وتسموَ ثقافتك لتتكشَّف لك الأسرارُ كما قال الدكاترة.

---

(١) في غابة المرآة، ص٢٨.

(٢) دع القلق وابدأ الحياة، ص٩٧.

(٣) زكي مبارك بقلمِ زكي مبارك، ص١٥٦.

(٤) مسار، ص٢٣.

وها هنا للفائدة أريدُ الإشارة إلىٰ الناقد جورج طرابيشي الذي قرأ كتاب المفكر محمد عابد الجابري (تكوين العقل العربي) للمرة الأولىٰ عام ١٩٨٦ عندما كان في الطائرة مغادرًا لبنان، وكان الكتاب صدَر حديثًا عن دارِ الطليعة. تقول زوجته هنرييت عبودي أنه كان يلتفتُ إليها بين الحين والآخر قائلًا: «إنه عملٌ رائع، هائل!». ثم كتب بعد ذلك بحثًا مطوَّلًا عن الكتاب وقرَّظَه، ومما قاله في حقِّه: «إن هذا الكتاب ليس فقط يُثقِّف بل يُغيِّر، فَمن يقرؤه لا يعود بعد أن يقرَأَه كما كان قبل أن يقرأَه». والتقىٰ بمؤلفه بعد ذلك ودَعاه إلىٰ العشاء. فما الذي حدث بعدها؟ بدَأَت الأخطاء الجليلة في الكتاب -بعد زيادة الاطِّلاع والتوسُّع وتَكْرار القراءة- تتكشَّف لطرابيشي، وتُخبرنا هنرييت عمَّا أصاب زوجَها حينها: «وقد أُصيب جورج بخيبةِ أملٍ عظيمة، ولام نفسه علىٰ الثغرات الخطيرة في ثقافتهِ وقاعدته المعرفية؛ لأن لولاها لما سارع يَكيلُ المديحَ لكتاب (تكوين العقل العربي)». وطرابيشي قال لما تبدَّتْ له الأخطاءُ والتزوير -كما يقول- الذي أوقع فيه الجابري عن قصدٍ أو عن غير قصد قُرَّاءه: «أُصبتُ بصدمةٍ كبيرة وبطعنةٍ في كبريائي كمثقَّف». كان الشعور بالتقصير -كما تقول زوجُه- وراء انطلاق مشروعه الجبَّار (نقدُ نقدِ العقل العربي) الذي بذَل في سبيل إنجازه جهودًا هائلة وكرَّس له عِشرين عامًا من حياته. فلم يترك مرجعًا في التراثِ العربي الإسلامي إلا وعاد إليه، فتَّش، ونقَّب، وقارَن، ووسَّع آفاقَ بحثه متخطيًا حدود موضوعه الأولي»[١].

ولإتمامِ الفِكرة ورغبةً في مضاعفةِ الفائدة؛ أختُمَ هذهِ النقطةَ بقولِ الكاتب والأديب محمد رجب البيومي رحمه الله في سيرته: «وإذا كانت الكتابة فنًّا، فالقراءة فنٌّ آخر، فلَيْست مجردَ اطِّلاع عابر، ولكنها جهدٌ يبذله القارئُ في تفهُّمِ المراد والغوصِ إلىٰ ما بين السطور من أعماقٍ لا يُدركها غيرُ الناقد الحصيف، وأنا قد

---

(١) أيامي مع جورج طرابيشي (اللحظة الآتية)، ص١٣٧-١٣٨.

عرَفتُ من التجرِبةِ أن قراءةَ الكتاب الجيِّد مرةً واحدة لا تكفي، فلا بدَّ من العودةِ إليه مرةً ومرَّة حتىٰ أستشفَّ كلَّ ما أستطيع امتصاصَه من خَوافيه، كما عرَفتُ أنَّ القراءة المتصلة دون مُهلة مما يَضيع معها الكثير، والأفضلُ أن يقرأ الإنسان فصلًا واحدًا ثم يطويَ الكتاب ليخلوَ إلىٰ نفسهِ مُفكرًا فيما قرأ، محاولًا تلخيصَ أهمِّ ما حصَّله بينه وبين نفسه، وإذ ذاك ينعم بجنْيِ ما في الكتاب من ثمارٍ علىٰ مَهلٍ والْتِذاذ، وبهذه الطريقة تكون قراءةُ الكتاب الواحد من الكتبِ الجيِّدة، أفضلَ من قراءة عشرة كتب طائرة لا تميل إلىٰ التبصُّر. لقد ذكر الدكتور منصور فهمي في إحدىٰ الندوات الجامعية بأمسيات القاهرة هذه العبارة: (احذَرْ مؤلِّفَ الكتاب الواحد)، وقد أُتيح لي أن أستوضحَه المزيد، فقال: إنَّ مؤلف الكتاب الواحد قد أحاطَ بموضوعٍ إحاطةَ المتريِّث المدقِّق، فهو بالنسبةِ لموضوعه قمةٌ عالية جعَلَته من ذَوي الاختصاص. وأنا أقول: لا تعبَأْ بقراءة الكتاب مرَّةً واحدة. فهي لا تُعطيك الكثير مما أراده الكتاب، واحذر أن تغترَّ بهذه القراءة، إذ لا بد من المعاودةِ والمراجعة كي تبلغَ ما تريد!»[1].

* * *

وأقول ثالثًا: لا بد أن يعيَ كثيرٌ من القُرَّاء أنَّ حِفْظ المقروء لا يعني فَهْمه، فإذا وجدتَ مَن يُكثر الاقتباسات في أقوالِه، ويحفظ نصوصَ المؤلفين حفظًا تامًّا؛ إياك أن تَسْترقَّك ثقةٌ عمياء بأنه قد أحاطَ بفكرِ المؤلف الذي يستشهد بكُتبه، أو المغزىٰ الحقيقي من النصِّ الذي اقتبَسه؛ فإنَّ هذا لن يتأتَّىٰ بسهولة، بل يُوفَّق له القارئُ الجادُّ بعد طولِ صبرٍ وأَناةٍ وتأمُّلٍ وهضمٍ ساعَدهُ علىٰ تشرُّبِ المقروء.

---

(١) ظِلال من حياتي، ص١٨٤-١٨٥ - محمد رجب البيومي. و اقرأ ما نقله الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله في كتابه (قيمة الزمن عند العلماء)، ص١٧٥ وما بعدها؛ فإنك واقفٌ علىٰ العجب العجاب!

أما كثرة الاقتباسات والاستشهادات وحفظ أسماء الكُتب والكُتَّاب؛ فليسَ دليلًا علىٰ الفهمِ، بل علىٰ كثرةِ القراءة. وإذا تجاوزَ القارئُ مرحلة الفهم، وتمرَّس ذِهنُه علىٰ إدراكِ المقروء والإحاطةِ به في سُرعةٍ ويُسرٍ وسهولة،[1] تأتي تلك العملياتُ التي تحتاج إلىٰ صبرٍ وجَلادة، وقد ذكَرها فتحي رضوان علىٰ عُجالة عندما أشار إلىٰ أن القراءة ليست فَهْمًا فقط؛ «إذ وراء الفهم التمثُّل، والهضم، والاجترار، والأخذُ والرفض، والمزْجُ والخلط، والتذوُّق، والتقزز!»[2].

وهذا يجعلني أستحضرُ كلام المفكر والرئيس الراحل بيجوفيتش رحمه الله عندما قال: «كثرة القراءة لا تجعلنا أكثرَ ذكاءً. فبعض الناس يلتهمون الكتبَ من دون الوقفات الضرورية للتفكير، هذه الوقفات ضروريةٌ من أجلِ هضمِ المقروء ومعالجته، ومن أجلِ استيعابه وإدراكه. حين يتحدَّث أُناسٌ من هذا النوع، فإنَّ شذراتٍ من هيغل وهايدغر وماركس تخرج من أفواههم كما هي، بلا هضمٍ أو مُعالجة. إنَّ القراءة تقتضي إسهامَ القارئ فيما يقرأ، ويحتاجُ هذا إلىٰ وقت، كالنَّحلة تُحوِّلُ الرحيقَ الذي في بطنها إلىٰ عسل»[3].

نعم؛ فقدرة القُرَّاء لا تكمن «في مقدرتِهم علىٰ تجميعِ المعلومات ومهارتهم في الترتيبِ والفهرسة، بل في أن يُفسِّروا ويربطوا ويُحوِّروا قراءتهم»[4].

وأذكرُ ما كتبه قاسم الرَّجب عن محمد سعيد الكركجي (محمد سعيد الحاج خلف) الزبون الدائم لمكتبة نعمان الأعظمي، يقول عنه: «وهو مُداومٌ لا ينقطع، يُطالع كتبَ الحديث والفِقه وتراجم الرِّجال في الجرحِ والتعديل ومُصطلح الحديث

---

(١) وهذا وصفُ فتحي رضوان للعقاد.

(٢) عصر ورجال، ص٢٤٦.

(٣) هروبي إلىٰ الحرية، ص٣٢.

(٤) المكتبة في الليل، ص٧٦.

وكُتب الخلاف والجدل وغير ذلك؛ وبالرغم من كثرةِ ما يُطالعه وما يقتنيه من كتبٍ لا أظنُّه قد جنىٰ شيئًا من مطالعاته، بل لم يكن يُحسن قراءةَ سطرٍ واحد علىٰ الوجه الصحيح!!»[1].

فاحذَرْ أن تكون شبيهًا بمن لقِيَهم المازني رحمه الله؛ فإنه قد أخبرنا عنهم قائلًا: «وقد لقيتُ غيرَ واحدٍ في مصر وغيرها من الشرقِ والغرب تَرُوعُك كثرةُ محفوظهم، ولكني كنتُ إذا استطرَدتُ معهم إلىٰ البحثِ يدهشُني عجزُهم عن التفكير السديد؛ فهؤلاء قد حفظوا كثيرًا، وزادت ذاكرتهم قوَّةً بالمِرانة، ولكنهم لم يهضموا ما قرَؤوا ولم يَثْقُفوا به، فصاروا أشبهَ بمكتبةٍ متحرِّكة لا خيرَ فيها لنفسها»[2].

* * *

أما رابعًا: فإني أُذكِّر بأنَّ للنفسِ إقبالًا وإدبارًا، وللعقلِ طاقةً وقدرة. فلا تَحرِص أن تُجبِر نفسَك أو تُكرِهَها علىٰ القراءة؛ لأنك لن تُحقِّق شيئًا من هذا الإجبار أو ذلك الإكراه. فالقراءة عمليةٌ لكي تكون فعَّالة تحتاج إلىٰ صفاءٍ تام وتهيئةٍ نفسيةٍ وعقلية.

وإنَّ من الأساليبِ الناجعةِ المُجَرَّبة؛ إذا شعر القارئ بثِقلٍ في نفسِه وهو يقرأ، فعليه تنحيةُ الكِتاب جانبًا والانشغالُ والتسلية بشيءٍ آخَر حتىٰ تعود للنفسِ رغبتُها؛ فإنَّ القراءة مع عدم الرغبة كالسباحة في الفراغ؛ لا فائدةَ ولا مُتعة.

وقد قال العقاد وهو القارئ الكبير والمُثقَّف الموسوعي الخطير في مقالٍ له، بعد أن ذكرَ عدمَ استطاعة القارئ حصْرَ مقدار الفائدة التي يَجْنيها من الكُتب التي يقرؤها وأثرها في نفسه: «ولكن لعلَّ أفضل ما يُشار به -علىٰ الإجمال- هو ألا تُكْرِه نفسَك علىٰ القراءة، وأن تدعَ الكتاب في اللحظةِ التي تشعر فيها بالفُتور والاستثقال»[3].

---

(١) مذكرات قاسم الرَّجب، ص٥٠-٥١.
(٢) العمر الذاهب (رحلة المازني المعرفية من القراءة إلىٰ الكتابة)، ص١٠٧.
(٣) أنا، ص٧٢.

وعِندما سُئل مانغويل: ماذا تعلَّمتَ من بورخيس؟ أجاب: «لقد تعلَّمتُ أنَّ القراءة لا يمكن أن تكون إلزاميةً، ويجب أن نسترشد بمُتعتنا. إذا لم نُحب النصَّ، فمن الأفضل أن نتركه جانبًا، ربما نُجرِّبه لاحقًا، لكن لا نُصِرُّ»(١).

كان بورخيس يُردِّد هذا الذي تعلَّمه منه مانغويل طَوال حياته علىٰ طُلَّابهِ وكُل مقرَّبٍ منه: «منذ عشرين عامًا وأنا أدرِّس الأدب الإنجليزي في جامعةِ بوينوس آيرس، ولَطالما نصحتُ طلابي بأنْ يَهجُروا الكتابَ الذي يقرَؤونه إن لم يُعجبهم. لا تقرَؤوا أيَّ كتاب لأنه مشهورٌ أو حديثٌ أو قديم. إذا كان الكتاب الذي تقرؤونه مملًّا فاتركوه، حتىٰ ولو كان (الفردوس المفقود) -والذي لا أجده مُملًّا بالنسبة لي- أو دون كيخوته(٢) -وهو كتابٌ لا أمَل منه أيضًا- إذا شعرتم بالملل من أي كتاب فاتركوه، فهذا الكتاب لم يؤلَّفْ من أجلك»(٣).

فإياكَ -وإن كنتُ لا أُحبِّذ لغة التهديد!- أن تُحاول حشرَ المعارف في عقلك رغمًا عنه وعنها! فإنك لن تصلَ بهذه العملية إلىٰ غايةٍ تَسُرُّك ويطيبُ إثرها خاطرُك، وكما قال كاتبُ بلاد الغال وناقدُها أناتول فرانس في آرائـهِ التي ترجَمها عمر فاخوري وقدَّم لها فيلسوفُ الفريكة الريحاني: «إن المعارف التي تُحشَر في الأفهامِ عَنْوةً وقسرًا تسدُّها وتخنقها. يجب أن تؤكَل المعرِفةُ بشهيَّةٍ لتُهضَم»(٤).

* * *

---

(١) جنتلمان المكتبات، ص١٤٨.

(٢) يقول المازني عن ملتون صاحب الفردوس المفقود: «وأعترفُ أني لا أُحبُّه، وأني ما استطعتُ في حياتي أن أقرأ له قصيدةً مرتين». [العمر الذاهب، ص٢٩٢ - د. عبد الرحمن قائد]. ويكتب سومرست موم في (روائيون عظام ورواياتهم)، ص١٧ عن دون كيخوته: «إنه كتابٌ عظيم ومهم، وعلىٰ الطلاب الذين يدرسون الأدب أن يقرَؤوه كاملًا مرةً علىٰ الأقل. أنا قرأته من الغلاف إلىٰ الغلاف ثلاث مرات». وفي (رائحة الحبر)، ص٥٧ نقلًا عن خافيير ماریاس أن فوكنر كان يُعيد قراءة دون كيخوته كل سنة!.

(٣) خارج المكتبة داخل العالم، ص١٥٧.

(٤) آراء أناتول فرانس، ص٢٩.

خامسًا: اعْلَم أنك مُيَسَّرٌ لما خُلِقتَ له، فليسَ صحيحًا أن كل قارئ يستطيع فهم أيِّ نوعٍ من الكُتب. للناسِ مشاربُ مُختلفة، وللعقول مداركُ متفاوتة، والموفَّق مَن عرَف موقعه فلزمه، ففاقَ إخوانه وبَذَّ أقرانه. والمخذول مَن اشتغلَ فيما لا طاقةَ له به، فأجهدَ نفسه في سبيل اللاشيء.

ومن طريفِ ما قرأتُ للمازني، وهو كلامٌ يدل علىٰ عقلِهِ الوافر ونفسِه السَّمْحة، يقول في مقالٍ له بعنوان (في الكتب): «وتمنَّيتُ وأنا أُدير عيني في كتبي علىٰ رفوفها، لو أنَّ هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم، بيَّنوا لنا -أو لي علىٰ الأقل-، ماذا يريدون أن يقولوا. عجيبٌ أمرهم والله! قرأتُ مرةً لأحدهم، وأظنُّه هيغل كتابًا في فلسفة التاريخ، فخرجتُ منه كما دخلت، وقلتُ لنفسي: إما أنِّي حِمار، وإما أن هذا الرجل لا يُحسِن العبارة عما في رأسه، ولكنني أفهم عن غيره فلماذا أراني لا أفهم عنه؟! وكيف يُعقَل أن أعجز عن فهمِ ما أخرجه عقلُ إنسانٍ مثلي؟ وكان في هذا الكتاب فصلٌ عن المَدَنية الإسلامية، أو عن تاريخ العرب -فقد نسيت- خُيِّل إلي أني فهمتُ أقلَّه، ودارت الأيام ووقع في يدي كتابٌ لرجلٍ أمريكي اسمه دريبر، عن المَدَنية ونُشوئها، يكتب كما يكتب خلقُ الله -لا الألمان-، فإذا فيه فصلٌ طويل عن العرب يُعَد تطبيقًا لنظرية هيغل التي لم أفهمها، فسألتُ نفسي: لماذا لم يكتب هيغل كما يكتب هذا الرجل؟ ثم عُدتُ أسألها وأتعجَّب: لماذا فهم دريبر عن هيغل ولم أفهم أنا عنه؟ وأسأتُ الظنَّ بنفسي، واعتقدتُ أن بي نقصًا في التدريبِ العقلي، وراجعتُ هيغل وكرَرْتُ إلىٰ هؤلاءِ الألمان المعوصين كرّةَ المصمِّم المستميت، ولكن مضغ الجلاميد أعياني، فنفَضتُ يدي منهم -ومن نفسي- يائسًا، وقلتُ: يا هذا، لقد صدق القائل: كلُّ مُيسَّرٌ لما خُلِق له، وأنتَ لم تُخلَق لتقرأ فلاسفةَ الألمان، فارجع عنهم وانجُ بنفسِك منهم!»[1].

---

(١) مجلة الرِّسالة - العدد ١١٣/ سبتمبر ١٩٣٥.

علَّق الناقد اللبناني الكبير مارون عبود علىٰ كلام المازني هذا في مقالٍ له ماتعٍ عنه، فيه إنصافٌ كبير له، قائلًا: «ألا ترىٰ معي أنَّ أستاذًا غيرَ المازني لا يعترف هذا الاعتراف، بل يعدُّ ألف هيغل حمارًا»[1] بلىٰ وربِّ الكعبة، أرىٰ ذلك!

وهذا التواضع المعرفي الذي أبداه المازني في هذا الخبر الطريف له نظائرُ كثيرة في مقالاته وكتاباته، وهو دليلٌ علىٰ ثقتهِ بنفسهِ، وأنه أبىٰ أن يكون ممن يَتَشبَّع بما لم يُعطَ ويدَّعي ما ليسَ فيه، ويفخر بما لا يملك!

قال مرةً من حديثٍ له أُذيعَ في إذاعةٍ بغداد سنة ١٩٤٥:

«وكـان أول ما جرىٰ في الخاطر أن أتحدث إليكم في الأدب المصري الحديث؛ فإنه موضوعٌ كنتُ أحسبني أدرىٰ به مِن سِوانا، وكان أكبر ظنِّي أني سأُعرِّفكم ما تجهلون، غير أني عَدَلتُ وآثرتُ السلامة، فما كِدتُ أجالس بعضَ رجالكم وشُبَّانكم حتىٰ أدركتُ أني جاهلٌ بهذا الذي كنت أتوهَّم أني به عالم، فقد كانوا يذكرون لي كُتَّابًا وشعراءَ وكُتبًا حديثة من شتىٰ الموضوعات ما سمعتُ بهم ولا بها، حتىٰ ليُخيَّل إليَّ أني من أهل الكهف الذين لبثوا في كهفهم سِنين لا يعلم عِدَّتَها إلا الله[2]، ثم فتحوا عيونهم علىٰ دنيا غير التي شَبُّوا وشابوا بها، فكنتُ أتلجلجُ وأتلعثمُ وأهرب من الجوابِ الصريح، وأحاول أن أَعدِل بالكلام إلىٰ موضوعٍ آخر غير هذا الذي لا يُقبَل مني الاعتذار بجهله»[3].

وفي مستهلِّ مقالٍ له عن النحو يكتب: «النحو عِلمٌ لا أعرف منه إلا اسمَه. وما

---

(١) جُدُدٌ وقدماء، ص٢١٧. قال في آخر المقال: «رحم الله المازني، وما أحوج الأدبَ العربي إلىٰ بضعةِ كُتَّابٍ من طرازه، فينتعش لسانُ الضاد وتدب الحياة في كتبه».

(٢) وعدد السنين التي لبثوها معلومةٌ كما في سورة الكهف: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف:٢٥].

(٣) أحاديث المازني، ص٢٥-٢٦.

أكثرَ ما أجهل! وأضْألَ ما أعرف!»[1].

وموقف المازني مع هيغل ليس بِدْعًا، بل هو أمرٌ معلوم غيرُ خافٍ علىٰ أحد؛ فإن لغة هيغل عسيرةٌ جدًّا وتحتاج إلىٰ دراسةٍ متأنيةٍ ومعالجةٍ طويلة، فهو «لم يُدوِّخ بمؤلفاتهِ مُعاصريه فقط؛ وإنما دوَّخ أجيالًا كثيرة من القرَّاء. فطريقة هيغل؛ في الظهور أمام الجمهور بترسانةٍ كاملة من المصطلحاتِ الجديدة غيرِ المعتادة، وفي اللعبِ البهلواني بهذه المصطلحات بطريقةٍ محكَمةٍ لا تنفد، وفي النهايةِ يخرج العِلم المطلَق من قبَّعةِ الساحر، تاركًا القارئَ غيرَ المستعدِّ لذلك مذهولًا تمامًا. وإنَّ له بين الفلاسفةِ أنصارًا متحمسين، يرون في مؤلفاتهِ قمة الفلسفةِ الأوروبية. كما أنَّ هناك آخَرين يُقابلون لغته الصعبة بسوءِ ظنٍّ كبير، والقارئ المبتدئ يُقابل ذلك دائمًا وأبدًا بالسؤال التالي: عن أي شيءٍ يتحدث هنا هيغل أصلًا»؟![2].

ومما يُستطرَف قولُ شوبنهاور عن كتابهِ (علم وصف ظواهر العقل): «لقد كنتُ دائمًا عندما أفتح هذا الكتاب، أشعر بأنني فتحتُ نافذةَ أحد مستشفيات الأمراض العقلية»، وكان يُشنِّع في كل مناسبة علىٰ «الثرثَرة المبهَمة المطلقة لجدَليَّة هيغل»، التي تلقَّاها بعد ذلك كارل بوبر علىٰ أنها «انحراف وشذوذ المنطق»[3].

وفي ختامِ ترجمة هيغل عند واربرتون: «كان لهيغل مُعجَبون كُثْر، لكن آرثر شوبنهاور لم يكن واحدًا منهم. كان يعتقد أن هيغل لم يكن فيلسوفًا علىٰ الإطلاق؛ لأنه كان يفتقد الجِدِّية والنزاهة في الطريقةِ التي تناول بها الموضوع. في رأي شوبنهاور: كانت فلسفةُ هيغل كلامًا فارغًا. وصف هيغل بدوره شوبنهاور بأنه (مقرف وجاهل)»[4].

---

(١) مجلة الرِّسالة - العدد ١٩١ / ١ مارس ١٩٣٧.

(٢) في صحبة الفلاسفة، ج٢، ص١٦٣-١٦٤.

(٣) في صحبةِ الفلاسفة، ج٢، ص١٧٨.

(٤) مختصر تاريخ الفلسفة، ص١٨٦. وأذكر كلام سومرست موم عن هيغل عندما تحدث

وهذا ما جعل وليم جيمس يتجاوز هيغل أثناء حديثه عن الُمدرَك الحسِّي والتصوُّر في الفصلِ الخامس من كتابهِ (بعض مشكلات الفلسفة) قائلًا: «وهيغل يكتب بطريقةٍ تبلغ من الفظاعةِ حدًّا لا أستطيع معه فهمه؛ ولذلك لن أذكر شيئًا عنه هنا»[1].

أما الفيلسوف بيتر سينجر فقد كتبَ في مقدمتهِ القصيرة جدًّا عن هيغل: «لا شك في أنَّ فلسفة هيجل تُمثِّل تحدِّيًا في فَهمها؛ فالتعليقات علىٰ أعمالِ هيجل مليئةٌ بإشاراتٍ إلىٰ (الصعوبة البالغة) لكتاباته، و(مصطلحاته المنفِّرة)، و(الغموض الشديد) لأفكاره. ولتوضيحِ طبيعة المشكلة، قمتُ للتوِّ بالتقاط نسختي من الكتاب الذي يعتبره الكثيرون أعظمَ أعمال هيجل؛ وهو (فينومينولوجيا الروح)، وقمتُ بفتحهِ علىٰ صفحةٍ عشوائية، وكانت أول جملةٍ كاملة في تلك الصفحة ص٥٩٦ تقول: [فهو ليسَ إلا التقالُب الدائب لهذه اللحظات التي تكون الواحدةُ منها الكونَ الآيب إلىٰ ذاتِه، لكن ككونٍ لذاتهِ وحسب؛ أي كلحظةٍ مجرَّدة، تنحو جانبًا حِيالَ اللحظات الأخرىٰ]. ومع أنني أُقِرُّ باقتطاع الجملة من سياقها، فهي مع ذلك توضِّح بعض الصعاب التي يُواجهها المرءُ في فهمِ لغة هيجل. ويمكن العثور علىٰ جُمَلٍ علىٰ الدرجةِ نفسِها من صعوبةِ الفهم في كل صفحةٍ من صفحاتِ هذا الكتاب الواقع في ٧٥٠ صفحة»[2].

عن قراءاته الفلسفية في عصارةِ أيامه، ص٢٣٩-٢٤٠: «والفيلسوف الوحيد الذي لم يزَل يُضجرني هو (هيغل)، وذلك لنقصٍ فيَّ ولا ريب؛ فإن تأثيره الكبير علىٰ الفكر الفلسفي في القرن التاسع عشر لدليلٌ علىٰ أهميَّته. كنتُ أراه يُسهِب إلىٰ حدِّ الإزعاج، ولم أستطع حمل نفسي علىٰ تقبُّل الشعوذة التي بدَت لي أنها وسيلتُه لإثباتِ ما يريده. ولعلَّني كنتُ منحازًا ضده بسبب لهجة الاحتقار التي تحدَّث بها شوبنهاور عنه». [من ترجمة الخليلي الذي ترجم سيرة موم بعنوان (تجرِبتي في الأدب والحياة)، راجع ص١٦٦].

(١) بعض مشكلات الفلسفة، ص٨٣.

(٢) هيجل – مقدمة قصيرة جدًّا، ص٩-١٠.

ولعلَّ هيغل أراد نفسه بقوله: «الرجل العظيم يُجشِّم الدنيا مشقَّةَ فهمِه!»[1].

* * *

وجُرأة المازني رحمه الله في اعترافاتِهِ السابقة ذكَّرتني بما قرأتهُ في سيرة منير شماعة، الذي كتبَ بعد المازني بخمسٍ وستينَ سنة: «وفي سبيلِ الذمَّةِ العِلميَّة لا بد لي أن أُقرَّ بأنني لم أفهم العديدَ من الكُتب التي قيل لي إنها دُررٌ في الثقافةِ والأدب، وإنهُ من المفروضِ علىٰ المثقفِ أن يقرأَها. فبالرغم من كل محاولاتي الجِديَّة لقراءة شعر الصديق أدونيس ونثرِه، لم أفهم يومًا ما كتَبه، ممَّا زعزعَ ثقتي بنفسي وبقدراتي الذهنية إلىٰ أن اكتشفتُ أن العديد من أصدقائي وممن يدَّعون الثقافة أيضًا لم يفهموا ما قصده أدونيس. كما أنني حاولتُ بكل عنادٍ وإخلاص وبمساعدةِ القاموس الفرنسي أن أفهم ما كتبه بروست في كتابه الشهير (في البحث عن الوقت الضائع). ابتدأتُ بالجزءِ الأول منه، وبعد جهدٍ جهيد وصلتُ إلىٰ الصفحة ٥٨ مُنهَك القُوىٰ وبدون أن أفهم ما يريد بروست قوله سوىٰ أنه كان تعيسًا حين لم تُقبِّله والدتُه. ولم أجد سببًا يدفعُني إلىٰ متابعةِ قراءة الكتاب. شعرتُ بمركَّبِ ذنبٍ وخصوصًا عندما قيل لي إن هذه المجموعة لبروست هي أهمُّ ما كُتب في القرن العشرين!»[2]

وفي ظنِّي أنَّ القارئ إذا بلغَ من التصالُح مع ذاتِهِ مَبلغًا عظيمًا فإنه لن يأنَفَ أن يُكاشِفَ نفسه في مرحلةٍ ما بعدم الجدوىٰ من الاستمرارِ في هذا الطريق من طُرُقِ المعرِفةِ، وسيَجهَر أمامَ مِرآة الحقيقة لنفسِهِ كما فعل ماكار دييفوشكين عندما قال في رسالتِهِ إلىٰ فارنكا: «إنَّ ثمةَ كُتبًا لا شكَّ أنها عظيمة، ولكن المرء منَّا يستصعبُ

(١) بين الفلسفةِ والأدب، ص٥.

(٢) إقلاع وهبوط (سيرة طبيب من رأس بيروت)، ص٥٦. وللفائدة: أنصح المهتم بكتاب (مارسيل بروست والتخلّص من الزمن) لجيرمين بريه للمساعدة في فهم هذا العمل العسر.

فهْمَها مهما تكن قيمتُها، ومهما يبذل في سبيل ذلك من جهد؛ لأنها مُسرِفة في العمق، مسرفةٌ في الذكاء. أنا مثلًا غليظُ الذهن، كان ذهني غليظًا دائمًا علىٰ أي حال، ذلك شيءٌ وُلد معي حين وُلدت. فلا أستطيع أن أقرأ الكتب التي تفوق قدرتي علىٰ الفهم!»[١].

ومِن الطريف ما كتبه برتراند رسل في تعريفٍ مختصَرٍ لعملِ أينشتاين ونظرياته وإسهاماته العِلمية في حقلِ المعرفة، يقول: «إن كل إنسان يعلم أن أينشتاين قام بعملٍ عجيب مَجيد، ولكنهُ لا يعرف عن هذا العمل شيئًا!»[٢].

ولكنَّ الأمر علىٰ كُلِّ حال كما ذكرَ ابنُ عبد القادر: «وقد أوتيَ كُلُّ امرِئٍ حظًّا وافيًا من الغرور، وما أكثرَ ما يكون نصيبه منه فوقَ الكفاية!»[٣]

* * *

ويطيبُ لي قبل أن أختم المقال أن أُثبت للقُرَّاءِ الأفاضل كلامًا نافعًا طويلًا عن القراءة، ويعلَم الله أنني لم أكن لأُزعِجَكم بإرفاقهِ بتمامهِ لولا نَفاستُه، وهو بقلمِ أديبٍ بليغٍ ومفكرٍ فطِنٍ، فيقول الكاتِب الموسوعي علي أدهم: «ومن أقوال الناقد هازلت أنَّ أعظم متعة في الحياةِ هي متعة القراءة والاطلاع، والقراءة عند هازلت وأمثاله من الوَلوعين بها ليست واجبًا مفروضًا، ولا تكليفًا مُملًّا، وإنما نزهةٌ جميلة ورياضةٌ مُستحَبة، والكتابُ باب يفضي إلىٰ الفردوس الذي لا يُسمع فيه لغوٌ ولا سخف إذا أُحسِن اختياره، وقُدِّرَت قيمته.

ويختلف موقفُ الناس من القراءة؛ فمنهم من يرَون في القراءةِ سبيلًا لقتل الوقت ودفع الملَل، ومنهم مَن يرىٰ فيها طريقًا لتكوين الشخصية، وبناء الأخلاق

---

(١) الأعمال الكاملة الأدبية الكاملة لدوستويفسكي، ج١، ص١٥٣-١٥٤ - من روايةِ الفقراء.

(٢) كُتب غيَّرت وجه العالم، ص٢٣٧.

(٣) ابن عبد القادر هو المازني، وهذه التعمية متعمَّدةٌ؛ هربًا من تكرار الاسم. في أحاديثه، ص٩٤.

وتقوية التفكير، علىٰ أن الفرد قد يقرأ للاستفادةِ وتحصيل المعلومات، وقد يقرأ للتسامي والتحليق في الأجواءِ العالية والاقترابِ من ذوي العقول الراجحة، ومهما أُوتي الإنسان من القدرةِ علىٰ التحصيلِ فإنَّ صَقْل جانبٍ كبير من تفكيره، وتوطيدَ ثقافته، واستكمالَ عَناصر شخصيته، متوقفٌ علىٰ نوعِ الكتب التي يقرؤها، ولا نزاع في أن الكتب المتهافتةَ التأليفِ تَنهب الوقتَ الذي كان يحسن أن يُقضىٰ في أغراضٍ أنبل وأشياءَ أنفع.

وكلما تكاثرَت الكتب والمؤلفات في موضوعاتٍ شتىٰ أصبح اختيارُ ما نقرأ أصعبَ وأعقَد، وأصبحت القدرة علىٰ التمييزِ والمفاضلةِ أخطرَ وألزم، وكلما ازدادت الكتبُ زيادةً مطَّرِدةً ازدادت معها صعوبةُ الاختيار، والواقع أن صعوبة اختيار الكتب التي يقرؤها الإنسان ويخصها بعنايته وتقديره مسألةٌ قديمة واجهَت الإنسانَ قبل عهد الطباعة، وطالما ردَّدَت الناس أن الكتب كثيرة، فماذا نصنع وكيفَ نختار؟

ولا نِزاع في أن الكتب كثيرة ومتفاوتةُ القيمة، ولكن مما يُهوِّن مشكلةَ الاختيار أن الكتب القيمة الممتازة الجديرة بالعنايةِ والدَّرْس دائمًا قليلة، وفي بعضِ الأحيان تكون نادرةً، وحتىٰ في هذا العصر الذي كَثُر فيه في أنحاءِ العالم تدفُّقُ الكتب في مُختلِفِ الموضوعات وإعادة طبع الكتب القديمة، فإن الكتب الممتازة الجيدة ليست بالكثرة الرَّهيبة التي تَرُوع وتَهول، وسائر الكتب العادية لا صعوبةَ في الاختيار بينها؛ لأن القارئ الذي يُعْنىٰ بها إنما يقصد تَزْجية الوقت، والذي يقصد أنْ يتسلَّىٰ بقراءةِ قصة غرامية أو رواية بوليسية سيقْنع بما يُصادفه ويقعُ في يده، ولا يُطيل التدقيقَ في المراجعة والاختيار؛ لأنَّ غرضه قتلُ الوقت لا الفائدة، وأمثال هذهِ الكتب يلتهمُها الناس كما يلتهم الأطفالُ الحلوىٰ، وليسَ هذا اللونُ من ألوانِ القراءة من قَبيل المتعة التي تسمو بالنفس وتَغْذو بالقلب.

وكثيرٌ من الناسِ يقرؤون، وتتناول قراءتُهم موضوعاتٍ منوَّعة ولكنَّ القليلين هم الذين يُحسنون القراءة، ولعلَّ السبب في ذلك أن أكثر من يقرأون يَشرعون في قراءةِ الكتب وفي أدمغتهم فكرةٌ سابقة عمَّا يجب أن يكون عليه الكتاب، فإذا اتَّجه المؤلفُ اتجاهًا يخالف ما رسَموه له مقدمًا، ونهجَ نهجًا آخر ضاقوا به ذرعًا، وأبَوْا متابعته، أو تابَعوه في شيءٍ من التكلُّف والتحامل.

وإقبالُنا علىٰ قراءةِ كتابٍ من الكتبِ ونحن نحمل معيارًا خاصًّا- قد يمنعُنا من أن نضعَ أنفسنا موضع المؤلف؛ ولذلك قد تغيب عنا وجهة نظره ونُسيء فهمه، والكاتب مثل المتحدِّث؛ فإننا لا نفهم وجهة نظر مُحدثنا إلا إذا أصغَيْنا إليه وأعطيناه الفرصةَ ليقول ما عنده ويوضِّح رأيه دون أن نعترضَه أو نُثيره، وأكثر الناس لا يصبرون علىٰ الكتابِ ولا يُصابرون، والقراءة الصحيحة في رأيي تحتاجُ إلىٰ كثيرٍ من الموضوعيةِ أو التجرُّدِ إلىٰ حدٍّ كبير، وهو أمرٌ ليس بالسهل، ولكنه فيما أُقدِّر السبيل الوحيد للحكمِ الصادق علىٰ ما نقرأ، ولا بد لذلك من رياضةٍ وتدريبٍ ومِران؛ لأنَّ مُطاوعة الأهواء أغلبُ، والتأثُّر بالأحكامِ السابقةِ شديدُ الاستيلاء علىٰ النفوس، وفي عصورِ النزعات السياسية الغلَّابة والاعتقادات السائدة؛ تُصبح الحاجة إلىٰ ذلك أمَسَّ لتتَّسع آفاقُ التفكير وتكثرَ وجهات النظر ويتجنَّب خطر الضيق والتعصب والتحزُّب. ولا خيرَ في الاطِّلاعِ وإدمان القراءة إذا لم يصحَبْهما التفكيرُ المستقل الحر. وحقيقةً إنَّ المشتغل بالمسائلِ العِلميةِ والأدبيةِ في حاجةٍ ماسةٍ إلىٰ اطِّلاعٍ واسعٍ وقراءةٍ منوَّعة، ولكنه مع ذلك إذا لم يستطع عقلُه السيطرةَ علىٰ ما يقرأ وإجادةِ هضْمِه واعتصاره، والانتفاعِ به واستثماره، وإضافته إلىٰ محصولهِ الخاصِّ وطبْعِه بطابَعِهِ؛ كانت القراءة من أسبابِ التقصير ودواعي التخلُّف، لا من حوافزِ السبقِ والتبريز والتقدُّم»[1].

(١) وأدعو إلىٰ مراجعة المقال كاملاً في مصدرهِ؛ لأنني تصرّفتُ به يسيرًا، واقتطعتُ منه ما أريد.

وأُحب أن أؤكد في خاتمةِ المقال بأنَّ الكُتب لن تُفيد القلوبَ العُمْي كما قال الشيخ محمد عبده،[1] وأرىٰ أيضًا أنه لا بد لنا -بعد كلِّ ما قلنا ونقَلْنا- أن نُردِّد مع مارون عبود قولَه التالي: «ليسَ معنىٰ هذا أن نُكلِّف الكتبَ ما ليسَ عليها؛ فالكُتب لا تُحيي الموتىٰ، ولا تُحوِّل الأحمقَ عاقلًا، ولا البليد ذكيًّا، ولكن طبيعة الإنسان إذا كان فيها أدنىٰ قبول؛ فالكتب تشحذ وتفتق»[2].

يجده الراغب في مجلةِ الكتاب العربي، العدد الثالث، ١٠ أغسطس ١٩٦٤/ ربيع الآخر ١٣٨٤هـ. وهو في كِتاب: علي أدهم (مقالات متنوعة)، ص٧٤-٧٧.

(١) المعاصرون، ص٣٥٦.

(٢) مُجدِّدون ومُجترُّون، ص٥١-٥٢. وأنصح بقراءة مقال لمارون عبود بعنوان (إلىٰ إخواني الطلّاب) في كتابهِ (آخر حجر)؛ فإنه مقالٌ رائع يحضُّ فيه علىٰ القراءة ومخادنة الكتب.

بصمةٌ لن تزول

«ولا يستطيع القارئ أن يحصر مقدار الفائدة التي يَجْنيها من كتاب؛ فرُبَّ كتابٍ يجتهد في قراءته كلَّ الاجتهاد، ثم لا يخرج منه بطائل، ورُب كتاب يتصفحه تصفُّحًا، فيترك في نفسهِ أثرًا عميقًا يظهر في كل رأيٍ من آرائه، وكلِّ اتجاه من اتجاهات ذهنه»(١).

(١) أنـا، ص٧٢.

أؤمنُ بأنَّ هناك كتابًا أو كُتبًا مؤثِّرة في حياةِ كل قارئ، ولكني لا أؤمن أبدًا بوجود كتبٍ لازمةِ التأثير في كل مَن يقرؤها!

يجب -أو لا يجب، المهم أنني سأكتب هذا- أن يُعْلَم أنَّ التأثيرَ الذي يتركه كتابٌ ما في نفسِ القارئ يعود إلىٰ أسبابٍ كثيرة، وليس الأمر عائدًا إلىٰ محتوىٰ الكتاب فقط، وأنه جيِّدٌ أو عميقٌ أو عظيم!

بل أحيانًا قد تقرأ كتابًا أوصىٰ به جمعٌ غفير من القرَّاءِ الأشاوسُ وأنه من أعظمِ كتب الدُّنيا، ثم لا يُحرِّك فيك شيئًا، وترىٰ أنه دونَ ما وُصِف به، ولا يستحق كلَّ هذه التوصيات والمراجعات والترويج. وقد تقرأ العكس؛ كتابًا يُنعَتُ بالسطحيةِ والسَّذَاجةِ فيكون سببًا في تنبيه قلبك بعد غفلته، وإيقاظِ عقلك من غفوته.

ولذا، أقول: أسبابٌ كثيرة تجعل الكِتاب مؤثِّرًا في قارئه، وإني ذاكرٌ لكَ هاهُنا أربعةً منها؛ هي أشهرها وأهمُّها من وجهةِ نظري، فدونك هي:

١. الحالة النفسية:

يكتب العقادُ في فصولِهِ: «ربما تناول أحدُنا الكتابَ الثمين في ساعةِ ضجرِه ثم أقفله وهو يتأفَّف. ويتناول الكتاب الغثَّ وهو منشرحُ الخاطر منفتحُ نوافذ الذاكرة فيرتاح إليه وتتوارَدُ علىٰ ذهنِهِ الخواطرُ والطُّرَف من كنوزِ الذاكرة المدفونة، فيُثني علىٰ الكتابِ وكاتبه، وإنما اللذة لذَّته لا لذة الكتاب أو صاحبه»(١).

من العواملِ الرئيسةِ التي تجعل الكتابَ مؤثِّرًا في القارئ هي حالته النفسية أثناء قراءته. تُصاب بعلّةٍ معيَّنة، أو يتلبَّسُك خوفٌ من أمرٍ خاص، ثم تقرأ كتابًا يُعالجُ

---

(١) الفصول، ص٢٥٥.

مؤلِّفهُ ما تُعانيه، أو يكون المؤلفُ مصابًا بمثلِ مُصابك، وتقرأ حديثَه عن نفسهِ وحالته ومِزاجه، فتشعر بأنَّهُ يكتب بقلمك ويتحدَّث بلسانك ويبسط علىٰ الورقِ أفكارَك ومشاعرك! عندها ستصرخ بعد الفراغ منه قائلًا: يا الله، إنه أعظمُ كتابٍ قرأته في حياتي. فتُهرَع إلىٰ الحديث والكتابة عنه، وتُقيِّمه في مواقعِ المراجعات بألفِ نجمةٍ، وتُسوِّد في مراجعتك له ٥٠ صفحةً أو تَزيد؛ في الثناءِ عليه، وشرح عُمق أفكاره، ووصفِ بلاغة مؤلفه وبيانِه! والواقع أنَّ الكتاب دون ذلك، ولو لَمْ يُلامس شيئًا خاصًّا في نفسِك وحياتك لم تتأثَّر به كلَّ هذا التأثُّر، ولو نصَحتَ به غيرَك فلن يقع له مثلُ ما وقع لك بعد قراءته.

وعلىٰ هذا لا تستبعد أيها الفاضلُ أنْ تقرأ كتابَ فذْوىٰ السوهاجي (مطبخ الست)[١] وأنتَ جائعٌ فتُقرِّر بأنه كتابٌ عظيم وعبقري، وعلىٰ كل مهتمٍّ بالعلمِ والمعرفةِ أنْ يبتاعَه ويلتهم صفحاته.

والعامِل النفسي مهمٌّ جدًّا في تأثيرِ الكُتبِ علىٰ قُرَّائها؛ فالكِتاب الذي يرفعك قد يَخفض غيرك، وقد يقرؤه ثالث فلا يشعر بارتفاعٍ ولا انخفاض، وليسَ هنالك سوىٰ الصمتِ العقلي الموحِش!

ولنذكر خبرًا من حياةِ المازني غفر الله لنا وله.

الأديبُ إبراهيم المازني مَدينٌ بشفائهِ مما كان يُعانيه، وعودةِ ثقته بنفسهِ ونشاطه لروايةٍ روسيةٍ تركَها له العقاد. يقول: «فأكْببتُ عليها وقرأتُها في ساعاتٍ أحسستُ بعدها أني صِرتُ أقوىٰ وأصحَّ بدنًا وأقدرَ علىٰ المكافحةِ والنِّضال في الحياة». وفي موضعٍ آخر: «قرأتُ هذه الرواية فلم أكَد أفرُغ منها حتىٰ رأيتُني انقلبتُ مخلوقًا آخر، أعدَّتْني روحُ بطلها بقوَّتها وجُرأتها علىٰ الحياة، وبالبساطة في مواجهةِ ما يقع له

---

(١) لا تبحَث عنه؛ لأنه لا يوجد كتاب ولا مؤلفةٌ بهذا الاسم.

فيها، وباستقامةِ النظرة وسداد الاتجاه، فشُفيتُ واستغنيتُ عن الأطباءِ والعقاقير، وما لبثتُ أنْ كرَرْتُ إلىٰ مَيدانِ العمل وبي من النشاطِ والثقةِ ما يكفي فَيلقًا بأسْرِه». ويقول: «كنتُ قبلها أعتقدُ أنَّ عمري لن يطولَ أكثر من خمسِ سنوات، فصرتُ بعدها أكادُ أؤمن بالخلود في الدنيا».

وهذه الرواية لم تُخلِّف هذا الأثر الإيجابي -وَضَعْ أسفل مفردة الإيجابي عشَرة خطوطٍ حمراء- الكبيرَ في نفسِ المازني لأنها روايةٌ ماتعة رافعة، بل سبب تأثيرها عليه أنها لمسَت شيئًا في دَواخلهِ، وعالجَت داءً أقعدَ هِمَّتَه في تلك الأيام، وقد أخبرنا قائلًا: «ولستُ أقول: إن هذه خيرُ رواية، كلا. وإنما أقول: إنها شفَتْني وقوَّتْني ونفثَت فيَّ روحًا كانت حاجتي إليها عظيمة».

ولذلك كانت رَدَّة فعل الطنطاوي رحمه الله تجاهها مختلفة؛ لأنه قرأها بنفسٍ غيرِ نفسِ المازني، وحالٍ غير حاله، فقد قال عنها إنها قصة سيئة(١)، وذكر بأنها كادت تؤثِّر في دينه وتُفسد فِكره، لولا أن أنقذَه الله من شرِّها(٢).

والذي أريده أنَّ العامل النفسي أثناء قراءة أيِّ كتاب هو اللبِنة الأولىٰ في بناءِ صرحِ التأثير -إيجابيًّا كان أم سلبيًّا- في عقلِ القارئ.

ولذا نجد أنَّ بعضهم -أصلح الله شأننا وشأنه- يُبالغ جدًّا في وصفِ كتبٍ لتطوير الذات، ويجعلها في أعلىٰ القائمة من ناحيةِ الجَودة والرَّصانة، وليست كذلك. وحقيقة أمره أنه قرأ أحدَها وهو في حالةِ بُؤسٍ فكريٍّ، فوجد فيه طبطبةً مُحبَّبَة حسَّنَت مِزاجَه ونفسيته، فقدَّسَ الكتاب ومؤلفَه! وهو لا يُلام علىٰ ذلك؛ فإنَّ

---

(١) ذكريات الطنطاوي، ج٣، ص٢٨٦.

(٢) راجع القصة كاملة في الكتاب اللذيذ (العمر الذاهب)، ص٢٨٤-٢٩٧ د. عبد الرحمن قائد. ولا أشك أنك ستعرفها بعد ملاحقةِ المصدر؛ لذلك أنصحك بقراءةِ ما كتبه كولن ويلسون في كتابهِ [الكتب في حياتي] عنها وعن كاتبها -بعد معرفتك لاسمِه!- وعن رواياته الأخرىٰ أيضًا؛ فإن حديثه عنه مهمٌّ جدًّا وثمين.

القارئ الحقيقيَّ هو القارئ التفاعُلي، ولأنه تفاعَل مع المقروء وجد أثره في نفسه.

مشكلتنا الوحيدة معه؛ أنَّ حُكمه علىٰ الكتاب ومادته مُضطرِب، وتقييمه له لا يُعتَدُّ به، والسبب ظاهر معلوم.

أما كُتب تطوير الذات فلن أُثخِنَ فيها، ولكنَّ أغلبها -وحبذا التركيز علىٰ «أغلبها»- يكون مُجمَل الطرح فيه مُخدِّرًا لا موقِظًا؛ لأنها تَخلُق في داخلِ القارئ (الفاشل حياتيًّا) شعورًا مطَمْئِنًا حتىٰ يُحبَّ فشله! فهي في حقيقتها قائمةٌ علىٰ حِيَلٍ نفسيةٍ لا تنهض بك، بل تُخيِّل إليك النهوض!

ولها ضررٌ آخَر قد لا يُتَنبَّه إليه، وهو أنها تُضعِف قدرةَ تحمُّل نوائب الزَّمان عند الإنسان، وقد كتبتُ قديمًا بعد رؤيةِ انتشار دورات تطوير الذات وما شاكَلَها:

أرىٰ أنَّ بعض القائمين علىٰ دوراتِ [تطوير الذات] يُسهِمون -وبشكلٍ رئيس- في زيادةِ بؤس الفرد؛ وذلك أنهم يَخلقون في أذهانِ الحضور حالةً من الوهمِ تقودُهم إلىٰ الاعتقادِ بأنَّ الدُّنيا ما هيَ إلا قطعةٌ من الجَنَّة؛ همومك فيها تنجلي، وفقرُك يزول، وسعادتك دائمة... إلخ. يخرج الفرد -من المحاضرةِ أو الدورة- فيُصدَم بالواقعِ المرير فتكون حالهُ سيئةً جدًّا. بل إنهم يُضاعفون همومَك وآلامك؛ لأنك في محاضرةِ أحدهم تشعر بالثراءِ والنَّعيمِ المقيم، ولكن متىٰ ما خرَجتَ وتأمَّلتَ حالك صُعِقتَ لهذا البؤس المحيط بحياتك! لولا الوهمُ الذي زُرِعَ في ذِهنك أثناء المحاضرة لما شعَرتَ بهذا، وكان حالك أفضلَ بكثير. نعم؛ إنهم يُضعِفون سَوابغك التي تَقيك ضرباتِ سيوف الأيام. فهلَّا أبلَغتُموهم عني أنَّ الوهم، والوصفات المثالية؛ لا تحلُّ المشكلة بل تُعقِّدها أكثر، ولا تُرقِّع ثوبَ الآلام بل تَزيده تمزيقًا. في هذهِ الفانية لا بد من الهمِّ والحزنِ، والمرضِ والشقاءِ، والفقر والمعاناة... والإشكال الأعظم ليس فيها -أي: في نوائبنا ومشكلاتنا ومعاناتنا- بل في التعامُل

معها. فمِن هذه الأمور -الفقر والمرض والمعاناة- يَنفُذ الإنسانُ إلىٰ معانٍ ساميةٍ في دنياه، ويُدرِك أنه في عالمٍ أرضيٍّ لا فردوسٍ سماوي!

وإنِّي عالِمٌ ما تُهَمْهِمُ به نفسُك: «ما هذا، لقد أخذَنا بعيدًا عمَّا كان بصدَدِه!». صدَقتَ، ولكن لعلَّ حالنا كالمسافر الذي رأىٰ أيمنَ طريقه بُستانًا فمالَ إليه وقطَف منه[1] ما راقه ثم أكمل وجهته. لِنَعُد الآن.

٢. العمر:

ومن العواملِ أيضًا التي تجعل الكتابَ أثيرًا لدىٰ المرء ومُعظَّمًا في نفسهِ ومؤثِّرًا في شخصيته؛ المرحلةُ العمرية.

فكم من كتابٍ قرَأتَهُ وأنتَ في زهرةِ شبابك فكان أثرُهُ عليك عميقًا، وتعلُّقك به كبيرًا، ثم لمَّا نهشَتْك الأيام -أو نهَشْتَها، اختَرْ ما تشاء- ومضت بك السِّنونَ وجدتَ أنَّ في تقييمك له إبَّان شبابك قدرًا كبيرًا من المبالغة.

وقد يكون العكس؛ قد تقرأ مؤلَّفًا في شبابِك فلا تَقدُر له حقَّه، فلما نضجتَ وكبرَت سنُّك أدركتَ عظيمَ فائدته، وعُمق مادته، واحتلَّ مكانةً كبيرة في عقلك وفؤادك.

ولا يَعزُب عن ذاكرتك قولُ أمير البيان شكيب أرسلان: «إذا قرأتَ كتابًا وأنتَ شابٌّ فلا تحتقر أن تُراجعه وأنت شيخ؛ فإنَّ الكتاب ينمو وينضج بنموِّك ونضجِك».

والشاهد أنَّ المرحلة العُمرية عاملٌ مُهم في تأثيرِ الكتاب علىٰ قارئه؛ فإنَّ تعامُل المراهق مع الأفكار أو المَضامين العقلية -بل أيضًا مع الإشارات الروحية والوقفات الإيمانية- مختلفٌ تمامًا عن تعامُلِ ذاك الذي وَخَطَهُ الشَّيب وطحَنَت فُتوَّتَه التجارِبُ.

---

(١) بعد أخذ الإذن من صاحبه طبعًا، وإن كنتُ لم آخُذ الإذن منكم قبل الاستطراد!

٣. التخصص والاهتمام الشخصي:

المُهتم بالفلسفةِ لو سألتَه عن أعظمِ كتابٍ قرأه في حياتهِ وكان له الأثرُ العظيم في نفسهِ، لن تخرج إجابتُه عن دائرةِ اهتمامه. وستجده يتعمَّد إتعابَ أقدامك بأخذكِ في جولةٍ حول حِمىٰ الإغريق تارًة، وفي أزقَّةِ فرانكفورت تارةً أخرىٰ، وبين أروقة السوربون تارةً ثالثة! ولن يطيبَ له عيشٌ أو يهنأَ له بال حتىٰ يُرهق عقلك بتهكُّمِ سقراط وتوليدِه، ومُثُلِ أفلاطون ومحاوراته، وهُيولَىٰ أرسطو، وكوجيتو ديكارت، وصوفيَّة اسبينوزا، ولفياثان هوبز، ومثاليَّةِ بركلي، وتجريبيَّة هيوم، وعقل إيمانويل كانْت! كذلك ستكون إجابةُ الباحث في التاريخ، وعاشِق اللغات، والعالِم في الفقه والشريعة، وهكذا. التخصُّص عاملٌ مهم في خلقِ الأثر في نفسِ القارئ، وعدمُ الانتباه إليه يوقع الناصحَ لغيره بكتابٍ ما في الخطأ، ويورِدُ المنصوحَ مواردَ الخيبة.

٤. البيئة والثقافة:

وهذا هو آخِرُ العوامل التي سأذكرها.

تقرأ أو تسمع حديثَ أحدِ المفكرين أو الرِّوائيين الغربيِّين الكبار عن كتابٍ له بالغِ الأثر في حياته، وكان سببًا في بعثِ ما مات في نفسه؛ ثم تُهرَع إلىٰ قراءته لعلَّ وعسىٰ أن يُصيبَك ما أصاب ذلك المفكِّرَ أو الروائي من التأثيرِ والبعث، ولكنك تُفاجَأ ببرودٍ أثناء قراءته، وخمولٍ إزاءَ مُعظم أفكاره!

والسبب في هذا أنَّ ذلك المفكِّرَ أو الروائي الغربي نشَأ في بيئةٍ غيرِ بيئتك، وتشرَّبَ ثقافةً مُغايرة لثقافتك، ومن بيئتهِ وثقافتهِ تكوَّن فكره ومنظوره العقلي، فكان تفاعلُه مع محتوىٰ الكتاب مختلفٌ عن تفاعلك؛ لأنَّ بينكما بَوْنًا شاسعًا في النظرِ والتفكير.

وكم من قارئٍ طيِّب النية وقَفَ علىٰ افتتاحيةِ باموق لروايته (الحياة الجديدة): «قرأتُ كتابًا في يومٍ ما فتغيَّرت حياتي كلُّها». وعَلِم بعد ذلك أنَّ الكتاب الذي غيَّر حياة باموق هو (الصَّخب والعنف)[1] للعبقري الثقيل وليم فوكنر[2]، فلم يتوانَ أو يتأخَّر وراح يجرُّ أقدامه بحثًا عنه في المكتبات -أو PDF في النت!- حتىٰ ظَفِر به.

عادَ مُغتبطًا بصيدهِ الثمين وانزوىٰ في ناحيةٍ من منزلهِ يزدردُ صفحات الكتاب، ولكن، ويا للخيبة! عَلِق بحلْقِهِ ما الْتهَمه من ورقاتِ الكتاب[3]، فلا هي التي وصلَت إلىٰ معِدتهِ فانتفع بها، ولا هو الذي استطاعَ إخراجَها من فمه وتخلَّص منها! أعْيَته قفزات فوكنر[4] هنا وهناك، ولم يألف جيِّدًا جو آل كمبسن. ولكنه أعاد الكَرَّة متأنِّيًا مقتفِيًا خُطىٰ غيره، فكأنه أدرك المرادَ بعد طول الجهاد من الرواية، بيْدَ أنَّ الأثر الذي كان ينتظره، والنتيجة المأمولة التي ترسَّخَت في ذهنهِ بعد الوقوفِ علىٰ قولِ باموق لم تَتأتَّ له، ولم يشعر بأي تغيُّر، ولم يُحسَّ بأي تأثير، هو هو قبل الرواية وبعدها!

لا تبتئِسْ يا صديقي، ليس بك داءٌ مجهول الدواء، وهذا الذي وقَع؛ سببُه اختلافُ البيئة والثقافة، وهو لا يدلُّ علىٰ علَّةٍ بك، بل علىٰ سلامةِ عقلك وتفرُّد شخصيتك.

* * *

عليك أنْ تتيقَّظَ لهذا أيضًا عندما تقرأ حديثَ الكُتبي والصحافي الإيطالي

---

(١) ضد المكتبة، ص٨٨.

(٢) سُئل فوكنر قُبيل وفاته عن أحبِّ كُتبه إلىٰ نفسه، فقال: الصخب والعنف.

(٣) لا أظنُّني بحاجةٍ إلىٰ التذكير أن كل هذا علىٰ سبيل المجاز!

(٤) يقول أورويل من رسالةٍ كتبها إلىٰ رايمبو في ٢٩/ ١١/ ١٩٣٤: «عندما أخبرتني أنك ترجمتَ كتب وليام فولكنر، علمتُ أنك فريدٌ بين المترجمين كما يقول شكسبير. أنا شخصيًّا عاجزٌ عن تخيُّل مؤلفٍ أكثرَ صعوبةً علىٰ مترجمٍ أجنبي من فولكنر؛ لكن أسلوبه متميِّز حقًّا مهما كانَ معقَّدًا. [رسائل جورج أورويل ص٧١ – منشورات تكوين].

جيامبييرو موغيني[1] عن كَرَّاسات المناضل الشيوعي أنطونيو غرامشي، فإننا نجده يقول في كتابه (رائحة الكتب): «أجهل إذا ما كان كتاب غرامشي هذا عبارةً عن رسائلَ أم رواية. الحقيقة التي أتذكَّرها جيِّدًا، هي أني قرأتُهُ في عمرِ التاسعةَ عشْرة مستلقيًا علىٰ السريرِ في منزلِ جَدي. إنه أحد تلك الكتب التي بإمكانك أن تقول: إنه قد غيَّر حياتك بلا مُبالغة، وترك فيها بصمةً لن تزول. ما زلتُ أحتفظُ بتلك النسخة، ليست من الطبعةِ الأولىٰ التي صدرَت عام ١٩٤٧ (الطبعات الأولىٰ لدار كوادريني أشبهُ بذِكرىٰ من الثقافةِ الإيطالية، ابتعتُها جميعًا). كانت نسخةً من الطبعةِ التاسعة، وصدرَت عن دار أينودي عام ١٩٥٤.

ماذا عن التقارُبِ الثقافي مع هكذا كتاب؟ كاتبه سُجِنَ لمجرَّد كونه مُعارضًا سياسيًّا للحُكم الجائر، كاتبٌ قضَّ الأرقُ مضجَعه، ولم يكسر المَرَضُ شوكته، وظل ينهلُ من مَعين العِلم يوميًّا، متأمِّلًا ومحاولًا فَهْم تعقيد الأمور في بلده. حسُّه الإنساني الرفيع، ونزاهته، وثراؤه المعرفي، والعذاب الجسدي الذي لاقاه، وألمعيَّته الذهنية، ظهرَت جميعًا في السطرِ الأخير من رسالتهِ الأخيرة الموجَّهة لابنه ديليو: (عزيزي ديليو: أشعرُ ببعضِ الوَهْن، ولا أقوىٰ علىٰ كتابةِ الكثير من الرسائلِ لك. أنتَ تكتب لي الكثير عمَّا أثار اهتمامَك في مدرستك، أجِدُك تُحب التاريخ كما أحببتُه أنا يومًا حين كنتُ في عمرك، أحببتهُ لأنه يهتمُّ بالأحياء وكل شؤونهم، يهتمُّ بكل البشر لأنهم يتشاركون المجتمع، والعمل، والصِّراع، ويُطوِّرون أنفسهم. حاذِرْ

(١) صحافي وكاتب إيطالي، وُلِدَ عام ١٩٤١، وهو مُحرِّر سابق في صحيفة لوتَّا كونتنوا السياسية. أسهَمَ في تأسيس صحفٍ كثيرة، وقدَّم برامج ثقافية ورياضية عديدة، وهو مشجِّع مُتعصب لنادي يوفنتس الإيطالي، وله ثلاث كتب عن الفريق. فاز بجوائز عديدة، وكان ضيفًا دائمًا في برامج إيطاليا. أصدر حتىٰ الآن ٤٠ كتابًا، ويقيم الآن في روما. في مكتبته ٢٠ ألفَ كتاب، منها ٢٠٠٠ كتاب نادر. [رائحة الكتب، ص١٤٩].

من أن تُحِبَّ ذاتَك أكثرَ من حُبِّ الآخرين، هل تستطيع فِعل ذلك؟)»[1].

وأنا -ولن أستعيذَ من كلمةِ أنا-[2] أقول: هذا المناضل الشيوعي العتيد في سيرتهِ ما يُعجِب القارئَ حقيقةً، وقد قرَأتُ له وعنه الكثير، وكرَّاساته كانت خيرَ مُعبِّر عن سَعة اطِّلاعه، وقوَّة بأسه، وإيمانه العميق بقضيته وجَدْوىٰ كفاحه.

عندما[3] كشَّر الدكتاتور عن أنيابهِ في خريف ١٩٢٦ وأراد أن يضَع حدًّا للديمقراطية البرجوازية المُزعِجة، جاء الأعضاءُ لأمين حزبهم -غرامشي- وأخبَروه بأنهم قد وضَعوا خُطةً لتهريبه إلىٰ سويسرا قبل أنْ تَطوله يدُ الطاغية موسوليني، ولكنهم فوجئوا بمَقولتهِ التي لا يُفوِّتُ كلُّ كاتبٍ لسيرته تدوينَها بالخطِّ العريض، قال: «إن الرُّبان ينبغي أن يكون آخِرَ من يُغادر السفينة الغارقة». اعتُقل بعد ذلك، هو ومجموعةٌ من رفاقه، وفي المحكمةِ الخاصة ختم المدعي العام ميكِلِهْ إيسغرو في مرافعتهِ أمام القاضي بقولهِ الشهير: «علينا أن نوقِفَ هذا الدماغَ عن العملِ عشرينَ عاما!».

وذلك ما كان فعلًا -أعني الحكم عليه لا إيقافَ دماغه-. فقد حُكِمَ عليهِ في الرابع من يونيو ١٩٢٨ بالسِّجن عشرين سنةً وأربعة أشهر وخمسة أيام علىٰ ستِّ تُهَم مختلفة بالخيانة!

بدأ غرامشي كتابة كَرَّاساته الشهيرة في فبراير ١٩٢٩ وفرَغ منها ١٩٣٥م، وكانت هذه الكرَّاسات «بؤرة حياته الداخلية» كما يقول. ولك أن تتخيَّل كيفَ لهذا المريض الذي كان يُعاني من أدواءٍ كثيرة، والسجين الذي تُضيِّق عليه حراسة مشدَّدة؛ أن يملأ ٣٣ (أو ٣٢) دفترًا يتحدث فيها عن مُجمل التطوُّر الحديث للمجتمع الإيطالي،

---

(١) رائحة الكُتب، ص٥٠.

(٢) راجع كتاب لحن القول، ص٧٨.

(٣) هذا الحديث من بابِ الإثراء المعرفي، وجب التنبيه حتىٰ لا أُتَّهم بأنني شيوعيٌّ مُندسٌّ!

ويسترسل في الكتابةِ عن دانتي، وبيرانديلو، ومكيافيللي، وكروتشه، وعصر النهضة، والنِّضال الوحدوي في القرن التاسع عشر، والفولكلور والمعتقدات الشعبية، ودور الكنيسة الكاثوليكية، وتطور النظام التعليمي، والصِّحافة... وغيرها من الموضوعات، مع حالته الصحية السيئة وشُحِّ المصادر؟! لقد كتبَ بيدِهِ وبخطٍّ صغير ٢٨٤٨ صفحة، تمكَّنَت تاتيانا شاخت شقيقة زوجته جوليا من تهريبها في حقيبةٍ ديبلوماسية إلىٰ موسكو.

وهنا أجدُني مدفوعًا لأُثبت بعضَ الأسطر عن حالتهِ المؤلمة التي آلَ إليها عندما كان في السجن، فاقرأ الآتيَ: «مع مرور السنين اضطُرَّ غرامشي لأن ينسحبَ إلىٰ داخل ذاته أكثرَ فأكثر. فمعظم الوقت، وخصوصًا قبيل انتهاء فترة سجنه في توري، كانت شدةُ المرض تمنعه من القراءة أو الكتابة. كانت سنوات غرامشي -(الأحدب، العليل، الذي تعرَّض لثلاث انهياراتٍ صحِّيةٍ كبرىٰ علىٰ الأقل حتىٰ وهو حرٌّ وقادر علىٰ توفير الرعاية الصحية والغذاء الخاص)- في السجن سكْرةَ موت حقيقيةً دامت إحدىٰ عشْرة سنة من دون أية مبالغة. فأسنانُه تساقطَت، وجهازه الهضمي انهار وبات عاجزًا عن تناولِ أي طعام يحتاج إلىٰ هضم، وأرَقُهُ المزمن تحوَّل إلىٰ علَّةٍ مقيمةٍ باستمرار حتىٰ صار يُمضي أسابيعَ كاملة دون أن ينام أكثرَ من ساعة أو اثنتَين في الليل، كان يُصاب بنوباتٍ حادَّة لدىٰ تقيُّئِه الدم، كما كان يُعاني من حالات صُداعٍ بالغة العنف تجعله يضرب رأسَه بجدران زنزانته! تلك هي الخلفية التي يتعين النظرَ من خلالها إلىٰ إنجازه».

في رسالةٍ لأخته بتاريخ ٣/ ١١/ ١٩٣٠ يكتب: «لقد انتهيتُ من إحصائياتِ تشرين الأول: نِمت خمس ساعات في ليلتَين، ولتسع ليال لم أنَمْ أبدًا. في الليالي المتبقِّية نمتُ أقلَّ من خمس ساعات».

أتمَّ غرامشي في سجنهِ عشرَ سنوات ونصف، ولم يُفرج عنه -كما قال توم

نايرن- «إلا علىٰ فِراش الموت»، حيث مات في المستشفىٰ في السابع والعشرين من أبريل ١٩٣٧، بعد نزيفٍ حادٍّ في المخ.

أُعلنَت وفاته في فِقرةٍ صغيرة في الصحافة الإيطالية، ودُفن بهدوءٍ وصمت في مقبرة البروتستانت في روما.

ولا أنسىٰ قوله الذي يكشف عن ماهيَّةِ شخصيته في تلك الرِّسالة التي كتبَها إلىٰ أُمِّهِ في العاشرِ من مايو ١٩٢٨ قبل أن يُحكم عليه بالسِّجن عِشرين سنة، كتبَ إليها يقول: «أمي العزيزة، لا أريد أن أكرِّر ما قلتُه مرارًا وتَكرارًا عن حالتي الصحية والمعنوية. وأريد منك، كي أكون مطمئنًّا، ألا تَجْزعي ولا تقلقي كثيرًا... إنه مَهْما كان حُكمُ المحكمة فأنا معتقلٌ سياسي وسأكون مُتَّهمًا سياسيًّا. ولا ينبغي أبدًا أن تشعري بالخِزي من هذه الوضعية. وفي العمق؛ هذا السجن وهذه المحاكمة أنا مَن أرادها بطريقةٍ أو أخرىٰ؛ بما أني لم أتراجع أبدًا عن آرائي التي من أجلِها أنا مستعدٌّ للتضحيةِ بحياتي، وليس فقط البقاء في السجن. ونتيجةً لذلك فلن أكون إلا فرحًا ومرتاحًا من نفسي. أمِّي العزيزة، أريد حقيقةً أن أحضنَكِ بقوةٍ بين ذِراعَيَّ كي تشعري بعميقِ الحب الذي أُكنُّهُ لك، وكم أرغب أنْ أواسِيَكِ عن هذا الحزن الذي تسبَّبتُ فيه لكِ، لكني لا أستطيع أن أفعل غيرَ ما فعلت. هكذا هي الحياة قاسيةٌ جدًّا، أحيانًا يجب أن يتسبَّب الأبناءُ بأحزانٍ كثيرة لأمَّهاتهم، إذا أرادوا المحافظةَ علىٰ شرفِ وكرامة الرجال.. أُقبِّلُك بحرارة .. نينو»[1].

المهم، إني أرىٰ -أيها القارئ الكريم- التأثُّر باديًا علىٰ ملامحك بعد الذي

---

(١) مصادري في الحديث السابق عن غرامشي للإفادة: كتاب رسائل أنطونيو غرامشي إلىٰ أمه (الجزء الأول) - دار طوىٰ - ترجمة: سعيد بوكرامي، وكرّاسات السجن - دار المستقبل العربي - ترجمة: عادل غنيم، ومدخل إلىٰ غرامشي - تحرير: شوستاك ساسون - ترجمة: سحر توفيق - المركز القومي للترجمة، والأمير الحديث لغرامشي -ترجمة: زاهي شرفان وقيس الشامي - منشورات الجمل، وشجرة القنفذ والرسائل الجديدة - التكوين - تقديم وترجمة: أمارجي، وقضايا المجتمع المدني - دار كنعان - ترجمة: فاضل جتكر.

عرَفتَه عن القصير الأحدب غرامشي، ولكنَّهُ تأثُّرٌ آنيٌّ لا يلبث أن يبتلعه النسيان دون أن تشعر به، ولن يكون حالك شبيهًا بحال جامبييرو موغيني الذي قال واصفًا كتابَ المناضل العتيد بعد أربعةِ عقودٍ من قراءتهِ الأولىٰ: «إنه أحدُ تلك الكتب التي بإمكانِكِ أن تقول: إنه قد غيَّر حياتَك بلا مُبالغة، وترَك فيها بصمةً لن تزول».

هذا إيطالي نشأ وأيفع وشبَّ وشابَ علىٰ اسمِ غرامشي وسيرته، ومُشاهدة صوَرِه في كلِّ مكان، وتجمعُهما الدولةُ والبيئةُ والقومية ذاتُها، فكيفَ لا يكون تأثيرُ كتاباته أو أفكارِه عليه عظيمًا؟! ولن يقع لك مثلُ ما وقع له من التأثُّرِ حتىٰ تتوفَّر لك الأسبابُ وتتحقق الشروط، وليسَتْ كلُّها حَسَنة، سلَّمَكَ الله وحَرَسَ مُهجتَك!

* * *

ولا بأس أنْ أختُمَ المقال بمشاركتِك أحدَ الكُتب التي أثَّرت فيَّ كثيرًا، والجميل أنَّ هذا الكتاب كعادةِ الكتب ذاتِ الأثر العظيم -في الغالب- لا يدلُّك عليها أحد، بل تقع عليها مصادفةً من غيرِ توصيةٍ ولا إرشاد. وقد وقفتُ عليه في مكتبةٍ صغيرةٍ لبيع الكُتب المستعملة، كما وقفَ زين العابدين عبد الكلام عام ١٩٥٣ علىٰ كِتاب ليليان واتسون (ضوء من مصابيح عدة) فخلَّفَ أثرًا عظيمًا في نفسِهِ وحياته[1].

الكتاب هو (بدائع الخيال) لعبد العزيز أمين الخانجي، وهو كُتيِّبٌ صغير الحجم جمعَ بين دَفتَيه عشر قصص ماتعة لشيخ روسيا الأكبر ليو تولستوي ت١٩١٠م، انتخبها الخانجي وعرَّبها من كتابٍ اسمه Twenty-Three Tales from Tolstoy.

كانت حَبكة القصص متواضعةً وليست بذاك الإبداعِ المطلوب والمرتقَب من اسمٍ كبيرٍ كتولستوي، ولكنَّ المعنىٰ الذي بداخلها أو الذي تُوحي به إليك هذه القصص عميق وعظيم.

(١) رحلتي، تحويل الأحلام إلىٰ أفعال، ص١٣٠.

البشر لن يستطيعوا العيش معًا في هذه الفانية بغير (الرحمة) التي تضبِطُ انفعالاتِهم، وتدفعهم إلىٰ كلِّ عملٍ سماوي يسمو بأرواحهم. و(الكِبر) هو الذي يجعل المرءَ يأبىٰ الحق، ويقوده إلىٰ هوَّة الضلال السحيقة. ولا يُهلك الإنسانَ شيءٌ كـ(الطمع) الذي يجعله في لُهاثٍ دائم خلف المزيد. ولا فرق بين الإنسان وبهيمة الأنعام إذا لم يستخدم ما وهبه اللهُ من الإدراك ونعمة (العقل). وأسمىٰ ما يمكن أن يُكرِّس الحصيفُ وقته وجهدَه له في دنياه بعد طاعةِ مولاه هو فعل (الخير). و(السعادة) الحقَّة ليست في جمع الأموال، وبناء القصور، والاستكثار من الإماء والعبيد! بل في معرفةِ حقيقة الدنيا، وأنَّ كلَّ ما فيها إلىٰ زوال، عندها؛ لن تَذهب نفسُك حسَراتٍ علىٰ ما فات.

هذه بعض المعاني التي أوحَتْها إليَّ هذه القصص التي صاغَها يَراعُ تولستوي الذي قال فيه أميرُ الشعراء شوقي بعد وفاته:

تولستوي تُجري آيةُ العِلم دَمعَها ... عليكَ ويبكي بائسٌ وفقيرُ
وشعبٌ ضعيفُ الرُّكن زال نصيرُهُ ... وما كُلُّ يومٍ للضعيفِ نصيرُ
ويَندُبُ فلَّاحونَ أنتَ مَنارُهم ... وأنتَ سِراجٌ غيَّبوهُ مُنيرُ

وقال بعده شاعرُ النيل حافظ إبراهيم:

رثاكَ أميرُ الشعر في الشرقِ وانبرىٰ ... لِمَدحِك من كُتَّابِ مِصرَ كبيرُ
ولستُ أُبالي حين أَرْثيك بعدَه ... إذا قيل عني قد رَثاهُ صغيرُ
فقد كُنتَ عونًا للضعيفِ وإنَّني ... ضعيفٌ وما لي في الحياةِ نصيرُ
ولستُ أبالي حين أبْكيكَ للورىٰ ... حوَتْكَ جِنانٌ أم حواكَ سَعيرُ
فإني أُحبُّ النابغين لعِلمِهم ... وأعشق رَوْض الفِكرِ وهو نضيرُ

إلىٰ آخرِ ما قال.

وأعلم أنك قائلٌ في نفسِك: هذه أمورٌ بدَهية يُدركها العاقل دون الحاجة إلىٰ أن توحيها إليه قصةٌ أو حكاية. نعم؛ ولكن التأثير الذي يُحدِثه أيُّ كتاب، ويجعله في مرتبةٍ مُقدَّمةٍ لدىٰ القارئ، ليس فقط بسببِ صعوبة مَعانيه التي تُدْرَك بعد معالجةٍ طويلة وتأمُّلٍ عميق. بل أيضًا يحدث الأثر العظيم عندما تنقدحُ في عقلك شرارةُ المعنىٰ النبيل الواضح أثناء قراءتك، وتشعر بهذا المعنىٰ وهو ينزل ويَنْساب بهدوء ورِقَّةٍ إلىٰ قلبك، فيُحبِّب إليك القيَمَ العُليا ويقودك إلىٰ التحوُّل المطلوب. كثيرةٌ هي الأمور التي نعلمها جيِّدًا، ولكننا مع كَرِّ الأعوام ومشاقِّ الأيام نذهل عنها، وعندما نجد من يُذكرنا بها يكون أثرُ تذكيره لنا عظيمًا، وكأننا نُدركها للمرة الأولىٰ.

وهـذا يجعلني أذكـرُ موقف الفاروق رضي الله عنه عندما شـاعَ خبرُ وفاة الرسول ﷺ، فدخل عليه وهو مُسجًّىٰ وقال: واغَشْياه! ما أشدَّ غَشْيَ رسول الله! ثم خرج، وسلَّ سيفه، وقام خطيبًا في المسجد، وتوعَّدَ الناسَ قائلًا: «لا أسمع أحدًا قال مات رسولُ الله إلا ضرَبتُه بالسيف!».

فلما بلغ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه الخبرُ -أي خبرُ وفاة الرسول ﷺ- أقبل علىٰ فرَسه، وبعد دخوله علىٰ الرسول ﷺ واسترجاعِه وانكبابِه عليه وتقبيلِ جبينه الطاهر، قال: بأبي أنتَ وأمي يا نبي الله، طِبتَ حيًّا وميِّتًا.. ثم خرج إلىٰ النَّاسِ والفاروقُ لا يزال يتوعَّد الناسَ ويُهدِّد مَن يقول: إن رسول الله مات. فقال له الصِّدِّيق: اجلس يا عمر، فأبىٰ الجلوس، فلما رآه لا يُنصِت تركَه وأقبل علىٰ الناس، فلمَّا سمعوا كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحِمَد اللهَ تعالىٰ وأثنىٰ عليه، ثم قال: «أيها الناس، مَن كان منكم يعبدُ محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت. ثـم تـلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ

﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]. فنَشَجَ الناس يبكون. قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: والله لَكأنَّ الناس لم يَعْلموا أنَّ الله أنزل هذه الآيةَ حتىٰ تلاها أبو بكرٍ رضي الله عنه، فتَلَقَّاها الناس منه كلُّهم، فما يُسمَع بشرٌ من الناسِ إلا يتلوها.

فكيف كانت استجابةُ الفاروق؟ قال رضي الله عنه بعد ذلك: «فوَالله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ تلاها، فعَقِرتُ حتىٰ ما تُقِلُّني رِجْلاي وحتىٰ أهويتُ إلىٰ الأرض حين سمعتهُ تلاها، وعلِمتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قد مات»(١).

وأنتَ تعلم أيُّها القارئ الفطِن ما الذي أريده من هذا الشاهدِ المؤلم الحزين الذي أورَدتُه لك. الفاروقُ رضيَ الله عنه لم يكن يجهلُ هذه الآية، ولكنه ذُهِل عنها في ذلك الموقف العصيب حتىٰ ذكَّرهُ أبو بكرٍ بها، فكان التأثُّر عظيمًا «فعَقِرتُ حتىٰ ما تُقِلُّني رِجْلاي وحتىٰ أهويتُ إلىٰ الأرض».

ونحنُ تذهلُنا صروفُ الليالي والأيام عن كثيرٍ من الحقائق البدهية، حتىٰ يأتيَ مَن يُذكرنا بها ويُحدِث في داخلنا هِزَّةً مُنبِّهة تجعلنا نذكر ما نسينا ونسعىٰ لإقامةِ ما اعوجَّ من إدراكنا. وهذا ما فعلَته تلك القصص بي.

وكما كتبَت إيمان مرسال: «أحيانًا يهزُّ كِيانَك عملٌ أدبي ما، ولا يَعني ذلك أنه عملٌ غير مسبوق في تاريخِ الأدب، أو أنه أفضلُ ما قرأت في حياتك. إنها الصدف العمياء التي تبعث لك رسالةً تُساعدك علىٰ فَهْم ما تمرُّ به، في اللحظةِ التي تحتاجها تماما، دون حتىٰ أن تعرفَ أنك تحتاجُها»(٢).

فبدائعُ الخيال كتابٌ له مكانةٌ في نفسي، وأحببتُ أنْ أُخبرك بهذا؛ لا لأدلَّك عليه فقط لعلَّك أن تنتفع به، بل لأنني حرٌّ بأن أكتب ما أريد وأخبرَك بما أشاء.

---

(١) اللؤلؤ المكنون، ج٤، ص٦٢٦-٦٢٨.

(٢) في أثر عنايات الزيات، ص٢٥.

أعظمُ وثائق الإنسانية

«[الكتب] تحمل إلينا شكلًا فريدًا من المعرفةِ، يمكن أن ينجم عنه تغييرُ العالم المحيط بنا وتغييرُ أنفسنا»[١].

---

(١) في غابة المرآة، ص٢٢٥.

تحدَّثتُ في مقالٍ سابقٍ عن الأسبابِ التي تجعل الكِتابَ أثيرًا ومؤثِّرًا في نفسِ القارئ، وفي هذا المقال بإذن الربِّ المتعال سأحاول -مجتهدًا- أن أُطْلِع القارئَ الكريم علىٰ الأثرِ العظيم الذي أحدَثَتْه بعض الكُتب في أجزاء من العالَمِ ونفرٍ من الأعلام.

* * *

الجاهِل وحده مَن يعتقد أنَّ الكتب ما هي إلا صفحاتٌ جامدة لن تُحرِّك ساكنًا أو تُغيِّر واقعًا، وأنَّ أثرها لن يُجاوز حدودَ المكان الذي تُقرَأ فيه، وأن إغلاق الكتاب كفيلٌ بدفنِ أفكاره وإبادةِ تأثيره!

إنَّ الكُتب كما قال روبرت ب. داونز «ليست كما يُظنُّ في تفاهتِها وانعدام تأثيرها، بل أثبتَت علىٰ النقيض؛ أنها تنطوي علىٰ قوةٍ هائلة، وأنها مخلوقاتٌ ذات حيوية عظيمة قادرة علىٰ تحويلِ مجرىٰ التاريخ تحويلًا تامًّا»(١).

وقد فعلَت ذلك حقًّا؛ فكم خَلَقَت دافع العيش في نفسٍ يائسةٍ كانت مُشرِفةً علىٰ الهلاك! وكم ألهمَت شعبًا غافلًا إلىٰ مَعانٍ ساميةٍ قادَتْه إلىٰ سُبُل العِتقِ بعد الرِّق! وكم دفعَت أمةً مُتردِّدةً لتحقيقِ العدالة وقطفِ ثمار الكفاح!

ولا يُظَن -جهلًا وغفلةً- أنَّ تأثيرها دائمًا ما يكون خيرًا وتقدُّمًا، بل قد يكون علىٰ العكسِ تمامًا شرًّا وتخلُّفًا. فنوعُ التأثير لا يُهمنا، وإنما المهمُّ لدينا هنا ونسعىٰ إلىٰ توضيحهِ وإثباته هو أنَّ للكُتبِ قوّةً لا يمكن تخيُّلُها، وأنَّ الأفكار المتواضعة التي تحتضنها دفَّتا كتابٍ صغير قد تُشعل حربًا، وتُحرِّر أرضًا، وتصنع بشرًا ودولًا من اللاشيء!

* * *

---

(١) كتب غيَّرت وجه العالم، ص١٣.

في كتابهِ (المكتبة في الليل) يُذكِّرنا مانغويل بأنَّ الكُتب «قد لا تُغيِّر من آلامنا، قد لا تَصوننا من الشرور، كما أنها بالتأكيد لن تَقيَنا من المصير المُشترك الذي يُدْعىٰ القبر، لكنها تُعطي آلافَ الاحتمالات: احتمال التغيير، احتمال التنوير»[1].

نعم؛ إنها -أي الكُتب- تحمل بداخلها بُذورَ التغيير التي ستنمو وتزدهر إذا وجَدَت أرضًا خِصبةً ومُزارعًا حاذقًا.

لذلك رأينا وسمعنا وقرأنا كيفَ أنَّ المُستبِدَّ عندما يمتلك زِمام السُّلطة يُسارع في التضييق علىٰ الكُتَّاب ومهاجمة الكتب؛ وذلك أنه أدرَك بحِسِّهِ الشيطاني عُمق أثرها وشدةَ خطرها. والكتب مُنصفةٌ عادلة؛ فكما أنها قد تكون سببًا في هزِّ عُروش الطغاة وإزالتهم، قد تُسهِم في ثباتِها وصناعتهم!

وكلُّنا يعرف (الأمير) لمكيافللي -الذي يُعتبر إلىٰ يوم الناسِ هذا من أهمِّ الكُتب في الفلسفةِ السياسة، ومؤلفه مؤسسُ عِلم السياسة الحديث- والأثر العظيم الذي خلَّفهُ في العالم، وما الذي فعله بالسياسيين -قديمًا وحديثًا- إلىٰ درجة وضعِهم له علىٰ الكومودينو بجوار أَسِرَّة نومهم[2]!

فهل تَعلم أنَّ موسوليني قد اختاره في أيامِ تَلْمذتِه موضوعًا لأُطروحتهِ التي قدَّمَها للدكتوراه؟ وكان هتلر يضعُه علىٰ مَقرُبةٍ من سريره فيقرأ فيه كلَّ ليلة قبل أن ينام؟ ولا يدهشنا -كما يقول كريستيان غاوس العميد السابق لجامعة برنستون الأمريكية- قولُ ماكس ليرنر في مقدمتهِ لكتاب (أحاديث) أنَّ لينين وستالين أيضًا، قد تتلمذا علىٰ مكيافللي[3]!

---

(١) المكتبة في الليل، ص١٧٦.

(٢) في صحبة الفلاسفة، ج١، ص٥٧.

(٣) من مقدمة كريستيان غاوس لكتاب الأمير، ص١٨-١٩ - دار الآفاق الجديدة - تعريب: خيري حماد.

وحتىٰ تعلم مدىٰ تأثيرِ هذا الكِتاب الصغير وسِحْره إليك التالي: «كان شارل الخامس وكاترين دي مديتشي من أكبَرِ المعجَبين بكتاب (الأمير)، واقتنىٰ كروميل نسخةً مخطوطة منه وطبَّق أساليبه علىٰ حكومةِ الكومونولث التي أنشأها في إنجلترا، ولما قُتلَ كلٌّ من هنري الثالث وهنري الرابع مَلِكا فرنسا وُجِد الكتابُ معهما، كما استوحىٰ فردريك الأكبرُ سياسته منه، وأما لويس الرابع عشر فكان يُديم النظر فيه قُبيل نومه، ووُجِدَت نسخةٌ منه في عربةِ نابليون الخاصة بعد هزيمته في معركةِ واترلو، وكانت أغلبُ آراء نابليون الثالث في سياسةِ فرنسا مستمَدَّةً منه»[1].

وكما قال خيري حمَّاد في خاتمةِ تقديمه للكتاب: «وإذا ما درَسَ القارئُ الكريم هذا الكتابَ وأمعنَ النظر فيما حوله من أحداثٍ ووقائعَ واتجاهاتٍ وتيارات، رأىٰ أنَّ الكثير منها تُوجِّهها نظرياتُ مكيافللي وآراؤه، وتتحكم فيها قواعدُه وأفكاره؛ مما يُشير إشارةً واضحة إلىٰ أن هذا الكتاب رغم مرور نحوٍ من خَمسِمائةِ عام علىٰ وضعهِ ما زال الموجِّهَ الملهِمَ للكثيرين من رجالِ السياسةِ ومُنفِّذيها في مختلفِ أنحاءِ العالم».

وهذا كلُّه تأكيدًا لما قد تحويه بعض الكتبِ من قوةٍ مُخيفةٍ قادرة علىٰ صُنعِ الفارق المهول في العالم، وأنها لا يلزم أن تُخرج لنا أمثلةً يُحتذىٰ بها، بل إنها -كما أسلَفتُ- قادرةٌ علىٰ خَلْقِ أبشع النماذج التي يستوجب النفورُ منها والبعدُ عنها مسافةً وفكرًا.

* * *

(١) كتب غيَّرت وجه العالم، ص٣٩.

بعض المؤلفين والكُتَّاب تكون أفكارهم كالقنابل الموقوتة يُلقون بها علىٰ القرَّاء، وهذهِ القنابل عندما تنفجر في بقعةٍ ما مُظلِمة سينتج عنها نارٌ حامية لن يرىٰ القريبُ منها غيرَ نتيجتين لا ثالثة لهما؛ الأولىٰ: أنه سيشعر بحرارتِها قبل أن تلتهمَه، والثانية: أنَّها ستُضيء له الطريقَ ليَهتديَ إلىٰ سُبُلِ النجاة.

والآن لنتساءلْ معًا: مَن هو المؤسس الحقيقي لأمريكا؟ ومَن هو قائد الاستقلال الفعلي لها؟ بل مَن الذي أطلق أصلًا هذه العبارة (الولايات المتحدة الأمريكية)؟!

كتبَ ثوريٌّ ما كتابًا صغيرًا جدًّا، ولو سَمَّيتَه منشورًا فلم تُجانب الصواب! فكان هذا الكُتَيِّب سببًا في بتْرِ يد التردُّد، وشَحْذ الهِمم الخائرة، ودفع العقول السادرة إلىٰ فضاءِ (المنطق السليم)[1].

بعد أن خرجَ الكتاب، وانتشرَ انتشار النارِ في الهشيمِ كما قالوا في التشبيه الدارج، ما هي إلا أشهرٌ معدودات حتىٰ أصدرَت ومن دون ترددٍ وخوَر معظمُ الولايات أمرَها لمُمثِّليها في الكونغرس بالموافقةِ الجازمة علىٰ فكرةِ الاستقلال عن إنجلترا.

بلَغ من عِظَمِ تأثيرِ هذا الكتاب أنْ قيل في حقِّه: «لولا (المنطقُ السليم) لم يكن هناك استقلالٌ أمريكي في يوليو ١٧٧٦!».

وإليكَ ما نضَحَت بِهِ بعضُ الرؤوس الكبيرة في ذلك الوقت.

كتبَ جورج واشنطن بعد قراءة (المنطق السليم) إلىٰ جوزيف ريد في نورفولك قائلًا: «إن جميع الرسائل التي وصلَتْني أخيرًا من فرجينيا تؤكد أن كتاب (بين) أحدثَ تغييرًا بالغًا في آراءِ كثيرٍ من الناس». وكان قد كتبَ إليه قبل ذلك مُخبرًا أنَّ الحجج الدامغةَ التي جاءت في كتاب (المنطق السليم) جعلَت كثيرًا من الناسِ يحزمون رأيهم، ويؤيدون مبدأ الانفصال عن إنجلترا.

---

(١) هذا عنوان الكتاب أو (الفطرة السليمة) لتوماس بين، وهو أشهر من أن يُعرَّف به، أظن ذلك!

وعِندما كتبَ جون آدامز إلىٰ زوجتهِ أبيغيل يقول: «أرسلتُ إليكِ كتابَ (المنطق السليم)، وفيه يشرح مؤلفُه الأسبابَ التي تُبرِّر مبادئه التي ينتظر أن يزدادَ استمساكُ الرأي العام بها كلما ازداد الضغطُ والإرهـاب»، ردَّت عليه بكلماتٍ يسيرة تُعبِّر عن الحالةِ العامة التي خلقَها الكتابُ، والتأثيرِ العظيم الذي نتجَ عنه: «إن (المنطق السليم) أشبهُ بشُعاعٍ من الإلهامِ هبَط علينا في حين؛ ليُبدِّدَ شكوكنا، ويُحدِّد السبيلَ الذي ينبغي أن نختار».

وقال أحدُ الموقِّعين علىٰ وثيقةِ إعلان الاستقلال -وهو بنيامين راش- عن كتاباتِ توماس بين: «إنها تنطلقُ من المطبعةِ انطلاقًا شديدَ الوقع لم نرَ له مثيلًا في أي بلدٍ آخر، ولا في أيِّ عصرٍ آخر!».

وفي كتابهِ (تاريخ الثورة الأمريكية) يكتب السير جورج تريفليان: «من العسيرِ أن نذكر اسمَ كتابٍ غير منزَّل أحدثَ أثرًا مباشرًا شاملًا دائمًا مثلَ ذلك الكتاب.. لقد أغار عليه كُتَّابٌ كثيرون فسرَقوا آراءه أو عارَضوها، وقلَّده البعضُ الآخر، وتُرجم إلىٰ جميعِ لغات الشعوب التي أفصحَت عن أطيبِ تمنِّياتها للجمهوريةِ الجديدة، وقد دلَّت التعليقات المستفيضة للصحفِ علىٰ أنَّ كتاب المنطق السليم كان سببًا في اجتذابِ آلاف الأنصار إلىٰ فكرةِ الانسلاخ عن إنجلترا والاستقلالِ عنها، وهؤلاء لم يَدُر بخَلَدِهم تلك الفكرةُ قبل قراءته، لقد أتىٰ ذلك الكتابُ حقًّا بما يقرب من معجزة؛ إذ حوَّل المحافظين إلىٰ أحرار».

ويقول داونز مؤكِّدًا علىٰ عميقِ الأثرِ الذي تركَه الكتاب: «ولسنا نعرف في تاريخِ الأدب كتابًا بلَغ أثرُه المباشر في نفوسِ الناس ما بلَغه كتاب (بين)؛ فقد أهاب بسُكَّان المستعمرات الأمريكية ودعاهم إلىٰ القتالِ في سبيل استقلالهم دون هَوادة أو تردُّد؛ إذ نبَّهَهم أن الثورة هي المخرج الوحيد لنِضالهم ضدَّ إنجلترا وجورج الثالث».

ونهاية الحكاية: «وفي الرابع من يوليو ١٧٧٦م؛ أي بعد ستة شهور من ظهورِ الكتاب، اجتمع الكونغرس القاري في دارِ الولاية ستيت هاوس بفلادلفيا، وأصدر إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية. ورغم أن (بين) لم يشترك في وضعِ نصوص الإعلان إلا أنه كان دائمَ الاتصال بتوماس جفرسون[1] وقتَ كتابة الصيغة النهائية للإعلان، وقد تضمَّن جميعَ المبادئ التي نادىٰ بها (بين) إلا مبدأً واحدًا هو تحريم الرقيق»[2].

وبعد قول داونز إن إعلان الاستقلال «تضمَّن جميعَ المبادئ التي نادىٰ بها (بين) إلا مبدأً واحدًا؛ هو تحريم الرَّقيق» لا نرىٰ مَناصًا من الحديثِ عن (كوخ العم توم)، الذي سيُساعدنا في استجلاءِ قوةِ الكتب وأثرها في تغييرِ وجه العالم.

* * *

كُتِبَ في أول سيرة سولمون نورثوب الذاتية (اثنا عشر عاما من العبودية) -التي صوَّر فيها قصةَ عُبوديته بعد أن اختُطِف عام ١٨٤١ وبِيعَ في سوق النِّخاسة- : «مُهْداة بكثيرٍ من الاحترام وبشكلٍ خاص إلىٰ: هاريت بيتشر ستو التي ارتبطَ اسمُها في أرجاءِ العالم كافةً بحركةِ الإصلاح العظيم».

عندما ألَّفَت ستو روايتها (كوخ العم توم) عام ١٨٥٢ لم تكن تظنُّ أبدًا أنها ستُحدِثُ هذا الأثرَ العظيم، بل إنها كانت ترجو لو حقَّقَت من ورائها بعضَ الربح لتتمكنَ من شراء ثوبٍ جديد من الحرير!

وفي يومِ صدورها بِيع منها ثلاثةُ آلاف نسخة، ولم يمضِ أسبوعٌ واحد حتىٰ بلغَت المبيعات منها عشَرة آلاف نسخة، وما هو إلا أن مَضت أربعة أشهر علىٰ

---

(١) من الآباء المؤسسين وكاتب وثيقة الاستقلال.

(٢) راجع: (كتب غيَّرت وجه العالم) ص٤٣-٥٧، فإن حديثي هنا مأخوذ منه بتصرُّفٍ غير يسير في التعبير.

نشرها حتىٰ بلغت عائداتُ المؤلفة عشرةَ آلاف دولار، ولم يَدُر الحولُ إلا وقد بِيعَ منها ٣٠٠,٠٠٠ نسخة في الولايات المتحدة وحدها.

راجَت الرواية خارج الولايات، فاشتركت ثماني عَشْرة من دُور الطباعة الإنجليزية في نشرِ القصة بأربعين طبعةً مختلفةِ الأشكال والأحجام، وكان أولُ هذا الأمر عندما قام موظفٌ صغير من شركةِ بنتام ببيعِ نسخةٍ من الكتابِ لناشرٍ إنجليزي مقابلَ ثمنٍ بخسٍ لا يُذكر. انتشرَ الكتاب، وقدَّر بعضُهم أنَّ مِليونًا ونصف المليون من النسخِ بِيعت في إنجلترا والمستعمَرات وحدها، وزاد رَواجه في فرنسا وألمانيا والسويد وهولندا، وتُرجم إلىٰ اثنتين وعشرين لغةً مختلفة؛ منها: الأرمينية، والدانماركية، والفنلندية، والألمانية، والإيطالية، واليونانية، والبرتغالية، والروسية، والإسبانية، وغيرها. وحصدَ الناشرون في القارةِ الأوروبية من ورائهِ الذهَب، ولم تنل مسز ستو من الربحِ المتحقِّق لهذه الطبعات قِلامةَ ظفر كما يقول داونز.

ما الذي فعلَتْهُ هذه الرواية عندما شاعت بين الناس، وفشَتْ صورُ الظُّلم التي صوَّرَتها ستو فيها بدِقَّةٍ عجيبة؟ لقد ألهبَت النفوس وأشعلت الرأي العام الأمريكي -كما يقول منير البعلبكي- ضدَّ المظالم النازلة بتلك الفئة البائسة، فكانت حربُ التحرير ١٨٦١، وانتصرَت الولايات الشمالية علىٰ الجنوبية، وغدا اسمُ ستو رمزًا للمَحبةِ الخالدة، تُباركه ملايينُ الشفاه، وتَعُدُّه نعمةً من نِعَمِ الإله السابغة(١).

في ١٨٦٢ استقبل الرئيس الأمريكي أبراهام لينكولن هارييت بيتشر ستو في البيت الأبيض، فلما رآها قادمةً قامَ مُرحِّبًا بها: «أهلًا بالسيدةِ الصغيرة كاتبة الكتاب الذي أشعلَ نارَ هذه الحرب الكبيرة».

---

(١) لم تكن ردود الأفعال تجاه الكتاب كلها طيِّبة؛ فقد تدفقَت رسائلُ الشتم والإهانة علىٰ مسز ستو، وكانت هناك رَدةُ فعل عكسية عنيفة حتىٰ بلغَت بأحدهم أن يُرسل للمؤلفة رسالة تحتوي علىٰ إذن زنجي وورقة كتب فيها أن هذا الصنيع هو إحدىٰ النتائج المحتومة لكلِّ حملة تُشن من أجل الدِّفاع عن الزُّنوج اللعينين!.

يكتب داونز: «إن النجاح الساحق الذي أحرزه كتابُ (كوخ العم توم)، لا يَعدِلُه نجاحُ أي كتاب في تاريخِ النشر الحديث؛ إلا أن يكون الكتاب المقدس»[1].

ونختم بما قاله (فان ويك بروكس) عن هذا الكتاب الذي كان عاملًا فعَّالًا في نُشوبِ الحربِ الأهلية وتعطيلِ قانون الرِّق الجائر: «إنه مِن أعظمِ الوثائقِ الإنسانية»[2].

* * *

هل قرأتَ رواية (النظر إلىٰ الماضي: ١٨٨٧-٢٠٠٠) لإدوارد بيلامي؟ بل هل سمعتَ بها من قبل؟ لستُ مطمئنًّا إلىٰ هذه النظرة التي تعتريك الآن، ألم تعلم أنه في عام ١٩٣٥ قامت مجلة (ذا أتلانتيك) بإعطاء هذه الرواية لقبَ ثاني أهمِّ كتاب في آخر خمسين عامًا[3]؟!

ألم تَصِلْك الأنباءُ عنها، وكيف أنها بعد انتشارها في بريطانيا صارت نقطةَ حوارٍ أساسيةً، وأن عدم قراءتها يُعتبر سقطةً في الدوائرِ الفكرية! اقرأ ماذا كتب المصمِّم والكاتب الاشتراكي وليم موريس إلىٰ صديقٍ له: «أظن أنك رأيتَ أو قرأت أو علىٰ الأقل حاولتَ قراءة (النظر إلىٰ الماضي)». والآن، هل شعرتَ بنقصٍ ثقافيٍّ ما؟ هوِّن عليك، كنتُ أُداعبك. نعم؛ عدمُ قراءتها يُعد سقطةً في دوائرهم الفكرية ومُحيطهم الثقافي، وما شأنُك أنت أيها القارئ الحرُّ وأنتَ مُتفرِّد، لك محيطك الثقافي الخاص؟ قاوِمْ هذهِ الهيمنةَ الفكرية الغربية؛ فإنك إن رزَحْتَ تحتها فلن تنجوَ من رِقِّها بسهولة.

---

(١) في كتاب طارق علي (مآزق لينين)، هامش ص٦٨: «لا يوجد عمل في الأدبِ الحديث يمكن أن ينافس (ما العمل)، ربما باستثناء (كوخ العم توم)، في تأثيره علىٰ حياة البشر وقوَّته في صناعة التاريخ».

(٢) الحديث عن (كوخ العم توم) مأخوذٌ بتصرُّفٍ تام من مقدمة منير البعلبكي للرواية، وكتاب داونز المذكور آنفًا.

(٣) زاعمةً أن كتاب (رأس المال) هو الوحيد الذي كان له الأثرُ الأكبر في تشكيل العالم.

المهم، نعود إلىٰ بيلامي و(النظر إلىٰ الماضي)، ولْنُفسح المجال لدوريان لينسكي ليُحدثنا عنه -بتصرُّف-، ويميل بنا إلىٰ التأثير الذي صنَعه كتابُه.

يكتب لينسكي: «في أغسطس عام ١٨٨٧ كان إدوارد بِيلامي مؤلِّفًا مغمورًا وصحفيًّا من ماساتشوستس. كان شابًّا جادًّا حساسًا، سنُّهُ سبعة وثلاثون عامًا، ذا ملامحَ مهذَّبةٍ وشارب كثٍّ ويتمتع بوازعٍ أخلاقي يَقِظ. وصَفه فرانسيس ويلارد بأنه (هادئ ولكنه ملاحظٌ جيِّد. متواضعٌ ولكنه متَّزن داخليًّا. نبيلٌ مهذَّب ولكنه ذو شخصية. كما أنه مفعَمٌ بالنشاط). عندما تأمَّل بِيلامي في حالِ الولايات المتحدة الأمريكية في عصرهِ رأىٰ (أمَّة عصبية صفراوية تُعاني من سوءِ الهضم) حكَمَتها اللامساواة الشنيعة. كانت أُسَر المليونيرات تُسيطر علىٰ الاقتصادِ الصناعي، بينما تعمل الطبقاتُ الكادحة ستِّين ساعةً أسبوعيًّا مقابل أجرٍ منخفض في مصانعَ وورشٍ مستغلَّة غير آمنة، ويعيشون في أحياءٍ فقيرة كريهة. أنتجَت مسيرةُ التكنولوجيا العجَب: المصباح الكهربائي، الفونوغراف، التليفون... وفي الوقت نفسِه لوَّثَت الأنهار وسوَّدَت السماء. تعثَّر الاقتصادُ تحت ضربات الكساد والذعر المالي، واجتاح وباءُ الإضرابات العمالية البلادَ من المحيطِ إلىٰ المحيط. في نظَرِ بِيلامي، لم يكن الوضع الراهن ظالمًا فحسب، بل لا يُطاق. كان يؤمن أنه يعيش في أوقاتٍ حَرِجةٍ وأنَّ تحوُّلا عظيمًا -للأفضل أو للأسوأ- آتٍ لا محالة. سيُقرِّر مصيرُ أمريكا مصيرَ العالَم. كتب بِيلامي: (لِنضَع في حُسباننا أنه إذا آل مصيرنا إلىٰ الفشل، فسيكون هو الفشلَ الأخير. لا توجد عوالمُ جديدة يمكن اكتشافها، ولا قاراتٌ ناضرة تمتدُّ فيها حقولٌ بِكر تصلح لِمساعٍ جديدة).

في شهرِ أغسطس ذاك، أنهىٰ بيلامي روايةً أعادت تصوُّر الاضطرابات في ثمانينيَّات القرن التاسعَ عشر، والنظر إليها باعتبارها مقدِّمة مؤلمة، ولكن ضرورية لإرساء يوتوبيا اشتراكيةٍ سلمية. كتب لناشره: (أنا راغبٌ بشكلٍ خاص في أن ترىٰ

النور في أسرعِ وقتٍ ممكن. يبدو لي أن الآن هو الوقتُ الملائم لقراءة منشورٍ يتطرَّق إلىٰ المسائلِ الاجتماعية والصناعية).

فعَلَت رواية (النظر إلىٰ الماضي) ذلك بالتأكيد. نُشِرَت الرواية في عامِ ١٨٨٨، وصارت الروايةَ الأكثر شعبيةً في الولاياتِ المتحدة منذ رواية (كوخ العم توم) والأكثر تعرُّضًا للتقليدِ منذ رواية (جين آير)، مثل كثير من الكتبِ الأكثر مبيعًا المفاجئة. ألَّف كتاب بِيلامي بين الاتجاهاتِ السائدة وقتها، مستفيدًا من شعبيةِ الرُّؤَىٰ اليوتوبية مثل رواية (العصر البِلَّوري) لدبليو إتش هادسون، ومن المسالك الراديكالية مثل رواية هنري جورج كاسحةِ النجاح (التقدُّم والفقر). عن طريقِ دمج النوعَين. في أمريكا، وفقًا للصحفي هنري لويد (نوقِشَت الرواية في جميعِ الأوساط إلىٰ أن وصَلَت إلىٰ ماسحي الأحذية علىٰ الأرصفة!).

عندما انتشرَت الرواية في روسيا سريعًا، أشادَ بها تشيكوف وغوركي وتولستوي، ووصفها الأخيرُ بأنها (كتابٌ مدهش تمامًا). أطلق عليها مارك توين لقبَ (أحدث وأفضل الأناجيل).

كتب أحدُ التابعين: (بِيلامي هو موسىٰ هذا العصر. لقد أرانا أنَّ أرض الميعاد موجودة). كوَّن مُعجبو بِيلامي أولَ نادٍ قومي في بوسطن عام ١٨٨٨، وفي غضونِ ثلاث سنوات كان هناك أكثرُ من ١٦٠ ناديًا في جميعِ أنحاء البلاد تجذب الصحفيِّين والفنانين والمحامين والأطباءَ ورجالَ الأعمال والمُصلحين. في المناطقِ الريفية، كان البائعون يبيعون الكتابَ من بابٍ إلىٰ باب. استمدَّ (الحزب الشعبوي) المشكَّل حديثًا، والذي فاز بخمسِ ولايات في الانتخاباتِ الرئاسية عام ١٨٩٢، كثيرًا من بَرنامَجِه التقدُّمي من أفكارِ بِيلامي. استطاعَ سكَّان وسط مدينة لوس أنجلوس أن يرَوا بأنفسهم القوَّةَ المغيِّرة للحياة في (النظر إلىٰ الماضي). أسَّسَ المهندس المعماري جورج وايمان مبنىٰ برادبوري -الذي صار لاحقًا موقعَ تصوير التتابُع الأخير من فيلم ريدلي سكوت (بليد رانر)- علىٰ وصف بِلامي للمتاجر الشاملة في المستقبل.

في الوقتِ الذي كان فيه أورويل يبدأ مسيرتَه المِهنيَّة في الصحافة، أعاد الكسادُ الكبير إحياءَ الاهتمام بنبوءة بِيلامي المبهِجة. قرأ الرئيس روزفلت كتاب بِيلامي وناقَشه، وتضمَّنَت إدارتُه الجديدة كاتبَ سيرة بِيلامي الذاتية، آرثر مورجان. استمدَّ زعيمُ (حزب العمل) كليمنت أتلي حماستَه لحزب (اتحاد الكومنولث التعاوني) من رواية (النظر إلىٰ الماضي)، وأخبر نجله الكاتب بول بأن حكومته في فترةٍ ما بعد الحرب كانت (من بنات أفكار بِلامي). كان الكتاب ما زال يتمتَّع بشهرةٍ كبيرة في أمريكا عام ١٩٤٩ إلىٰ درجةٍ أن هاري شيرمان -رئيس (نادي كتاب الشهر)- وصف رواية (١٩٨٤) بأنها (رواية بِيلامي مسرودة بالعكس)».

في عامِ ١٨٩٨ وبعد وفاة بيلامي بالسلِّ عن عمرٍ يُناهز ٤٨ عامًا، تنهَّد بيتر كروبوتكين أشهرُ أناركيٍّ في العالم، ثم قال: «يا لها من خَسارةٍ أن بيلامي لم يَعِش لفترةٍ أطول!»[1].

* * *

«فالإنسان مهما يَصغُرْ شأنه ومهما يَهبِطْ قدْرُه ومهما تَهُن قيمته؛ يحبُّ بغريزته أن تُحترمَ كرامته من حيث هو إنسان. إن كلَّ سجين يعرف حقَّ المعرفة أنه سجينٌ ويعرف حق المعرفة أنه منبوذٌ ممقوت ومكروه، ويعرف المسافةَ التي تفصل بينه وبين رؤسائه. ولكن لا القضبان ولا الأغلال تُنسيه أنه إنسان؛ فلا بد أن يُعامَل إذن معاملةً إنسانية». هذا ما كتبه دوستويفسكي في (ذكريات من منزلِ الأموات)، ولم يكن هذا الكتابُ إلا توثيقًا للسنواتِ الأربع التي قَضاها في السجن، فهو إذن «ثمرةُ تجرِبةٍ شخصية».

(١) راجع الفصل الثاني من كتاب (وزارة الحقيقة) لدوريان لينسكي (حمَّىٰ اليوتوبيات)، لقد تحدَّث طويلًا عن بيلامي وروايته، وقد اختصرتُ حديثه هنا وتصرُّفت به. علىٰ أية حال لا تُفوِّت قراءة كتاب لينسكي؛ فإنه نافع ماتع.

وأنا عندما أذكر هذه الذكرياتِ لا أستطيع مُجاوزة وصْفِ دوستويفسكي لأحد المسلمين الذي قابَلهم في السجن؛ لذلك هأنَذا أفتح بهدوءٍ الجزءَ الخامس من أعمالِهِ الكاملة ص١٠٦-١٠٧ لأنقل لك هذه الصورةَ التي رسمَتها ريشةُ الفنان خالِد الذِّكر فيودور دوستويفسكي لرجلٍ مسلمٍ لم يتخلَّ عن مبادئِهِ وأخلاقه في مكانٍ تكاد تكون المبادئُ فيه والأخلاق بلا معنًىٰ!

«كانت تبيت عن يميني عصبةٌ من سكان جبال القفقاس، قد نُفي جميعُ أفرادها تقريبًا لأنهم كانوا من قطَّاع الطرق، وحُكم عليهم بعقوباتٍ متفاوتة: كان منهم اثنان من أهل لزخين، وشركسيٌّ واحد، وثلاثةٌ من تتر داغستان. أما الشركسي فهو رجلٌ عابسُ الوجه، مُقطَّب الأسارير لا يكاد يتكلم أبدًا، وهو يختلس إليك النظرَ اختلاسًا ويبتسمُ ابتسامةَ وحشٍ مفترس. وأما اللزخينيان فأحدهما شيخٌ مستقيم الأنف طويل القامة نحيلُ الجسم، تُدرِكُ من أول وهلةٍ أنه من قُطَّاع الطرق؛ ولا كذلك الثاني، واسمه نورا، فقد شعَرتُ نحوه شعورًا طيبًا، وأحسستُ بارتياحٍ إليه. إنه مربوع القَد، ما يزال شابًّا، قوي البِنْية، أشقر الشعر، أزرق العينين، معقوف الأنف قليلًا، تُشبه قسَماته أن تكون قسماتِ فنلندي.. وكانت ساقاه مقوَّستَين كجميع مَن عاشوا علىٰ ظهور الخيل. وكان جسمُه ممتلئًا بالندوب، محروثًا بضربات الحِراب أو طلقات الرصاص. لقد انضمَّ هذا الرجلُ إلىٰ العُصاةِ رغم أنه من رجالِ الجبال الخاضعين، وقام مع هؤلاء العُصاة بعددٍ من الغاراتِ المتصلةِ علىٰ أراضينا. كان جميعُ مَن في السجن يُحبه بسبب مَرَحِ طبعه وبشاشةِ وجهه. وكان يعمل بغير دمدمةٍ أو تذمُّر، هادئًا مُسالمًا بغير انقطاع. وكان يشمئزُّ من السرقةِ والفسق والاحتيال والسُّكْر، بل كان يغضب من هذه الأعمال غضبًا شديدًا، ولا يُطيق أن يحتمل أيَّ أمر مَعيبٍ (شائنٍ) منافٍ للشرفِ والكرامة. ولكنه لا يُحاول أن يُشاجر أحدًا، بل يكتفي بإشاحةِ وجهه مستنكرًا مُستاءً. لم يقترف خلال إقامته سرقةً ولا أتىٰ أيَّ عمل يمكن أن يؤخَذ عليه.

وكان شديدَ التَّقْوىٰ كثيرَ العبادة؛ فهو يؤدي صلاته كلَّ مساء، ويصوم شهر رمضان، ويتمسَّك بدينهِ الإسلامي، وكثيرًا ما كان يقضي الليل كلَّه متهجدًا. كان جميعُ مَن في السجن يحبونه، ويرَون أنه إنسانٌ شريف حقًّا. كان السُّجناء يُلقبونه (نورا الأسد)، وقد بقي له هذا اللقب. وكان مقتنعًا اقتناعًا قويًّا بأنه سيُرسل إلىٰ القفقاس متىٰ أنهىٰ مدةَ سجنه، فكان في الواقعِ لا يعيش إلا علىٰ هذا الأمل، ويَقيني أنه لو حُرم من هذا الأمل لمات. لقد لاحظتُه يوم وصولي إلىٰ السِّجن. وكيف لا يمكن أن أُميِّز هذا الوجه الهادئ النبيل الشريف وسط تلك الوجوه القاتمة الكئيبة العابسة المنفِّرة! لقد مرَّ إلىٰ جانبي في نصفِ الساعة الأولىٰ، فربَّت علىٰ كتفي برِفقٍ ولُطفٍ وهو يبتسمُ لي ابتسامةً عذبة طيبة. فلم أفهم في أولِ الأمر ما كان يُريد أن يقوله لي؛ لأنه كان لا يُحسن الكلام بالروسية. ولكنه لم يلبث أن عاد يمرُّ قُربي من جديد، ويربت علىٰ كتفي مرةً أخرىٰ وهو يبتسمُ ابتسامةَ المودَّة والصداقة تلك. وظل يُكرِّر هذه الحركة ثلاثة أيام. لقد كان يريد أن يشير، كما أدركتُ ذلك فيما بعد، إلىٰ أنه يُشفق عليَّ ويَرْثي لحالي، ويُدرك مدىٰ ما أُعانيه من آلامٍ في هذه اللحظات الأولىٰ من إقامتي بالسجن؛ كان يريد أن يُبرهن لي علىٰ مودَّته وصداقته، وأن يُقوِّيَ عزيمتي ويشدَّ أزري ويؤكد حمايته ورعايته لي. ما كان أطيبَ نورا، وما كان أعظم سذاجته!»

لَعمري، إن هذا الرجل الذي وصَفَه دوستويفسكي كان يتمتع بخِلالٍ عظيمة قمينٌ بكلِّ مسلمٍ أن يتَحلَّىٰ ويتخلَّق بها. علىٰ أية حال، أين كنا؟ نعم، ما الأثرُ الذي نتَج عن هذا الكتاب -أعني (ذكريات من منزل الأموات)- بعد انتشارِه. لقي الكتاب لحظةَ صدوره إقبالًا شديدًا ونجاحًا لافتًا، وخلَّفَ أثرًا عظيمًا في النفوس، حتىٰ إن الإمبراطور الإسكندر الثاني -الذي اغْتِيلَ بعد وفاة دوستويفسكي بشهرٍ وأربعة أيام- كانت دموعُه تنهمر انهمارًا علىٰ صفحاتِ الكتاب وهو غارقٌ في قراءته! ولم يملك الروائيُّ الكبير ليو تولستوي بعد قراءته مرةً أخرىٰ في سنة ١٨٨٠ إلا أن يُهرَع

إلىٰ قلمه وأوراقه، ويكتب إلىٰ ستراخوف قائلًا: «كنتُ أشعر في هذهِ الأيام بضيقٍ شديد فتناولتُ (ذكريات منزل الأموات) فأعَدتُ قراءته. كنتُ قد نسيت كثيرًا منه، فلما أعدتُ قراءته، أيقنتُ أنْ ليس في الأدبِ الجديد كلِّه كتابٌ واحد يفوقه، حتىٰ ولا كتب بوشكين! ليست النبرةُ هي الشيءَ الرائع فيه، بل وجهة النظر التي يشتمل عليها؛ إنه صادقٌ طبيعي مسيحي. إنه كتابٌ يُعلِّم الدِّين فإذا رأيتَ دوستويفسكي فقل له إني أحبه».

كان لهذا الكتاب أثرٌ سياسي؛ ففي شهر حزيران (يونيو) ١٨٦٢ بعد نشر الفصولِ التي تصف العقوبات الرهيبةَ كتب الجنرال نيكولا أورلوف رسالةً إلىٰ الإمبراطور يرجوه فيها إلغاءُ العقاب الجسدي الذي وصفه دوستويفسكي في كتابه وصفًا حيًّا قويًّا. وشكلَت لجنة خاصة لحلِّ هذه المسألة فكان هنالك تياران مُتعارضان؛ أحدهما يقول بإبقاءِ هذه العقوبات، والثاني يُنادي بإلغائها. وتغلب التيار الثاني أخيرًا فصَدرَ قانون ١٧ نيسان (أبريل) ١٨٦٣ الذي يُلغي هذه العقوبة الرهيبة إلغاءً تامًّا[1].

* * *

وبعد أن ذكَرْنا بعضَ الكتب التي كان لها الأثرُ العظيم وأحدثَت دَويًّا رهيبًا في الدولِ والمجتمعات والعالم؛ سننتقل إلىٰ استحضارِ بعض النماذج أيضًا، ولكن علىٰ مستوىٰ الأفراد؛ أي سنأتي علىٰ ذِكرِ كتبٍ معيَّنةٍ غيَّرت حياةَ بعض الأعلام المشهورين، وحدَّدت اتجاهاتهم الفِكرية، ومسيرتهم العلمية، وكانت سببًا رئيسًا في إنقاذهم من الحَيْرةِ، ودفعِهم إلىٰ قُلل المعالي بعد أن كادوا يَهْوون إلىٰ درَكَاتِ السَّفال.

* * *

(١) راجع الجزء الخامس من أعمال دوستويفسكي الكاملة.

«بعض الكُتب ليست فقط تُعطي إحساسًا بالحياة، وتدعم الحياة، بل مِثل بعض الأفراد النادرين، تَزيد الحياة. وبعض المؤلفين الذين ماتوا منذ زمنٍ بعيد هم أقلُّ موتًا من الأحياء، أو بعبارةٍ أخرىٰ: (الأشد حياةً بين الموتىٰ)»[١].

القارئ الحقيقي لا بد أن تكون في مسيرته المعرفية كتبٌ يذكرها خَلَقَت تحوُّلًا فريدًا في حياته؛ صحَّحَت قناعةً خاطئة آمنَ بها مدةً من الزمن، ساعدَته علىٰ مُجاوزة حَدَثٍ خاصٍّ أثقَل كاهِلَه، أضاءت له طريقَ المعرفة ويسَّرَته بعد أن كان عسيرًا مظلمًا.. لا بدَّ للكتبِ من أثرٍ كبيرٍ أو صغيرٍ، محسوسٍ أو غير محسوس، في حياةِ كلِّ قارئ؛ كما قال جلال أمين في رحيقهِ[٢].

أخبرَنا فيلسوف الحضارة المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله في مذكَّراتِهِ عن الكتابَين اللذَين عثرَ عليهما في (مكتبةِ النجاح)، فكان يَعُدهما الينابيعَ البعيدة والمحدِّدة لاتجاههِ الفكري. يقول مُعرِّفًا بهما: «أعني بذلك كتاب (الإفلاس المعنوي للسياسةِ الغربية في الشرق) لأحمد رضا، و(رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده»[٣].

يُكمل: «هذان المؤلفان أثَّرا علىٰ ما أعتقد في أبناءِ جيلي من المدْرَسيِّين. أنا مَدينٌ لهما علىٰ كلِّ حالٍ بذلك التحوُّل في فكري منذ تلك الفترة. لقد رسم لي كتابُ أحمد رضا مزوَّدًا بالشواهد الكثيرة بهاءَ المجتمع الإسلامي في ذروةِ حضارته، وكان ذلك مِعيارًا صحيحًا نَقيس به بؤسَه الاجتماعي في العصرِ الحاضر. أما كتاب محمد عبده -وهنا أتحدَّث عن المقدمةِ الهامة المترجَمة حول

---

(١) الكتب في حياتي، ص١٠٧.

(٢) رحيق العمر، ص٢٣٥.

(٣) لكن ابن نبي رغم تأثُّره في البداية بفكر الشيخ محمد عبده ومنهجه، إلا أنه سيَنقُده فيما بعدُ بسبب تناوله للعقيدة الإسلامية بمنهجٍ كلاميٍ وفلسفي، يهتمُّ بتنسيق الكلمات وتحديد العبارات أكثرَ من اهتمامهِ بالبحث عن كيفية تمثُّل الإنسان المسلم لروح عقيدته لإحداثِ التغيير الحضاري المتوازِن المطلوب. (رحابة الإنسانية والإيمان ص٢٣٥).

غِنىٰ الفكر الإسلامي عبر العصور- فقد أعطاني مستنَدًا للحكم علىٰ فقرهِ المُحزن اليوم».

وفي مذكراتهِ أيضًا يُشير إلىٰ تأثرِه بكتابات الشاعر الكبير طاغور، فقد أخبرَنا أنه عندما تعرَّف علىٰ أدبِ طاغور في أحدِ أعداد مجلة كونفيرانسيا Conferencia بأن هذا الأدب القادم من بعيدٍ أثَّر في نفسِه كثيرًا؛ إذ أضاف أبعادًا جديدةً في عالَمِهِ الفكري، وذكَر أنَّ كل أبناء جيله كانوا يبحثون دون أن يُدركوا عن الهروبِ والتحرُّرِ، وقد فتح طاغور له بابَ ذلك الهروب. لقد حرَّرَتْه كتاباتُ طاغور من قيودِ الثقافة المهيمنة والتمحوُر حول أقلام أربابها، ونبَّهَتْهُ أنَّ «العبقرية لا تولَد فقط علىٰ ضِفافِ السين [في فرنسا] أو ضِفاف التّميز [في إنجلترا]، إنها يمكن أن تولَد أيضًا علىٰ ضِفافِ الغانج [في الهند]».

نختم بقوله: «مع طاغور وجَدتُ هذا الموقف المدعوم لرجُلٍ مُستعمَرٍ. لقد حرَّرَتْني -أي عبقرية طاغور- من عبوديةٍ ذاتِ وقْعٍ أثقلت، أو ما تزال تُثقِل غالبًا، فِكرَ المثقفين العرب تجاه عبقرية أوروبا وثقافتها. لم أعُد أذكرُ علىٰ وجه الدِّقة ما هو أولُ كتاب قرأتُه لطاغور، إنما هذا الشاعر حرَّرَني من إفريقيتي بعضَ الشيء، وأطلقَ ذِهني من قيودٍ فرَضَها الاستعمار»[1].

* * *

وذِكرُ طاغور يأخذنا إلىٰ سيرة الرئيس الهندي زين العابدين عبد الكلام. يذكر في مَعرِض حديثه عن كُتُبهِ المفضَّلة، أنَّ مِن الكتبِ الثلاثة العزيزة علىٰ قلبه والتي لها أعمقُ الأثر في نفسه؛ كتابَ (ضوء من مصابيحَ عِدَّة Light form many Lamps) الذي حرَّرته الكاتبة ليليان واتسون Lillian Eichler Watson. يكتب عنه: «وحصل أن وجدتُ الكتاب بمحضِ مصادَفةٍ عام ١٩٥٣م في محلِّ الكتب ذاتِه

(١) راجع الجزء الرابع من أعمال مالك بن نبي الكاملة، ص١٩١٩-١٩٣٧.

الذي رهَنت كتابي عنده في مَدراس. (لا أستطيع وصف المباهج التي تنتاب المرءَ عندما يُجيل بصره مُتمعِّنًا بعناوينِ الكتب المزدحمة في أي مخزنٍ للكتب ليعثر علىٰ جوهرةٍ مثل هذا الكتاب بين الجواهر العديدة الأخرىٰ من مثيلاته). أرىٰ أن هذا الكتاب واحدٌ من أهمِّ رُفقائي ولم أستطع البقاءَ بعيدًا عنه يومًا ما، ولطالما قرأتُه وأعدتُ قراءته خلال السنوات التي امتلكتُ فيها نسخةً منه. يُعدُّ (ضوء من مصابيح عدَّة) كتابًا كلاسيكيًّا باعثًا علىٰ الإلهامِ، ويضمُّ كتاباتٍ لكُتَّابٍ عديدين، وقد عمِلَت المحرِّرةُ علىٰ سردِ حكاياتٍ ملهِمة كتبها العديد من الكُتَّاب وأوضحَت في السياقِ ذاتِه الدافعَ الذي وقف وراء كتابةِ هذه السرديَّات والدروس التي يمكن تَعلُّمها منها. يُمكنني القول اليوم أنْ ليس ثَمة مناسبةٌ مؤلمة ولجتها من غيرِ أن تجلبَ لي حكايات هذا الكتاب العزاء والسَّلوىٰ، أو ترفع من ثقتي بنفسي وتُمدُّني بالعزيمةِ في الأوقاتِ التي كنتُ فيها بمَسيس الحاجة للنَّصيحةِ والدعم، وكلما كانت مشاعري تَميل للجنوح صَوْب الخِذْلان والوهن كان هذا الكتابُ يعمل علىٰ إعادةِ التوازُن والاستقرار العقلي والروحي لتفكيري. إن نُسختي من هذا الكتاب تقادمَت إلىٰ حدٍّ دفَعَني إلىٰ تجليدها مراتٍ عدةً، وكم كانت سعادتي عظيمةً حين أهداني صديقٌ لي نسخةً حديثة لطبعةٍ جديدة من الكتاب قبلَ عدة سنوات»[1].

* * *

ولأن مَطايانا لا تزال تجوبُ أقطارَ الهند؛ لا بد لنا من الإتيان علىٰ ما ذكَره الزعيم الهندي الشهير غاندي في سيرته وبعضِ الكتب التي أثْرَت حياته وأثَّرَت فيها. ولْنَبدأ بما ذكَره عن بداياته يومَ كان يَكره الكتبَ ويستحيلُ أن يُفكر بقراءتها خارج إطار المدرسة، حتىٰ وقعَت عينُه علىٰ كتابٍ شُغِف بهِ فأحدثَ تغييرًا في

(١) تحويل الأحلام إلىٰ أفعال، ص١٣٠-١٣١.

شخصيته وحوَّل نظرته تجاه الكتب والقراءة. يقول: «كنت أكرهُ قراءة أي كتاب بخلافِ الكتب المدرسيَّة، وكان عليَّ أن أؤدِّيَ الواجبات المدرسية نظرًا لأنَّني كنتُ أكره أن أخدع مُعلمي بقدر كُرهي لتكليفه إياي بفروضٍ مدرسية؛ ولذلك، كنت أؤدي تلك الواجبات، لكن دون تركيزٍ في أغلب الأحيان. حتىٰ عندما كنتُ أعجز عن إنجازِ واجباتي بصورةٍ لائقة كان من المستحيل أن أطَّلِع علىٰ أية كتبٍ أخرىٰ. وبطريقةٍ ما وقعَت عيني علىٰ كتابٍ قد اشتراه والدي، ويحمل اسم (شرافانا بيترياكتي ناتاكا)، وكان مسرحيةً تتحدَّث عن برِّ شرافانا بوالدَيه، وقد قرأتُ ذلك الكتاب بشغفٍ شديد. وقد قَدِم إلىٰ بلدتنا، تقريبًا في المدة ذاتها، مجموعةٌ متجوِّلة من مُقدِّمي العروض المسرحية. وقد رأيتُ شرافانا، في أحد المشاهد، وقد حمَل والديه الكفيفين علىٰ كتفيهِ بواسطة حبلٍ في أثناء رحلة الحج. ترك كلٌّ من الكتاب والمشهد لديَّ انطباعًا لا يُنسىٰ، وقد حدَّثتُ نفسي قائلًا: (هذا نموذج يُحتذىٰ)»[1].

ثم يُخبرنا في سيرتهِ أيضًا عن الكتاب الذي جعَلهُ يحسم أمره فيما يخصُّ اختياره الغذائي عندما كان في إنجلترا للدراسة، وإليك قولَه: «وفي أثناء تَجْوالي في المدينة وجدتُ مطعمًا للأطعمة النباتية في شارع فارينجدون، عندما وقع نظري علىٰ المطعم، شعرتُ بالفرح كالفرحة التي يشعر بها طفلٌ عثر علىٰ شيءٍ تعلَّق به قلبُه. وقبل أن أدخل المطعم، رأيتُ بعض الكتب المعروضةِ للبيع موضوعةً خلف نافذة زجاجية قُربَ الباب، ووجدتُ ضِمن هذه الكتب، كتاب هنري سالت (دعوة إلىٰ النباتية Plea For Vegetarianism)، فاشتريته بشلن ثم ذهبتُ مباشرةً إلىٰ غرفةِ الطعام. وفَّقَني الإله أخيرًا وتناولتُ أول وجبةٍ شهية منذ قدومي إلىٰ إنجلترا.

(١) قصة تجاربي مع الحقيقة، ص٣١.

أخذتُ في قراءة كتاب (سالت) من الألف إلىٰ الياء، وتأثَّرتُ بما فيه بدرجةٍ كبيرة، ومنذ أن قرأتُ هذا الكتاب، يمكنني القول بأنني اخترتُ أن أكون نباتيًّا بكامل إرادتي»[1].

وآخِر كتابٍ ذكَره غاندي وأنه أحدث دَويًّا في نفسهِ، وغيَّر أفكاره، وأخرج دَفين معتقداتِه، بل بلغ به من تأثُّرِه بالكتاب أنْ ترجَمه للغةِ الجوجراتية! يكتب عن هذا الكتابِ الذي قرأه وهو في رحلةٍ علىٰ متن القطار: «توجَّهتُ إلىٰ ناتال فورَ استلامي لخطاب السيد ويست. كنتُ قد جعلتُ السيد بولاك كاتمَ أسراري واستأمنتُه عليها. جاء السيد بولاك لتوديعي علىٰ محطةِ القطار، وترك لي كتابًا أقرؤه أثناء رحلتي، وقال لي: إنه واثقٌ بأن الكتاب سيُعجبني. كان الكتاب هو (حتىٰ الرجل الأخير) لراسكن.

شرَعتُ في قراءةِ الكتاب، ولم أستطع أن أتوقَّف؛ فقد استحوَذ عليَّ. استغرقَت الرحلة من جوهانسبرج إلىٰ دربان أربعًا وعِشرين ساعة. كان المساء قد أقبل عند وصولِ القطار إلىٰ دربان. ولم أستطع النوم طَوال تلك الليلة. فقد قرَّرتُ أن أُغير حياتي وَفْقًا للأفكار الواردة في الكتاب».

يكمل بعد ذلك قائلًا: «كتاب (حتىٰ الرجل الأخير) تسبَّب في إحداثِ تحوُّلٍ فوري وعملي في حياتي. وقد ترجمتُه فيما بعد إلىٰ اللغة الجوجراتية تحت اسم (الخير للجميع) Sarvodaya.

أؤمن بأنني اكتشفتُ بعضَ معتقداتي الدفينة في كتاب راسكن العظيم. ولهذا السبب استحوذ عليَّ الكتابُ وجعلني أُغيِّر من حياتي». وخَتم حديثَه عن الكتاب بذِكر التعاليم التي يُنادي بها والتي عمل بها بعد ذلك[2].

* * *

(١) قصة تجاربي مع الحقيقة، ص٧١. وهنا أنصح بكتاب لير كيث (خرافة النباتية)، من إصدارات صفحة سبعة.

(٢) قصة تجاربي مع الحقيقة، ص٣٢٥-٣٢٦.

أحمد ديدات اسمٌ لامع في سماءِ الدعوة إلىٰ الإسلام، وعَلَمٌ بارز بين أرباب البلاغة والحجج الدامغة، كان الفضل في صناعةِ هذا الداعية الشهير -بعد الله عز وجل- عائدًا إلىٰ كتابٍ قديمٍ مُغْبرٍّ قد عثَت الأَرَضة في أطرافهِ وسطَ مستودع مُكتظٍّ مُظلم! ولنترُكْه يُحدِّثنا بنفسهِ عن هذا الكتابِ وذلك اليوم: «عام ١٩٤٠ تقريبًا.. في صباح يوم الرَّاحة دخَلتُ المخزن، أخذتُ أقلِّب في كومةٍ من الصُّحف القديمة، أفتِّش عن مادَّةٍ جيِّدة أقرؤها.. انهمَكتُ في البحثِ.. طالعتُها كلَّها.. إلىٰ أن عثرتُ علىٰ كتابٍ مُغبرٍّ قد قضَمَته الحشرات، حينما أمسكتُ به ثارت منه رائحةُ عفنٍ نفَّاذة أثارت أنفي، وانتابَتْني موجةٌ من العُطَاس.. قرأتُ العنوان: (إظهارُ الحقِّ) لرحمت الله بن خليل الهندي، وكأنَّ العُنوان بالعربية، فتحتُ الكتاب علىٰ الغلاف الداخلي، وقد كُتبَ عليه: IZAHAR UL HAKK. أخذَت كلماتُ العنوان.. إظهار الحق.. إظهار الحق.. تدور في ذهني، ولكنني لم أكن أعرفُ معنىٰ ذلك، ورأيتُ في أسفلِ الغلاف ترجمةً للعُنوان بالإنجليزية بحروفٍ أصغَر: The Truth Revealed؛ أي الكَشْف عن الحقيقة. فربَطتُ بين هذه العبارة وعُنوان الكتاب، وقلتُ لنفسي: ربما هذه العبارة هي ترجمةُ العنوان (إظهار الحق). كان الكتاب قديمًا، صدَرَ في الهند عام ١٩١٥م قبل ميلادي بثلاثِ سنوات، وقد صدَرَ بالعربية، ولكنه تُرجمَ إلىٰ الإنجليزية. ثم قمتُ بتجديدِ غلافه المهترِئ، وقمتُ بقراءته، وبفضله تغيَّرت حياتي تمامًا، ولو لم أُصادف هذا الكتابَ ما كنتُ استطعتُ التحدُّثَ إلىٰ الناسِ عن الأديان من مُنطلَق المقارَنة بينها» قال عنه بعد ذلك إن هذا الكتاب لاحَ له كمُنقذٍ لجميع تساؤلاته[1].

* * *

(١) راجع (أحمد ديدات - سفير العهد الأخير)، ص٢٣-٤٠.

ومما كاشفَنا بِهِ الطبيب اللبناني منير شمَّاعة في سيرته (إقلاع وهبوط) أنَّ كتاب نورمان فنست بيل (قوة التفكير الإيجابي)، الذي نصحَه بقراءته صديقُه كمال، كان له الأثرُ الأكبر في تكوين شخصيته التي ساعدَته علىٰ القيام بمهامِّه المستقبلية[1].

وقيل عن حياةِ صاحب النسبية ألبرت آينشتاين إنه «عندما كان في الثانيةَ عشْرة أعطاه مُعلِّمُه المشرف (ماكس تالمود) كتابًا في الهندسةِ الإقليدية، وقد عمل ذلك الكتابُ علىٰ فتحِ عقل آينشتاين الشابِّ وتعريفه بمفاهيم التفكير المجرَّد وكيفية استكشاف الحقائق الكَونية، ومنذ ذلك الحين أدرَكَ آينشتاين القدرة الخارقة التي يختزنُها العقل البشري»[2].

ونرىٰ الطنطاوي في ثلاثة مواضع مختلفة من مقالاتِهِ يُجدِّد النصح بقراءةِ كتابٍ نسيَ بيته وعمله وكوكب الأرض بأكمله أثناء قراءته! وذكر أنه كان سببًا في تجديد شبابِهِ وهمَّتِهِ ونشاطه. يقول: «لقد سألَ الأصدقاءُ عني، أين كنت، وعن كلمتي الصغيرة يومَ أول أمسِ فلم أكتبها؟ فيا أصدقائي، إنني كنتُ في رحلة. رحلةٌ نسيتُ فيها الجريدة والبيتَ والمحكمة، وهذا العالم الأرضي الذي أعيش فيه... رحلة عدتُ منها بشبابٍ جديد، وهمَّةٍ جديدة، ورجعتُ وكأنه رُدَّ عليَّ ما أخذَتْه الأيام من نشاطي وآمالي... رحلة ليست إلىٰ سهلٍ ولا إلىٰ جبلٍ، ولا إلىٰ برٍّ ولا إلىٰ بحر، ولكن إلىٰ عالمٍ مسحور من عوالمِ العبقرية نقلَتْني إليه بنتٌ اسمها حواء.

بنتٌ عبقريةٌ في الأدبِ، تتحدَّث عن أمٍّ عبقرية في العِلم، حديثًا لم يصنَعْه الخيال ولكنه يُزْري بكلِّ ما يصنع الخيال، ولم يُجاوز التاريخ ولكنه يفوق كلَّ ما يُبدع الأدب. إنها قصة (التلميذة الخالدة) لإيف كوري (وإيف -بلُغتهم- هي حواء)، أروعُ قصة قرأتها للجهاد في سبيلِ العِلم، والإخلاصِ له، والصبر عليه، والظفَر به.

---

(١) إقلاع وهبوط، ص٤٢.

(٢) تحويل الأحلام إلىٰ أفعال، ص١٢٩-١٣٠.

وإنـــي لَأجـدُنـي مُـسيئًـا إلـىٰ هـذا الـعـمـل الـعظـيم إذا أنـا شـوَّهـتُـه بتلخيصٍ أو عرضٍ أو اقتباس، فيا أيها الطلبة والطالبات، اقرَؤوا قصة (التلميذة الخالدة).

اقرَؤوها فلعلَّها تُثير في نفسِ واحدٍ منكم موهبةً كامنة قد تهزُّ الدنيا، ولكن صاحبها لا يدري بها..». ولا ينسىٰ في مقالٍ آخرَ وهو ينصحُنا ببعض المطالعات أن يُوصي بكتاب (التلميذة الخالدة)، ومرةً ثالثة، لم يَغِب عن باله هذا الكتابُ وهو يتحدث عن (توحيد الألوهية) في كتابهِ (تعريف عام بدِين الإسلام)[1]! فقدرُ هذا الكتاب جَليٌّ في نفسهِ.

* * *

وكما قلتُ سابقًا إن بعض الكتب قد تكون مُحدِّدةً للاتجاهات الفكرية والمسارات العِلمية والمعرفية بعد قراءتها، فهذا أبو إسحاق الحويني المُحدِّث المعاصِر يذكر في لقاءٍ مرئيٍّ بأنه في مُقتبَل عمرهِ ابتاع كتاب (صفة صلاة النبي ﷺ) للألباني رحمه الله بثلاثين قرشًا، فكان هذا الكتابُ محدِّدًا لاتجاهه العِلمي.

والكاتب المعاصر أحمد بن إبراهيم العلاونة، لا يأتي ذِكرُ اسمه إلا ويُقرَن في بابٍ مُعيَّنٍ من أبوابِ المعرفة وهو باب (التراجم)؛ وذلك أنَّ له اهتمامًا خاصًّا به، ولن يتَجنَّىٰ أحدٌ علىٰ الحقيقةِ إذا عدَّه مرجعًا معاصرًا في هذا الباب حفظه الله. والعلاونة معلومٌ عنه اهتمامُه الكبير بكِتابٍ مُحدَّدٍ يُعدُّ من أهمِّ كُتب التراجم، وكل مكتبة تخلو منه مهما عظُمَت تظلُّ مكتبةً ناقصة، فما هو هذا الكتاب، ومتىٰ كانت البداية؟ يُحدِّثنا بنفسهِ عن نفسهِ قائلًا:

---

(١) مقالات في كلمات، ص٧٩-٨٠، فصول الثقافةِ والأدب، ص١٨٠، تعريف عام بدين الإسلام، ص٨٦.

«نشَأتُ في المرحلةِ الابتدائية مُحِبًّا وقارئًا المجلات والكتب العسكرية التي كان يُحضرها والدي معه من الجيش، ثم أصبحتُ قارئًا للكتبِ الدينية في المرحلة الاعدادية، ثم أُولعتُ بالكتب النَّحْوية والدراسات اللُّغوية وأنا في المرحلةِ الثانوية، حبَّبني إليها أستاذي الكبير إبراهيم بدران رحمه الله. ولما أنهيتُ المرحلة الثانوية عام ١٩٨٤ اشتريتُ كتاب الأعلام[1] عام ١٤٠٥-١٩٨٥ وقرأتهُ فأُعجِبتُ به غايةَ الإعجاب، ووجَّهَني اتجاهًا محدَّدًا نتَج عنه تغييرٌ في شخصيتي إلىٰ الآن، فأصبحتُ كثيرَ العناية بكتبِ التراجم قراءةً وتعليقًا وتأليفًا، وغدَوتُ من أبرزِ المعْنيِّين بالتراجم، وصدَر لي أكثرُ من عشَرة كتب في هذا الفن. من أهمِّها الكتاب الذي جعَلتهُ ذيلًا علىٰ كتابِ الأعلام[2]، ونشَرتُ نقدًا له في كتابي (نظرات في كتاب الأعلام) أتبَعتُه بمستدرَكٍ، فخمسِ مقالات، وأفرَدتُ كتابًا في سِيرة صاحبه (خير الدين الزِّرِكْلي، المؤرِّخ الأديب الشاعر، صاحب كتاب الأعلام)»[3].

* * *

آخِرُ كتاب سأتحدَّث عن تأثيرهِ الكبير في القرَّاء هو (دَعِ القلق وابدأ الحياة) لديل كارنيجي، وهو من الكتبِ الشهيرة التي لا تحتاجُ إلىٰ تعريف. وقبل كل شيء لا بد أن نذكر عبد المنعم الزيادي، وهو المترجِم والكاتب المصري الذي ترجم الكتاب ترجمةً فريدةً بلُغةٍ رفيعة. كان أول معرفته باسمِ كارنيجي عندما عمل في

(١) قال عنه الطنطاوي في ذكرياته، ج١، ص١٦٦: أنه «أحد الكتب العشرة التي يُفاخر بها هذا القرنُ القرونَ السابقات»، ووصَفه في ج١، ص٢٩٦-٢٩٧ بأنه: «من أعظمِ ما أُلِّف في هذا العصر».

(٢) صدَر منه إلىٰ اليوم خمسةُ مجلدات. ومن أعجب وأغرب ما قرأت أنَّ العلاونة قرأ كتاب الأعلام أكثرَ من ١٠٠ مرة! [كتاب: اقرأ وارق، ص٨٥]. والشيء بالشيء يُذكر، سمعت المحدث الحويني (أبو إسحاق) في لقاءٍ له أنه قرَأ عِلل ابن أبي حاتم -الواقعَ في سبعةِ مجلدات- أكثرَ من ١٠٠ مرة!.

(٣) في الكتاب وأحواله، ص١٠٤-١٠٥.

مجلَّةِ المختار بإشراف فؤاد صرُّوف، وكان من نهجِ المجلَّةِ أن تختصرَ كتابًا أمريكيًّا جَديدًا في كلِّ عددٍ من أعدادِها، فوقف الزيادي علىٰ مُلخَّصٍ لكتاب كارنيجي (كيف تكسب الأصدقاء وتُؤثِّر في الناس) فأُعجب بِهِ أيَّما إعجاب، وتَحصَّل علىٰ نسخةٍ من الكتابِ بلُغتهِ الأصلية، فترجَمه إلىٰ العربية. مما قاله عنه في مقدمةِ الطبعة الأولىٰ: «هذا الكتاب الذي أضعُ ترجمتَه بين يدَيك أيها القارئ الكريم... غرضُه الأوحد أن يوضِّح لك أقصرَ الطرق وأضمنها للحصولِ علىٰ النجاحِ والمقدرة علىٰ مواجهةِ الحياة».

المهم، بعد أنْ لقِيَ الكتابُ رواجًا ونجاحًا غيرَ متوقَّع، قام الزيادي بعد ذلك بترجمةِ كتاب كارنيجي الأشهر (دع القلق وابدأ الحياة)[1].

والآن، لماذا كان المفكِّر المغربي محمد عابد الجابري مَدينًا لكارنيجي وكتابِه هذا؟ وما هي الأزمة التي قاده الكتابُ إلىٰ التخلُّص منها، وكانت حدَثًا مِفصليًّا في حياته؟ إليك هذهِ السطور التي أقتطعُها لك من سيرته (حفريات في الذاكرةِ من بعيد): «كانت أيامًا صعبة تلك التي قضاها صاحبُنا خياطًا، ليس لأن المهنة كانت متعِبةً أو لأنه كان ينفر من العملِ اليدوي، كلا. إن المشكلة التي واجهَت صاحبنا والتي عانىٰ منها كما يُعاني الإنسان من أزمةٍ حادَّة، نفسية وفكرية، هي مشكلة مستقبله: هل يترك الدراسةَ نهائيًّا ويتفرغ لميدان التجارة والمال، أم أنه يترك هذا الميدانَ ليتفرَّغَ للدراسة؟ سؤالٌ لم يكن الفصلُ فيه يتوقَّف علىٰ مجردِ مُيوله واختياره. المشكلة الحقيقية، التي كانت بؤرةَ الأزمة عنده يومئذٍ، هي ما بعدَ الاختيار. لقد كان يشكُّ في نجاحِ مشروع الخياطة الذي انخرطَ فيه مع عمِّه، وفي نفسِ الوقت كان يُحسُّ بأن مسؤوليةَ فشلِ المشروع ستكون أشدَّ عليه -مَعنويًّا وأخلاقيًّا- إذا هو تخلَّىٰ وترك عمَّه وحده. وكان يشكُّ أكثر في إمكانيةِ متابعة دراسته: أين وكيف؟

---

(١) في الكتاب وأحواله، ص١٠٦.

وبينما كان صاحبنا يُعاني من بحرينِ من القلقِ النفسي والفكري جعلَه يقضي كلَّ يوم ساعاتٍ في إحدىٰ الحدائقِ العمومية -التي كان يتردَّد عليها من قبلُ للمراجعة والدَّرْس- يسرح بخياله في خِضَمٍّ من الأفكارِ الفارغة الجامدة يُقدِّم رِجلًا ويؤخر أخرىٰ، ويقضي ساعاتٍ طِوالًا من الليلِ في أرَقٍ موجعٍ وخانق، إذا به تقع عيناه ذاتَ يوم في واجهةِ إحدىٰ المكتبات التي كان يتردَّد عليها من حينٍ لآخَر، علىٰ كتابٍ بعُنوان: دع القلق وابدأ الحياة (المؤلف أمريكي اسمه: ديل كارنيجي - ترجمة مصرية). اشترىٰ الكتاب وأخذ يقرؤه ويُعيد قراءته في الحديقةِ العمومية كلَّ صباح لمدة أسبوعين أو أكثرَ حتىٰ تشبَّع بالطريقةِ التي يقترحها المؤلفُ لحلِّ المشاكل، فعزم علىٰ تطبيقها والالتزام الكامل النهائي بما يُقرِّره علىٰ ضوئها. إن صاحبنا يَدين لهذا الكتاب، ليس فقط في التخلُّصِ من تلك الأزمة، بل لربما أيضًا في معالجةِ (قلق الاختيار)، كلَّما اعترض حياتَه ما يستوجب اتخاذَ قرار حاسم»[1].

وفي (نقدات عابر) نجد مارون عبود يُفرد لديل كارنيجي وكتابه كلمةً خاصة، قال في آخرِها: «أما أنا فمديونٌ لديل كارنيجي، ولعلِّي وفيتُ هذا الرجل بعضَ حقِّه إذ كتبتُ هذه الكلمة». مما جاء فيها قوله: «لقد طالعتُ هذا الكتاب مرَّاتٍ قبل العمَلية الأولىٰ وبعدها، فكنتُ كلما أعدتُ قراءته أجدُني أشجعَ مني قبل ذلك، ولما حانت ساعةُ العملية الثانية استلقيتُ علىٰ المشرحة كأنني أضطجع للقيلولةِ بعد الظهر!». وذكر أن الكتاب ساعدَهُ علىٰ اكتساب الشجاعة والتغلُّب علىٰ القلق والخوف.

وكتاب كارنيجي هذا هو الذي جعل الشيخ ابن سعدي رحمه الله يكتب رسالتَه الشهيرة (الوسائل المفيدة للحياةِ السعيدة)، وقد سمعتُ من الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز ابن عقيل في لقاءٍ تلفزيوني قصةَ معرفة ابن سعدي بالكتاب أول مرة، ومفادها أن الشيخ لما مرض ذهَب إلىٰ لبنان للعلاجِ في الجامعةِ الأمريكية، وكانوا

---

(١) حفريات في الذاكرة من بعيد، ص١٤٥.

في الجامعة يُعطون كلَّ مريضٍ نسخةً من كتاب كارنيجي، فلمَّا قرأه الشيخ انتفع به، وعندما عاد إلىٰ البلاد كان الكتابُ برفقتهِ فكتب رسالتَه متأثرًا به[1].

والشيخ محمد الغزالي ألَّف كتابه (جَـدِّد حياتك) متأثرًا بكتاب كارنيجي أيضًا، وقد كتبَ في مقدمته: «لقد قرأتُ كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) للعلَّامة ديل كارنيجي الذي عرَّبه الأستاذ عبدالمنعم الزيادي، فعزَمتُ فورَ انتهائي منه أن أردَّ الكتاب إلىٰ أصوله الإسلامية! لا لأنَّ الكاتب الذكيَّ نقل شيئًا عن ديننا، بل لأن الخلاصات التي أثبتَها بعد استقراءٍ جيِّد لأقوال الفلاسفة والمربِّين وأحوال الخاصة والعامة تتَّفق من وجوهٍ لا حصرَ لها مع الآيات الثابتة في قُرآننا والأحاديث المأثورة عن نبيِّنا... إلخ»[2].

وقد قال الطنطاوي عن كتاب كارنيجي: «مِن أعظمِ الكتب التي قرأتُها أثرًا في النفسِ وجلبًا للسعادةِ كتاب (دَعِ القلق وابدأ الحياة) الذي ألفه ديل كارنيجي وترجمَه عبد المنعم الزيادي»[3].

وكارنيجي أيضًا قد ذكَر في كتابه أحدَ الكُتب المؤثِّرة في نفسِه، فيقول: «منذ عدة سنوات، قرأتُ كتابًا صغيرًا ترَك في نفسي أثرًا لا يُمحىٰ، عُنوانه (كيف يُفكر الإنسان)، ومؤلفه هو جيمس لين آلن. وقد جاء في هذا الكتاب ما يلي: (سيجد المرء، متىٰ غيَّر اتجاهه الذهني حِيالَ الأشياء والناس، أن الأشياء والناس ستستجيبُ لهذا التغيُّر بمِثله.. دَعْ إنسانًا يُغير اتجاه أفكاره، وسوف تتملَّكُه الدهشةُ لسرعةِ التحوُّل الذي يُحدِثُه هذا التغيرُ في جوانبِ حياته المتعدِّدة. إن القدرة الإلهية التي تُكيِّف مَصائرنا، مودَعةٌ في أنفسِنا، بل هي أنفسنا ذاتُها... وكل ما يصنعه المرءُ هو

(١) لقاء تلفزيوني للشيخ عبدالله ابن عقيل موجود في اليوتيوب، بعنوان (صفحات من حياتي).
(٢) مقدمة كتاب جدد حياتك، للشيخ محمد الغزالي.
(٣) مقالات في كلمات (المجموعة الثانية)، ص٥٨.

نتيجةٌ مباشرة لما يدور في فِكره، فكما أن المرء ينهض علىٰ قدمَيه، وينشط، ويُنتج بدافعٍ من أفكاره، كذلك يَمْرض ويشقىٰ، بدافعٍ من أفكاره أيضًا))»[1].

* * *

الخلاصة، علىٰ القارئ النابِه ألَّا ينسىٰ أنَّ «كتابًا واحدًا قادرٌ علىٰ أن يُغيِّر مجرىٰ حياة الإنسان»[2]. وأن يتذكر دائمًا قول جون ملتون الذي اقتبَسَهُ غاي ستيرن عام ١٩٨٩ عندما كان يُلْقي محاضرةً عن حرقِ الكُتبِ إبَّان سطوة النظام النازي: «ليست الكُتبُ جماداتٍ لا حياة فيها، بل هي وعاءٌ لقوَّةٍ كامنة، أريدَ لها أن تكون فاعلةً مثل الرُّوح التي أنجبَتْها»[3].

(١) دع القلق وابدأ الحياة، ص١٩٦. يجب أن أُذكِّر هنا: لا يظن القارئ الكريم أنني أزكِّي الكتب المذكورة في المقال وما تحويه من أفكار! وإنما ما أريد الإشارةَ إليه -وهو واضحٌ إن شاء الله-؛ هو أن الكتب قادرةٌ علىٰ خلقِ التغيير في الأفراد والعالم. وكلٌّ له تجرِبتُه وقراءاته الخاصة.

(٢) سيرة مالكوم إكس، ص٣٩٢.

(٣) إبادة الكتب، ص٢٢.

المُنافَرة[1]

«سواءٌ كنتَ تقرأ الكتاب ملموسًا أو إلكترونيًّا فأنا لا أهتم؛ ما يُهمني هو المحتوىٰ الـذي تقرؤه ومدىٰ نفعِه»[2].

---

(١) وهي المفاخرة، وكلنا يعرف خبرَ ابن عُلاثة وعامر بن الطفيل ومُنافرتهما الشهيرة. تاج العروس، ج١٤ ص٢٧٠.

(٢) داخل المكتبة خارج العالم، ص١٣٣-١٣٤ - دار أثر. من مقال نيل جايمان عن أهمية المكتبات والقراءة.

قاعدة ثابتة: إذا أردتَ الفصل بين أمرين والحكمَ علىٰ شيئين؛ فلا بد أن تُحدِّد مَيْزاتِهما الإيجابية وعيوبَهما السلبية؛ حتىٰ تستقيم نظرتُك وتَلينَ لك قناةُ الإنصاف.

ها هنا سنحاول -قـدْرَ الاستطاعة- استباحةَ حِمىٰ الكتاب (الورقي) و(الإلكتروني)؛ لنطَّلِع علىٰ الفرق بينهما وبأيِّ شيءٍ يفوق أحدُهما الآخر، ولا يَعزُب عنك أنَّ الكاتب متحيِّز لجهةٍ دون أخرىٰ، وإنْ صدَّرَ مقالته بقاعدةٍ توحي بإنصافهِ واستقامةِ نظرته!

* * *

نحنُ اليوم في العَقدِ الخامس من القرن الخامسَ عشر الهجري، والثالثِ من القرنِ الحادي والعشرين الميلادي؛ الأحداث الغريبة تتوالىٰ، والكوارث المخيفة تتعاقب، والإنسان الذي تراه يسمو إلىٰ أعلىٰ الدرجات بذكائهِ، لا تعجَبْ إذا تأملتَهُ ينحطُّ إلىٰ أسفلِ الدرَكاتِ بغبائهِ. تتسارع الشهور، والأيام يأكلُ بعضُها بعضًا، والجِنس البشري في سباقٍ مع الدُّنيا يرنو إلىٰ العلياءِ، ويسعىٰ إلىٰ التطوُّر في كُلِّ مناحي الحياة، قادهُ عِلمه الذي وفَّقه إليهِ خالقُه -أدرك أم لم يُدرك، اعترف أم لم يعترف- إلىٰ الارتقاء والنهضةِ في السياسةِ، والاقتصاد، والاجتماع، والصناعة، والتقنية... وفي كلِّ شؤونه التي تَعنيه وتُعينه في دنياه الفانية.

وهنا سنأخذ الجزء الذي نريده من هذا التطوُّر البشري السريع، وهو ظهور (الكتاب الإلكتروني). بماذا امتاز عن شقيقهِ الأكبر (الورَقي)؟ وهل له مثالبُ تُكدِّر صفاءَ مشربه وجَوْدةَ وُجودِه؟

* * *

قبل البداءة، لعلَّ هناك مَن يُهِمُّه أن يعلم أن الفضل في ظهور (الكتاب الإلكتروني) -بعد الله- عائدٌ إلىٰ الأمريكي مايكل ستيرن هارت (تـ٢٠١١م) ومشروعِه الشهير. ولا بد من التنبيه علىٰ أن حديثنا هنا هو حديثٌ عن الكتاب الإلكتروني بشكلٍ عام، ولا تهمُّنا الوسيلة التي يُقرأ بها.

أما الآن فأقول: الكتاب الإلكتروني هبطَ علىٰ القرَّاء والباحثين وأرباب المعرفةِ- كالنِّعمة العظيمة التي تُعجزك عَظَمتُها عن شكرها، وتأبىٰ مُروءتك كُفرَها.

جاء في ترجمةِ الإمام الحافظ الحسن بن أحمد الهَمَذاني... «وكان عفيفًا من حبِّ المال، مُهينًا له، باع جميع ما ورثه -وكان من أبناء التُّجار- فأنفقه في طلبِ العلم، وسافر الكثير ماشيًا، حتىٰ سافر إلىٰ بغداد وأصبَهان مراتٍ ماشيًا يحمل كتبه علىٰ ظهره!»[1]. ماذا لو عاشَ الهَمَذانيُّ زمنَ الكِتاب الإلكتروني؟ لا أظنهُ سيُضطَرُّ إلىٰ حملِ كتبه علىٰ ظهرهِ في السَّفر، بل سيتهيَّأ له حملُ ضعفها خمسين مرة في جهازٍ صغير خفيفِ الوزن عظيمِ المنفعة. وهذهِ هي المَيزة الأولىٰ من مَيزات الكتاب الإلكتروني الجليلة، التي فاقَ بها شقيقَه الأكبر.

وهذهِ المَيْزة يسَّرت للقارئ إمكانيةَ حمْلِ كتابِه المفضَّل أيًّا كان حجمه معه أينما حلَّ. فإنك في كثيرٍ من الأحيان ترغب في أن يكون كتابُك بيدك لا تُفارقه أو تسمح له بمفارقتِك، ولكن حجمه الثقيل يجعل هذه الرغبةَ عسيرةً جدًّا تحتاج لتحقيقها إلىٰ عضلاتِ السَّيد محمد نصير أسطورةِ رفع الأثقال الذي مدحه أمير الشعراء بعد فوزهِ بالميدالية الذهبيَّة، فقال فيه ضمن قصيدة رائعة:

يا قاهرَ الغربِ العتيدِ مَلأْتَهُ ... بثناءِ مِصرَ علىٰ الشِّفاهِ جَميلَا
قلَّبتَ فيهِ يدًا تكادُ لشِدَّةٍ ... في البأسِ ترفعُ في الفضاءِ الفِيلَا!

---

(١) صفحات من صبرِ العلماء، ص٣٢٢.

إنَّ الـذي خلَقَ الحديدَ وبأسَهُ جعلَ الحديدَ لِساعِدَيكَ ذَليلَا
زَحْـزحـتَـهُ فـتَـخـاذَلَـتْ أجـلادُهُ وطـرحـتَـهُ أرضًـا فـصَـلَّ صَليلَا

إلىٰ آخرِ ما قال في قصيدتهِ الشهيرة.

أما المَيزة الثانية فهي سهولة الوصول إلىٰ الكتابِ الذي يريده الباحث. واسألْ أحدَ أولئك الذين آتاهم الله وزادهم من فضلهِ -فكانت لهم مكتباتٌ ذات مساحاتٍ كبيرة حافلة بكل نادرٍ وفريد- عن المعاناة التي يَلْقاها إذا أراد كتابًا لبحثِ مسألةٍ ما، أو مراجعة معلومة مهمة؟ سيَروي لك الجهد العقلي والجسدي العظيم الذي بذَله حتىٰ بلغ مراده. ولكن ماذا لو كان كتابه الذي يبحث عنه موجودًا إلكترونيًّا في جهازهِ الصغير الذي يُقلِّبه بيده، أو القابع بأمانٍ فوق مكتبه؟! لن يحتاج من الوقتِ سِوىٰ ثوانٍ حتىٰ يقف عليه. سيصل إليه وهو جالسٌ في مكانهِ لم يُرهق جسده بالسير يمينًا وشمالًا في مكتبتهِ المزدحمة بصنوفِ المعارف، ولم يُتعب عقله في التأمل العميق والتركيز الدقيق في رفوفِها أثناء البحث عنه.

هذا بالنسبةِ إلىٰ صاحب المكتبة المرتَّبة برفوفها، ولم نُشِر إلىٰ مَن كانت مكتباتهم مثل مكتبة الأديب الإسباني رافاييل كانسيسنوس-آسينس (١٨٨٢-١٩٦٤) الذي قال بورخيس بأن صداقته عند ذَهابه إلىٰ مدريد كانت هي الحدثَ العظيم في حياتهِ تلك الآونة، ويحلو له أن يعُدَّ نفسه من أتباعه. المهم، أخبرَنا بورخيس عن ذلك اليوم الذي ذهب فيه للِّقاءِ به قائلًا: «ذات مرة ذهبتُ لألتقيَه، فأخذني إلىٰ مكتبته، أو، بالأحرىٰ، يجب أن أقول: بيته؛ لأنه كان بأكمله مكتبة. كأنك تمشي في غابات. كان فقيرًا لا يستطيع شراء رفوف، وكانت الكتب مكوَّمة فوق بعضها البعض، من الأرض حتىٰ السقف، تُجبرك أن تجد طريقك بين الأعمدة. كان يبدو لي وكأنه ماضي أوروبا التي كنتُ أتركها بأكمله. كأنه رمزٌ للثقافة بمجملها، الغربية

والشرقية»[1]. فمن كانت مكتبته تُشاكِهُ مكتبةَ هذا الأديب؛ فإن معاناتَه ظاهرة لا تحتاج إلىٰ دليلٍ أو إشارة.

ذكرنا من مَيزات (الكتاب الإلكتروني) سهولةَ الحمل عند الانتقال والسَّفر، ويُسر الوصول عند البحث والمراجعة، والآن لنذكر مَيزته الثالثة، وهي سَعة التخزين.

كثيرون من أبناءِ آدم لا يملكون مساحاتٍ كافيةً في بيوتهم تُؤوي كتبهم؛ لذلك نجدهم مُجبرون علىٰ استخدامِ الفراغات في الصالة، غرفة النوم، أسفل الدَّرج، في المطبخ لمدةٍ وجيزة قبل أن تضيق بها وتَضْجَر منها صاحبةُ البيت، فتُلقيها من غيرِ ندمٍ يخلق التردُّد، أو شفقةٍ تُلين التشدُّد في وجهِ من وضعها. أنقذَتهم الأجهزة الصغيرة ذاتُ السَّعة الكبيرة فخزَّنوا بها آلافًا من الكُتبِ التي قد لا تتسع لها دار السُّلطان.

وهذه المَيزة يبدو أنَّ أهل الثراء -زادهم الله- لن يشعروا بعظيم قدْرِها؛ لأنَّ بعضهم قد يسكن في قصرٍ خاصٍّ ومكتبتُه في قصرٍ آخر، مع أنني لا أعلم بل لا أفهم كيف يستطيع جامعُ الكُتب العادي -فضلًا عن الكلِف بها- أن ينام بعيدًا عنها، أو يتركَها تنام بعيدةً عنه! لا أدري، يبدو أن الثراء كما أنه يوسع علىٰ الثريِّ خياراته في الدُّنيا، فإنه قادرٌ علىٰ توسعة مشاعره لتشمل معانِيَ يضيق عنها صدرُ البائس الفقير.

والمَيزة الرابعة التي تستحق الذكر (للكتاب الإلكتروني) هي حِفظهُ من التَّلَف؛ فإنه يكون آمنًا في مكانهِ المخصص سنواتٍ طويلةً دون أن يخشىٰ هجوم الأَرَضة المفاجئ، أو يُزعجه تراكمُ الأتربة علىٰ ملامحه، أو تعاقبُ الشهور والسنين عليه وقضْمُها حروفَه. في أي عامٍ تريد أن تقرأه أو تتصفحه ترىٰ حروفه تشعُّ لشدَّة وضوحها، ولن تُضطرَّ -مهما بَعُد العهد به- إلىٰ نفضهِ ونفخه!

---

(١) هوامش سيرة، ص٣٩.

وإليك المَيزة الخامسة: في زمانِنا اليوم لا تستطيع أن تتأبّط كتابَك إذا كنتَ في مَحْفلٍ كبيرٍ مُملٍّ دفعَك الواجبُ لحضوره؛ لتقطعَ اللحظاتِ الثقيلةَ وتستفيدَ من وقتك بقراءته، أو في مكانٍ للانتظار، أو غير ذلك، سيكون منظرك -لسوء الزَّمان- غريبًا مُريبًا، ولكن إذا كان كتابُك محفوظًا في جهازك، فلن يلتفتَ إليك أحدٌ عندما تُخرِجُه وتبدأُ بقراءته وسط الزِّحام.

وسادس مَيزات الكتاب الإلكتروني: توفُّرُه وفارق سِعره. في الغالبِ يكون الكتاب الورقي أغلىٰ سعرًا من الإلكتروني، والفرقُ بينهما كبيرًا. بل إن بعض المؤسسات وفَّرَت لك الكتب التي تعجز عن الحصول عليها ورقيًّا مجانًا وفي ضغطةِ زر! ومؤسسة هنداوي الرائدة خير مثال علىٰ ذلك.

والمَيزة السابعة هي إمكانيةُ تكبير صفحة الكتاب لتقرأ بوضوحٍ تام دون الالتصاق بالمادةِ المقروءة. وهذه ميزةٌ لن تتحقق مع الكتاب الورقي؛ لأنك لو كنت تُعاني من ضَعف النظر فلن يكون لديك من الخيارات غيرُ ثلاث: نظَّارة طبية، أو إلصاق الكتاب بوجهك لتتمكَّن من رؤية الكلمات، أو الاستعانةُ بعدسةٍ مكبِّرة كأنك بائعُ ذهبٍ عتيق!

هذه أبرز الملامح الإيجابية للكتاب الإلكتروني، ولننتقلِ الآن إلىٰ الأصل والشقيق الأكبر[1].

* * *

مهما تعدَّدَت طُرقُ القراءة، وتنوَّعَت وسائل المعرفة؛ فسيبقىٰ الكتاب الورقي هو الأصلَ الثابت، والمصدرَ الأول، ولا أظن مُنصفًا سيتمعَّر وجهُه لقراءة هذه الحقيقة.

---

(١) وأنا لن أنسىٰ فضلَ الكتاب الإلكتروني علَيّ، فقد انتفعتُ بنعمةِ وجوده عندما كنتُ مرافقًا مع والدي رحمه الله في المستشفيات، لقد كان خيرَ مُعينٍ لي في تلك الأيام القاسية. قرأتُ في قرابة ٦ أشهر ٥٧ كتابًا إلكترونيًّا.

سأحاول أن آتيَ علىٰ أهمِّ ثلاثِ مَيزات للشقيق الأكبر دون تمطيطٍ وتطويل.

المَيزة الأولىٰ هي: راحة العينَين أثناء القراءة. مهما توفَّرَت الخياراتُ في الكتاب الإلكتروني من تخفيفِ الإضاءة أو تغييرها، فلن تصل إلىٰ المستوىٰ المطلوب في تحقيق الراحة المرغوبة للعينين. وجرِّبْ -إن أردتَ- أن تقرأ ساعةً تقسمها بين الورقي والإلكتروني، ثم احكم بعد ذلك أيُّهما أفضل ومريحٌ لعينك.

أما المَيزة الثانية فتتلخّص في: قدرةِ الكتاب الورقي علىٰ عَزْل القارئ عن مُحيطه الخارجي، وخلق جوٍّ معرفيٍّ هادئ بعيدًا عن الضجيج والملهِيات المُكدِّرةِ لصفاء الذهن السالبة للتركيز التام. قارئ الكتاب الإلكتروني مهدَّدٌ دائمًا بجيشٍ مزعج من المنغِّصات التي تُلهيه ولا تجعله ينفردُ بكتابِهِ. نعم؛ هناك أجهزةٌ رائعة مخصصة للقراءة، ولكنها تبقىٰ أجهزةً! ولن تستطيع تحقيقَ العزلة المحبَّبة التي يخلقها الكتاب الورقي.

ثالث الميزات هي: لَذاذة الشعور الدافع للتعلُّق بفِعل القراءة. الكتاب الورقي يُشعِرُك بأنك تملكُه حقيقةً، أما الإلكتروني فتشعر معه بأنه يملكُك! مَلْمس المجلَّد والغلاف، رائحة الورق[1] -خاصةً إذا كان كتابًا طُبع قبل سبعين سنة علىٰ الأقل-، تقليب الصفحات.. وجودُه المادي بين يدَيك خيرُ شاحن لمشاعر الوداد بينكما، وإذا زاد الوداد تضاعَف الاتصال. ولن تُدرك أيًّا من هذه المعاني مع الكتاب الإلكتروني، بل ستجد أن عَلاقتك به تنقطعُ ساعةَ إطفاء جهازك الذي تستخدمُه لقراءته، أما الورقيُّ فستبقىٰ متَّصِلًا به لشعورك الدائم بوجوده المحسوس.

---

(١) نقرأ في رواية (ستونر) الرائعة، ص٢٠ عن بطلها ويليام ستونر: «كان يتجوَّل في مكتبةِ الجامعة بين أكداسِ آلاف الكتب، يشم عبق الجِلد والقماش والصفحات الجافة كأنها بخور نقي».

وفيما يخصُّ رائحة الورق يَذكر روبرت درانتون أنه أُجرِيَ استفتاءٌ حديث بين الطلاب الفرنسيِّين حول هذا الموضوع، أفاد الاستفتاءُ بأن ٤٣٪ منهم يَعتبرون الرائحة أهمَّ صفات الكتاب المطبوع، وأنَّ الرائحة مهمةٌ لهم إلىٰ الحدِّ الذي يجعلُهم يمتنعون عن شراء الكتب الإلكترونية التي لا رائحةَ لها[1].

وهـذه الميزة هي التي جعَلَت بيل غيتس يقول في محاضرةٍ له: «لا تزال القراءة علىٰ الشاشة أدنىٰ مستوًىٰ من القراءةِ علىٰ الورَق، حتىٰ أنا الذي أملكُ هذه الشاشات الثَّمينةَ وأتصوَّر نفسي رائدًا في دُنيا الويب، عندما يأتي الوقت لقراءةِ أكثَرَ من أربع أو خمس صفحات، فإني أقومُ بطباعتها؛ لأنني أحبُّ أن أُمسكها وأتجوَّلَ بها وأعلِّقَ علىٰ مضمونها كتابةً، ولا شك أن هناك عقبةً تقنية كبيرة للوصول إلىٰ هذا المستوىٰ»[2].

وعندما يُصرِّح بهذا بيل غيتس، وهـو القُطب الرأسمالي الـضاربُ في الصناعةِ المعلوماتية؛ تُدرك المسافةَ البعيدة والبَوْن الشاسع بين الكتاب الورقيِّ والإلكتروني. تكتب لطفيَّة الدليمي: «سيجد كلُّ مَن يتابع (بيل غيتس) علىٰ موقعه المعنْوَن (gatesnotes) أنه قَلَّما يتناول موضوعاتٍ ذاتَ تفاصيلَ تقنية بعكس الموضوعات الإنسانية الخيرية والثقافية التي تَشغل معظمَ حيِّز مُدونته الإلكترونية، وقد دأب غيتس منذ سنواتٍ عدة علىٰ ترشيح قائمةٍ بعناوين كتبٍ منتخَبة للقراءة؛ وبخاصة قبل العطلات المعروفة في أمريكا -وأهمها العطلة الصيفيَّة بالطبع-، والكتب المنتخَبة هي كتبٌ ورقية عددها خمسةٌ في العادة، ويحرص غيتس علىٰ الظهور معها في صورةٍ تكشف عن مقدار الحميميَّة التي يُكِنُّها لتلك الكتب.

---

(١) الكتاب بين الأمس واليوم والغد، ص٥٩.

(٢) الكتاب بين الأمس واليوم والغد، ص٨٩.

إن تأكيد (غيتس) علىٰ أهميةِ القراءة الورقية، وحجم المتعة التي يُحصِّلها المرء من التعامل مع الكتاب باعتباره كينونةً مادية مشخصَنة، ومَنْجمًا للأفكار المنعِشة هو تأكيدٌ لأهميةِ منح النفس فرصةً للانفكاك من إدمانِ العالم الرقمي، وعدم خَسارة المزايا العظيمة التي اكتسَبها الكائن البشريُّ علىٰ الصعيدِ الرمزي في سلسلةِ تطوُّرِه الارتقائي البيولوجي. وما تأكيدُ غيتس علىٰ أهميةِ هذه المزايا الرمزيةِ سوىٰ خبرةٍ مؤكَّدة ناجمةٍ عن معرفةٍ سابقة بالأضرار الفادحة التي يمكن أن تنشأ عن التعامل الرقميِّ الإدماني المُفرَّغ من الخبراتِ المعرفية الجادة.

وقد يكون فرضُ نوعٍ من التعتيم الرقمي (الاختياري أو الإجباري) الموسمي أو اليومي شكلًا من أشكال العلاجات المسوِّغة للتغوُّل الرقمي؛ لكن الأمر منوطٌ بصِدق الرغبة والمعرفة الدقيقة بالخَسارة الكبرىٰ التي تترتَّب علىٰ فِقْدانِ مزايانا الرأسمالية الرمزية تحت ضرباتِ الطاحونة الرقمية»[1].

هذهِ ثلاثُ ميزات رئيسة تُفضي إلىٰ غيرها من السِّمات الكثيرة الدالَّة علىٰ أن الكتاب الورقي لا يزال في منزلةٍ متقدِّمةٍ لم يستطع شقيقُه الأصغر الاقترابَ منها بعد.

* * *

والآن، لننقل الحديثَ إلىٰ أمرٍ مهمٍّ هو الفَيصل في المفاضلةِ بين الشقيقَين المتنافرين.

هل فَهْمُ القارئ ثابتٌ لا يتغيَّر أثناء القراءة من الكتاب الورقي والإلكتروني، وهما في هذا سواء، وأن الفرق الحقيقيَّ يصنعه القارئُ فقط لا غير؟ أم أن أحدهما قادرٌ علىٰ رفعِ قوة التركيز وشَحْذ انتباهِ الذهن والمساعدة في تشرُّب المقروء أكثرَ من الآخَر؟ بالنسبةِ لي، وقد قرَأتُ عددًا لا بأس به من الكتبِ الورقية والإلكترونية

(١) إضاءة العتمة [أفكار ورُؤَىٰ]، ص١٥١-١٥٢.

تُمكِّنُني من إصدارِ حكم شخصي علىٰ تجرِبتي الذاتية، أقول: إذا وُفِّقتُ لإدراك مغزَىٰ كاتبٍ ما بنسبةِ ٧٠٪ في قراءتي الورقية؛ فإن النسبة في القراءة الإلكترونية تكون ٣٠٪! لا أدري ما السببُ الحقيقي، وقد اجتهدتُ وحاولتُ، وأجلستُ نفسي علىٰ طاولةِ النِّقاش مع نفسي، فلم أُفلِح سوىٰ باتهامِ عقلي! ولا يذهبُ عن عقلِ النابهِ الحصيف أنَّ هناك كُتَّابًا لا يُفهَمون أبدًا، ولو كُتِبَت مؤلَّفاتهم بحِبرٍ مُذَهَّب وضمَّها مجلَّد مقدَّس! وأعلمُ أنك قائلٌ في نفسك: كيف يجرؤ علىٰ جعلِ تجرِبتِه الخاصة حُكمًا عامًّا يشمل الآخَرين! لهذا حرَصتُ علىٰ الاستعانةِ بالباحثةِ النرويجية (آن مانغن) -ليس حرصًا علىٰ إقناعك، بل لتقوية رأيي فقط!- التي أثبتَت في برنامجٍ بحثي قامت بهِ مع زملائها أنَّ هناك فرقًا حقيقيًّا بين القراءة في الكتبِ المطبوعة وعلىٰ الشاشة.

أجْرَت (آن مانغن) بَرنامجًا بحثيًّا مع زملائها أدريان فان دير، ولوك فيلاي، وجيرارد أوليفييه، وباسكال روبينت للتحقُّق من وجودِ الاختلافات المعرفية والعاطفيَّة للقراءة عبْرَ الشاشة والكتب المطبوعة. طلبَت مانغن وفريقُها من العيِّنةِ الطلابية قراءةَ أسئلةٍ حول قصةٍ قصيرة والإجابة عنها، (قصة حبٍّ فرنسية) إذ رأَت المعلمةُ أنها قد تجذب الطلاب وتُرغِّبُهم في القراءة. كانت قراءاتُ الطلاب قد تنوَّعَت ما بين الورَقية والإلكترونية. وأشارَت النتائج إلىٰ أنَّ الذين قرَؤوا الكتابَ الورقي قد تفوَّقوا علىٰ أقرانهم في إعادةِ بناء الحبكة بترتيبها الزمني؛ أي: بعبارةٍ أخرىٰ يبدو أن تسلسل التفاصيل التي قد نتَغاضىٰ عنها أحيانًا في قصصِ الخيال، قد فقَدَها الطلابُ علىٰ الشاشات الرقمية(١).

ومن وجهةِ نظر الباحث أندرو بايبر: «يُضيف البُعدُ الحسيُّ لقراءة المطبوعات تَكْرارًا مُهمًّا للمعلومات، وهو نوعٌ من هندسةِ الكلمات، الأمر الذي يُساعد علىٰ

---

(١) أيها القارئ عُد إلىٰ وطنك (الدماغ القارئ في عالمٍ رقمي)، ص١٥٠-١٥١.

الفهمِ العامِّ لما نقرأ». كما يشير بايبر إلىٰ أنَّ اللمس يُضيف بُعدًا آخرَ للخلايا، ينشط عندما نقرأ كلمةً مطبوعة، وقد لا يحدث الأمرُ ذاتُه عند القراءة من الشاشة[1].

* * *

ألبرتو مانغويل من الأسماءِ المعروفة في عالَمِ القراءة، وقد أشار في غيرِ واحدٍ من مؤلفاتهِ إلىٰ الكتاب الإلكتروني وخُلاصة رأيه فيه، ولعلَّ الاستشهادَ بهِ هنا مناسبٌ جدًّا؛ لأنه -مهما اعترىٰ كُتبَه من ثرثرةٍ فارغة وأغلاطٍ- من كبار القرَّاء في العالم، ولا بدَّ أن يكون لرأيه قيمةٌ مُعتبَرة، وأيضًا سيكون إثباتُ رأيه من بابِ الإثراء المعرفي.

قبل ذِكر خلاصة رأيه نذكر من غرائبِ المعلومات عنه بأنه لم يملك هاتفًا جوَّالًا طَوال حياته، لا هاتفًا غبيًّا ولا ذكيًّا، يتواصل فقط عبر الإيميل بجهاز اللاب توب[2]. مانغويل شكَّك في عالمية المكتبة الإلكترونية[3]، بل ويرىٰ أن الكتاب الإلكتروني مجردُ أداة، وبما أنه كذلك فإنه سيختفي[4].

ولكنه لم يُنكر أبدًا فوائدَه، ومع ذلك يعترفُ بأنه لا يُحبِّذه ولا يستخدمه، يقول: «علىٰ الرغم من اعتقادي بالفائدة الجليَّة للمكتبةِ الافتراضية، لستُ من مستخدِمي الكُتب الإلكترونية.. أؤمن بأن (الإنترنت مُشتِّت كبير) كما كتب راي برادبري. أنا معتادٌ علىٰ فضاء الورقة والجسد المحسوس من الورقِ والحبر»[5].

ويُحاول مانغويل تعليلَ مشكلته مع النصِّ الإلكتروني فيقول: «إنه بسبب توافرِه ويُسْر الوصول إليه بحدِّ ذاته، يوهِمُ المستخدمين بالسيطرةِ علىٰ النصِّ من

---

(١) أيها القارئ عُد إلىٰ وطنك، ص١٥٤-١٥٥.

(٢) جنتلمان المكتبات، ص٨-٩.

(٣) المكتبة في الليل، ص٢٣.

(٤) جنتلمان المكتبات، ص١٣٧.

(٥) فن القراءة، ص٣٩١.

دونِ بذلِ الجهد الضروري المرافقِ للتعلُّم. فتَضيعُ منهم الغايةُ الجوهرية للقراءة، وكلُّ ما يتبقىٰ هو تجميع المعلومات لاستخدامها عند اللزوم. ولكن القراءة لا تتمُّ بمجرد جعل النصِّ سهلَ المنالِ في متناوَل الجميع؛ إنها تتطلَّب دخول القراء إلىٰ مَتاهةِ الكلمات، ليشقُّوا مساراتهم بأنفسهم، ويرسُموا خرائطَهم التي تتجاوز حدود الصفحة. إن النصَّ علىٰ الشاشةِ لا يحتفظ بدور القارئ بالوضوح الذي يفعله النصُّ المطبوع في كتابٍ ملموس محدود بحوافِه وتجليده»[1].

وبعد أن ذكر مانغويل ميزة المكتبة الإلكترونية بأنها حيِّزٌ صغير يُمكِّنك من جمع مئات الآلاف من الصفحات، لم يُخفِ رعبه من العلَّة الخطيرة، فقال: «المشكلة هي أنه في هذه المكتبة الصغيرة، لا تزال لديك [مُعضلة] في استردادها والقدرة علىٰ قراءتها بشكلٍ مُريح. بالإضافة إلىٰ ذلك، إذا منحتَ مكتبتك بالكامل إلىٰ هذه الأداة، فستُخاطر بأن تخسَرَها عند أدنىٰ خَللٍ إلكتروني. ونحن نعلم كيف يكون فقدانُ النصِّ علىٰ جهاز الكمبيوتر!»[2].

ماذا يُفضِّل مانغويل؟ أظنُّ ذلك واضحًا، ولكنه يختصر بقوله: «تصفُّح كتاب أو التَّجوال ما بين الرفوف جزءٌ حميمٌ من حِرْفةِ القراءة ولا يمكن أن يحلَّ محلَّه بشكلٍ كليٍّ تمريرُ الشاشة، ولا المزيد من السَّفرِ الواقعي يمكن الاستعاضة عنه برحلةٍ مصوَّرة وأداةٍ ثلاثية الأبعاد. ربما ههنا تكمُن المعضلة. فقراءةُ كتاب لا تستوي تمامًا وقراءةَ الشاشة، بغضِّ النظر عن طبيعة النص»[3]. ويقول: «ربما هذا هو سببُ ضيقي في المكتبةِ الافتراضية؛ ليس بمُستطاعك حقًّا أن تمتلك شبحًا (ولو كان بوُسع الشبح أن يتملَّكَك). أريد الألفاظ في تجسُّدها المادي، أي الحضور الملموس للكتاب، شكلًا وحجمًا وقوامًا. أتفهَّم أريحيَّةَ التعاطي مع الكتبِ غير الملموسة،

---

(١) فن القراءة، ص٣٩٦.

(٢) جنتلمان المكتبات، ص١٣٨.

(٣) المكتبة في الليل، ص٦٧.

والأهمية التي تَحْظىٰ بها في مجتمعِ القرن الحادي والعشرين، ولكنها بالنسبةِ لي كالحب الأفلاطوني. ربما هذا هو السببُ في إحساسي العميق بخَسارة الكتب التي كانت يَداي تعرفانِها جيّدا. أنا مثل توما الرسول، أريد اللمس لكي أؤمن»[١].

أما زُبْدة رأيه في الكتابِ الإلكتروني والورقي، فهو يرىٰ بأنه «يمكن ويجب علىٰ كِلا المكتبتَين -المكتبة الورقية والمكتبة الإلكترونية- أن تتعايشا جنبًا إلىٰ جنب؛ لسوء الحظ أن إحداهما مدعومةٌ بقوةٍ أكبر علىٰ حسابِ خَراب الأخرىٰ.. ولا تعني ولادةُ الحاجة إلىٰ تكنولوجيا جديدةٍ موتَ الأقدمِ منها؛ فاختراعُ التصوير الضوئي لم يُلْغِ الرسم، بل حدَّثَه، ويُمكن للشاشةِ والمخطوطة أن يُغذِّيَ كلٌّ منهما الآخرَ وأن يتواجدا بشكلٍ وُدي علىٰ طاولةِ القارئ ذاتها»[٢].

وختامُ أقوالِه: «للمكتبات الافتراضية فوائدُها، ولكنَّ ذلك لا يعني الاستغناءَ عن المكتباتِ الملموسة، مهما جهِدَت شركاتُ الإلكترونيات لكي تُقنِعَنا بالعكس، مهما سعىٰ قُوقل وإخوانُه إلىٰ تقديم أنفسهم ككِياناتٍ تحبُّ الخير للإنسان، لا كمستغلِّين لميراثنا الفكري.. علىٰ أية حال، تبقىٰ المكتباتُ التقليدية هي الجوهريةَ، حتىٰ عند إنشاء مثلِ هذه المكتبات الرقمية اللافتة»[٣].

* * *

(١) ذاكرة القراءة، ص٢١.

(٢) المكتبة في الليل، ص٦٦. ومن كلمات الكاتب الإسباني سيزار مولينا، قوله: «إن الكتاب الإلكتروني ليس خطرًا علىٰ القراءة، بل الخطر هو الألعاب الإلكترونية، وبرامج التلفزيون الركيكة وعديمة الفائدة.. لم تُنهِ الشاشةُ الكتابَ الورقي المطبوع، حتىٰ لو أصبح قطعةً أثرية؛ بل علىٰ العكس، فأنا متأكد أنها ستُساهم في توسعة القراءة؛ فالأجيال القادمة ستكسب عاداتٍ وأشكالًا جديدةً في العلاقة مع النص المكتوب». [ما أجملَ العيش دون ثقافة! ص٢٠].

(٣) فن القراءة، ص٣٨٨.

وهنا لا بد لي أن أُصرِّح بأنني لا أخشىٰ أن أكشف عن تحيُّزي -بعد أن ألمحتُ إليه في أول المقالة- للكتاب الورقي والمكتبة التقليدية لأسبابٍ كثيرة، من أهمِّ هذه الأسباب هو إيماني بأنَّ تعظيم المكتبة الإلكترونية ورفْع شأنها ودعمها علىٰ حساب الأخرىٰ؛ هو في الواقع طريقٌ إلىٰ القضاء علىٰ الكتاب والقراءة بشكلٍ عام! ولنتصوَّرْ معًا انقراضَ الكتب الورقية من الوجود، ولم يبقَ لدينا سوىٰ المكتبة الإلكترونية العابسة معدومةِ الملامح، ودَعْك ممن طُبِع فعلُ القراءة في صدورهم بفضلِ الشقيق الأكبر، واسأل نفسَك: هل ستتمكَّن المكتبة الإلكترونية من إنشاء جيلٍ مُحبٍّ للقراءة، عاشقٍ لكسبِ المعرفة مِن الكتب؟ لا أظنُّ ذلك؛ لأنني مؤمنٌ بالتأثير الجليل الذي يخلقه وجودُ الكتاب المحسوس والمكتبة التقليدية في نفوسِ الأجيال والقُرَّاء بصورةٍ عامة.

يُعيدنا هذا إلىٰ صرخةِ دوهاميل المدوِّيَة قبل ما ينيفُ علىٰ نصف القرن عندما خشي أن ينقرض الكتاب بعد ظهور وسائلَ أخرىٰ تُشبِع نَهَم الأفراد إلىٰ المعرفةِ دون الحاجة إلىٰ الكتاب، كتَب مُعبِّرًا عن مَخاوفه يقول: «أنا لا أخشىٰ علىٰ مَكاتبنا من مكروبٍ خبيث؛ إذ يُخيَّل إليَّ أن الإنسان في حالتِهِ الراهنة سيبذل كل جهده ليُحافظ علىٰ كنزه من التحطيم، أو لينقل وسائلَ حياته الحيوية إلىٰ مادةٍ أخرىٰ أقلَّ عرضةً للفناء.

ولقد استعنتُ بهذا الفرض لِأَلفِتَ النظر إلىٰ أهميةِ كارثةٍ كبرىٰ أحسُّ أنها آتية؛ فالكتاب مُهدَّد في مستقبلهِ لا بالمكروب، بل بانصراف جماهيرِ البشر عنه. فهل هذا لأن الجماهير الآن أقلُّ حبًّا للاستطلاع منها في القرن الماضي، أو لأنها أقلُّ تعطشًا إلىٰ المعرفة؟ لستُ أقول شيئًا من ذلك.

ولكني أقولُ إن الجماهير البشرية قد أخذَت تُشبعُ شيئًا فشيئًا حاجتَها إلىٰ

المعرفة دون الرجوع إلىٰ الكتاب. فالرجل المتوسط لا يجدُ في الأعمِّ وقتًا متَّسِعًا ولا مالًا كثيرًا، بل ولا عزمًا مُثابرًا ليُرضِيَ حاجاته الروحية. فقدرته علىٰ الانتباه والاستطلاع والفراغ قد استغرَقَتها اليوم عدةُ آلات قوية الأثر، نافذة الاستهواء، فالراديو والسينما تَشْغل من يومٍ إلىٰ يوم مكانًا أكبَر، لا في وسائلِ تسلية رجل القرن العشرين فحسب؛ بل في عناصر تكوينه الظاهرة؛ إذ تختلط الأخبارُ بالمعارف، والتسليةُ بالعلم[1]، اختلاطًا مُخيفًا في نفسِ الرجل المتوسط.

وقادة الفِكر في عصرِنا لم يُعلِنوا بعدُ في قوةٍ أن هذه الظاهرة تبثُّ في نفوسِهم القلق، ولعلَّ البعض منهم يرىٰ أن الوسائل تتغيَّر، وأن الإنسانية ستحتفظ بتراثها لا في المكاتب، بل علىٰ أسطوانات من (الباغة) أو في أشرطةٍ من الغراء.

وهذا ليس موضعَ الإشكال؛ إذ إنه لا يُهمُّنا أن نعرف هل الباغة والغِراء آمنٌ علىٰ نقلِ معارفنا، وأصلبُ مُقاوَمةً من الورق أم لا، بل ولا يُهمنا أن نعلم إذا كان من الخير لمستقبل عبقرية البشر أن نُحِلَّ محلَّ الكتاب -صديقِ الوحدة- عددًا من الأدوات الصالحة صلاحًا خطرًا لأن تخلق عقلية القطيع[2]، وإنما المسألة الأساسية هي هل من الممكن أن نخلقَ وأن نحافظ علىٰ ثقافةٍ حقيقية ثقافة قوية بواسطة الصور (السينما)؟»[3].

ونحن نقول: هل من الممكن أن نُحافظ علىٰ قيمةِ الكتاب ومكانته وأهميَّة القراءة ومنزلتها بانعدام المكتبة التقليدية؟ لا أظن ذلك، بل لَعلِّي لا أُبالغ إذا قلتُ -مرةً أخرىٰ- إنَّ السَّعي الحثيثَ لتحويل كلِّ المكتبات الورقية إلىٰ إلكترونية ليس بهدفِ حفظ الإرث البشري، بل للاستغناء التامِّ عن وجود الأولىٰ؛ هو في حقيقتهِ

(١) تأمل جيّدا: (اختلاط الأخبار بالمعارف، والتسلية بالعلم).

(٢) يُشير بذلك إلىٰ الراديو والسينما وأمثالهما. [هامش محمد مندور].

(٣) دفاع عن الأدب، ص٨٠-٨١.

سَعيٌ لإعدام القراءة، وتعجيلٌ بانقراض الكتاب في كلِّ أشكاله[1].

* * *

وأُحبُّ أن أقول إنَّ في دعمِ الكتاب الورقي والمكتبة التقليدية ومحاربةِ مَن يحاربها -أيّا كانت دوافعه- جانبًا إنسانيًّا عميقًا. ألم تُطلِق خيالك يومًا فتسأل: كيف للذي فقَدَ بصَرَه لعلّةٍ ما، أو كان فاقدًا له منذ ولادته؛ أن يتحسَّس المجلداتِ المتراصَّةَ في الرفوف، ويشعر بلذَّةِ تقليب الورق بين يدَيه وتنفُّسِ رائحتها لو لم يكن للكتاب الورقي وجودُه الشامخ في دنيا البشر؟ إن المكتبة الرقمية عاجزةٌ تمامًا عن تقديم ذلك الشعورِ الساحر للقارئ الضرير، إنها علىٰ جَلالةِ قدرها ستبقىٰ عابسةً بلا ملامح.

ويَسوقنا الحديث -ولعَلَّنا في الواقع نسوقُه- إلىٰ ذِكرِ بورخيس الذي «كان يُقرِّب الكتبَ من وجههِ حتىٰ يكاد يُلامسها كما لو كان أنفه يستطيع أن يستنشقَ الكلمات التي لم يَعُد يراها»[2].

ماذا يمكن أن توفِّر المكتبةُ الإلكترونية لأمثال خورخي لويس بورخيس؟ لن يشعرَ أو يستنشقَ أو يُحس، ولو طبَع مَلامحه علىٰ الشاشة طبعًا إلا بالفراغِ والصمت!

وإليك هذا النصَّ الذي يُصوِّر لنا طريقةَ بورخيس في فكِّ شيفرة الكُتب بتحَسُّسِها بأصابعه! يكتب مانغويل: «يحدث أحيانًا أن يختار بنفسه كتابًا من المكتبة. فهو يعلم، بالتأكيد، أين يسكن كلٌّ من مُجلداته، فيذهب إليه دون أن يُخطِئَه. لكنه في أحيانٍ أخرىٰ يجد نفسه في موضعٍ حيث الرفوفُ ليست مألوفةً، في متجرِ بيع الكتب

---

(١) ولا ننسىٰ أن استغلال بعض الناشرين والدُّور ورفعهم المبالَغ به لأسعار المطبوعات؛ يُعتبر من مُعاداة الكتاب الورقي. وهذا الفعل فيه تعطيلٌ لنشاط استمراريته، ومحاربةٌ واضحة لبقائه.

(٢) في غابة المرآة، ص٦٥-٦٦.

الأجنبية علىٰ سبيل المثال، وهنا ثمة شيءٌ غريب يحدث؛ يُمرِّر بورخيس يدَيه فوق كعبِ كلِّ كتاب، كما لو أنه يجسُّ بطريقته سطحًا مجعَّدًا لخارطةٍ مجسَّمة ويتراءىٰ له أن جِلده سيقرأ له الجغرافيا، حتىٰ لو لم يكن يعرف المنطقة، فيُرسل أصابعَه فوق كتبٍ لم يفتحها من قبل، شيءٌ ما يُشبه حدْسَ الحِرْفيِّ يُنبئه عن الكتابِ الذي يلمسه، وهو بارعٌ بفكِّ شيفرة الأسماء التي لا يستطيع قراءتها بالتأكيد!»[1].

وقد يُظن أن بورخيس كان منذ ولادته كَفيفًا، وهذا ليس صحيحًا، فإنه لم يفقد بصرَه كُليًّا إلا بعدما بلغ الثامنةَ والخمسين من عمره. كان عَمَاه -كما يقول مانغويل- نوعًا ما، اشتدَّ عليه بالتدريج في عمر الثلاثين، واستقرَّ أبَديًّا بعد عيدِ ميلاده الثامن والخمسين. وكان متوقَّعًا منذ ولادته؛ لأنه ورث نظرًا ضعيفًا من جدِّهِ وجدته الإنكليزيَّين، اللذين ماتا أعمَيَين؛ كذلك مِن والده الذي أُصيبَ بالعمىٰ في نفسِ عمر بورخيس»[2].

ومن الموافقات الغريبة أن بورخيس كان رابعَ مديرٍ أعمىٰ للمكتبة الوطنية! فيقول مانغويل الذي أصبح مديرَها بعد ذلك: «تلك لعنةٌ أنا عازمٌ علىٰ تفاديها»[3].

ونختم القولَ عن بورخيس بالكلمات الآتية: «هناك كُتَّابٌ يسعَوْن لحشر العالَم في كتاب. وهناك آخَرون، أقلُّ منهم، الذين يكون العالَم كتابًا بالنسبةِ إليهم، كِتاب يسعون لقراءته علىٰ أسماعهم وأسماع الآخَرين. كان بورخيس واحدًا من هؤلاء الكُتَّاب. لقد آمَن، علىٰ عكسِ كل المهاترات، بأن واجبنا الأخلاقي يتمثَّل في أن نكون سُعداء، وآمنَ بأنه يمكن العثورُ علىٰ السعادةِ في الكتب، ومع ذلك لم يتسنَّ له أن يُفسِّر لماذا كان الأمر هكذا. كان يقول: (لستُ أدري بالضبط سببَ إيماني بأنَّ

---

(١) مع بورخيس، ص٣٤-٣٥.

(٢) مع بورخيس، ص١٤-١٥.

(٣) ذاكرة القراءة، ص١٦٢.

الكتاب يجلب لنا أفقَ السعادة، لكنني ممتنٌّ حقًّا لتلك المعجزة)»[1].

* * *

ولأننا اقتربنا من طيِّ آخِر صفحةٍ من هذه المقالة؛ لا بد أن نُذكِّر الآباءَ والأمَّهات والمربِّين بأنَّه «ثَمة أبحاثٌ ناشئة تدرس الفروقاتِ بين الكتبِ المطبوعة والإلكترونية، وتأثيراتها علىٰ الطفل. هناك عددٌ متزايد من الباحثين المختصين في النموِّ رصَدوا الآتيَ:

عندما يقرأ الآباءُ قصصًا من الكتبِ الإلكترونية مع أطفالهم، فإن تفاعلاتهم تتركَّز في كثيرٍ من الأحيان علىٰ الجوانبِ الميكانيكية الشبيهة بالألعاب، بدلًا من المحتوىٰ والكلمات والأفكار في القصص. قد يكون أداءُ معظم الآباء أفضلَ في الاهتمامِ باللغة، والمساعدة في توضيحِ المفاهيم عند قراءة الكتب المطبوعة لأطفالهم في سنٍّ مبكرة. كما حذَّر بعضُ الباحثين، من أن شكل الكتاب الإلكتروني ذاته قد (يُغير قراءة القصص علىٰ نحوٍ كبير، حتىٰ قبل أن تبدأ القراءة)، مع احتماليةِ وجود تأثيرات سلبية علىٰ فهمِ الأطفال وأشياء أخرىٰ»[2].

ولْنحذَرْ جميعًا من موتِ التفكير التأملي؛ فإنَّهُ «منذ سنوات، شعَرَ الفيلسوف مارتن هايدغر، أن الخطر الكبير في عصرِ الإبداع التكنولوجي، يتمثَّل في إمكانيةِ ولادة (اللامبالاة تجاه التفكير التأملي.. عندئذٍ يُنكر الإنسان طبيعتَه الاستثنائية

---

(١) مع بورخيس، ص٩١.

(٢) أيها القارئ عُد إلىٰ وطنك، ص٢٦٦-٢٦٧. وفي (تاريخ القراءة) لمانغويل، ص٢٢: «يرىٰ عالِمُ النَّفس جيمس هيلمان أنَّ الأطفال الذينَ يقرؤون في سِنٍّ مُبكرة من العُمر أو الذينَ يُقرأ عليهم في هذهِ المرحلة مِن العُمر يكونون في وضعٍ نفسي أفضل، ويستطيعون أن يُطوِّروا مَقْدرات علىٰ التصوُّر أفضلَ مِن أولئك الأطفال الذينَ تُروىٰ عليهم الأقاصيص والحكايات في وقتٍ مُتأخر».

ويتخلَّىٰ عنها؛ لأننا كائناتٌ تأمليَّة؛ ولذا فإنَّ مهمتنا تتمثَّل في إنقاذِ الطبيعة الجوهرية للإنسان، بإبقاء التفكير التأملي علىٰ قيد الحياة)».

وكما سأل ستيف واسرمان في بَرنامجه: «هل تُقلِّل سرعةُ الإنترنت من قدرتنا علىٰ التأمُّل، وتضعف قدرتنا علىٰ التفكير الحقيقي؟ هل يُلْغي التدفُّق اليومي للمعلومات المساحة اللازمة للحكمة الفعلية؟ القرَّاء يعرفون.. في دَواخلهم يُدركون الحقيقة. بدون كتُب، وبدون معرفة القراءة والكتابة، يتلاشىٰ المجتمع الجيِّد وتنتصر الهمجية»[1].

* * *

ونختم بكلامٍ كتبَه العِفْريت مرسيه -كما سمَّاه بولاسترون- عام ١٧٧١م، أي قبل ما يقرب من ٢٥٢ عامًا، يقول: «كان أجدادنا الطيِّبون يقرؤون الرواياتِ ذاتَ الستة عشر جزءًا، ولم تكن طويلةً ما يكفي لسهراتهم. وكانوا يُتابعون بالتناقل العاداتِ والفضائلَ ومعاركَ الفروسية القديمة؛ أما نحن فلن نقرأ قريبًا إلا علىٰ الشاشات!»[2].

---

(١) أيها القارئ عُد إلىٰ وطنك، ص٣٥٥-٣٥٦.

(٢) كُتب تحترق [تاريخ تدمير المكتبات]، ص٣٨٤. ولا شك أننا نرجو ما ترجوه لطفيَّة الدليمي التي قالت في مقالٍ لها [في إضاءة العتمة ص٨٠] : «عجيبٌ هو أمر القراءة، وساحرٌ هو عالم الكتاب، ولا أحسب أن عشق القراءة (عبر وسيط ورقي أو إلكتروني) سيناله التغييرُ المحتَّم بسبب المتغيرات التقنية في عصرنا الرقمي، وفي عصر بُزوغ تقنيات الذكاء الاصطناعي غير المسبوقة في السنوات القليلة القادمة، والتي بانت بعضُ تباشيرها في أيامنا هذه، وربما تكون القراءة واحدةً من الفعاليات البشرية الأكثر عِصيانًا علىٰ الاندثار، والأكثر تشاركًا بين الكائنات البشرية، إذا ما استثنينا تشارُكَهم في الفعاليات البيولوجية الأساسية لإدامة الحياة».

لصوص المعرفة

«سـرقـة الـكُـتـب تشبه استباحة القبور»[1]

(١) مكتبة باريس، ص٢٩١.

يوم الأربعاء ٢٢ صفر ١٤٣٠هـ الموافق ١٨ فبراير ٢٠٠٩م نشرَت الشرق الأوسط مقالًا قصيرًا بقلمِ الكاتب المِصْري أنيس منصور، وكان عُنوان المقال سؤال: [سرقة الكُتب هل هي حرام؟!] ولا تَغُضَّ طرْفَك عن علامة التعجُّب بعد الاستفهام!

لم يُبدِ أنيس منصور في مقالهِ هذا رأيًا صريحًا واضحًا حول الموضوع؛ يُؤيِّد أم يُعارض، يوافق أم يُخالف، لا شيء، كل ما فعلهُ هو ذِكره لأستاذه المستشرق الألماني باول كراوس[1] وفتواه بأنَّ «سرقة الكتب ليست حرامًا»، وأنه كان ينهب -ولا أقول يستعير- الكتب النادرة من مكتبةِ الجامعة ولا يردُّها، ونصيحته لطلَّابه -أنيس منصور وأترابه- الاقتداء بفعلهِ هذا؛ لأنهم لن يَبيعوا الكُتب، بل يحتاجون إلىٰ قراءتها. ثم ساق خبرَ سارق اللوحات التاريخية ومجنون الكتب الإيراني فرهاد خال زاده الذي حُكِم عليه بالسجن ثلاث سنوات قبل كتابة المقال بنحوِ أسبوع. انتهىٰ.

دَعونا نتجاوَزْ أنيس منصور وما ذكَره في مقالهِ، ونُعيد تكْرار السؤال من غيرِ إثبات علامة التعجُّب بعد الاستفهام: [سرقة الكُتب هل هي حرام؟].

العاقِل بلا دِين يُدرك أن نَهْب الإنسان -كُتب وغيرها- ما ليس له لا يجوز، فكيفَ بعاقلٍ ذي دِين؟ فإنه مُدرِكٌ بَداهةً فداحةَ هذا الفِعل، وقُبح هذا الخُلُق، وأنه

---

(١) باول كراوس مسشترق ألماني من أصلِ تشيكوسلوفاكي. تعلَّم في جامعةِ براغ، وتلقَّىٰ العلوم الشرقية بجامعة برلين، وعُيِّن في معهد التاريخ للعلوم ببرلين، ثم مُدرِّسًا بجامعتها سنة ١٩٣٣م... ثم أستاذًا للُّغات السامية في جامعة فؤاد الأول بمصر سنة ١٩٣٦، فأقام إلىٰ أن مات منتحرًا. [الأعلام، ج٢، ص٤٢].

حرامٌ لا يُقدم عليه سِوىٰ دنيءٍ لم يجد وازعًا دينيًّا يمنعه أو حاجزًا أخلاقيًّا يردعه.

وقد انتشرَ بين الأدباء وغيرهم طرائفُ وأخبارٌ حول سرقة الكُتب فيها نوعٌ من التخفيف والتهوين من هذا الفعل السيئ، وأنها -أي سرقة الكتب- مختلفةٌ تمامًا عن سرقةِ أي شيء آخر؛ لأنَّ دافعها -في الغالب- نبيلٌ وغايتها شريفة؛ العِلم والمعرفة.

لكن، ماذا لو سأل أحدُ الأدباء الظرفاء نفسَه: إذا قُدِّر وسَطَا لِصٌّ مثقَّف علىٰ مكتبتي، وأخلا الرفوفَ من المجلداتِ الثمينة والأعمال العالمية الخالِدة التي أفنيتُ في جمعِها جهدي ووقتي ومالي، فهل سأتمنَّىٰ له قراءةً ماتعة وعِلمًا نافعًا، أم سأُرسل عليه صواعقَ من اللعنات، راجيًا أن يوفَّق رجالُ الشُّرَط في القبضِ عليه ومعاقبته وعودة ثروتي الفِكرية إلىٰ مكتبتي؟ هذا السؤال كفيلٌ بردٍّ بعضِ الظرفاء إلىٰ صوابهم.

* * *

هل سَرِقة الكُتب ظاهرةٌ حقيقية قديمًا وحديثًا أم هي أخبارٌ خياليَّة يَستملحُ روايتها الأدباء، وهل حقًّا يسرق المثقَّفون والقرَّاء الكُتب، أم أن سرقتها تَخصُّص الجهلة؟ في مقالٍ له عام ١٩٦٩م يقول الأديب والكاتب المِصري وديع فلسطين: «ولم نسمع أن لِصًّا من اللصوصِ المحترفين سطا علىٰ مكتبةٍ خاصة، بل لعلَّ المكتبات الخاصة هي آخِر ما يطمع فيه اللُّصوص وقُطَّاع الطُّرق الذين يبحثون عمَّا خفَّ حملُه وغلا ثمنُه»[١].. وانتبه لقوله (اللصوص المحترفين). نعم؛ قد لا يلتفت اللِّص المحترف إلىٰ مكتبةٍ خاصَّة للسطو عليها، ولكنَّها لا محالة لن تنجوَ من هجماتِ جماعةٍ من اللصوصِ الفاشلين، وهم بعضُ قرَّاء الكُتب وشُداة المعرفة!

«إن اللصوص لا يسرقون الكُتب، والأدباء ليسوا مهَرة في السرقة»؛ هذا ما قالهُ الأديب والمثقف الموسوعي علي أدهم إجابةً عن سؤال أحمد حسين الطماوي

(١) أنا والمكتبات الخاصة - وديع فلسطين - العدد ١٢ من مجلّة الأديب، ١ ديسمبر ١٩٦٩.

عندما التقىٰ به في حُجرةٍ واسعة فوق سطح عمارة، وكانت هذهِ الحجرةُ تضمُّ مكتبتَه الغنيَّة، فكان سؤاله: «ألَا تخشىٰ أن تُسرق المكتبة وهي فوق السطوح؟»(١).

ونحن إذا وافقنا الأديب الكبير في الشِّق الثاني من إجابته، فلسنا نُوافقه في الشِّق الأول منها؛ لأننا وقَفْنا علىٰ ما يُناقضها.

فهذا قاسم الرَّجب الكُتبي العراقي الشهير يذكر في مذكراته الماتعة الآتي: «... ثم هناك السُّراق للكتبِ من الخدمِ والأولاد، وقد صادفَتْني مِحنٌ كثيرة، أذكر منها سرقةَ مكتبة فهمي المُدرِّس، فقد كان عنده خادمٌ هندي، سطَا علىٰ مكتبة المُدرِّس شيئًا فشيئًا علىٰ مرورِ الأيام فباع محتوياتها».

ويقول: «كما أن الشريف محيي الدِّين أحد أنسباء العائلة المالكة كان يُحرز شيئًا من الكتبِ الفنية النفيسة، وقد كان حظُّها بعد أن باعني خادمه إياها حظَّ سابقتها في البيع، إلا أني اشتريتُها، بعد أن عرَضتها علىٰ مكتبةِ المتحف العراقي، وكان الأستاذ ساطع الحصري مدير الآثار يومذاك صديقًا للشريفِ محيي الدين، فلما رأىٰ توقيعَه علىٰ معظمِ الكُتب أُسقط في يده، فطلبَني وسألني عنها فعرَّفته بطريقة شرائي إياها، وعندئذٍ أُحيل الخادمُ إلىٰ المحكمة، واعترف، وكان الشاهد عليه طباخ الشريف، وهو أخو السارق، فحكم عليه بالحبس، ولولا اعترافُه لسُجِنتُ بدله»(٢).

فلا شك أنَّ في الكتبِ ما يغري اللصوص، وأن قيمتها منذ زمنٍ طويل في ارتفاعٍ وتضخُّم، وقد أدرَكَ هذا بعضُ اللصوص (المحترمين) وأعارُوها كلَّ اهتمامهم. وقد كتبَ الشاعرُ والكاتب المِصري الذي يُغْفَل عن إنتاجِهِ الفريد والمفيد محمد عبد الغني حسن مرةً يقول: «وللكتبِ -مطبوعةً كانت أو مخطوطة- آفتان: السرقة والنيران. ولقد عرَف اللصوص قيمة الكتب وخاصةً بعد أن اعتنىٰ أصحابُها بتجليدها وتزيينها؛ فارتفعَت أثمانها عند الأمراء والأثرياء، واضطُرَّ هؤلاء إلىٰ العنايةِ بحفظها

(١) علي أدهم بين الأدبِ والتاريخ، ص٢٤.
(٢) مذكرات قاسم الرَّجب، ص٧١-٧٢.

والقيام عليها وكانوا يكتبون علىٰ أوَّلِها عباراتٍ تتضمَّن لعنةَ السارق والسخط عليه. وقد وُجِدَ علىٰ أحد الكتب هذا البيت من الشِّعر علىٰ لسانِ صاحب الكتاب:

إذا غرَّكَ الشيطان أن تَجْتريْ علىٰ كتابي فعُقْبىٰ المجْتَرين الفضائحُ!»[1].

وهذا يُذكِّرُني بما كُتب في أول صفحات كتابٍ ثمين من عصر النهضة؛ تحذيرًا للسارق قبل أن يرتكب فعلتَه الشنيعة: «اسم صاحب الكِتاب تراه مقروءًا، احذر! فإنك تسرقُه ولا تسرقُني. إذا فعلتَ ذلك دون تلكُّؤٍ فإن رقبتك ستكون الثمَن. انظر إلىٰ الأسفل وسترىٰ صورةَ عمود المشنقة؛ لذا احذر في الوقتِ المناسب قبل أن تُعلَّق علىٰ هذا العمود!»[2].

وفي كتاب بارتليت (عاشق الكتاب) أن مؤلِّفًا ألمانيًّا في العصور الوسطىٰ كتبَ في مقدمة كتابه تحذيرًا لكلِّ من تُسوِّلُ له نفسُه أن يسرقه: «لا يعود هذا الكتاب إلىٰ أحدٍ سِواي.. لذا وضعتُ اسمي في الصفحات الأولىٰ لأُراقب. إذا أردتَ سرقةَ هذا الكتاب.. إن حاولت، ستُعلَّق بحبل يلتفُّ علىٰ عنقك، ثم تطوف الغِربانُ حولك، لتقتلعَ عينيك... وعندها تصرخ: آه، آه، آه! تذكَّرْ أنك تستحقُّ هذه اللعنة»[3].

وفي هذا دليلٌ علىٰ أنَّ الكُتب لم تكن ذاتَ مكانةٍ متدنِّيةٍ في أعين اللُّصوص، بل إن لها قدرٌ وقيمة عندهم، ولم تترفَّع أنشطتهم ومهاراتهم اللصوصية عنها.

* * *

وهنا لا بد من التوقُّف عند «أكبر سارق للكتب علىٰ مرِّ العصور والأزمان» كما يقول مانغويل، وهو الدوق ليبري، الفلورنسيُّ الغريبُ المولود سنة ١٨٠٣م لعائلةٍ

---

(١) مقال: طرائف عن الكُتب والكُتَّاب - محمد عبد الغني حسن - العدد ٥٣٠ من مجلة الرِّسالة ٣٠/ ٨/ ١٩٤٣م.

(٢) تاريخ القراءة، ص٢٧٢.

(٣) عاشق الكتب، ص٢٥١.

نبيلة من توسكانا، والمتوفَّىٰ في الثامن والعشرين من أيلول ١٨٦٩. لذكائِهِ ونبوغه منَحَته جامعة بيزا كرسيَّ الرياضيات وهو لا يزال في العشرين من عمره. نهضَت به الأيام حتىٰ بلغ رُتبة أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة باريس، ثم عُضوًا في معهد فرنسا. كانت علَّة هذا الرجل «عشقه للكتب». في السادسِ من مايو ١٨٤٦ التقىٰ به في باريس السير فريدريك مادن مدير قسم المخطوطات في المتحف البريطاني، فقال بعد ذلك اللقاء واصفًا هذا السارق الكبير: «يوحي مظهره الخارجي كأنه لم يرَ في حياتِهِ الصابونَ أو الماء أو الفرشاة. لم يكن عرضُ الغرفة التي أدخلَنا إليها يتعدَّىٰ نحو خمسة أمتار، ومع هذا فإن الرفوف المثقَلة بالكتبِ المكدَّسة كانت تُحيط بنا من كل جانب».

عِشق الدوق ليبري قاده إلىٰ استغلالِ مناصبه وتصاريحه الرسمية؛ لسرقة نوادر الكُتب والمخطوطات. كان لا يترك مكتبةً في فرنسا إلا وزارَها بعباءتِهِ الفضفاضة مستغلًّا معارفَه الخاصة لنهبِ نفائسها من الرفوف. «في كاربتراس وديجون وغرنوبل وليون ومونبلييه وأورليان وبواتييه وتور لم يسرق كتبًا بكاملِها وحَسْب، بل كان يسرق صفحاتٍ مُفرَدةً أيضًا، ويقوم بعرضِها أو بيعها أحيانًا».

ولكن لم تَدُم له هناءةُ البال طويلًا؛ ففي ١٨٤٦ تعالت ضدَّه أصواتُ الاتهام، ولا تزال الشكوك تدور حوله بعد أن بدأ يبيع بعض الكتب النادرة التي طالما خاطرَ لنهبها. وبعد ثورة ١٨٤٨ وإعلانِ الجمهورية الثانية، حُذِّر ليبري ففرَّ مع زوجته إلىٰ إنكلترا مصطحبًا ثمانيةَ عشر صُندوقًا من الكتبِ تُقدَّر قيمتها بنحو ٢٥,٠٠٠ فرنك.

حاول مجموعةٌ من السياسيين والكُتَّاب والفنَّانين الدِّفاعَ عن الدوق ليبري، ولكن دون جدوىٰ، فكان أن حُكِمَ عليه غيابيًّا بالسجنِ عشر سنوات.

انتهَت بعد ذلك حكايةُ أكبر سارقٍ للكتب علىٰ مرِّ العصور والأزمان، وطوَتْ

الأيام صفحتَه في الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر ١٨٦٩ فقيرًا معدم الحال[1].

وقرأتُ عن سارقٍ للكتبِ آخرَ يُشابه ليبري، ولكنَّه كان عنيفًا دمَويًّا في سبيل الكتب! وهو الراهب دون فينسنت، الذي عاشَ في القرن التاسع عشر في إسبانيا. قام هذا الراهب بسرقةِ كتبٍ من ديره السيسترسي في شمال إسبانيا، وكذلك فعَل من أديرة كثيرة غيره. اختفىٰ مدةً من الزمنِ ثم ظهر فجأةً كصاحب أهمِّ متجرٍ للكتب النادرة في برشلونة. كان يشتري الكتب أكثرَ مما يبيع، وشُغف مرةً بمجلَّد محدد Furs e or dinacions fetes par los gloriosos reys de Aragon als regnicols del regne de Valencia (كتاب يضمُّ قراراتٍ ومراسيمَ خاصة بفالينسيا)، والذي قام بطباعة هذا الكتاب هو لامبرتو بالمارت، أولُ عامل طباعة في إسبانيا عام ١٤٨٢. حين عُرِض الكتاب بعد وفاةِ مالكه في مزادٍ علني عام ١٨٣٦، حرَص دون فينسنت علىٰ الحصولِ عليه؛ إذ كان من المعتقد أنه النسخة الوحيدة المتبقية، فعرض ثروته ثمنًا له. إلا أن صاحبَ متجر بجوار متجره يُقال له أوجستينو باتكسوت قدَّم عرضًا أعلىٰ بكثيرٍ من عرضه، فكان الكتاب من نصيبه. فقدَ دون فينسنت صوابَه، وجال في الشارعِ متمتِمًا بالتهديد والوعيد. وما هي إلا ليالٍ ثلاثٌ وكانت النيران تشتعل في منزل باتكسوت، فالتهمَت كل شيء، ووُجِدت جثتُه متفحمةً في اليوم التالي.

بعد ذلك، عُثِر علىٰ تسع جثث لرجالٍ مثقَّفين قد طُعِنوا جميعًا حتىٰ الموت! كان دون فينسنت من المشتبَه بهم بعد قضية المزاد، وبعد تفتيش منزلِه عثَروا علىٰ نسخةِ Furs e ordinacions مخبَّأةً علىٰ رفٍّ عُلوي جنبًا إلىٰ جنب مع الكتب التي تخصُّ الضحايا الآخَرين. هذا الرجل المجنون لم يعترف بخنقِ باتكسوت أو بطعنِ الآخرين،

(١) عاشق الكتب، ص٢٦٨-٢٧١. وإذا أردت أن تتعرَّف علىٰ أكبر سارق للكتب في وقتنا المعاصر فابحث عن ستيفن بلومبيرغ؛ ذلك المهووس الذي اعتُقل عام ١٩٩٠ بعد سرقته لأكثرَ من ٢٦ ألف كتاب!.

حتىٰ أكَّد له القاضي بأن مكتبته ستلقىٰ رعايةً خاصة وعناية جيِّدة. دون فينسنت لم يكن يسرقُ أموال ضحاياه، فلما سأله القاضي عن السبب، أجاب: «أنا لستُ لِصًّا!». وعندما سأله عن سلبِ الأبرياء حياتَهم، قال: «لا بدَّ أن يموت كلُّ إنسان، عاجلًا أم آجلًا، لكن الكتب الجيِّدة يجب الحفاظ عليها». وختام قصة هذا المجنون العاشق، لمَّا دافع محاميه عنه بضراوة، ووسَمه بالجنون، وأفاد بالدليل القاطع أنه اكتشف للتوِّ وجودَ نسخة أخرىٰ من الكتاب في باريس، ونتيجةً لذلك لا يمكن إثباتُ أن النسخة الموجودة في منزل دون فينسنت هي نسخة باتكسوت ذاتُها. لم يفرح بهذه الحُجَّة التي قدَّمها محاميه، بل صرخ بيأسٍ وحزن تام: «يا للأسف، يا للأسف، نسختي ليست فريدةً من نوعها!». وسُمِعَ يُكرر هذه العبارة حتىٰ أُعدِم في برشلونة عام ١٨٣٦.

قصته ألهمَت الروائي الفرنسي الكبير فلوبير فكتبَ قصةً تُعتبر من قصصهِ الأولىٰ عام ١٨٣٦م، حيث كتبَها قبل وقتٍ قصير من عيد ميلادهِ الخامس عشر، وكانت بعنوان (ببلومانيا) أو (هوس الكتب)[1].

* * *

قد يقول قائل: إن الأدباء والقرَّاء أرفعُ من هذا، ولن تجد فيهم مَن وقع بهذا الفعل البغيض. وهذهِ نظرةٌ مثالية إلىٰ أربابِ المعرفةِ مجَّتْها أسماعنا. تجد من يُنزِّه فلان عن الحماقات بحجة أنه مُتعلِّم! وآخرَ عن الوقوعِ في الرذائل لأنه قارئٌ وعاشق للكتب!

يا لهذا المنطق المهلهل المُمل! ويا لها من أقوالٍ وحججٍ بالية جالبة للنوم! ولا تظنَّ أنني أُبالغ؛ فهذا واقع الحال وإن خَرِس لسان المقال؛ القرَّاء دائمًا في مكانةٍ مرتفعة في المجتمع، لماذا؟ إنهم قرَّاء، انتهىٰ. لا تُخدع، فكم دودةِ كُتبٍ بل

(١) عاشق الكتب، ص٢٠١-٢٠٢.

قارِضِ أوراقٍ لا يتردد في ارتكابِ القبائح، والسباحةِ في مستنقعاتِ السَّفال! وعاميٍّ لا يملك من المعرفةِ ما يُمكِّنه من كتابةِ اسمه؛ يأنفُ من أن يزلَّ لسانُه بكذبةٍ أو قدمُه بهفوة! إياك أن تغترَّ بالمظاهر؛ فإنَّ السُّمو الأخلاقي لم يكن يومًا قائمًا علىٰ الحصيلةِ المعرفية، لا تنسَ هذا.

والآن، هل حقًّا أن القرَّاء لا يسرقون الكُتب؟ بعد أن تكلَّم الطنطاوي رحمه الله عن بعض أخلاقِ مُستعيري الكتب قال: «وشرٌّ من هؤلاء جميعًا الثقيلُ الذي يتظرَّف ويتخفَّف، فيرىٰ أن مِن الظرف سرقةَ الكتب، فإذا زارك وتركتَه في المكتبةِ وخرجتَ لتأتيَه بالقهوة أو الشاي، أخذ كتابًا فدسَّه تحت إبْطِه، أو وضَعه في جيبِهِ ثم ذهب به وأنت لا تدري»[١].

وأظنُّك أيها القارئ النابِه تُدرك أنَّ هذا الذي كَتَبه الطنطاوي يدلُّ علىٰ أن صدورَ فِعل [سرقة الكتب] من بعض الأدباء والقرَّاء واقعٌ مُشاهَد، وليس الأمر طرائفَ خياليةً تُروىٰ لإنعاش ليالي السَّمَر.

ولا بأس من الوقوف عند بعض الاعترافات، ولنبدأْ بالمازني غفر الله له، الذي يقول: «خمسةٌ وعشرون عامًا تقضَّتْ وأنا أقرأ، لم يَفُتني كتابٌ أستطيع أن أمدَّ إليه يدًا، وأن أضعه تحت إبْطي وأمضي به شاريًا أو مستعيرًا أو ... سارقًا! نعم؛ فقد سرَقتُ مرَّة كتابًا، وكنتُ يومئذ شابًّا في العشرين من عمري أنهزُ مع الغُواة كما يقول النُّواسي: وأسومُ سَرْحَ اللهوِ حيثُ أساموا»[٢].

ويقول: «تذكَّرتُ كيف كنتُ أُنفق نصف دخلي علىٰ اقتناءِ الكتب، وكان موظَّفو مكتبة ديمر يعرفونني ويأتمنونني لكثرةِ ما أشتري منهم، وهو في كلِّ شهرٍ فوق الكفاية لشهور، ومع ذلك غافلتُهم وسرقتُ طبعة جيب لروايات شكسبير، وإن كانت عندي مجموعةٌ كاملةٌ منها بشروحها وتفاسيرها، ولا خوفَ من

(١) في سبيل الإصلاح، ص١٤٤.
(٢) العمر الذاهب، ص١٢٢.

الاعترافِ بهذه الجريمة، فقد سقطَت بمُضيِّ المدة، ثم إنها جريمةُ طالبِ معرفة، لا جريمة طامعٍ في مال!»[1].

فهل حقًّا أن الجريمة تسقط بمُضي المدَّة، وأنه قد يُغفَر للمجرمِ جريمتُه إذا كانت في سبيل العلمِ والمعرفة، أم أنَّهما -طالب المعرفةِ والمال- إذا تشابهَت جريمتُهما -وإن اختلفَت غايتهما- تساوَت عقوبتهما؟ لا أعلم، أترك هذا للمتخصِّصين.

وقبل أن نترك المازنيَّ لا بأس من ذكرِ خبرِه مع ذلك اللص الذي اقتحمَ بيته فلم يجد فيه ما يُسرَق! كان المازني يعيش مع ابنه الصغير في منزلٍ فسيح الأرجاء، وانتشرَت في ذلك الوقت إشاعةٌ أن المازني يملك ثروةً طائلة، وظلَّت الأفواه تتناقل هذه الإشاعة، إلىٰ أن جاءت تلك الليلة التي شعر فيها المازني بحركةٍ غريبة وصوتِ جسمٍ وقَع في الفِناءِ الخلفي من منزله، ثم حركةٍ كحركةِ مَن يُعالج فتح باب! يقول المازني بعد أن نهضَ ومضىٰ إلىٰ الباب الذي يُحاول اللِّصُّ فتحه: «وفتحتُ له الباب وقلتُ له: تفضل! وحملتُ ما بدا لي من تردُّده واضطرابه علىٰ مَحمل الخجَل، فألحَحتُ عليه، فدخَل، فمضيتُ به إلىٰ المكتبةِ وناولتُه سيجارة، وقمتُ لأصنع له قهوة، فاستغرب من سلوكي معه، وأعجبَه علىٰ ما يظهر، فأقرَّ لي بالحقيقةِ وسألني الصَّفح. فضحكتُ، وقلتُ له: والله إني لَجديرٌ بأن أخجلَ منك؛ فإنَّ البيت فارغ! ودُرتُ به علىٰ الغُرف ليرىٰ بعينيه مبلغَ فراغها، فزاد خجلُه، وطال اعتذاره، وعَظُمَ أسفُه، فخطرَ لي أنَّ من نقصِ المروءةِ أن أردَّه خائبًا صِفر اليدين، ولم أجد غير الكتب، فتناولتُ طائفةً منها وقلت له: خُذ هذه وبِعها...»[2].

---

(١) العمر الذاهب، ص١٧٠.

(٢) العمر الذاهب ص٨٢-٨٣. وراجع مقال: الرجل الذي يعشق الفوضىٰ، العدد ٦، الرِّسالة الجديدة، سبتمبر ١٩٥٤.

ومانغويل الذي أخبرنا بأنَّ «الإلحاح للحصول علىٰ كتاب وتملّكِه هو نوعٌ من الشهوةِ التي لا يمكن مقارنتها بأي شهوةٍ أخرىٰ»(١)، يعترف بسرقتِهِ أحدَ الكُتب عندما كان يعمل في مكتبة بجماليون؛ يقول: «كنتُ أريد أن أعيش وسَط الكتب. عندما بلغتُ في عام ١٩٦٤ السادسةَ عشرة من عمري عثَرتُ علىٰ عملٍ أقوم به بعد انتهاء الدوام المدرسي، في دار بجماليون، إحدىٰ المكتبات الإنكليزية - الألمانية الثلاث الموجودة في بيونس آيرس. كانت صاحبةُ المكتبة ليلىٰ لباخ يهوديةً ألمانية فرَّت من النازيِّين، حيث حطَّت رِحالها في نهايةِ الثلاثينيَّات في بوينس آيرس. كانت السيدة ليلىٰ تُكلِّفُني أن أقوم كلَّ يوم بنفضِ الغبار من علىٰ كل كتاب من الكتبِ الموجودة في المكتبة؛ لأنها كانت تنطلق (عن حقٍّ) من أنني بهذه الطريقة سأستطيع الإلمامَ بسرعةٍ بعددِ الكتب وبمواصفاتها في المكتبة. بيْدَ أنني كنتُ أتوق إلىٰ معرفةِ المزيد عن الكتبِ وعدم الاقتصار علىٰ تنظيفِها من الغبار؛ كنتُ أريد سحبها من علىٰ الرفوف وفتحها وتصفُّحَها؛ حتىٰ هذا لم يكن كافيًا بالنسبةِ إليَّ. في إحدىٰ المرَّات لَمْ أستطع مُقاومة الإغراء فأقدمتُ علىٰ سرقةِ أحد الكُتب وخبأتُه في جيبِ معطفي وأخذتُه معي إلىٰ الدَّار. يجب عليَّ أن أتملكه، يجب أن يكون مِلكي».

ثم ذكر بعد ذلك اعترافَ الروائية الأمريكية ذاتِ الأصل الإفريقي جامايكا كينكيد التي كانت تسرق الكتبَ من مكتبةِ طفولتها في آنتيغوا قائلةً إن غايتها لم تكن السرقةَ، فكان تبريرها: «أنها ما إنْ تنتهي من قراءة أحد الكُتب حتىٰ تجد نفسَها لا تستطيع الانفصال عنه!»(٢).

---

(١) تاريخ القراءة، ص٢٧٢. وتقول بارتليت في (عاشق الكتب)، ص١٠٨ عن سارق الكتب الكبير جيلكي: «كان شعوره بالرضا يزول سريعًا؛ إذ كلما حصَل علىٰ الكتب تُراوده الرغبة بجمع المزيد. يشبه جيلكي من هذه الناحية أيَّ جامع كتب آخر، فالملاحَظ عن مُقتني الكتب أن عطشهم لا يرتوي، فامتلاك كتاب جديد لا يُخمِد التَّوقَ نحو الاستحواذِ علىٰ آخَر».

(٢) تاريخ القراءة، ٢٧-٢٨.

بل إن مانغويل حتىٰ بعد أن كبرت سنُّه لا يزال يُصارع شهوة نهب الكتب، ويعترف قائلًا: «أؤمن أن السرقة مُدانة، ومع ذلك كان عليَّ في مراتٍ لا تُحصىٰ أن أستنفر كلَّ وازعٍ أخلاقي موجودٍ لكيلا أدسَّ في جيبي كتابًا رغبتُ فيه!»[1].

ومن طريفِ الاعترافات في هذا الباب ما ذكرهُ جبرا إبراهيم في (مُعايَشة النمرة)، يقول: «وقد وصَف لي شاعرٌ، يوم تعرَّفتُ به لأول مرة في القاهرة، تعلُّقَه قبل سنوات بكتابي (الرحلة الثامنة)، الذي وجده في مكتبةٍ عامة. لم يستطع أن يصرفَ ذِهنه عن هذا الكتاب المطبوع في بيروت، والذي كان، لسببٍ ما، ضمنَ مجموعةِ المؤلفات والمراجع التي تُحظر إعارتها، فتُقرأ فقط في قاعةِ المطالعة. وانتهىٰ به الأمر، بعد أن تردَّد علىٰ المكتبةِ عدةَ مرات، لقراءة (الرحلة الثامنة)، أنْ دسَّه تحت قميصه في غفلةٍ عن أمين المكتبة، وخرَج به وقلبُه يدق دقًّا عنيفًا يكاد يفضحه. وقال إنه ما زال يحتفظ بالنسخةِ المسروقة، ويعتزُّ بها. ولم يجد في مكتباتِ القاهرة نسخةً من الكتابِ يُعوِّض بها مجموعةَ المكتبة العامة. ووعدتُه بأن أرسل إليه نسخةَ بغداد، عسىٰ أن يتسلَّلَ بها إلىٰ رفوفِ هذه المكتبة، وتُساعده علىٰ وفاءِ دَينٍ مستحَق!».

يُكمل جبرا ساردًا لقاءَه بالشاب الذي سرقَ كُتبه كلَّها قبل أن يُصبح كاتبًا مشهورًا! «ومن أطرفِ ما وقع لي في هذا السياق أنني، إذ كنتُ أمشي في الأسواقِ القديمة من مدينةٍ عربية أزورها لأول مرة، في أواسطِ السبعينيَّات، جاءني شابٌّ وبادرَني بالتحيةِ والحديث، قائلًا إنه عرَفني من صوري المنشورة في المجلات، والأكثرُ من ذلك هو أنه يعرفني مِن كُتبي، قائلًا إنه يقتني العديدَ منها. مما سرَّني بالطبع. وقد رافقني بعض المسافة ليُعينني في بعض مُشترياتي، ووجدته ذكيَّ الكلام

---

(١) ذاكرة القراءة، ص٢٩.

وسريع النكتة. وبغتةً، حين احتججتُ علىٰ أحد الباعة مازحًا بأنَّ بضاعته غالية، قال لي صديقي الجديد: (وأنت أيضًا يا أستاذ، كتبُك غالية). فأكَّدت له أنَّ السعر يُقرِّره الناشر وليس المؤلف، اعتمادًا علىٰ كُلفةِ الطبع. وأضفتُ: (المهم أنك اشتريتها). فضحك وقال: (لا، أنا طالبٌ مُعدِم، فمن أين لي أن أشتريَ كتبك؟ لقد سرقتُها كلها، واحدًا واحدًا!).

ثم قال: (والمشكلة هي أن بعض كتبك كبيرُ الحجم، ويصعب دسُّه في داخلِ نطاق البنطلون.. مثلًا، كتابك (ما قبل الفلسفة)، لم أُفلح حتىٰ اليوم في اقتنائه؛ لأنني لم أُفلح في إخفائهِ داخل نطاقي، وأموت خوفًا من الفضيحةِ إن أنا حاولتُ واكتُشِف أمري... ولكنني لم أقطع الأملَ بعد).

ضحكتُ، ووعدتُه بنسخةٍ من الكتاب، ولا أذكر إن كنتُ فعلًا أرسلتُها إليه. إنما المهم، أنه اليوم من الكتابِ المبرَّزين فكرًا وأسلوبًا، وهو الآن يُضيف كتبًا من تأليفهِ أو ترجمتِه إلىٰ المكتبات، ولعلَّ كتبه تُغري الطلاب المعدمين بسرقتها، حلالًا أو حرامًا، سواءً بسواء»[1].

وأما الأجرأ علىٰ الإطلاق فقد كان الكاتبَ الشيلي روبرتو بولانيو الذي كتب مرةً بأن أكثر الكتب التي يتذكرها هي تلك التي سرَقها في مكسيكو سيتي. وكان يقول بأنَّ إغراء المحاولة بالسرقة كان يتغلَّب دائمًا علىٰ حذَرِه؛ لذلك كان يسرق الكتب من المكتبة الزجاجية الواقعة في ألاميدا، والتي كانت سرقة الكتب منها تُعد من المستحيلات. أخباره طويلةٌ مع سرقةِ الكتب، ولكن من أهمِّ ما ذكر خبر الرواية التي سرَقها فكانت مُنقِذةً له من الجحيم، وكان مؤلفها سببًا في تغيُّرِ كل شيء في حياته.

(١) معايشة النمرة وأوراق أخرىٰ، ص٥٢-٥٣.

يُحدثنا بولانيو قائلًا: «من تلك الحقبة الضبابية، ومن تلك السرقات السرِّية، أتذكر عددًا من كتب الشعر. لكنَّ روايةً أنقذَتني من الجحيم، وهبَطَت بي للأسفل مرةً ثانية. كانت تلك الرواية هي (الخريف) لألبير كامو، وأذكر كلَّ ما يتعلق بها كأنه تجمَّد في نورٍ شبَحي، نور المساء الساكن، رغم أنني قرأتُها، أو التهمْتها، في ضوءِ صباح مكسيكو سيتي الاستثنائي، الذي يسطع -أو سطع- بأشعَّةٍ حُمْر وخُضر، محاطًا بالضجيج، جالسًا علىٰ مقعدٍ في ألاميدا بلا مال، وكل النهار أمامي، وبالأحرىٰ كل حياتي أمامي. لقد تغيَّر كل شيء بعد كامو. أذكر النسخة: لقد كانت كتابًا بأحرفٍ كبيرة ككتابِ قراءةٍ للمدرسة الابتدائية، ضعيفًا وذا غلافٍ قماشي برسوم مخيفة، كان كتابًا يصعب سرقته، ولم أعرف أين أُخبئه؛ تحت ذراعي أم تحت حزامي؛ لأنه كان يظهر من سترتي المدرسية الواسعة، ثم حمَلتُه في النهايةِ تحت أنظار كلِّ موظفي المكتبة الزجاجية، وكانت تلك إحدىٰ أفضل طرق السرقة، تعلَّمتُها من قصةٍ لإدغار ألان بو. بعد ذلك، بعد أن سرقتُ الكتاب وقرأته، تحوَّلتُ من قارئٍ حذر إلىٰ قارئ نَهِم، ومن لصِّ كتب إلىٰ مختطفٍ لها. أردت قراءة كلِّ شيء، كان في أيام براءتي مثل الرغبة في الكشفِ أو محاولة الكشف عن الحفريَّاتِ الخفية التي حمَلَت شخصية كامو علىٰ القبول بمصيره الفظيع».

وكما هو متوقَّع، فقد انتهت هذه المسيرة الطويلة باختطافِ الكتب ونهبها من المكتبات بأن قُبِض عليه بالجُرم المشهود في مكتبةِ القبو التي كانت تتكوَّم فيها أحدثُ كتب بيونس آيرس وبرشلونة، وكما يقول «كان القبض عليَّ مُهينًا». بعد ذلك صودِرَ كلُّ ما بحوزته من الكتب، وكان من بينها الكتابُ الذي أثَّر فيه كثيرًا، وهو (الخريف) لكامو، والطريف أن كُتبه المصادَرة لم يَسرق أيًّا منها من مكتبة القبو[1]!

---

(١) مقال (من يجرؤ) لبولانيو - جريدة الجزيرة - ترجمة الأستاذة القديرة صاحبة الترجمات الرفيعة بثينة الإبراهيم.

ومما وقفتُ عليه، أن الكاتب الأمريكي هنري ميلر عندما أراد السموَّ المعرفي وتحسينَ مستواه الثقافي خطَّط لسرقةِ الكتب من المكتبات العامة، فكان مِن أهمِّ مسروقاته الثمينة (سفرٌ إلىٰ آخِر الليل) للفرنسي فرديناند سيلين[1].

عندما كان خورخي كاريون في كيب تاون زار مكتبة (بوك لاونج)، فتعجَّب من خلوِّ بعض الرفوف من الكتب، مع بطاقةٍ صغيرة مُلصَقة عند الرفِّ الفارغ تقول: «اطلب كتبَ هذا المؤلف عند طاولة الدفع!» فما قصة الأرفف الفارغة؟ يُخبرنا: «(بوك لاونج) مكانٌ لطيف، تتوزَّع فيه المناضد الخشبية والأرائك المريحة، والطابق تحت الأرضي فيها مفروشٌ بقِطَع السجاد التي تجعلك ترغبُ في الانتقال والعيش هناك! يتميَّز المكانُ بطابَعٍ كلاسيكي، وهو ما يمنحه أجواء حميميةً مألوفة. أتفحَّص الكتب المعروضة، فتَلفِتُ نظري المساحاتُ الفارغة في بعض الأرفف. مؤلفات (باولو كويلو) -الروايات وكتب التنمية الذاتيَّة علىٰ حدٍّ سواء- غيرُ موجودة، وهناك بطاقةٌ صغيرة علىٰ أحد الرفوف تؤكِّد ذلك. يتكرَّر الأمر ذاتُه في الأماكن المخصصة لكتب (جابرييل جارسيا ماركيز) و (كويتزي)؛ بطاقات صغيرة كُتب عليها: (اطلب كتب هذا المؤلف عند طاولة الدفع). تُرىٰ ما الذي يجمع بين هؤلاء الثلاثة؟ حين اقتربتُ من طاولة الدفع، كانت البائعة تُثرثِرُ مع صديقةٍ لها، فمنعَني الخجلُ من الاقتراب منهما ومقاطعةِ حوارهما. تشاغَلتُ بالتقاطِ صورٍ للمكتبة وبتصفُّحِ بعض الكتب. حين تمكَّنتُ من التحدث إليها، طالبتُها بتفسير. منَحتني إياه علىٰ الفور: (هؤلاء الثلاثة هم الوحيدون الذين يسرق الناسُ كتبَهم). أشارت إلىٰ مجموعةٍ من الكتب وراء طاولتها، وأضافت: (ولذلك نُبقيها هنا)[2].

* * *

---

(١) كتب ملعونة، ص١١٢.

(٢) زيارة لمكتبات العالم، ص٢٤٢-٢٤٣.

وبعد، لا أشك أن القرَّاء يجدون في أنفسهم مَيلًا لا إراديًّا وتعاطفًا مع سارق الكُتب المثقَّف، الذي لولا الحاجةُ وحُبُّ المعرفة لم يُقْدِم علىٰ هذا الفعل، ولكن هل نُبل الغاية يُبرِّر قُبح الوسيلة؟ أرىٰ ماكيافيللي يُطِلُّ علينا من بعيد مُجيبًا؛ نعم، نعم!

عن الكاتب الاجتماعي تالمان دي ريو وهو من كُتَّاب القرن السابع عشر أنَّ سرقة الكُتب لم تكن جريمةً يُعاقِبُ عليها القانونُ إذا لم يَقُم السارق ببيع الكتب[1].

وفي يومياتِهِ يكتب شون بيئل: «يبدو أنَّ هناك شيئًا ما حول سرقة الكتب يجعلها أخلاقيًّا أقلَّ عُرضة للملامةِ من، لنَقُل، سرقةِ ساعة يد. ربما لأنَّ الكتب بشكلٍ عام تُعد حضًّا علىٰ الفضيلة، واكتسابُ المعرفة التي تنطوي عليها لها قيمةٌ اجتماعية وشخصية أعظمُ من تأثير الجريمة. أو، علىٰ الأقل، هي إن لم تُضاهِ أهميةَ الجريمةَ فهي بالتأكيد تُهوِّن منها. إرفن وَلش استكشف هذه الفكرة في Trainspotting[2]، حين قُبض علىٰ رنتون وسباد يسرقان من مكتبةٍ واترستونز. في المحكمة يعترف سباد أنه سرق كُتبًا ليبيعها، بينما ادَّعىٰ رِنتون أنه أَخَذ كتابًا لكيركيغارد الذي ضُبِط بسرقته لأنه أراد قراءتَه. عندما يتحدَّاه القاضي الشكَّاك بمعرفته بالفيلسوف الوجودي، يُجيب رِنتون: (أنا مهتمٌّ بأفكاره عن الذاتيةِ والحقيقة، وبوجهٍ خاص فكرته التي تخصُّ الاختيارَ الشخصي، فكرة أن الاختيار الشخصي الخالص مؤلَّفٌ من الشكِّ وعدم اليقين ودون الرجوع إلىٰ تَجاربِ الآَخرين. يمكنك أن تُجادل، مع بعض الحق، أن هذا هو في المقام الأول فلسفةٌ وجودية بورجوازية؛ لذلك هي تسعىٰ

(١) تاريخ القراءة، ص٢٦٩.

(٢) ترَينسبوتنغ (هذه الكلمة تعني: نشاطًا يقوم به عادةً هُواةُ القطارات بمراقبة القطارات وتدوينِ الأرقام التي تحملها كلُّ ماكينة قطار)، روايةٌ للروائي الاسكتلندي إرفن ولش (١٩٥٨-..) عن الحياة اليومية لشابٍّ عاطلٍ عن العمل، مارك رنتون، من جيل التسعينيات، قام بنقلها إلىٰ السينما المخرج البريطاني داني بويل عام ١٩٩٦، مثل دور الشاب إيوان ماكغريغور - [هامش المترجم].

إلىٰ إضعافِ الحِكمة الاجتماعية الجَمْعية. مع ذلك، هي أيضًا فلسفةٌ تحرُّرية؛ لأنك حين تُنكر وجود حكمةٍ اجتماعيةٍ كهذه، تُقوِّض أساسَ سيطرة المجتمع علىٰ الأفراد و... لكنِّي أبالغ قليلًا هنا. يجب أن أكفَّ عن الكلامِ. هم يكرهون المتذاكين. من السهلِ أن تُقنع نفسك بغرامةٍ أكبر، أو، اللعنة، بحكمٍ أثقل. تريَّث، يا رِنتون، تريَّث!).

برَّأ القاضي رِنتون، لكنه أدانَ سباد[1].

* * *

شون بيثل يرىٰ أن سرقة الكُتب أخلاقيًّا أقلُّ عُرضة للملامةِ من أي سرقةٍ أخرىٰ، وكامل الشناوي في ٢٣/ ٢/ ١٩٥٤م يتساءل عمَّا إذا كان هناك عقابٌ من المجتمعِ لسارق الكُتب؛ لأنَّ عقوبات المجتمع أشدُّ ردعًا للمجرمين من عقوبات القانون. يقول صاحبُ الوزن الثقيل والروح المرِحة الخفيفة: «فوجئتُ اليوم باختفاءِ بعض الكتب من مكتبتي الصغيرة في (الأخبار) وكان بينها مسرحياتُ شوقي، والأجزاء الأربعة من (الشوقيَّات)، ودواوين الشريف الرَّضي والبُحْتري ومهيار. واختفاء الكتب أو ضياعها من مكتبتي ليس حدَثًا جديدًا بالنسبة لي. فقد حدث منذ عشر سنوات أنْ أخذ إخوتي الصغارُ كتبي من البيت وأعطَوْها للبقَّال فحوَّلَها لهم إلىٰ شكولاتة وسجاير!

ويظهر أن بعض أصدقائي يُعاملونني كما لو كنتُ أخًا كبيرًا لهم. ويظهر أنهم يُحوِّلون هذه الدواوين إلىٰ شكولاتة وسجاير كما سبق أن فعل إخوتي الصغار.

ولا أستطيع أن أفترض أنهم أخَذوها ليقرؤوها، فليس بينهم من يُطيق سَماع الشعر حتىٰ لو أنشدَته أمُّ كلثوم أو عبد الوهَّاب، فضلًا عن قراءته في ديوان. وكم من مرةٍ اضطرَّتني ظروفُ العمل إلىٰ التخلُّصِ من الزوَّار، كي أتفرَّغ مع زملائي لأعمال الجريدة، فلا أفعل أكثرَ من الأخذ في تلاوةِ بيتٍ أو بيتين من الشِّعر، وعندئذٍ يأخذ

---

(١) يوميات بائع كتب، ص٦٢.

الزوارُ في الانصراف. وكان أحد أقربائي يزورني في مكتبي وكنا نتحدَّث في بعض الأمور العائلية ودخل بعضُ الزوَّار وقطعوا حديثنا، وأردتُ أن أصرِفَهم، فأنشدتُ بعض الأشعار وإذا هم ينصرفون، وإذا قريبي أيضًا ينصرف معهم!

إلىٰ هذا الحدِّ يضيق أصدقائي وأقربائي بالشعر ويكرهون الشعراء! فما الذي أغراهم بدواوين شوقي والشريف الرَّضي والبُحتري ومهيار، وجعَلهم يأخذونها خِلسة؟ هل أحبوا الشِّعر بغتةً ومن غير سابقِ إنذار؟ إن كان ذلك فأنا أفرح لهم. ولكنْ ما هي عقوبةُ القانون لمن يسرق كتابًا؟ لا، بل ما هي عقوبة المجتمع؟ فإن عقاب المجتمع أردعُ من عقاب القوانين»[1].

* * *

فاصلٌ إعلاني، ها هُنا توصية قِرائية! أنصحك أيها الكريم بقراءةِ تلك الرواية التي جاءت علىٰ لسان الموت الذي لم يتلطَّفْ معنا، وصرَخ في أولها بالحقيقة الصغيرة: «سوف تموتون». كان هذا الراوي الثقيلُ دقيقًا في الوصفِ، حريصًا علىٰ أن تصل إليك المشاهدُ شديدةَ الوضوح، واقرَأْ وصفهُ الآتيَ للشوارع بعد دَويِّ الانفجارات: «بَدَت الشوارع كأوردةٍ مُتفجِّرة، وغطَّىٰ تدفُّقُ الدم وجهَ الطُّرقات إلىٰ أن جف، أما الجثث فقد تناثرَت والتصقَت هنا وهناك، مثل قِطع الخشب المرمية بفعلِ مرور فيضان!». اقرأ رواية ماركوس زوساك (سارقة الكُتب)، وعِش مع ليزيل ميمنجر أيامها البائسة ولحظاتها السعيدة، وتخيَّل كيف كان حالها إبَّان قصف ميونخ ووصف الراوي: «مضىٰ الليل طويلًا مع أصوات القنابل والقراءة». وتصوَّرْ ذلك المشهدَ العجيب عندما سحب المنقِذون ليزيل من تحت الأنقاض، «ما لم يُلاحظوه هو أن الفتاة ما تزال تحمل كتابًا بين يدَيها... استمرَّت في حملِ الكتاب، كما لو أنها تتشبَّث يائسةً بالكلمات التي أنقذَت حياتها». وقِفْ طويلًا عند آخِر الكتاب يوم

(١) يوميات كامل الشناوي، ص٨٨-٨٩.

عانقَت ليزيل جثةَ والدها هانز هوبرمان باكيةً مودِّعة: «وداعًا يا بابا، لقد أنقذتني.. لقد علَّمتَني كيف أقرأ...». كان أول كتاب تسرقه ليزيل هو (دليل حفَّار القبور)، سرَقَته قبل أن تذهب لتسكن في شارع اسمه هيمل؛ أي الجنة! لا بد أن تتنبَّه إلىٰ هذه الإشارة.

ولن أحاول إفساد الرواية عليك؛ لأن راويها (الموت) تكفَّل بذلك.

* * *

وبعد كل هذا، واجبٌ عليَّ أن أخبرَك بأنَّ «الإمام أحمد بن حنبل سُئل عمَّن سرق كتابًا في علمٍ لينظرَ فيه، فقال: كُلُّ ما بلغَت قيمتُه ثلاثةَ دراهم فيه قَطْع. وهذا قولُ مالك، والشافعي، وأبي ثور، وابنِ المُنذر؛ لعموم الآية في كُلِّ سارق...»[1]، وقد ذهبَ المالكية والشافعية والحنابلة وأبو يوسف من الحنفية إلىٰ إقامةِ الحدِّ علىٰ مَن سرق كُتبًا نافعة، كالتفسيرِ والحديث والفِقه وغيرها من العلوم النافعة إذا بلغَت قيمة المسروق نِصابًا.

ولكن من الواجب عليَّ أيضًا أن أُخبرك بأن الحنفية لا يرَون أن يُقام الحدُّ علىٰ من يسرق كُتبًا في أيِّ باب من أبوابِ العلوم النافعة؛ لأنَّ آخِذَها يتأوَّل في أخذه القراءةَ والتعلُّم[2].

وأنا هنا لا أملك ما أُقدِّمه للُّصوص المثقفين غيرَ القول بأنَّ الفاروق عمر رضي الله عطَّل حدَّ السرقة عامَ الرَّمادة، وللحاكمِ أن يعفوَ عن الحدودِ سَنة المجاعة، وكما قال الإمام أحمد: لا قطعَ في المجاعة، يعني أن المحتاج إذا سرقَ ما يأكلُه فلا قطع عليه؛ لأنه كالمضطرِّ...[3]، ونحن اليوم نعيش في زمنِ فقرٍ معرفيٍّ ومجاعةٍ

(١) المغني لابن قُدامة، ج١٢، ص٤٢٥.

(٢) الموسوعة الفقهية، ج٣٤، ص١٩٣.

(٣) للاستفادة راجع: السيرة العُمَرية للعازمي، ص٣٨٨.

عِلميَّة قاتلة، فعندما يسرق المثقَّف الفقير الذي لا يملك دينارًا يبتاع به كتابًا يُنقذه بعد الله من مفازةِ الجهلِ المهلِكة، فإنَّ الاضطرار والحاجة قادته إلىٰ هذا الفِعل. فما رأيُ أهل الشأن؛ ألا يمكن أن يُوقِف الحاكم الحدود بسبب مجاعة العقول كما يُمكنه فعلُ ذلك بسبب مجاعة البطون؟ هذا ما أمكَنني أن أُقدِّمه لإخواني في الله من اللصوصِ المثقَّفين!

* * *

وأُحبُّ أن أختم المقال بمشهدٍ من رواية (الفقراء) لدوستويفسكي، والمشهد لفرفارا ألكسييفنا عندما حاولَت أن تسرق كتابًا من غرفةِ بوكروفسكي، وقد روَتْ هذا في دفترها القديم الذي نبَشَته من دروجِ خَزائنها وقامت بإرسالهِ إلىٰ ماكار دييفوشكين؛ ليتعرَّف علىٰ ماضيها والعهدِ السعيد من حياتها.

«لا أدري كيف كان سينتهي هذا كلُّه لولا أنَّ ظرفًا عجيبًا ساعد في التقريبِ بيننا. ففي ذات مساء، بينما كانت أمي عند آنا فيدوروفنا، دخلتُ غرفة بوكروفسكي علىٰ رؤوسِ الأصابع. كنتُ أعلم أنه خرج، فخطر ببالي، لا أدري حقًّا لماذا، أن أُلقيَ نظرةً علىٰ غرفتِه. لم أكن قد دخَلتُ يومًا قط. رغم أننا جِيرانٌ منذ أكثرَ من عام. أخذ قلبي يخفق هذه المرةَ في صدري خفَقانًا يبلغ من القوةِ أنني أحسستُ أنه سينفجر. ألقيت علىٰ ما حولي نظراتٍ مستطلعةً شرهة. إنَّ أثاث الغرفة فقيرٌ والفوضىٰ تشيع في كل ركن من أركانها؛ هذه أوراق مبعثرة علىٰ المنضدة، وعلىٰ الكراسي، ولا تقع العين في كل موضعٍ إلا علىٰ كتبٍ وقراطيس. راودَتْني فكرةٌ غريبة بينما كان يعتريني في الوقتِ نفسِه شعورٌ مرير بالحسرة والأسف؛ بدا لي أنه لن يستطيعَ أن يرضىٰ بصداقتي وبما يحملُه له قلبي من حُب؛ فهو رجلٌ واسع العِلم كثير الاطلاع جَمُّ الثقافة، أما أنا ففتاةٌ بَلْهاء لا أعرف شيئًا، ولا قرأت كتابًا. ألقيتُ عندئذٍ نظرةَ شوق إلىٰ هذه الرفوف الطويلة التي تحمل الكتب حتىٰ لتكاد تتداعىٰ من

ثِقَلِ ما تحمل. وتوزَّعَتْني مشاعرُ شتىٰ، فأنا في آنٍ واحدٍ نَهْب الحزن وخيبةِ الأمل والشوق إلىٰ أن أعمل شيئًا. وتمنَّيتُ فجأةً أن أقرأ جميع كتبه، أن أقرأ كتبه كلَّها إلىٰ آخرِها، وأن أفعل ذلك بأقصىٰ سرعةٍ ممكنة. وما لبثتُ أنْ عزَمتُ أمري. لعلّنَي تخيَّلتُ في تلك اللحظة أنني إذا علِمتُ كلَّ ما كان يعلم، فسأُصبح أجدرَ بصداقته وأخلقَ بمودَّته. فأسرعتُ إلىٰ أولِ رف، وبدون أن أفكر أو أن أختار، تناولتُ أول كتاب وقَع عليه بصري، وهو كتابٌ قديم أغبر، فحمَلتُه إلىٰ غرفتي وأنا أحمرُّ وأصفرُّ وأرتجفُ انفعالًا وخوفًا، حمَلتُه كما يحمل السارق غنيمتَه، وأنا أنوي أن أقرأه طَوال الليل علىٰ ضوءِ السراج الصغير بعد أن تنام أمي.

ولكن ما كان أشدَّ خيبةَ أملي حين وصلتُ إلىٰ غرفتي ففتحتُ الكتاب مُسرِعةً فلم أجد فيه إلا نَصًّا لاتينيًّا مبسوطًا علىٰ أوراقٍ كادت تتلفُ وكاد العثُّ يقضمُ نصفها. لم أدَعْ للوقتِ أن يضيع سُدًىٰ، فأسرعتُ أعود إلىٰ غرفة بوكروفسكي. فما كدتُ أتهيأ إلىٰ إعادةِ الكتاب إلىٰ موضعه من الرفِّ حتىٰ سمعتُ ضجةً في الدهليز وسمعتُ وقْعَ أقدامٍ تقترب. فأسرعتُ ما أمكنني الإسراعُ أحاول أن أدسَّ الكتاب في مكانه، ولكنَّ الكتاب الخبيث كان قد بلغ من شدةِ ترصُّصِه بالكتبِ الأخرىٰ أن هذه الكتب قد تمدَّدَت تمدُّدَ النابض حين سلَلتُه من بينها؛ فهي الآن تحتل المكان كلَّه غيرَ عابئةٍ بزميلها الغائب، فلم أقْوَ علىٰ دسِّهِ فيها من جديد، ولكنني حاولتُ أن أدفع الكتب بكلِّ ما أُوتيت من قوة، فإذا بالمسمار الصدِئ الذي كان يُمسك الرف والذي لعلَّه كان لا ينتظر إلا مثلَ هذه اللحظة حتىٰ يسقط، إذا بهذا المسمار ينكسرُ فجأة، وإذا بالرفِّ يَهْوي علىٰ أحد طرَفَيه، وإذا بالكتب تتدحرج علىٰ أرضِ الغرفة مُحدِثةً ضجَّةً كبيرة. وانفتح الباب في هذه اللحظة ودخل بوكروفسكي الغرفة!

يَحسُن أن أذكر هنا أنه كان لا يُطيق أن يمسَّ أحدٌ أشياءه. وويلٌ لمن يسمح لنفسه بأن يضع يدَه علىٰ كتابٍ من كتبه. تصوَّروا إذن ما شعَرتُ به من ذعرٍ حين رأيتُ هذه الكتبَ المختلفة الأحجام والأشكالِ والأبعاد (فبعضها دقيقٌ وبعضها سميك، بعضها صغيرٌ وبعضها كبير) حين رأيتها تتهاوىٰ عن الرفِّ، وتتدحرج علىٰ أرضِ الغرفة، وتأخذ ترقص تحت المنضدة وتحت الكراسي وفي الحجرةِ كلِّها. أردتُ أن أهرب، ولكن أوان الهروب كان قد فات. قلتُ لنفسي: (انتهىٰ كل شيء، انتهىٰ كل شيء، لقد ضِعتُ، ضعت تمامًا. إنني أتسلَّىٰ بارتكاب حماقاتٍ كطفلةٍ في العاشرةِ من عمرها. ما أنا إلا طفلةٌ بلهاء، ما أنا إلا غبية كبيرة).

غضب بوكروفسكي غضبًا رهيبًا وصاح يقول: (ما كان ينقصُني إلا هذا، ألَا تستحين أن تسلُكي هذا المسلك؟ متىٰ تَراك تَعْقلين؟) وأخذ يُحاول أن يلمَّ الكتب. فمِلتُ علىٰ الأرضِ أساعده. فصاح مرةً أخرىٰ يقول: (لا داعي .. خيرٌ لكِ ألا تدخلي مكانًا ما دُعيتِ إليه)..»[1] كأني أراك أيها القارئ الكريم قد انسجمتَ مع المشهد منتظِرًا مني أن أكمل لك روايته؟ أعتذر منك، إنني منشغلٌ الآن، عليك النهوض والذَّهاب إلىٰ دارِ دوستويفسكي طارقًا بابه بهدوء، طالبًا منه إتمامَ المشهد الذي رويتُه لك ناقصًا، إلىٰ اللقاء.

(١) أعمال دوستويفسكي الكاملة، ج١، ص١٠٤ وما بعدها.

مَن مثل ريلكه؟

«إعــارة الكتاب تحريضٌ على سرقته»[1]

(١) فن القراءة، ص٣٨٤.

للكُتُبِ قيمةٌ في نفوسِ أصحابها أكبرُ من كُلِّ وصفٍ وأعمقُ من كلِّ شرح، ولو أراد أحدُ الكُتَّاب المُجيدين باذلًا كُلَّ طاقته وجهده بسْطَ مكانتها الحقيقية لَقصَّر وعجز، ولو قال ما قال في شأنِها من المُبالغات لما جاوَز الحد. لذلك لا يُرعِبُ أحلاسَ المكتبات وعُشَّاقَ الكُتب مثلُ قضية (الإعارة).

ونحن نعلمُ قولَ ابن الجوزي رحمه الله: «ينبغي لمن مَلَك كتابًا أن لا يبخلَ بإعارته لِمَن هو أهلُه»[1]. ولكننا أيضًا نحفظُ ما رواه الخطيبُ البغدادي رحمه الله: «وكان بعضُ أهل العِلم يكتب علىٰ ظُهورِ كُتبه التي يُعيرها: يا ربِّ، مَن حفظ كتابي فاحفَظْه، ومَن أضاعه فلا تحفَظْه»[2].

وهذا الأثرُ وسابقه يدلَّان علىٰ أمورٍ كثيرة؛ من أهمِّها: قيمة الكُتب عند أهلها (مَن حفظ كتابي فاحفَظْه)، والتحرُّز في موضوعِ الإعارة (لِمن هو أهلُه).

وقد طال السِّجالُ وحميَ الجدالُ في شأنِ إعارة الكُتبِ، وتباينَت الآراءُ في هذه المسألة العويصة، والناس هنا ثلاثة: واحدٌ لا يتردَّد في إعارةِ أي إنسان طلبَ منه كتابًا، وثانٍ يأبىٰ إباءً تامًّا أن يُعير ورقةً من مكتبته، وثالثٌ يُعير بشروطٍ ومواثيقَ ورهنٍ يأخذه من المُستعير لضمان عودة كتابه.

* * *

من النوعِ الأول كان الرَّسام والكاتب الأمريكي هنري ميللر الذي يقول: «إنَّ الكُتب هي أحدُ الأشياء التي يُدلِّلُها البشرُ بعُمق. وكلما كان الإنسان راقيًا يتشارك

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح، ج٢، ص١٦١.

(٢) تقييد العِلم للخطيب البغدادي، ص١٩١.

بشكلٍ أسهلَ بمقتنياته العزيزة. وكتابٌ يتمدَّد بتكاسُل علىٰ رفٍّ هو ذخيرةٌ ضائعة سُدًىٰ. وكالمال، يجب جعلُ الكتب في حالةِ تداولٍ مستمر. استعِرْ وأعِر إلىٰ أقصىٰ مدًىٰ كتبًا ومالًا معًا! ولا سيَّما الكُتب؛ لأنَّ قيمة الكُتب أعلىٰ بما لا يُقاس من قيمةِ المال. فالكتاب ليسَ فقط صديقًا، بل يصنع لك أصدقاء. وعندما تمتلك كتابًا ذا عقلٍ وروح، تغتني. ولكن عندما تُعطيه لشخصٍ آخَر تغتني ثلاثة أضعاف»[1].

ورأيُه هذا دون أدنىٰ شك لن يُعجب كثيرًا من المغرمين بمكتباتهم، والذين تربطهم علاقةٌ عاطفية -وجُلُّ أهل الكتبِ كذلك- يصعب تصوُّرها وتصويرها مع كتبهم.

وممَّن لا يَردُّ مستعيرًا عملًا بمبدأ (نشر المعرفة) وأنَّ «الكتاب للجميع»؛ الرسَّام -ولعلَّ في الرَّسامين سماحةً زائدةً علىٰ اللزوم!- والكاتب الفلسطيني المعروف جبرا إبراهيم جبرا الذي كان كلما تأمَّل مكتبتَه التفتَ إلىٰ صديقه قائلًا: «إنَّ الذي خرجَ منها ولم يَعُد، لا يقلُّ عنها عددًا». يقول: «كلُّ مَن جمع كتبًا يعرف القولَ الشهير: (غبيٌّ من يُعير كتابًا، وأغبىٰ منه من يُعيد الكتابَ المُعار). وقد رأيتُ أناسًا وضَعوا هذا القولَ شعارًا في مكتباتهم، لكي يُؤكِّدوا رفْضَهم إعارةَ كتبهم. غير أنني منذ بداية حياتي الفكرية لم يُقنعني هذا القول، وكنتُ أُعير كتبي لكلِّ من يطلبها».

ولم يسْلَم جبرا من أولئك اللصوص الذين يستعيرون الكتبَ وليس في نِيَّةِ أحدهم إعادتُه؛ لذلك نجده يقول: «عانيتُ، وما زلتُ أعاني، من عقوقِ كلِّ من يَسْتعير كتابًا ولا يخلو من سوء النيَّة، مسبقًا أو لاحقًا، للاحتفاظ به». وكانت زوجة جبرا تُدرك أن كُل كتابٍ يخرج من مكتبةِ زوجها مصيرُه رحيلٌ بلا عودة، فكانت تقول لزوجها عندما ترىٰ الزائرَ يخرج من البيتِ متأبِّطًا بعضَ الكُتب: «لن تتعلَّم! أتظنُّ أن هذه الكُتب ستُعاد؟». ومع سماحةِ جبرا في إعارة الكتب وتجرِبتِه

---

(١) الكتب في حياتي، ص٢٦.

الطويلة، كانت النتيجة: «مقابل كلِّ واحد أعادَ الكتاب الذي استعاره، هناك عشَرةٌ لم يُعيدوا ما استعاروه، وتتكرَّر قصتي معهم»[1].

* * *

ومن النوعِ الثاني (والثالث معًا) -أي الذين لا يرون إعارةَ الكُتب إطلاقًا، أو يُعيرون بمواثيقَ صارمةٍ!- الشيخ الأديب علي الطنطاوي القائل: «وكتبُ العالِم (أو طالبِ العلم مثلي) هم أصدقاؤه، ولا تُطاوِعُني نفسي في التخلِّي عن أحدٍ من أصدقائي»[2].

قال في مقالٍ طريفٍ له بعُنوان [رِيع اللُّصوص]: «ومن اللصوصِ؛ الذين يستعيرون الكُتب ولا يردُّونها، لذلك قرَّرتُ قرارًا لا رجعةَ فيه أن لا أُعير أحدًا كتابًا، مَهْما كان السبب»[3].

وفي مقالِ [من أخلاقنا] يقول: «ومِثل هؤلاء المقترِضين الأفاضل؛ مُستعيرو الكُتب، أولئك الذين ترَكوا في قلبي غُصصًا حلَفتُ بعدها بمُوثَقاتِ الأيْمان أني لا أُعير كتابًا».

ولكن لعلَّ النسيان في هذه الحياة كما أنه يُخفِّفُ آلامَ الإنسان بمحوِ ما يُكدِّر من الذاكرة[4]، فإنه لا محالة سيدفعهُ لِتكرار بعض أخطائهِ واستحداثِ جُرحٍ جديد. نجد الطنطاوي بعد موثَقات الأيمان يكتب: «ولم أنجُ مع ذلك منهم، ولم يُرَدَّ لي إلىٰ

(١) معايشة النمِرة لجبرا إبراهيم، ص٤٩ وما بعدها. وحبذا قراءة المقال كاملاً في الكتاب: «عشق، ولكن من نوعٍ آخر!» فإنه ماتعٌ حقًّا.

(٢) الذكريات، ج٢، ص٢٣٩.

(٣) فصول في الثقافة والأدب، ص١٨.

(٤) تذكرتُ كلمة لافتة قرأتُها في يوميات كامل الشناوي، ص٢٥٣، كتبَ في ٢٢/ ١/ ١٩٥٥ : «النسيان هو القوةُ التي تَحميني من التصدُّع والألم!».

الآن كتابُ [كَشْف الظنون] الذي نسيتُ مَن استعارهُ مني منذ إحدىٰ عشرةَ سنة»[1].

ولِكثرةِ ما عايَش من الوقائعِ المُفْجِعة مع المستعيرين (اللصوص)؛ وضَع له استراتيجية خاصة يدفعُ بها -قدْرَ الاستطاعة- خيانةَ بعضِهم، وتَحفظ له كتابه المُعار من الضياعِ والنهب، تقول حفيدتُه عابدة العظم في كتابها [هكذا ربَّانا جدي]: «إنه كان لا يسمحُ بخروجِ الكتاب خارج باب بيته إلا بظروفٍ استثنائية، وبإذنٍ رسمي، مشترِطًا مدةً محدَّدة غيرَ طويلةٍ لإعادة الكتاب إليه؛ ضنًّا به وخوفًا عليه، ثم هو يسأل المُستعيرَ عنه كلما قابلَه أو هاتفَه حتىٰ يقول: ليتني لم أستعِرْ كتابًا من الشيخ، ولعلَّه لا يعود إلىٰ طلبِ كتابٍ بعدها»[2].

وقد يقع في صدرِ القارئ شيءٌ من تصرُّفِ أديبِ الفقهاء، ولكنه متىٰ ما عالجَ أمثالَ هذه القضايا، ولحِقَه ما لحِق بالشيخِ من فقدانِ وضياع كتابٍ قيِّمٍ استعاره أحدُهم؛ سيُدرك أنَّ فعله هذا طبيعي جدًّا، ولا يلومه عليه عاقلٌ يعرِفُ للكُتبِ قيمتها.

ومن هذا النوعِ أيضًا أبو عبدالله السَّبْتي محمد بن موسىٰ بن عفَّان الذي جمَع من كُتبِ التاريخ ما لم يجمعهُ أحد. وفي ترجمتِه أنهُ: «كان لا يُعير كتابًا، ويكتب علىٰ كتبه:

إنِّـي حلَفتُ يمينًا غيرَ كاذبةٍ ... أنْ لا أُعير كتابي الدَّهرَ إنسانَا

إلَّا بـرهـنٍ وأيـمـانٍ مُغلَّظةٍ ... كَيْلا يضيعَ كتابي أيْنَما كانَا»[1]

والقارئ الحصيف يرىٰ أنَّ السَّبتي والطنطاوي مع أنهما حلفا بمُوثَقات الأيمان، إلا أنهما لا يزالان يُعيران الكُتبَ برهنٍ ومواثيق، وهذا الفعل لا غرابةَ

---

(١) في سبيل الإصلاح، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) هكذا ربَّانا جدي، ص١٣٨.

(١) الوافي بالوفَيَات للصفدي، ج٥، ص٦١-٦٢.

فيه؛ فإنَّ مِن الأصحاب والأحباب مَن لا يَقدِر الإنسانُ علىٰ عدمِ تلبية ما يطلبون، وإجابتهم إلىٰ ما يسألون، وهؤلاء -علىٰ جَلالةِ منزلتهم في القلوب- هم الذين تؤخَذ منهم المواثيقُ لردِّ الكُتب التي استعاروها. ولكن القاعدة والأصل عندهما -أي الطنطاوي والسبتي- عدمُ الإعارة، وغير ذلك هو الاستثناء الذي لا يكاد يُذكر.

* * *

ومِن الذين لا يُعيرون الكُتب أيضًا العاشقُ والعَلَم المعاصر الأشهر في عالمِ القراءة والكُتب ألبرتو مانغويل. يقول في كتابهِ [فن القراءة]: «كما أنني لا أُعير الكُتب، وإذا أردتُ من أحدٍ أن يقرأَ كتابًا، اشتريتُ له نسخةً وأهديتُه إياها. في اعتقادي، إنَّ إعارة الكتاب تحريضٌ علىٰ سرقته»(٢).

وهذا رأيٌ وجيه مُعتبَر. أما طريقته؛ أنه إذا أعجبه كتابٌ وأراد أنْ يُشاركه غيرَه قراءتَه اشترىٰ له نُسخة، فهذا مما لا تقدر علىٰ تحمُّلِ مثلِه أرصدتُنا البنكية؛ لأن الكُتب التي أعجبَتْنا كثيرة، والذين نُحب مشاركتَهم إيانا قراءتها أكثر!

وقد قال مانغويل مرةً بأنَّ صَدىٰ وصية بولونيوس لابنهِ: «لا تُعِرْ، ولا تسْتعِر» كان يتردَّد في أذنه دائمًا، وأنَّ مكتبته كانت تتبنَّىٰ هذا التحذيرَ الصريح(٢).

ومن هذا النوع أيضًا، والدُ العرَّاب والطبيب الكاتب أحمد خالد توفيق رحمهما الله، يقول عن والدهِ في مقالٍ ساخر: «لا أعتقد أن أبي يرحمه الله قد أقرضَ أيَّ كتاب في حياته، ولو فعل فلِأنه كان يحتفظ بنسختَين من ذات الكتاب. كان يؤمن أن الكُتب أشياءُ خصوصية جدًّا؛ مثل الثياب الداخلية والزوجة وبطاقة الهوية، لا تَصلُح إلا لصاحبها، ولا يمكن أن تُقرِضَها إلا لو كنتَ مجنونًا»(٣).

---

(٢) فن القراءة، ص٣٨٤.

(٢) ذاكرة القراءة، ص٢٩.

(٣) فقاقيع، ص١٤٣.

وشيخ العربية محمود شاكر رحمه الله تعالىٰ كان ممَّن يأبىٰ إعارة كتبه؛ فإنه كما ذُكر وأُثر عنه «لا يسمح بإعارة أيِّ كتاب، وإذا دخل الكتابُ إلىٰ مكتبته، لا يخرج منها إلا للتجليدِ عند الحاج سعد خضر، المجلِّد المتميِّز والمتقِن، ومن يطلب منه إعارةَ كتابٍ يعتذر منه، ويدعوه للاطِّلاع داخلَ المكتبة علىٰ أي كتاب يريده»[1].

ولذلك فوجئ الشاعر صلاح عبد الصبور عندما أخبَرتْه عايدة الشريف بزيارتها لأبي فِهْر وأنهُ قد أعارها هذا العددَ الممتاز الذي بيَدِها من مجلَّةِ المقتطف الذي حوَىٰ دراستَه عن المتنبي؛ «لأنَّ الأستاذ شاكر لا يُعير كتبه، فالذي يريد أن يقرأ في كتابٍ نادرٍ أو مخطوطٍ وحيدٍ لديه؛ عليه أن يذهبَ إلىٰ بيتِهِ للاطِّلاع علىٰ ما يريده، ثم يُعيد الكتابَ إلىٰ المكتبة قبل المغادرة»[2].

* * *

وللمُستعيرين نوادرُ لا تنتهي، وعجائبُ لا تنقضي؛ من ذلك ما ذكره الطنطاوي أنَّ أستاذًا محترمًا في قومِه جاءه يلتمسُ إعارته جزءًا من تفسير الخازن ليُراجع فيه مسألةً ويردَّه عاجلًا. أعاره الطنطاوي الجزءَ الذي أراد، ولكنه بعد ذلك يقول: «وانتظرتُ أربع.. أربع سنوات والله! ثم ذكَّرتُهُ به؛ فغضب وقال: لإيش العجَلة يا أستاذ! لم أُراجع المسألةَ بعد!»[3].

وهذا الأستاذ (المحترم في قومِه) ذكَّرَني بأبياتٍ جميلة مُعبِّرة للُّغوي الدكتور عبدالله بن سليم الرُّشَيْد، يقول فيها:

---

(1) قصة مكتبة، ص٢٩٩.

(2) محمود محمد شاكر (قصة قلم)، ص١٣٥.

(3) في سبيل الإصلاح، ص٩٧.

أيُّها السارِقُ أسفاري بدَعْوىٰ الاستِعارهْ

أنتَ لِصٌّ تُحسِنُ السَّلبَ بخُبثٍ، ومَهاره

تدَّعي العِلم، وللجهلِ علىٰ رأسِك شارَه

رُبما أنَّ كتابي حينَ لم تَنْفُضْ غُبارَه

فوق رفٍّ حولَه الآفاتُ يرتَعْنَ جِوارَهْ

شنَّت الأَرْضةُ فيه غارةً مِن بعدِ غارَهْ

فمتىٰ تُطلِقُ -يا مُدَّعيَ العِلم- إسَاره

ولكَمْ ناداكَ مرَّاتٍ فلم تَفْكُكْ حِصارَه

حتىٰ قال في آخرِها:

رُبَّمايَلْبس وادٍ-عَقِبَ الجدْب-اخْضِرارَهْ

رُبما زُحزِحَ طَودٌ فمَضىٰ يَطْوي قِفَارَه

رُبما احْلَولَىٰ أُجاجٌ وَهْو لم يَبْرَح بِحارَه

رُبما بدَّلَ هذا النَّجمُ -في يومٍ- مَدارَهْ

رُبما تاب لصوصٌ ألِفوا طعمَ الشَّطارَه

بيدَ أنَّ السارقَ الأسفارِ لا يتركُ عارَه

عبثًا أكتمُ سُخْطي ثم تُعْييني المرَارَه

يا مُعيرَ الكُتْبِ مهلًا آفةُ الكُتْبِ الإعارَه(١)

---

(١) مجلة اليمامة/ العدد ١١٥٥/ الأربعاء ذو القعدة ١٤١١هـ.

وهذا الأُستاذ -وأمثاله- هو الذي جعَل مِن إعارةِ الكُتب كابوسًا يُنغِّصُ هناءةَ أصحابِ المكتبات الخاصة.

ومن الأخبارِ التي تدلُّ -للأسف- علىٰ ما تنطوي عليه نفوسُ بعضِ المستعيرين مِن أخلاقٍ رديئةٍ: ما روَتْه فدوىٰ طوقان لصاحبها جبرا إبراهيم، ومفادُ الخبر يختصره جبرا قائلًا: «بعد نكبةِ ١٩٦٧م جاءها إلىٰ نابلس زائران من فلسطين المحتلَّة عام ١٩٤٨م، وبعد اللِّقاء الحارِّ والحديث الطويل، استعرَضا الكُتب المصطفَّة علىٰ رفوفِ مكتبتها، فوقعَت عينُ أحدهما علىٰ كتابي [الحرية والطوفان]، والتمسَ إليها أن تُعيره الكتاب. وبعد تردُّدٍ وممانعة، وَعَدَ وعَهِد بإرجاعه، وافقَت، وأخذ الزائر الكتاب وخرَج مع صديقه ولم يَعُد حتىٰ اليوم! ويوم التقَتِ الشاعرةُ فيما بعدُ بزميله وذكَّرَته بما حدث، أخبرها أنه عندما خرج مع الشخص الذي استعارَ الكتاب قال له، وهو يتصفَّحُه ولُعابه يكاد يَسيل عليه: أمجنونٌ أنا فأُعيد إليها هذا الكتاب؟!»[1].

وأنتَ تعجبُ عندما تقرأ أو تسمع أمثالَ هذه الأخبار، وتُحدِّثُك نفسُك: من أينَ لهذا وأمثالِه الجراءةُ علىٰ الجهرِ بنَواياهم السيِّئة دونَ أدنىٰ خجلٍ ووجَلٍ؟! وأنا أزعمُ -ألَا رُبما كذَبَ الزعمُ- أنني ممَّن وهبه الله القدرةَ علىٰ خلقِ المُبرِّرات لأيِّ فعلٍ كان، ومع ذلك أجِدُني هنا عاجزًا عن تبريرِ خيانة الوعد والعهد، فالأمرُ أجلُّ من الولَع بالكُتبِ والقراءة، ولا مجال للتفكُّه في مِثلِ هذه الأخبار؛ فإنَّ الكُتب علائقُ نفيسة عند أصحابها، ولا يجب التهاونُ في هذا الباب علىٰ الإطلاق.

أين هذا الزائر البغيض الذي نهبَ كتاب جبرا إبراهيم من مكتبةِ فدوىٰ طوقان، من أخلاقِ البيومي الذي كان يُسارع إلىٰ قراءة كلِّ كتابٍ يستعيره، لأنه يَعُدُّه «ضيفًا يجب تكريمه الحافز، بقراءته دونَ إبطاء»[2].

---

(١) معايشة النمرة لجبرا إبراهيم، ص٥١-٥٢.

(٢) ظلال من حياتي، ص١٧٦.

لا يعلمُ بعضُ المستعيرين كيفَ يشعر المُعير عندما يخرج الكتاب من مكتبتِهِ، الأمر أشبهُ بفقدِ أحدِ أفراد المنزل؛ عندما كان قريبًا لا تحِنُّ إليه كثيرًا، ولكن متىٰ ما ابتعد عنك خفقَت أنفاسك، وتضاعفَت أشواقك، وأخذَت مُدَىٰ[1] الفقدِ تطعن فؤادَك بُكرةً وعشيًّا.

تأمَّلْ معي قول أناتولي برويارد، الذي كان يشعر عند إعارته لكتبِه كما يشعر معظمُ الآباء حين تُغادر بناتُهم للعيشِ بعيدًا عنهم! يقول: «اللحظة التي أُعير فيها كتابًا لأحد، يبدأ اشتياقي إليه. والكتابُ الغائب عن الرَّفِّ يُصبح فجأةً أكثرَ أهميةً من جميعِ الكُتب الموجودة. يذهب عقلي مباشرةً للفراغِ الحزين علىٰ الرف. طُمَأنينتي تحطَّمَت، توازُني اختل، تأثيري أصبح مُشوشًا حتىٰ يعود كتابي إلي. وأتذكَّرُ في إحدىٰ روايات فيليب روث، حين تزوَّج أحدُ أبطال القصة من فتاةٍ، فقط كي يتمكَّنَ من استرجاع الكتاب الذي أعارها إياه!»[2].

ولكي تُحِسَّ بالألمِ الذي يلحق بمن يُعير كتابًا إلىٰ مَن لا يستحق؛ إليك ما قرأتُهُ عن العلامةِ أحمد تيمور باشا، وأعِدُك بالغُصَّةِ والألم! ولكن قبل ذلك لنُقدِّمْ بكلماتٍ قالها محمد كُرد علي عنه في كتابِهِ [المعاصرون] عندما تحدَّثَ عن خِزانتِهِ التي حوَت ثلاثةَ عشرَ ألف مجلَّد، قال: «وكان منذ جمعها لا يضنُّ علىٰ باحثٍ ولا طابعٍ ولا ناشرٍ من أبناءِ الشرق والغرب بإعارتِهِ ما يريد؛ إذا أيقنَ أنه يُفيد منها ويستفيد. ومن مَكارمِ أخلاقه أنَّه قد يُعير المخطوطَ وهو في حاجةٍ إلىٰ أن يكون عندَه. وقد يَعرِضُ له إشكالٌ يقتضيه الرجوعَ إلىٰ ذلك السِّفْر فيذهب بنفسِهِ للمراجعةِ فيه عند مَن أعاره إياه، ولا يجوز أن يقول له أعِدْ إليَّ كتابي؛ فقد طال مكثُه عندك. وكرمه في هذا الباب ظاهر، وهو لخدمةِ العِلم يُخاطر بأعزِّ الأشياء علىٰ قلبِه. وقد يُعادل ثمَنُ

(١) جمعُ مُدْية: السِّكين أو الشفرة.

(٢) اخرج في موعد مع فتاة تُحب الكتابة، ص٦٩.

المخطوط وزْنَه تِبرًا»[1].

والآن لنعُدْ إلىٰ ما كُنا بصددهِ، جاء في كتاب [النهضة الإسلامية] للبيومي: «ولقد كانَ أحمد تيمور باشا يجود بمخطوطاتهِ علىٰ كلِّ سائلٍ من باحثٍ أو ناشر، وأحيانًا يتكلَّف إرسالها إلىٰ مَن يطلبها في شتَّىٰ بقاعِ العربية، مُتحمِّلًا نفقات البريد المسجَّل، علىٰ رغم ما كان يسوءه كثيرًا من أخلاقِ المستعيرين؛ فقد كان منهم مَن يُهمل واجبَ المحافظة علىٰ الصحائفِ فيردُّها ممزَّقة مشوَّهة؛ بل لقد بلغ من أحدِهم أنْ أخَذ منه النسخة الخطِّية لكتاب [الضوء اللامع] قبل طبعه ثم أبىٰ أن يردَّها إليه إباءً تامًّا، فإذا ما احتاجَ إليها صاحبُها ذهب للمستعير فراجَعها عنده، كأنْ لم يكن ربَّها الأحقَّ بها. ولم يسمح له حياؤه أن يقف مع هؤلاء موقفًا يُصيبهم منه الملام!»[2]. لم تنتهِ الحكاية هنا، أتمَّ ما سبق بما سيأتي.

قال عنه محمد كرد علي -رحمهما الله-: «كتبَ إليَّ مرَّة (٢٩ جمادىٰ الثانية ١٣٤٢هـ) يقول: نقلتُ لك ترجمةَ الصدر الآمديِّ من مخطوطَين نادرين، ولا يبعد أن يكون السخاوي ترجَمهُ أيضًا في الضوء، ولستُ علىٰ يقينٍ من ذلك؛ لأنَّ نُسختي استعارها أحدُ الأصحاب من ثلاث سنوات، ولم تزَلْ عنده ولا يريد ردَّها! وكلما احتجتُ إلىٰ الكشفِ عن ترجمةٍ أذهبُ إلىٰ عنده وأكشفُ عنها»[3].

---

(١) المعاصرون، ص٣٩.

(٢) النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها، ج٢، ص٩. وفي ترجمته: «أما أخلاقه الكريمة فكانت مَضرِبَ المثل في السموِّ والرقة، وكان الجود المُفرِط أظهرَ دلائلها بين الناس، وقد دفَعه التواضعُ إلىٰ أن يبعث بالرواتب الشهرية سرًّا إلىٰ بعض مَن أحنىٰ عليهم الدهر؛ وحين اشتَهر أمرُه في ذلك، تألَّم غايةَ الألم، ثم هداه التفكيرُ الطيب إلىٰ المصارف المالية، فكان يكتب لها عناوينَ المعْوزين لتتولىٰ إيصالَ الحوالات إليهم، دون إشارةٍ إلىٰ اسمه».

(٣) مجلة المجمع العربي العلمي - المجلد الحادي عشر، ص١٣٥.

فأيُّ ألمٍ وندمٍ وحُرقةٍ كان يشعر بها أحمد تيمور باشا وهو يجرُّ خُطاه إلىٰ صاحبهِ هذا ليستأذنَه في مُراجعةِ ترجمةٍ في كتابٍ هو مالِكُه في الأساس!

وأنا بعدَ الذي وقفتُ عليه من أخلاقِ بعض المستعيرين لم أعُد أعجبُ وأستعظم ذلك التحذيرَ المُعلَّق في مكتبةِ دير سان بيدرو في برشلونة: «مَن يسرق كُتبًا، أو يحتفظ بكُتبٍ قد استعارها، عسىٰ أن يتحوَّل الكتابُ الذي في يده إلىٰ أفعىٰ رَقْطاء، وعسىٰ أن يُصاب بشللٍ ارتجافيٍّ قاهر وأن تُشلَّ جميع أطرافه، عسىٰ أن يصرخ عاليًا طالبًا الرحمة، وعسىٰ ألا تنقطع آلامُه إلىٰ أن يتحوَّل إلىٰ رِمَّةٍ مُتفسِّخة، وأن تُعشِّش الدِّيدان في أحشائهِ مثل دود الموتىٰ الذي لا يَفْنىٰ. وعِندما يَمثُل أمام يوم الدِّين تلتهمه نارُ جهنم إلىٰ الأبد!»[1].

ولا ألوم الكاتبةَ العراقية لطفيَّة الدليمي التي كانت تُخفي في دُرجٍ خاص بعضَ الكتب الأثيرة لديها؛ خوفًا من أن يراها أحدُ الأصدقاء ويطلبَ استعارتها منها، ولكن الكتب الأثيرة وإن كانت قد نجَتْ من أيدي بعض الأصدقاء فإنها لم تنجُ من كائناتٍ أخرىٰ كما تقول! وأنقل لك قولها لما فيه من طَرافة. تقول: «رواية هيرمان هسَّة (الكُريَّات الزجاجية) ورواية توماس مان (الموت في البندقية) كانتا تحتلَّان مكانةً أثيرةً في مكتبتي، وهما الكتابان اللذان بَخِلتُ بإعارتهما إلىٰ الأصدقاء وكنتُ أُخفيهما في دُرجٍ مع الكتب الأثيرة، لكن عتمة الدرج -التي أبعدَت عنهما أيدي خاطفي الكتب من زُوَّار مكتبتي- لم تُنقذ الكتابين من نهَمِ كائناتٍ أخرىٰ لم أعهَدْ فيها شغفًا بالقراءةِ وعشقًا لنوعٍ محدَّدٍ من الكتب، ولم يُخيَّلْ إليَّ في يومٍ ما أن تختارَ الفئرانُ عمَلَين من روائعِ الأدب الألماني، ويبدو أن الفئران توصلَت بطريقةٍ ما إلىٰ اختيارٍ بالغ الذكاء فأقامت وليمةً لهضمِ (الكريات الزجاجية) التي عُدَّتْ من أصعبِ

---

(١) تاريخ القراءة، ص٢٧٢.

الأعمال الروائية هضمًا، ووجَدَت فيها هي ورواية (الموت في البندقية) متعةً ميَّزَتها عن الكتبِ الأخرىٰ وقرَضَت أطرافَ الكتابين في وليمةٍ ليليةٍ عندما خلا لها الجوُّ أثناء مغادرتي البيتَ إبَّان قصفِ بغداد في ١٩٩١، وتسلَّلتُ من الحديقةِ إلىٰ المكتبةِ عبر الزجاج المهشَّم. هل شاءت الفئران نقْضَ مفهوم توماس مان عن الجمالِ الذي عدَّهُ الهدفَ الأسمىٰ للحياة؟ أم تُراها انتقدَت وحشيَّة الحضارات التي تقتل البشر لتُداري انهيارها؟ لا نعلم كيف تُفكر فئرانُ المكتبات، ولا نعلم كيف تختار الكتبَ -تحت جحيم القَصْف- بهذه الدِّقة التي تُشكِّك في عشوائيةِ اختيارها»[١].

* * *

ومِن طريفِ القول ما ذكره عبد الوهاب مطاوع في كتابِهِ [صديقي لا تأكل نفسك]: «ورغم وجود مصادرَ عديدةٍ الآن للثقافة، فإنَّ الكتاب ما زال هو المصدرَ الأساسي للمعرفة، وسيبقىٰ كذلك في ظنِّي لأجيالٍ قادمة، وأبراهام لِنكولن[٢] الذي تولَّىٰ رئاسة الولايات المتحدة من سنة ١٨٦١م إلىٰ سنة ١٨٦٥ وقاد دعوةَ تحرير العبيد في أمريكا[٣] ودفع حياته ثمنًا لها، كان يقول: (كل ما أريد معرفته موجودٌ في الكتب، وخيرُ صديق لي هو من يُقْرِضني كتابًا!) وأضيفُ أنا -أي مطاوع- إلىٰ

(١) عصيان الوصايا، ص١٠٣.

(٢) في كتاب (توفيق الحكيم في شهادته الأخيرة)، ص٦٧-٦٨ عن لينكولن -والحديث للعقاد بعد ثنائِهِ علىٰ نفسه-: «كما أنَّ حاكمًا من أكبرِ حُكَّام أمريكا -هو لنكولن- كان راعيَ غنمٍ لا يعرف غيرَ القراءة. وكان يجلس بين الغنم يُطالع ما يقع في يده من كتبٍ وما يجده في مكتبات قريبة».

(٣) ولن أُثقِلَ عليك بكثرة النقولات لإيضاحِ هذه المسألة المزعِجة بالنسبةِ لي، ولكن لِفَهم القصة كاملةً؛ اقرأ ما كتبَه هوارد زِن في الفَصل التاسع من تاريخه الشعبي لأمريكا (عبوديةٌ دون إذعان، وتحريرٌ دون حرية)، ص٢٧٧-٣٣٣، وإذا أردتَ شيئًا مختصَرًا فاقرأ ص٤٦ وما بعدها من كتاب (حلم البراءة) لضاحي. لن يجد كلُّ من يتتبع سيرةَ لينكولن غيرَ التناقض الصارخ الذي وقَف عليه بورخيس، راجع (محاورات بيونس آيرس)، ص٩٤.

كلمتهِ الشهيرة هذه أنَّ خير صديق لي هو من يُعيد إلي كتابًا اقترضَه مني! لأني لا أجزع لشيء أكثرَ من جزَعي لفقْدِ كتاب اقترضَه صديقٌ مني ولم يردَّه، أو ضاع منه في الزحام. ولقد أُعجبتُ كثيرًا بما قرأتُه في قصةِ حياة إبراهام لنكولن من أنه اقترضَ من صديقٍ له كتابًا عن حياةِ جورج واشنطن بطلِ الاستقلال في الولاياتِ المتحدة، فشُغِفَ به وراح يقرؤه ويُعيد قراءته حتىٰ أتْلفَه المطرُ وعجز عن ردِّه لصاحبِه، فأحسَّ بتأنيبِ ضميرٍ شديدٍ لذلك، ولم يجد ترضيةً يُقدِّمها له سوىٰ أن يعمل مجَّانًا في حقلِ صديقه ثلاثة أيام من الصباحِ حتىٰ المساء يَفْلَح الأرض ويُسوِّيها؛ تعويضًا له عن الكتابِ المفقود. وبقدرِ إعجابي بهذه القصة، بقدر ما أشفقتُ علىٰ نفسي وعلىٰ أصدقائي لو كنا قد طبَّقْنا هذا المبدأ علىٰ أنفسنا منذ زمنٍ طويل، إذن لعَمِلتُ في حقولِ الكثيرين مجانًا، وطالبتُ كثيرين بالعملِ في حقلي بلا أجرٍ شهورًا وأسابيع، لكن مِن نعمةِ الله عليَّ وعلىٰ أصدقائي أننا جميعًا لا نملك حُقولًا ولا حدائق، وإلا انكسرَ ظهري وظهورُهم من العمل فيها بلا أجرٍ خلال السنوات الماضية»[١].

* * *

وهنا أودُّ أن أورِدَ خبرًا لعلَّه أن يُسهِم في خلقِ شيءٍ من الإيجابية في نفسِك تجاهَ إعارة الكُتب بعد ما سُقناه من الصورِ المؤلمة والموغِلة في السلبية.

روىٰ لنا الشاعر السوري عبد المعين الملوحي قصةَ معرفته بالروائي العظيم دوستويفسكي قائلًا: بأنه ذهبَ في يومٍ ما إلىٰ السوق ليشتريَ قضامةً وبزرًا، فلما طلب ما يُريد من صاحبِ الدكَّان، رآه يُخرج كتابًا ليلفَّ ما طلبهُ الملوحي في ورقةٍ من أوراقه، وكان كتابًا باللغةِ الفرنسية، فلمَّا همَّ بتمزيقه، رَجاه ألَّا يفعل، وأن يُعطِيَه إياه ليراه، يقول: «وقرأتُ بالفرنسية الاسم (دوستويفسكي) المؤلف، واسم الكتاب

(١) صديقي لا تأكل نفسك، ص٥٦-٥٧.

(المهانون المذلُّون)، وقلتُ له: مِن أين لك هذا؟ قال: عندي مجموعةٌ كبيرة من الكتبِ اشتريتُها من مستشارٍ فرنسي».

فابتاع الملوحي ما لدىٰ هذا البائع من الكتبِ بخمس ليرات سورية فقط! وكان في الكتبِ مؤلفاتُ راسين كاملة، ومؤلفاتُ روسُّو، وفولتير، وهوغو، وعددٌ من الكُتَّاب الإنكليز والروس! المهم، أنه عندما قرأ رواية دوستويفسكي أعجَبتْه، فلقي صديقَه المترجم الكبير سامي الدروبي، فقال له فرِحًا: «يا سامي، لقد اكتشفتُ اليوم كاتبًا كبيرًا روسيًّا هو دوستويفسكي، وقرأتُ كتابًا له هو (المذلون)، قال: وهل تُعيرني الكتاب؟ .. وأعَرتُهُ الكتاب، ولم يَعُد إليَّ بعد ذلك طبعًا. أوَلم يكتب أناتول فرانس في مكتبتهِ هذا الإعلانَ العجيب: (لا تُعِر كتبك لأحدٍ فإنَّهُ لن يردَّها.. لو فحصتَ مكتبتي أنا مثلًا، لما وجَدتَ فيها إلا الكتبَ التي استعرتُها من الناس!). رحم الله سامي: لعلَّ هذا الكتاب الذي استعاره ولم يرُدَّه، كان أولَ بذرةً أوحَت إليه أن ينصرفَ بعد سنين إلىٰ ترجمةِ آثار دوستويفسكي الكاملة»[1].

* * *

ومِمَّا يُستمْلَح ذِكره أيضًا ما روتهُ هنرييت عبودي عن أول لقاءٍ جمعَها بزوجها جورج طرابيشي، وأن توطُّدَ علاقتهما كانت بسبب كتابٍ استعاره منها! تقول: «فقد زارني ذاتَ يومٍ صديقٌ، وبصُحبتهِ شابٌّ طويلٌ وسيمٌ رياضي البِنْية، ابتسَم لي بإغراءٍ، فيما كان الصديق المذكور يُعرِّفني عليه قائلاً: (هذا هو جورج، الذي كثيرًا ما حدَّثتُك عنه).

---

(١) شظايا من عمري، ص٨٧-٨٨. توحي رواية الملوحي بأن الدروبي تعرَّف علىٰ دوستويفسكي عن طريقه، ولكننا نقرأ في كتاب إحسان بيات الدروبي عن زوجها سامي بأنه قال لها: «بدأتُ بقراءة مؤلفاته وأنا في السادسةَ عشْرةَ من عمري، فما انقضَت بِضعُ سنين حتىٰ أتيت علىٰ آثاره كلِّها، أُعيد قراءتها بلا كللٍ أو ملل، حتىٰ لقد أخذتُ أترجم بعضَ فصوله منذ ذلك الحين...» [سامي الدروبي ص١٤].

ثَمَّة مكتبةٌ خشبية، كانت تحتلُّ أحدَ أركان الغرفةِ التي استقبلتُ فيها القادِمَيْن. وراح جورج يُدقِّق في عَناوين الكتب، التي اصطَفَّت فوق رُفوفها، فدنَوْتُ منه، وصارَحتُهُ قائلةً: (إن كنتَ تبحث عن رائعةٍ أدبيَّةٍ، فإني أنصحُك بمطالعةِ هذا المؤلَّف)، وسحبتُ من فوق أحد الرُّفوف، النسخة الفرنسية لرواية سيمون دي بوفوار (المثقَّفون). فأخذَ مني الكتاب، وانشغلَ بتقليبِهِ، وتردَّدَ قليلاً قبل أن يسألني: (أيمكنني استعارتُه؟). فأجبتُهُ بين المزاح والجِد: (شرطَ ألَّا تُعيدهُ إليَّ مُمزَّقًا!)».

تُكمل: «أذكرُ بأنه وضع الكتاب تحت إبْطِه، وأجابني وهو يبتسم: (سوف أُباشر في مطالعتِهِ الليلة.. أعترفُ بأني مُقصِّر بحقِّ سيمون دي بوفوار؛ إذ لم أقرأ لها أيَّ مؤلَّفٍ حتىٰ الآن، في حينِ التهمتُ مجمل أعمال جان بول سارتر).

لم ينقضِ أسبوعٌ علىٰ لقائنا الأول، حتىٰ كان جورج يطرق بابَ بيتنا من جديد. جاء بمفردهِ هذه المرَّةَ، كي يُعيدَ الكتاب الذي استعاره، كما أوضح لي، من قَبيل تبرير زيارته. سألتُهُ إن كان قد نال إعجابه؟! فأجابني، إنَّ كلمة إعجاب لا تكفي لإعطاء هذا المؤلَّف حقَّه». ثم أخبرها بعزمهِ علىٰ ترجمتِه إلىٰ العربية[1].

* * *

وبعد كلِّ هذا، أعلمُ أنَّ المقالَ قد طال، والذي استقرَّ عليه رأيي في موضوعِ الإعارة، أنْ لا يُعار سِوىٰ مَن يستحق؛ من صديقٍ قريبٍ أو بعيدٍ عُرِفَت عنه المروءة؛ لأنَّ القريب وإن فُتِنَ بكتابٍ استعاره -وفي الكُتب ما يفتنُ المرءَ ويسلب لُبَّه- سيدفعه الخجلُ لكثرةِ ما يَلْقاك وتَلْقاه إلىٰ إعادته، والبعيدُ المُتشبِّع مروءةً ستردَعُه مروءتُه عن سلبٍ ونهبٍ ما ليس له.

فالقاعدة ما ذكَره ابنُ الجوزي في آخرِ قوله: «ينبغي لمن ملَك كتابًا أن لا يبخل بإعارتِه لمن هو أهلُه». لمن هو أهلُه! هذه هي القاعدة في الإعارة.

(١) أيامي مع جورج طرابيشي ص٣٨-٤٠.

وأرجو أن يُراعيَ المستعير ما ذكَره ابنُ جَمَاعة الشافعي تـ٧٧٣هـ في [تذكرة السامعِ والمُتكلِّم]، حيث يقول رحمه الله: «وينبغي للمُستعير أن يشكرَ للمُعير ذلك -أي إعارتَه كتابَه- ويَجْزيه خيرًا، ولا يُطيلَ مقامه عنده من غيرِ حاجة، بل يردُّه إذا قضىٰ حاجتَه، ولا يحبِسه إذا طلبَه المالِك[1]، أو استغنىٰ عنه. ولا يجوز أن يُصلحه بغيرِ إذن صاحبِه ولا يُحشِّه، ولا يكتب شيئًا في بياضِ فواتحِه وخواتمه إلا إذا علِمَ رضا صاحبه»[2].

* * *

وفي الختامِ أُحبُّ أن أؤكد أمرًا شخصيًّا؛ وهو أنني تأبىٰ نفسي سَلْب أهلِ المكتبات الخاصة طُمَأنينتهم باستعارةِ كتبهم. وإني موقنٌ بكرمِ الكثيرين، وأريحيَّة نفوسهم، وتفرُّدِ خِصالهم، وأنَّ منهم مَن لو أردتَ أنفَس ما يملك لأهداك إياه دون ترددٍ فكيف باستعارته؟ ولكنه خُلُقٌ جُبِلتُ عليه في الكتبِ وغيرها. وهنا أذكر الأديبَ المِصْري وديع فلسطين الذي لم يستعِرْ كتابًا في حياته! وقد قُدِّر لهذا الأديب أن يُطِلَّ علىٰ النعيمِ بتجوُّلِه في مكتباتِ أعلام الأدبِ والفِكر في القرن العشرين، منهم: خليل مطران، والدكتور فارس نمر، وعباس محمود العقاد، وسلامة موسىٰ، وإسماعيل مظهر، والشيخ حافظ وهبة، وطاهر الطناحي، والدكتور إبراهيم ناجي، والعميد طه حسين، والدكتور فؤاد صرُّوف، ومحمد أبو الفضل إبراهيم،

---

(١) ولا يفعل كما كان ابن الخشَّاب ت٥٦٧ يفعل؛ فقد ذُكر أنه إذا استعار من أحدٍ كتابًا وطالبَه به، يقول: «دخل بين الكتب فلا أقدرُ عليه!». [معجم الأدباء لياقوت، ج٤، ص١٤٩٥].

(٢) [تذكرة السامع والمُتكلِّم من أدبِ العالمِ والمُتعلِّم، ص١٢٧]. ومن طريفِ ما ذكره الطنطاوي وهو يتحدث عن بعضِ عجائب المستعيرين، قوله: «والذي يذكر منهم صاحب الكتاب ويتنازل فيردُّه إليه، يردُّه مخلوعَ الجلد ممزَّقَ الأوصال. وأنكىٰ منه المستعيرُ المحقِّق المدقق الذي يرىٰ في الكتابِ موطنًا يحتاجُ إلىٰ تعليق، فيكتب التعليقةَ التي يفتح الله بها عليه، علىٰ هامش كتابك بالحبر الصينيِّ الذي لا يُمحىٰ ولا يُكشَط، ويُذيِّلُها باسمه الكريم!».

ومحمد عبد الغني حسن، وألبير أديب، ومحمود تيمور، والمجاهد العربي الأكبر محمد علي الطاهر... وإليك ما قال بعد ذِكْرِهِ لكثيرٍ من أسماءِ الكبار الذين تمكَّن في حياتِهِ وحياتهم من زيارةِ مكتباتهم: «... وغيرهم من فضلاءِ الأصدقاء الذين أذنوا لي باقتحامِ عرينِهم المزدانِ بالكتبِ ولم يَغاروا عليها من نظراتي (البريئة!)، وأقول (البريئة) لأنني لم أقترِضْ في عمري كتابًا من أحد، وإن كان كثيرون (اقترضوا) كتبي فكان هذا آخِرَ العهد بها! وحالي في هذا خيرٌ من حالِ الصديق جورج صيدح الذي (تسلَّىٰ) زُوَّارُه علىٰ كتبه (يقترضونها) واحدًا واحدًا حتىٰ أتَوْا عليها جميعًا وخلَتِ الخزائنُ والحوامل إلا مِن الأرفف الخشبية يتراصُّ بعضُها فوق بعضٍ انتظارًا -ربما إلىٰ يوم الحشر- لعودة الكتب (المستعارة) إليها!»[1].

ولو خُيِّرتُ فيمن أُعيرهم كُتبي، ما اخترتُ سِوىٰ أمثال الشاعر النمساوي ريلكه تـ١٩٢٦م الذي قال عنه الكاتبُ البارع شتيفان زفايغ في حديثه عنه: «ولو أعَرْتَهُ كتابًا لم يطَّلِع عليه، لأعاده سليمًا ملفوفًا في ورقٍ ناعم، ومعقودًا عليه شريطةٌ ملوَّنة مثل هدية!»[2].

كما أرجو ألَّا تُكلِّفني الليالي بأنَّ أُضطرَّ أن أُعير كُتبي إلىٰ أمثالِ الطاغية جوزيف ستالين -وكان قارئًا نهِمًا كثيرَ الاستعارة- الذي كان لا يُعيد الكتب التي استعارها إلا وهي مُلوَّثةٌ ببصماتٍ من الشحم! وليسَ هذا هو السببَ الوحيد الذي يُبغِّضَ إليَّ إعارةَ أمثالِه، بل لأن الشاعر ديميان بيندي عندما أعربَ عن مقْتهِ أن يُعيره كتبًا لهذا السبب، كان ذلك اليوم -كما يروي غاري سول مورسون- هو آخِرَ يومٍ في حياةِ الشاعر الذي اختفىٰ من شقَّته الفارهة ولم يرَه أحد، وإنْ عرَف مصيرَه كلُّ أحد[3]!

---

(١) مجلة الأديب العدد ١٢/ ١ ديسمبر ١٩٦٩م - مقال: أنا والمكتبات الخاصة لوديع فلسطين.

(٢) عالم الأمس، ص١١٢.

(٣) من مقال جيفري روبرتس (مكتبة ستالين) لأحمد شافعي في إندبندنت عربية بتاريخ ١٤ يونيو ٢٠٢٢م.

مصُّ دماء الفِكر!

«إن الحُكَّام الدكتاتوريين يخافون الكُتب أكثر من أي اختراع بشري آخر على الإطلاق»[١].

---

(١) تاريخ القراءة، ص٣١١.

لا بد لي أن أُطيلَ الكلام في هذا المقال؛ امتحانًا لصبر القارئ الكريم، فإنْ أتىٰ علىٰ آخرِه دفعةً واحدةً دون أن تتراخىٰ عضلاته إرهاقًا، أو تتهدَّل أجفانه نُعاسًا، أو تتداخَل أفكاره اضطرابًا؛ أفرَدتُ له مقالًا مدحًا فيه علىٰ إخلاصهِ، وعدَدْتهُ من القرَّاء الصابرين[1].

لطالما كانَ الكتاب نورًا يقشع ظلامَ الجهل، وفأسًا يَكسِر قيْدَ العبودية، ودليلًا يَهدي إلىٰ سُبلِ الرشاد والنهضة والتقدُّم[2].

ولأن الكِتاب أو الكتب «تُشتِّت الجهل» الذي هو الحارِسُ الضامن للدول ذاتِ الأنظمة البوليسية -كما قال فولتير-؛ فهي مُبغَّضةٌ لدىٰ كل طاغيةٍ ومُستبد، ومُصنَّفة علىٰ أنها عدوٌّ لن تستقرَّ الدولة وتأمنَ إلا بالتخلُّص منه.

ومَن الأكثرُ احتفاءً بالكُتب، واقتناءً لها، واستفادةً منها؟ هم أهل المعرفةِ والفِكر؛ فهُم في نظرِ المستبد خطرٌ داهم يُهدِّد طُمأنينتَه. لذلك نقرأ كيف صوَّر لنا شكسبير في مسرحيتهِ الشهيرة (يوليوس قيصر) خوفَ الطغاة منهم، وأنهم أناسٌ خَطِرون لا يُؤمَن جانبهم. في حوارهِ مع أنتونيوس قال قيصر: «لا أريد مِن حولي إلا رجالًا سِمانًا غِلاظًا مسبولةً شُعورهم ينامون الليل. أما ذلك الرجل كاشياس؛ فإنه قد شحب وجهه ودقَّ عظمه من الفِكر، وإن أمثاله لَأشدُّ الناس خطرًا ووبالًا.

(١) نهَبتُ فكرةَ هذه السطور من الشدياق، راجع الفصل الثاني عشر من الكتاب الأول (الساق علىٰ الساق).

(٢) قد يؤدي أحيانًا إلىٰ عكسِ هذه النتائج، ولكنها استثناءاتٌ لا تُذكر؛ لذا ضرَبنا صفحًا عن هذه الثغرة في القول.

أنتونيوس: لا تخشَ منه بأسًا يا قيصر؛ فإنه ليس ضَغينًا كما تظن، إنما هو رجلٌ من أشراف الرومان رقيقُ الجانب.

قيصر: ليته كان أسمنَ مما هو، ولكني لا أخشاه، غير أنه لو كان مِثلي ممن يَخاف، لما عرَفتُ رجلًا أُمعِنُ في الهربِ منه خوفًا من شرِّه إلا ذلك الهزيلَ الأخمص كاشياس. إنه كثيرُ المطالعة والدَّرس، نقّادة يَسبُر بصائبِ نظراتِهِ غَوْرَ الأعمال وأعماقَ الرجال، لا يميل إلىٰ اللهو واللعب مثلَك يا أنتونيوس!»[1].

والدكتاتور -كما كتبَ علي أدهم- لا يحتمل النَّقد، ولا يصبر علىٰ المعارضةِ، ويَهْوىٰ أن يكون علىٰ الدوام ثَمِلًا بهتافِ مادِحيه وحمَلةِ عرشه، فلا غَرابة إذا غلبَ عليه في النهايةِ الاعتقادُ بأنه معصومٌ من الخطأ، وأنه مندوبُ العناية ومبعوثُ القدَر![2].

لهذا، تجده حريصًا في كل حقبةٍ -عند تمكُّنِه من السُّلطةِ- علىٰ الهجومِ المباغِت للمفكِّرين والمثقفين، وتقييدِ حُريَّتِهم، وإبادةِ وحرقِ ما بحوزتهم من كتب. هذا عندما يكون رحيمًا فقط، وإن كان عكس ذلك -وجُلُّهم كذلك- قذَفَ بهم في لهيبِ كُتبهم المشتعِلة. يفعل هذا لأنه يعلم جيّدًا أنهم -دون غيرهم- أكثرُ جَراءةً علىٰ النقدِ؛ وذلك أن القراءة قد وهبَتْهم المعرفة الكافية والفَهْم الشافي، وعندما يمتلك الإنسان معرفةً وفهمًا تتخلَّق لديه القدرةُ علىٰ التمييز بين الصوابِ وضدِّه والحقِّ وندِّه، وهنا يكمنُ الخطر في رأي المستبدِّ!

ولأجلِ هذه الظروف التي كان يُعاني منها بعضُ المفكرين والمثقفين في ظلِّ سطوة الرأي الواحد؛ كانوا يُعاجِلون كُتبَهم بالحرقِ والإتلاف قبل أن تقَع أو يقعون في القبضةِ التي لا تَرحم. والقصصُ في هذا الباب كثيرةٌ ومؤلمة، منها ما أخبرَتنا بِهِ

---

(١) رواية (يوليوس قيصر)، ص١٧-١٨.

(٢) المذاهب السياسية المعاصرة، ص١١٨.

بحُرقةٍ ظاهرةٍ الكاتبةُ العراقية لطفيّة الدليمي، تقول: «قمتُ -وأنا أنتحبُ- بإحراقِ الكتب مرتين في حياتي؛ تفاديًا لما هو أعتىٰ من السجن، في ١٩٦٣م أحرقتُ أنا وجَدَّتي مئات الكتب حين اعتَقَلَ النظامُ رجالَ الأسرة، ولبثوا مجهولي المصير علىٰ مدارِ ستة شهور. وثانيةً في ١٩٧٩م أحرَقتُ مئاتٍ أخرىٰ في حديقةِ المنزل للسبب ذاتِه، عندما بدأتْ تصفياتُ ومُداهَمات منازل المواطنين غيرِ البعثيِّين، بخاصةٍ المشتغِلين بالثقافة، وبعد أن أنهيتُ مهمة الحرق دفَنتُ الرماد في الحديقةِ الخلفية، وزرعتُ شُجيرةَ ورد الجوري عليها، فأزْهرَت في ربيع الخوف التالي عناقيدَ لهَب. وعند المداهمة المتوقَّعة التي قادها جارُنا المسؤول البعثي مع رهطٍ من أمثاله، احتجَزونا في زاويةِ إحدىٰ غُرَف البيت، ووقفَ أحدُهم لدىٰ الباب وهو يُوجِّه فوهةَ رشاشه نحونا لإرهابنا، بينما انطلَق الباقون لتفتيش المكتبة والمطبخ وغُرَف النوم، وعاثوا فسادًا في البيتِ، ولم يكتفوا بذلك بل اتَّجهوا إلىٰ السطحِ وأفرَغوا خزَّانات الماء التي كانوا يتوهَّمون وجودَ كتبٍ ممنوعة وأسلحةٍ فيها!»[١].

ثمَّ لخَّصَت لنا بإيجازٍ رواية (فهرنهايت ٤٥١) الشهيرة، ولأنها من صَميمِ ما نحن بصدَدِه؛ رأيتُ أن أنقل لك تلخيصَها بتمامِه، فدونك إياه: «رواية (فهرنهايت ٤٥١) للكاتِب الأمريكي راي برادبري، والتي حوَّلَها المخرج الفرنسي فرانسوا تروفو إلىٰ تحفةٍ سينمائية، هي روايةٌ تصدَّت لنمطَين من القمعِ تتعرَّضُ لهما البشرية في جغرافيا الثقافة وتاريخ السياسة؛ الأول هو تحريم الطاغية المتسلِّط قراءةَ الكُتب ومنع الكتابة، والثاني هو هيمنةُ ثقافة الصورة وبرامجِ المسابقات والأغاني التي تحشد في أدمغةِ البشر معلوماتٍ لا قيمةَ لها، لكنها تُشعِرُهم بالرضا عن أنفسهم متوهِّمين أنهم يعرفون، وفي الحقِّ هم أَسْرىٰ التفاهة التلفزيونية.

---

(١) عصيان الوصايا، ص١١٠.

يُجسِّد المشهد الختامي في فيلم فرانسوا تروفو ذروةَ المقاومة الإنسانية للنظام القمعي؛ إذ نرىٰ في غابةٍ تقع عند تُخوم المدينة جمعًا من رجالٍ ونساء ويافعين، وقد تحوَّل كلٌّ منهم إلىٰ كتابٍ حي، وحفظوا أثمنَ كتُب التراث الإنساني عن ظهرِ قلبٍ بعد أن أحرقَت جميع الكتب. فهذا رجلٌ اسمه (الحرب والسلام)، وهذه السيِّدة هي (آنا كارنينا)، والرجل البدين هو ثُلاثية (دروب الحرية) لسارتر، وهذا صبيٌّ يافع هو (دافيد كوبرفيلد) لديكنز، وذاك الشاب هو (الجريمة والعقاب)، والشيخ هو كتاب (البؤساء)، وعندما يُشرِف أحدُ الشيوخ علىٰ الموت، يقوم بتلقين مضمونِ الكتاب الذي يحفظه إلىٰ صبيٍّ صغير، وحالما يُنجز المهمة يُغمِض عينَيه مُطمئنًّا إلىٰ بقاءِ الكتاب في الذاكرةِ الإنسانية.

يُقدِّم لنا راي برادبوري نظامًا يُعاقب كلَّ مَن يمتلك كتبًا بالسجن، وتُحرَق كتبه علانيةً في الساحاتِ العامة، وتكمن مفارقةُ النظام الدكتاتوري في أنه يقلب الوظائفَ إلىٰ ضدِّها؛ إذ يُحوِّل فرقةَ إطفاء الحرائق إلىٰ فرقةِ إحراق الكتب، وتُسمَّىٰ فرقة (فهرنهايت ٤٥١) وهي الدرجة التي يحترق فيها الورق، وفي زمنٍ لا مُحدَّد -ربما هو زمنُنا- تُداهم فرقةُ حرق الكُتب المنازلَ التي يُبلِّغ عنها جواسيسُ النظام، ويُحطِّم رجالُها كلَّ ما يقع تحت أيديهم، ويجمعون الكتب التي يجري حرقُها باستخدام قاذفات اللهب أمام الجموع، ويقول أحد رجال الفرقة: (الكتبُ مُجرد نُفاياتٍ تسلب الناسَ السعادةَ وتُقلق حياتهم وتدفعهم للتمرُّد علىٰ المجتمعِ؛ لذا يتوجَّب حرقُها). ويُخبر صديقه بأن حرق الكتب عملٌ مثير ومتجدِّد: (يوم الاثنين نحرق هنري ميللر، والثلاثاء تولستوي، والأربعاء ماركس، والخميس نيتشه، إنه عملٌ مُسلٍّ ومنجز، إنها مهنةٌ مثل كلِّ المهن). تسأله فتاة: هل أنت سعيد؟ لا يجد جوابًا. تسأله: هل جرَّبتَ قراءة كتاب؟ يقول: لا. تقول له: حاوِلْ أن تفعل، وتعالَ

لتتحدثَ لاحقًا. ويبدأ مونتاغ[١] بسرقةِ بعض الكُتبِ بينما تتحوَّل زوجته مدمنةُ التلفزيون والحبوب المهدئة إلىٰ نوعٍ من روبوت، يُعْوِزُه الوعيُ والمشاعر وتبدأ ترتاب بامتلاكِ زوجها للممنوعات وهي مُحاطةٌ بشاشات عملاقة في أنحاء البيت، وتتحدَّث عبر برامجَ تفاعليةٍ مع مُقدمي البرامج، وتدور في حلْقةٍ مُحكَمة من التخدير الإعلامي وهيمنةِ الميديا علىٰ عقلها.

مشهد: امرأةٌ مُسنة هي كاتبةٌ ومدمنةُ قراءة، تملك آلافًا من الكتبِ، تُداهمها الفرقة وتكدِّس كتبها للحرقِ فتصرخ وهي تقفُ علىٰ كومةِ الكتب: (احرقوني معها؛ فالعالم لا يعني لي شيئًا من دونها).

يحدث التحوُّل الأهمُّ في حياةِ مونتاغ حارقِ الكُتب عندما يُخبر صديقتَه بأنه سيُدمر النظام من داخله، وسوف يدُسُّ كتبًا من الممنوعات لكل حارقٍ من فرقته لتنهارَ الفرقة ويتوقَّف إرهابُ السلطة للناس؛ لكنَّ زوجته المتحوِّلة إلىٰ كائنٍ مُدجَّنٍ تُسيِّرُه الميديا الموجَّهة من قِبَل السلطة تُبلِّغ الفرقة عن خُطته، فيُحاصرونه ويعثرون علىٰ الممنوعات في حيازته، لكنه يستخدم قاذفةَ اللهب ضدهم ويهرب إلىٰ غابة التراث الإنساني مع صديقته، ويَبْدآن بحفظِ مجموعةٍ من الكتبِ القيِّمة بين كائنات الكتب الحيَّة». تتساءل لطفيّة الدليمي بعد كل هذا: «تُرىٰ مَن يحفظ ذاكرةَ الحياة في عصرنا لأزمنة قادمة؟»[٢].

* * *

ونذكر كيفَ كان الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية ١٩١٧ -في الغالب- خاضعًا للمحاصرة ومقصِّ الرقيب. كان من الصعب نشرُ النصوص السياسية في

---

(١) غاي مونتاغ هو بطل الرواية.

(٢) عصيان الوصايا، ص١١٠-١١٣. وراجع، ص٨٥ من الرواية القصيرة الرائعة لكروش (الكتب التي التهمَت والدي)، (والكتابة بحبر أسود) لحسن مدن، ص١٧٧-١٧٨.

عهدِ النظام القيصري، وقد أودِعَ كُتَّاب المقالات في المصحَّات إلىٰ أن «يتعافَوا!». وبعبارةٍ أخرىٰ أدقَّ؛ احتجَزهم النظام حتىٰ يتَراجعوا علانيةً عن آرائهم.

كان الرقيبُ هو القيصرَ بنفسه، حاكم البلاد. مثلًا، كان الإمبراطور نيقولاس الأول يُصرُّ علىٰ قراءة عددٍ من قصائد الشاعر (بوشكين) قبل أن تُطبَع. ونتيجةً لذلك، حُظر نشرُ بعضها، وأُجِّل نشرُ قصائد أخرىٰ، ودمَّرَ الشاعرُ بنفسه بعضًا من كتاباته؛ خوفًا من اقتحامِ منزله فجأة[1].

ولم يختلف الحال بعد الثورةِ البلشفية وظهورِ فلاديمير لينين، عمَّا كان عليه قبلهما؛ فقد غالت روسيا -كما كتبَت ربيكا نوث- في الرقابةِ علىٰ المطبوعات فتطرَّفَت. وبدءًا من عام ١٩١٧ سيطرَت علىٰ المكتباتِ الروسية «سياسةُ التطهير الدائم»؛ إذ دارَت عجلة الرقابة وفقًا لإملاءات الحزب في كل مرحلة.

كانت لحملاتِ التطهير سِمَتان رئيستان؛ هما: الحماية الأيديولوجية للجماهير، والتشويهُ المتتابع لسُمعةِ المعارضين السياسيِّين. وبانتصاف العام ١٩١٨ كادت أرففُ المكتبات القديمة الراسخة تكون خاويةً تقريبًا؛ إذ أُرسلَت الكتب إلىٰ مصانعِ الورق أو حُفِظَت في مستودَعات. وبحلول عام ١٩٢٤ بدأت عمليات محو المطبوعات المشكوك فيها؛ لا سيَّما في مجالاتِ الفلسفةِ وعلم النفس والأخلاق والدِّين والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية وتاريخ الأدب والتاريخ والجغرافيا والآداب وكتب الأطفال! أُزيلَت أعمال أفلاطون وكانط وتولستوي ودوستويفسكي وآخرين، فيما أطلَق عليه غوركي اسمَ «مصِّ دماء الفكر». وربما أمكن استخلاصُ سياسة الحزب الشيوعي في هذا الشأن من تعليقاتِ زوجة لينين، كروبسكايا، التي كانت واحدةً من الرُّقباءِ علىٰ المطبوعات؛ فقد كان المرغوبُ فيه تطهيرَ كتب الفلاسفة لأنها تُروِّج أفكارًا ضارَّة، وأيضا لأنَّ وجودها كان عبَثًا؛ إذ «لن يقرأ رجلٌ

---

(١) مقال «لينين قارئًا» لمريم ناجي، بتاريخ ٣٠/ ١٠/ ٢٠١٨ في موقع منشور Manshoor.com.

من جماهيرِ الشعب كانط!» أما الكتب الأخرىٰ فهي خبيثةٌ ومُهلكة؛ لأنها تتحدَّث عن الدِّين أو هُراءِ أنظمة الحكم التقليدية، أو موضوعاتٍ «ولَّىٰ زمنها» كما ورد الاقتباس.

طَرَحت كروبسكايا أفعالها بوصفها إجراءاتٍ تحمي مصالحَ جمهور القرَّاء، وتُحصِّنهم ضد الأثر المدمِّر للأعمال غير المرغوب فيها، وتحت توجيهها استمرَّت حملاتُ التطهير؛ شاء مَن شاء، وأبىٰ مَن أبىٰ، فقد مارسَ القيِّمون علىٰ المكتباتِ بقلوبٍ مِلؤُها الخوفُ عملياتِ التطهير طائعين بغير هدًىٰ، وأظهر السياسيون المحليون مُناصرتَهم لما رأَوا فيه مهمةً سياسية!

بل إن الوضع صارَ أكثرَ فوضويةً تحت حُكم ستالين؛ إذ كانَ تطهيرُ الكُتب يُضاهي حملات التطهير الجماعية للأعداءِ السياسيين. ووَفقًا لرأي بوريس كورش «كانَ النِّظام الستاليني يتَخلَّص من الأشخاص، وكان يتعيَّن إخفاءُ كل شيء يَمُتُّ لهم بصِلة؛ بما في ذلك كلُّ كلمة كتبوها. كتُبهم ومقالاتهم وأحاديثهم؛ صارت كتبُهم لم تُسطَّر، ومقالاتهم لم تُكتَب، وأحاديثهم لم يُتفوَّه بها، مثلما صاروا هم أشخاصًا لم يولَدوا[(١)]!

وممَّا ذكره ميلوفان دجيلاس في مُحادَثاتهِ أن ستالين قال في مجلسٍ خاصٍّ وأثناء حديثٍ ثقافيٍّ عن دوستويفسكي: «إنه كاتبٌ كبير ورجعيٌّ كبير. ونحن لا ننشر كتبَه لأنَّ لها تأثيرًا سيئًا علىٰ الشباب، ولكنه، حقًّا، كاتب عظيم!»[(٢)].

* * *

«لقد أبليتم [أيها الطلاب] بلاءً حسنًا في هذه الليلة؛ بإلقاء آثار الماضي هذه في قلبِ النيران. هذا استعراضٌ مُفْعَمٌ بالقوةِ وعظيمٌ ورمزي، استعراض ينبغي أن يوثَّقَ للعالم أجمعَ ما يلي: هنا تتهاوىٰ الأسسُ الروحية لجمهورية [فايمر] نوفمبر.

(١) إبادة الكُتب، ص٩٨-٩٩.

(٢) محادثاتي مع ستالين، ص١٥٠.

لكن من هذا الحطام سوف تنهضُ عَنْقاءُ روح جديدة.. الماضي يرقد هنا في قلبِ النيران.. واليوم، تُظِلُّنا هذه السماء، وأمام هذه الألسنة من النيران سنُقسِم قسمًا جديدًا: الرايخ الثالث والأمَّة وزعيمنا هتلر - يعيش! يعيش! يعيش!»[1].

هذه الكلمات من خطابٍ ألقاه وزيرُ الدعاية الألماني غوبلز في برلين، أمامَ إحدىٰ حفلات حرق الكُتب.

في كتابهِ (تاريخ ألمانيا الهتلرية) يُحدِّثنا وليم شيرر عن إحدىٰ هذهِ المحارق الثقافية التي قامَ بها الحزب النازي عند تَولِّيه السُّلطة، قائلًا: «شهدَت برلين مساءَ العاشرِ من أيار عام ١٩٣٣؛ أي: بعد أربعة أشهر ونصفٍ من ارتقاء هتلر سُدَّةَ المستشارية، حادثًا عجيبًا لم تشهد أوروبا الغربيةُ مثيلًا له منذ أيامِ القرون الوسطىٰ. فلقد وصلَ عرضٌ قام به أُلوفُ الطلاب يحملون المشاعلَ عند منتصف الليل إلىٰ ساحةٍ عامة تقعُ مقابل جامعة برلين في شارع أونتردن لندن. وسرعان ما اشتعلَت النيرانُ بكومةٍ هائلةٍ من الكتبِ وُضِعت في الساحة، ثم بدأ الطلاب يقذفون بالكُتبِ في النارِ المشتعِلة إلىٰ أن بلغَ ما أُحرق منها نحوًا من عشرين ألفًا. ووقعَت مَناظرُ مماثلة في عدةِ مدنٍ أخرىٰ، وهكذا بدأتْ عملياتُ إحراق الكتب. وكان الكثير من هذه الكُتبِ التي التهمَتْها النيرانُ في برلين تلك الليلةَ علىٰ مشهدٍ من الطلاب الفرِحين، ومرأىٰ من الدكتور غوبلز من تأليفِ عددٍ من المؤلفين من ذَوي الشهرة العالمية، من أمثال: توماس مان، وهنريخ مان، وأرنولد، وستيفان زفايغ، وإيريك ماريا ريمارك، وألبرت أينشتاين، وغيرِهم. ولم يقتصر الإحراقُ علىٰ عشَراتٍ من الكُتَّاب الألمان فحسب، بل تَعدَّاها إلىٰ كُتَّابٍ أجانبَ من أمثالِ جاك لندن، وهيلين كيلر، و ه. ج. ويلز، وفرويد، وأندريه جيد، وإميل زولا، ومارسيل بروست... ويقول البيانُ الذي أصدرَه الطلاب: (إنَّ كل كتاب يعمل في تهديمِ مُستقبلنا أو يضربُ بمَعاوِلهِ جذورَ

(١) إبادة الكتب، ص٨٤.

ثقافتنا الألمانية، وبيتنا الألماني، وقُوىٰ شعبنا المحرِّكة، مصيره إلىٰ الحرق).

وألقىٰ الدكتور غوبلز وزيرُ الدعاية، الذي شرَعَ منذ الآن يُقيِّد الثقافة الألمانية ضِمن إطار النازية المحكَم، خِطابًا علىٰ الطلاب، بينما كانت ألْسِنةُ اللهيب تُحيل الكُتبَ إلىٰ رماد: (في وُسْع الروحِ الألمانية أن تُعبِّر عن نفسها من جديد، ولا يقتصر عملُ هذا اللهيب علىٰ إضاءةِ الخاتمة النهائية لعهدٍ مُدبِر، بل يُضيء أيضًا حقبةً مُقبلة)»[1].

كان غوبلز، مهندسُ المجتمع الجديد، يحتفل بإحراق الكتب بوصفه رمزًا للتطهُّر الثوريِّ ونهضة ثقافية وشيكة[2]. حقًّا لقد كان الشاعر هاينرش هاينه تـ١٨٥٦ ذا نظرةٍ استشرافية عجيبة لَمَّا قال: «هناك حيث يحرقون الكتب سينتهون بحرقِ البشر»[3].

وعن حادثة حرقِ الكتب المؤلمة تكتبُ ربيكا نوث في كتابها: «بالنسبةِ إلىٰ أحداثِ إحراق الكتب في العام ١٩٣٣ التي صعقَت العالم؛ كان أداتَها الطلابُ الذين استُغِلُّوا لقيادةِ حفلِ إحراق الكتب باستيلائهم عليها من أرففِ جامعاتهم. وعلىٰ رغم أنَّ هذا التدمير للكتب خُطِّط له لكي يبدوَ كأنه ثورةٌ تلقائية أشعَلها شبابٌ غاضب ضدَّ كلِّ موروث فكري ضار، فإن ما حدَث كان بالفعل محرقةً جنائزية للعقل»[4].

* * *

والمستبدُّون في كلِّ زمانٍ ومكان ليسوا أغبياءَ[5]، فلا بد دائمًا من حُجةٍ وتبريرٍ لطُغيانهم. فهم يَحرِقون هذه الكتبَ ويَجِدُّون في مُطاردةِ أهلها؛ حمايةً لعقول الشباب

---

(١) تاريخ ألمانيا الهتلريّة، ج١، ص٤٤٠-٤٤١.
(٢) إبادة الكُتب، ص١٣٥.
(٣) الأعمال، ج١، ص١١٧ لعبدالفتاح كيليطو.
(٤) إبادة الكتب، ص١٣٢. وكما قال كاريون: «لا يمكن تصوُّرُ أوضاعٍ أكثرَ بؤسًا من الرفوف شبه الخاوية في المكتبات، أو بقايا عملية حرق الكتب». [زيارة لمكتبات العالم، ص١٠٥].
(٥) لا تأخذ هذا القولَ علىٰ إطلاقه، والحُكم علىٰ محمل الجد.

من الانحراف، وحرصًا علىٰ ثقافةِ البلاد من التلوُّثِ والتَّلَف، وسعيًا للقضاء علىٰ كُلِّ ما يُعطِّل حرَكةَ التنوير والنهضةِ والتقدُّم! وعلىٰ حدِّ قول عبدالرحمن بدوي: «ما من مستبدٍّ طاغية في العصرِ الحاضر إلا وادَّعىٰ أن ما يُصدِرُه من قراراتٍ وقوانين إنما هو لمصلحة الشعب»[1].

وعلىٰ ذكرِ النازية؛ لقد نَجا أرشيف الكاتب التشيكي كافكا من محارقِها، هذا الأرشيفُ العجيب الذي سَلِمَ من مخاطرَ عديدة منذ قيام برود[2] بحفظِهِ عام ١٩٢٤م. يُحدِّثنا أمين مكتبة البودلين، ثاني أكبرِ مكتبة في بريطانيا، ريتشارد أوفندن من أنه في عام ١٩٣٨، مع استعداد النازيِّين لدخول المدينة وفرضِ سيطرتهم، كان برود علىٰ متنِ أحَد القطارات الأخيرة التي غادرَت المدينة مع حقائبَ مملوءةٍ بالأوراق. وما دامَ الحديثُ قادنا إلىٰ كافكا، فلنذكُر طرَفًا من خبرِ وصيته الغريبة!

مما حدَّثنا به أوفندن قوله: لم ينشر كافكا إلا القليلَ من الأعمالِ في حياته، منها مجموعةٌ من القصص القصيرة، وطبيب ريفي، ولم تكن ناجحةً ماديًّا.

في عام ١٩٢١و١٩٢٢ اتّخذَ قرارًا بإتلافِ كل أعماله، وهذا ما ذكَرهُ لصديقهِ المقرَّب ووصيِّه ماكس برود في مُحادثاتهما الخاصة ومراسلاتهما. في مراحلِ حياته الأخيرة، روىٰ برود ردَّه التاليَ علىٰ كافكا: «إذا كنتَ تعتقد أنني قادرٌ علىٰ أمرٍ كهذا، دعني أقولها لك هنا والآن: إنني لن أحقِّقَ أمانيَّك».

بعد موتهِ جمَع برود أوراق كافكا من المستشفىٰ قُرب فيينا حيث مات، ومن غرفةٍ في بيتِ والدَيه في براغ حيث كان للكاتب مكتب. حَمَلت تلك الأوراقُ ملاحظتين من كافكا إلىٰ برود، نُشِرَتا بعد وفاة كافكا بوقتٍ قريب. تُعطي الأولىٰ

(١) سيرة حياتي، ج١، ص٣٥٠.
(٢) ماكس برود صديق كافكا المقرَّب ووصيه علىٰ إرثه الأدبي.

إرشاداتٍ واضحةً ودقيقة: «عزيزي ماكس، طلبي الأخير: كل شيء تركتُه خلفي.. من اليوميَّات، والمخطوطات، والرسائل (من الآخرين ومني)، والمسوَّدات، وغيرها.. يجب أن يُحرَق دون أن يُقرَأ، بالإضافة إلىٰ الكتابات والمسوَّدات التي قد تمتلكُها أنت أو غيرُك.. إذا اختارَ الناس ألَّا يُعطوك الرسائل، ينبغي عليهم علىٰ الأقل أن يتَعهَّدوا أن يُحرقوها بأنفسهم». [صديقك: فرانز كافكا].

لكن الملاحظة الثانية عقَّدَت الإرشاداتِ الواضحةَ في الأولىٰ! بدأها بفاتحةٍ وداعيَّة: «عزيزي ماكس، هذه المرة حقًّا قد لا أنهض مجدَّدًا، من المُرجَّحِ جِدًّا بدءُ ذات الرئة بعد شهرٍ من الحمَّىٰ الرئوية. في هذه الحالة فإنَّ وصيتي الأخيرة فيما يتعلَّق بكل كتاباتي...» ثم ذكر كُتبه المُعترَف بها، وأنه لا يُمانع أن يحتفظ بها كلُّ مَن كانت عنده، ومع هذا يقول: «لا أعني أني أملك أيَّ أُمنية بإعادةِ طبعها وتوارُثِها في المستقبل، علىٰ العكسِ تمامًا، إنْ كانت ستختفي بشكلٍ تام، فإنَّ ذلك سيتوافق مع أمنيتي الحقيقية. لكن بما أنها موجودة، فلن أمنع أحدًا من الاحتفاظ بها لو أرادَ ذلك».

وعليه اتَّضحَت مُعْضِلةُ برود؛ هل يجب عليه تحقيقُ الأمنية الأخيرة لصديقه، أم أنَّ عليه السماحَ لأعماله الأدبية بالبقاء؛ ليتعرَّف إليها جمهورٌ أوسع، الشيء الذي كان يعلم أن كافكا سيُسَرُّ به؟ في النهاية، اختار برود بجُرأةٍ وهو في موقفٍ أخلاقي عصيب تجاهُلَ وصيةِ صديقه. وفي دفاعه يحتجُّ بأنَّ كافكا كان يعلم أنه -أي ماكس- لن يمضيَ بقراره؛ لأنه لو كان جادًّا بحق، كان سيطلب من شخصٍ آخرَ إتلاف الأوراق.

كان برود عازمًا علىٰ إيصال كافكا إلىٰ المكانةِ التي لم يُدرِكْها أبدًا أثناء حياته، والتي شعر بأنه يستحقُّها أدبيًّا وثقافيًّا.

يختم أوفندن قائلًا: «لو أن برود لم يعصِ صديقَه، وأتلف أرشيف كافكا لكان

العالم محرومًا من أحدِ أكثر الأصوات الأدبية ابتكارًا وتأثيرًا في القرنِ العشرين»[1].

يقول عبدالفتاح كيليطو: «كيف التجرُّؤ علىٰ تدميرِ كتابٍ لم يُدمِّرْه مؤلفُه؟ هكذا أنقذ ماكس برود مؤلفاتِ كافكا، رغم التوصية الصريحة من هذا الأخير. مهما يُقال فإنَّ الكتاب موضعُ احترام، وليس من السهلِ التضحيةُ به»[2].

وهنا تذكَّرتُ وصيةَ كامل الشناوي للكاتبِ أحمد رجب، وكانت عكس وصية كافكا تمامًا: «أنت يا صديقي أحمد، تَصغرُني بعشرين عامًا علىٰ الأقل، وستعيش بعدي، وعندما تحترق سيجارةُ حياتي ويرشف القدَرُ آخرَ نفَس فيها، فاهْرَع إلىٰ بيتي، وخُذ ما تجده من أوراقٍ وانشره علىٰ الناس، وما أقوله لك ليس مُداعبةً، ولكن وصية أسجِّلها هنا علنًا وعلىٰ رؤوس الأشهاد». [جريدة الجمهورية ١١ أكتوبر ١٩٦٢][3].

وأنتَ يا صديقي القارئ، لا أظنك بحاجةٍ إلىٰ فطنةٍ زائدةٍ لتُدرِك أن خبر كافكا وأرشيفه كان استطرادًا لإتمام الفائدة، فأرجو ألا يُغضِبَك هذا.

* * *

ولأننا لا نزال في برلين، ونرعىٰ حول حِمَىٰ النازيِّين؛ لا يمكن أن نرحل عن هذا المرتَعِ الوخيم دون أن نأتيَ علىٰ ذِكر الكاتب النمساوي العبقري شتيفان زفايغ الذي حاصَرَته قبضةُ هتلر، فعاشَ طريدًا شريدًا غريبًا، خائفًا يترقَّب!

يقول عن نفسِهِ في آخرِ حياته: «أنا لا أنتمي إلىٰ أي بلاد، وحيثما حلَلتُ فأنا غريب، أو ضيفٌ في أحسنِ الأحـوال»[4]. وعندما نقلَ قول جريلبارتسر: «نجد

---

(١) إحراق الكتب، ص١٤٦-١٥٢.

(٢) الأعمال لكيليطو، ج١، ص١١٧.

(٣) في أول صفحات كتاب يومياته - دار الكرمة.

(٤) عالم الأمس، ص٦ - ستيفان زفايغ - دار المدىٰ.

مواضعَ للهجرة، ولا نجد وطنًا» أضاف: «مُشرَّدين في لغاتٍ مستعارة، تتقاذفنا الرِّياح»[1].

وكان يُفكِّر دائمًا بما قاله له أحد المنفيِّين الروس: «كان الإنسان في الماضي له جسدٌ وروح فقط، أما الآن فهو يحتاج إلىٰ جوازِ سفر أيضًا، وإلا لن يُعامَل معاملةَ الكائن البشري»[2].

وما أصدقَ قولَه في كتابهِ (عنف الدكتاتورية): «أبدًا، لا يُمكن للحريَّة الفكريَّة أن تشعر بتحقيقِ ذاتها في ظلِّ الدكتاتورية، ولا الدكتاتورية تستطيع أن تُواصل العيشَ من دون قلقٍ في ظل وجودِ رجل مستقلٍّ، ولو وحده، داخل حدودها»[3].

وفي نصٍّ مؤلم يُحدِّثنا عن أبرز حدثٍ في حياته، وكيفَ حظر هتلر كتبه ودفَنه وهو حي، وأصبح كلُّ مجدٍ ناله طريحًا في سِجلَّات التاريخ، يقول: «إن أبرَز حدثٍ في حياتي الشخصية في تلك الأيام كان حضورَ ضيفٍ أحسنَ بالإقامة معي غايةَ الإحسان، وهذا الضيف الذي لم أتوقَّعْه قط؛ هو النجاح. ومن المفهوم ألا أشعرَ بالارتياح إلىٰ ذكرِ رَواج كتبي، وفي الأوقاتِ العادية كنتُ تلافيتُ حتىٰ الإشارةَ العارضة التي كان يُمكن أن تُفسَّر بأنها خُيَلاء أو تفاخُر. ولكنْ لي حقٌّ خاص، بل أنا مُلزمٌ ألا أتجاوزَ هذه الحقيقة في قصةِ حياتي؛ لأنَّ هذا النجاح عند مجيء هتلر منذ تسعة أعوام قد أصبح جزءًا من التاريخ. فمِن مئات الآلاف، وحتىٰ الملايين من كتبي التي احتلَّت موضعها الآمنَ في المكاتب، وفي منازلَ لا تُحصىٰ في ألمانيا، لا يمكن الحصولُ علىٰ واحدٍ منها اليوم. ومن يمتلك نسخةً الآن يحرص علىٰ إخفائها، وأما في المكاتب العامة، فإنها تظلُّ في صندوقٍ مقفل يُسمَّىٰ (خِزانة السموم)[4]

---

(١) عالم الأمس، ص٢٦٧.

(٢) عالم الأمس، ص٣٢٠.

(٣) عُنف الدكتاتورية، ص١٠٩.

(٤) فرَض النازيون سيطرتَهم علىٰ صناعة النشر الألمانية وأعادوا تدريب القيِّمين علىٰ المكتبات

للذينَ يريدون استخدامها بعد إذنٍ خاصٍّ من السلطاتِ استخدامًا عِلميًّا، من أجل الافتراء وتشويه السُّمعة في الغالب. وإنَّ أحدًا من قرَّائي، أو أصدقائي الذين كانوا يُكاتبونني، لم يجرؤ منذ وقتٍ طويلٍ علىٰ كتابةِ اسمي سيِّئِ السمعة علىٰ ظرف. وليس هذا كلَّ شيء؛ ففي فرنسا أيضًا، وإيطاليا، وكل البلدان المستعبَدة الآن. حظرَ هتلر كتبي المترجَمةَ التي كانت من الكتبِ الأكثرِ رواجًا. واليوم أنا ككاتبٍ (أسيرُ وراء جُثماني) كما قال الشاعر النمساوي جريلبارتسر، فكل شيء، أو كل شيء تقريبًا، يُمثِّل عملي في العالم خلالَ الأربعين سنةً الماضيةِ قد دمَّرَته القبضةُ ذاتُها. لذلك، فإذا أشرتُ إلىٰ نجاحي، فإنني لا أشير إلىٰ شيء يخصُّني، بل إلىٰ شيء كان لي في الماضي؛ مِن مثلِ منزلي، ومسقطِ رأسي، وأمني، وحريتي، وراحة بالي. وليس في وُسعي أن أصِفَ وصفًا ملائمًا لذلك السقوط في الهاوية، والذي قاسيناه أنا وما لا يُحصىٰ من الأبرياء مثلي، إذا لم أُشِر إلىٰ الارتفاع الذي حدَث منه، وإلىٰ عاقبة هذا الدمار الذي أصاب جيلَنا الأدبي كلَّه، وهو حدثٌ فريد في التاريخ»[1].

وبعد كلِّ هذا الألم الذي عاشه وتعايشَ معه إلا قليلًا[2]، والاضطهاد الذي مورِسَ ضدَّه، والاستبداد الذي ابتلع حقوقَه؛ نجده يقول: «وعلىٰ كثرةِ ما سلبَني إياه هتلر، فقد عجز عن أن يُصادر أو يُدمِّر مَسرَّةَ عيشي حياةَ أوربيٍّ قرابةَ عَقدٍ من الزمن حُرَّ الإرادة وكاملَ الحرية الداخلية»[3].

نعم، فإن الدكتاتور مهما بلغَت قوَّتُه وتضاعفَ جبروته؛ لن يستطيع سلبَ

وبائعي الكتب، وطهَّروا المكتبات من الموادِّ غيرِ المرغوب فيها والمنحرفة أيديولوجيًّا، ووجَّهوا الجهاز الفكري للدولة بكاملهِ نحو إنتاج موادَّ تُروِّج للرؤية النازية. كانت هناك «قوائمُ سوداء» بهدفِ التخلص من الكتب، و«قوائمُ بيضاء» لإرشاد عمليات اقتناء المكتبات للكتب. (إبادة الكتب)، ص١٢٤.

(١) عالم الأمس، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢) لأنه انتحرَ يائسًا من صلاحِ العالم بعد ذلك.

(٣) عالم الأمس، ص٢٥٦.

الشريف الأبيِّ حُريَّتَه الداخلية، هذه الحرية التي تجعله شامخًا حرًّا وإن كان مُقيَّدًا بالأصفاد.

عند كتابتي هذه الأسطرَ الأخيرة ألحَّت صورةُ المجاهد البطل عمر المختار رحمه الله علىٰ عقلي بالظهور، أعني صورتَه وهو مقيَّدٌ بالسلاسل كالأسدِ بين الثعالب جنود الطُّلْيان، وتذكَّرْتُ قول الجنرال غراتسياني له قبل شنقِه: «ما قولك لو أنَّ الحكومة الإيطالية بعطفٍ منها ورحمة ترَكَتك تعيش، هل تعِدُ أن تعيش ما تبقَّىٰ لك من عمرٍ في هدوءٍ وسلام؟» فأجابه الهِزَبرُ: «لن أتوقَّف عن حربكم حتىٰ تُغادروا بلدي، أو تُغادر روحي بدَني. وأُقسم لك بالله الذي يَعلم ما تُخفي الصدور، لو لم تكن يداي مقيَّدتَين في هذه اللحظة لَضربتُك بيديَّ الخاليتَين وأنا عجوزٌ ومُصاب»[1].

فما كان من غراتسياني اللعينِ إلا أن ضحك وأمر بشنقهِ في ساحةِ سوقِ بلدة سلوُق، فكان ذلك. ثم ساقوا آلافًا من المسلمين بالقوَّة رجالًا ونساءً من معسكراتِ التجميع التي كانوا بها، وأجبَروهم علىٰ مُشاهدةِ قائدهم وهو مُعلَّقٌ في حبلِ المشنقة. وكان ذلك في السادسَ عشَر من سبتمبر ١٩٣١م[2].

ورحمَ الله شوقي حيث قال في همزيته التي مطلعها:

ركَـزُوا رُفـاتَـكَ في الـرِّمـالِ لِـواءَ   يَسْتنهِضُ الـوادي صباحَ مَساءَ

يقول:

خُيِّرتَ فاخترتَ المَبيتَ علىٰ الطَّوىٰ   لـم تَـبـنِ جـاهًـا أو تَـلُـمَّ ثَـراءَ
إنَّ البطولةَ أن تموتَ مِن الظَّما   لـيسَ البُطولة أن تَـعُـبَّ الـماءَ

(١) وكان عمره آنَذاك ٧٣ سنة!
(٢) الطريق إلىٰ مكة، ص٤٧٩.

حتىٰ قال فيها:

بطلُ البداوةِ لم يكُن يَغْزو علىٰ تَنَكٍ ولم يكُ يركبُ الأجْواءَ[1]
لكنْ أخو خيلٍ حَمىٰ صهَواتِها وأدارَ مِن أعرافِها الهَيْجاءَ

إلىٰ آخرِ ما قاله في رثائهِ لأسدِ الصحراء.

ما حاجتُك بهذه النظرة التي ترمقُني بها الآن، أيها القارئ الكريم؟ نعم؛ هذا استطرادٌ ثانٍ، ولا أظنُّ بأنَّ لديك مانعًا، لا سمح الله!

* * *

الطاغية الغازي إذا أرادَ السيطرةَ علىٰ بلادٍ ما، في وقتٍ وجيز، سعىٰ إلىٰ تحطيمِ عَزائمِ أهلها، ويفعل ذلك بمُهاجمةِ أنْفَسِ وأهمِّ ما لديهم؛ فإمّا أن يُكثِّف الهجومَ علىٰ دُورِ العبادة التي تضبط اتِّزانَهم الروحي، أو الجامعات والمدارس والمكتبات والمتاحف التي تحفظ نُموَّهم المعرفي ومخزونهم الثقافي. وهذا ما فعله السفَّاح الصربي سلوبودان ميلوزفيتش في خُطتهِ لتدمير البوسنة.

كانت القذائف تتساقط بشكلٍ مروِّع في الخامسِ والعشرين من آب عام ١٩٩٢ علىٰ مَبنًىٰ في العاصمةِ سرايفو. كان هذا المبنىٰ الذي يستقبلُ القذائف المتفجِّرة هو المكتبةَ الوطنية للبوسنة والهرسك!

المكتبة الوطنية للبوسنة والهرسك موجودةٌ في مبنًىٰ يُطَلق عليه فياشنيكا (دار المدينة)، وكانت تحتوي -كما أخبرَنا أوفندن وربيكا نوث- علىٰ مليونٍ ونصف المليون مجلَّد، و١٥٥ ألفَ كتابٍ ومخطوطٍ نادر، والأرشيف الوطني للبوسنة، ونسخًا مودَعةً من الصحف والدوريات والكتب المنشورة في البوسنة. وقد فهرسَ موظَّفوها رسائلَ الماجستير والدكتوراه والأبحاث العلمية! وغير ذلك من الوثائق

(١) التنك: الدبَّابة.

والمقتنَيات الثمينة. لم تكن تعتبر سِجلًّا كاملًا وشاملًا عن تاريخِ ذلك البلد الذي يُؤوي الكثيرَ من السكان المسلمين وحسب، بل أعظمَ من ذلك. لم تُصِب القذائفُ مبنىٰ المكتبة عن طريقِ الخطأ، ولم تتعرَّض المكتبةُ للتدمير بسببِ وجودها علىٰ خطِّ النار بين أطرافِ الحرب في المنطقة، ولم تُرِد القواتُ الصربية فرض هيمنتها العسكرية علىٰ المنطقةِ فحسب، بل أرادت إبادةَ المسلمين فيها. لم تتعرَّض أيٌّ من المباني المجاورة للمكتبة لأيِّ أذىٰ، فالمكتبة كانت الهدفَ المقصود![1].

وتأمَّلْ هذا النصَّ الأدبي الذي كتبَهُ مساعدُ وزير العلم في البوسنة بعد حرقِ المكتبة الوطنية، كتبَ واصفًا: «استمرَّ الهجوم أقلَّ من نصفِ ساعة. واستمرَّت ألْسنةُ اللهب خلال اليوم التالي. وحجَب الدُّخانُ المتصاعد من الكتبِ المحترقة أشعَّةَ الشمس، وتناثر الورقُ المحترق في أرجاءِ المدينة، بقايا صفحاتٍ هشَّة تتساقط كأنها نُدَفُ ثلج أسود قذر. وإذا ما لمستَ صفحة لَشعَرتَ بسخونتها، وقد تقرأ للحظاتٍ قصاصةً من نصٍّ مطبوع علىٰ ورقةٍ سوداء ورمادية كصورةٍ في حالة السلب، إلىٰ أن تتبدَّد سخونة الورقة وتذوبَ في يدك وتستحيلَ إلىٰ رماد»[2].

ولم يكتفِ السفَّاح بقصفِ المكتبة بالقذائف، بل أمَر بنشرِ قنَّاصين لقتلِ رجال الإطفاء الذين يُحاولون إخمادَ النار المشتعلة، وقتَل أيضًا المتطوِّعين الذين يُحاولون إنقاذَ ما يمكن إنقاذه من الكتبِ النادرة والمقتنيات المهمة. لقد بذَل أهل سراييفو الذين صعَقَتهم الصدمةُ كلَّ ما في وُسعهم لإنقاذ الكتب، وشكَّلوا سلسلةً بشرية لتمريرها، علىٰ الرغم من استمرار نيران القنَّاصة.

---

(١) راجع (إحراق الكتب)، ص٢٢١-٢٢٣، و (إبادة الكتب)، ص١٧٣-١٧٤.
(٢) إبادة الكُتب، ص٢٢.

وفي الساعةِ الثانية من ظُهرِ ذلك اليوم أُصيبَت الخبيرة اللُّغوية آيدا بورتورفيتش برصاصةِ أحد القناصين أرْدَتها قتيلة. كانت آيدا في الثلاثين من عمرها، وهي إحدىٰ عاملات المكتبة، وكانت خبيرةً لُغوية تعمل لدعمِ إنشاء شبكة تكاملية لمكتبات الدولة. انضمَّت بوفاتها إلىٰ قائمةٍ من ١٤ ضحية و١٢٦ جريحًا في سراييفو ذلك اليوم. لمَّا سُئل عن ذلك اليوم الرهيب المؤلم رئيسُ فرع الإطفاء في سراييفو كينان سلينيتش، وعن الحافز الذي دفَعه ورجالَه للمُخاطرة بحياتهم في سبيلِ إنقاذ المكتبة، قال: «لأنني وُلِدتُ هنا، وهم يحرقون جزءًا مني».

كانت المكتبة الوطنية تحتوي علىٰ العديد من المقتنياتِ الفريدة، وموادَّ أدبيةٍ لا مثيلَ لها. لذلك فقد أصابَ تدميرُها حضارةَ البوسنة في الصميم، وعرقلَ إمكانيات الجامعة لتعليمِ الأجيال اللاحقة.

لقد كانت ربيكا نوث دقيقةً جدًّا عندما كتبَت: «عندما تُدمَّر مكتبةٌ لا يضيع الإرث فقط، بل تتكبَّد الجماعة التي تَتماهىٰ مع المكتبةِ انتكاسَ فخْرِها وكبريائها أيضًا. فعندما أُحرِق المبنىٰ التاريخيُّ لمكتبة البوسنة الوطنية ومجموعات الكتب الأثرية فيها في العام ١٩٩٢م صُدم مُواطنو البوسنة المحاصَرون صدمةً هائلة؛ لا سيما في سراييفو.

لذا فمهما تكُنِ الهُوية المحدَّدة لجماعةٍ ما، سواءٌ كانت أمَّةً أو عِرقًا أو جماعةً دينية أو سياسية، فإن تدميرَ مكتباتها يعوق التطورَ الثقافي للجماعة ككُل، ويحطُّ من طبيعة الحياة ويُقوِّض احترام الذات في أوساط الجماعة. تدمير المكتبات يُهدِّد أيضًا مستقبلَ الجماعة علىٰ مستويات عديدة».

وتُعجبني جدًّا كلمةُ المؤرخة باربرا توشمان التي قالتها أمام مكتبة الكونغرس عام ١٩٨٠، مما جاء فيها: «الكُتب حَمَلة الحضارة. من دون كتبٍ يُصبح التاريخ

معقودَ اللسان، والأدبُ أخرس، والعِلم مُعوَّقًا، والفكر والتأمُّل في ركودٍ تام. من دون كتبٍ ما كان للحضارةِ أن تشهدَ تطورًا. فالكتب مُحرِّكات التغيير، ونوافذُ مفتوحةٌ علىٰ العالم، وكما وصَفها شاعرٌ: (منارات مُنتصِبة في بحرِ الزمن). الكتاب رفيقٌ ومعلِّم وساحر ومَصرفيٌّ عُهِدَ إليه بحفظِ كنوز العقل. الكتب هي الإنسانيةُ بحروفٍ مطبوعة»[1].

وكما كتبَت الآنسة ريدر بعد خبر إغلاق المكتبة الأمريكية في باريس: «المكتبات رِئات العالم.. الكتبُ هواءٌ مُنعش نستنشقُه لنُحافظ علىٰ نبضِ القلب، لنُحافظ علىٰ خيال العالم، لنُحافظ علىٰ بقاءِ الأمل»[2].

* * *

الطاغية أحيانًا يكون ذا نظرٍ دقيق في منعِ الكتب وتحريمها؛ لأنه فيما يخصُّ عرْشَه يكون ألمعيًّا لا يُجارىٰ وعبقريًّا لا يُبارىٰ، وهذا ما وجَدْناه في قَرارِ الطُّغْمة العسكرية بقيادة الجنرال الدكتاتور الإنقلابي خوسيه بينوشيه في تشيلي عندما أمرَت بمنع رواية (دون كيخوته)؛ فإنَّ الجنرال كان يؤمن بأنها تؤيدُ حُريَّة الأفراد ورفض تسلُّط الطبقة الحاكمة![3].

وقد صدَق فيما قال. وإنك واجِدٌ خلقًا كثيرًا ممن قرَؤوا هذه الروايةَ سلبَ تركيزَهم الجانبُ الهزلي فيها، وغفلوا عن المعنىٰ الكامنِ بين صفحاتها وفي مغامراتِ بطلها وخادمه، ويُعجبني قولُ مانغويل الآتي: «.. يُحْكَم علىٰ دون كيخوته بالجنون، ولكن ما هو جنونه بالضبط؟ يرىٰ دون كيخوته طواحينَ الهواء

---

(١) للاستزادة راجع كتاب إبادة الكُتب، ص١٦٥-١٧٧، وكتاب إحراق الكتب، ص٢٢١-٢٤١.

(٢) مكتبة باريس، ص١٩٦.

(٣) تاريخ القراءة، ص٣١٥.

عَمالقة، والنِّعاج مُحاربين، ويؤمن بالمشعوذين والجِياد الطائرة، لكنَّه في خِضَمِّ كلِّ هذا الوهم يؤمن بشيءٍ صُلب صلابةَ الأرض التي يطَؤُها؛ الحاجة الإجبارية إلىٰ العدالة»[١]. لهذا المعنىٰ الأصيل فيها؛ مُنعت في تشيلي.

وحتىٰ أُتِمَّ ما أريد -وهذا استطرادٌ أيضًا!- بوُدِّي أن أنقل قولًا للروائي الروسي الكبير إيفان تورغينيف، قاله في جمعيةِ مُساعَدة العلماء والأدباء المحتاجين بتاريخ ١٠ كانون الثاني ١٨٦٠م، وهو مِن كلمةٍ طويلة أظهَر فيها تحليلًا فريدًا لشخصيتين متناقضتين؛ هما (دون كيخوته) لثربانتس و(هاملت) لشكسبير. من هو دون كيخوتي؟ عن أيِّ شيءٍ يُعبِّر؟ يسأل تورغينيف ثم يُجيب -بتصرُّف-: «يُعبِّر عن الإيمان، الإيمان الراسخ والثابت والمستقر والوطيد بأمرٍ خالدٍ وأبَدي وسرمدي، الإيمان بالحقيقة الموجودة خارجَ إنسان معيَّن، والتي تتطلَّب التضحياتِ والعطاءَ الدائم. يُخْلِص دون كيخوتي للمُثُل العليا والمبادئ السامية، ومن أجلِها يَحرم نفسَه من الكثير من طيِّباتِ الحياة، ولديه استعدادٌ للتضحيةِ بالحياةِ نفسِها من أجلِ المُثل العليا. والحياة بالنسبة له وسيلةٌ لخدمةِ هذه المُثل وإقامة الحقِّ وإعادة نظام العدالة إلىٰ نِصابه. وقد يقول لنا البعض: إنَّ هذه المُثل العليا تنبع من خيالهِ المضطرِب ومن عالمِ روايات الفروسية الوهمي. نتَّفق مع هذا الرأي، وهو الجانب الكوميدي في شخصيةِ دون كيخوتي، ولكنَّ المُثُل العليا تبقىٰ نظيفة. اعتَبر دون كيخوتي أن الحياة فقط من أجلِ الذات مَعيبة، والاهتمام بالنفسِ دون الآخرين عار. إنه يعيش بكلِّ قُواه (إذا جاز لنا التعبير) خارجَ نفسه ومن أجلِ الآخرين، ولصالح إخوته، وفي سبيلِ القضاء علىٰ الشر، وصدِّ القُوىٰ المعادية للبشرية، قُوىٰ السحَرة والعمالقة؛ أي ضد الذين يُضايقون الآخرين. لا يوجد فيه أثرٌ للأنانية..»[٢].

---

(١) فن القراءة، ص١٣٣.

(٢) مجلة الآداب الأجنبية/ العدد ٧١/ ١ يوليو ١٩٩٢، وراجع كتاب (بين الفلسفة والأدب)،

والآن، ألا ترىٰ معي أنَّ هذا الاستطراد يستحقُّ وقتك الثمين؟ لا تُجِب؛ فالإجابة بادية في رِضا ملامحك.

* * *

وأُحِب أن أُلْمِع إلىٰ أمرٍ مُهم، وهو ألَّا يُظَن بأن القراءة دائمًا ما تُنتج فردًا جيِّدًا صالحًا يسعىٰ لبناء الإنسان والأوطان! أحيانًا يكون العكس تمامًا؛ قد تُنتج مخلوقًا سيئًا فاسِدًا يَجِدُّ في تدميرِ الكون! ألم تكن تعلم أن أدولف هتلر[1] الذي دوَّخ الكوكب وكاد أن يحتلَّ العالَم كان في أولِ حياتهِ مُكِبًّا علىٰ الكُتب؟ وعندما غادرَ فيينا بملابسهِ البالية في مايو ١٩١٢م متَّجِهًا إلىٰ ميونيخ -وكان في الثالثة والعشرين من عمره-، غادرَها بحقيبةٍ مملوءةٍ بالكُتب والمجلات![2].

وقد أخبرنا في كتابهِ كفاحي عن طفولتهِ قائلًا: «وكنتُ أُمضي أوقاتِ الفراغ في مكتبةِ والدي أنكبُّ علىٰ مُطالعةِ كتب التاريخ»[3]. وقال بعد أن حدَّثنا عن أشقىٰ أيامِ عمره في فيينا: «وكان الكتاب صديقي الوفيَّ، وبفضلِ المطالعة توسَّعَت معلوماتي وتبلورَت آرائي مع مرورِ الزمن، ثم رُحت أُدوِّن نظرياتي الخاصة التي اتخذتُ منها في المستقبل أسسَ العمل»[4].

تذكَّر ريفنستال[5] أن هتلر قال لها في شقَّتهِ المليئة بالكتب في ساحةِ برينس

ص٢٣٨-٢٤٥.

(١) ذكر الفيلسوف كارل بوبر في سيرتهِ أن هتلر كان في طفولته يعيش في ملجأ للمشردين أثناء إقامته المبكرة في فيينا. [بحثٌ لم ينته، ص١٨].

(٢) كفاحي، ص٦٣.

(٣) كفاحي، ص٦.

(٤) كفاحي، ص٨.

(٥) هي المخرجة السينمائية ليني ريفنستال Leni Riefenstahl التي أخرجت فيلم عام ١٩٣٤ تكريمًا للحزب النازيِّ، انتصار الإرادة Triumph of the Will والملحمة المكوّنة من جزأين، أولمبيا، الفيلم الوثائقي التاريخي لدَورة الألعاب الأولمبية في برلين عام ١٩٣٦.

ريجنت: «لديَّ الكثيرُ لأُنجزه. لم يكن لديَّ في شبابي الوسائلُ أو الإمكانية لتزويد نفسي بالتعليم المناسب. كلَّ ليلة أقرأ كتابًا أو كتابين، حتىٰ عندما أنام في وقتٍ متأخِّر». قال إن هذه القراءات كانت مصدرَ معرفته الأساسي، والخلاصة التي استمدَّ منها خِطاباته العامة. ومما قاله لها: «عندما يُعطي شخصٌ ما، عليه أن يأخذ، وأنا آخذُ ما أحتاجه من الكتب».

وعندما سألتْه ريفنستال عن تفضيلاته في القراءة، أجاب: علىٰ ما يبدو شوبنهاور.

وقد لاحظَ أوغست كوبيزيك August Kubizek شغفَ هتلر الشديدَ بالكتب. «الكتب، دائمًا المزيد من الكتب!.. لا أستطيع أن أتذكَّر أدولف أبدًا بدون كُتب، الكتب كانت عالَمَه». ويقول أحدُ مساعدي هتلر الأوائل، رودولف هوسلر Rudolf Hausler، الذي كان يعيش مع هتلر في فيينا ولاحقًا في ميونيخ، إنَّ زميله في الغرفة كانَ يقرأ المجلداتِ الكثيفة حتىٰ الثانيةِ أو الثالثة صباحًا.

ووَفْقًا لكوبيزيك، لا علاقة لهذا الشغف بالكتبِ بالترفيه أو المتعة؛ لقد كانت «عملًا جادًّا للغاية»(١).

ويوثِّق خورخي كاريون في كتابِهِ عن المكتبات: «تطغىٰ شهرتُه كحارقٍ للكتب، علىٰ شهرته كأحدِ المهتمِّين بجمعِها. عند وفاة هذا القاتل، كان يمتلك مكتبةً تضم أكثرَ من ١٥٠٠ مجلَّد. عقب تركِه للمدرسة وفي المرحلةِ العمرية الفاصلة بين المراهَقة وأولِ الشباب، عانىٰ (هتلر) من مشكلاتٍ صحية في الرِّئة، فصار يعيش حياة الفنانين والمفكرين، يرسم ويقرأ طَوال الوقت. لم يتوقَّف عن القراءة لما تبقىٰ من عمره. يتذكر (كوبيزيك) صديقُه الوحيد في مرحلة صِباه في مدينة (لينز)، بأنه

---

(١) للاستزادة راجع كتاب (مكتبة هتلر الشخصية) لتيموثي دبليو ريباك، فإن ريباك «فحص بطريقةٍ سَرديَّة مثيرة حياةَ هتلر مع الكتب. هذا الكتاب يقلب جميعَ التوقعات، فالخطر الذي كان عليه هتلر يتربَّص في الخلفيَّة؛ هناك في الكُتب التي كان يقرأ!».

كان دائمَ التردُّد علىٰ مكتبة (جمعية التعليم الشعبي) في شارع (بسمارك)، وعدد آخَر من المكتبات العامة. يتذكره مُحاطًا بأكوام من الكتب، وبخاصةٍ الملاحم التاريخية للأبطال»[١].

ثم ألم يأتِك نبأُ ذاك القصير المتين الذي لم يؤبَهْ به إطلاقًا عندما كان بمَنْفاه في زيورخ[٢]، وكان يسكن هو وزوجُه في حارةٍ ضيِّقةٍ قديمةٍ منعزِلة عند إسكافي. كان هذا القصيرُ المتين يومًا فيومًا، وبصورةٍ منتظِمة، يذهب كلَّ صباح في الساعةِ التاسعة إلىٰ المكتبةِ العامة ويمكث هناك إلىٰ أن تُغلق في الساعةِ الثانية عشرة، وبعد الثانية عشرة بعشرِ دقائق علىٰ وجهِ الدِّقة يكون في البيت من جديد، وقبل الواحدة بعشرِ دقائق يُغادر المنزلَ ليكون أولَ مَن يكون في المكتبة، مرةً أخرىٰ، ولا يَبْرحها حتىٰ السادسةِ مساءً[٣].

يُعلِّق زفايغ: «كان عملاءُ الأخبار لا ينتبهون إلا إلىٰ الناس الذين يُكثِرون من الحديث، ولا يعرفون أنَّ البشر المنعزلين هم الأكثرُ خطرًا علىٰ الدوام في كلِّ حركةِ تثويرٍ للعالم، وهم الذين يُكثرون من القراءةِ والتعلُّم!»[٤].

عندما عادَ هذا الرجلُ الذي كان جارًا لزوجةِ خبَّاز ويسكن عند إسكافيٍّ إلىٰ وطنِه روسيا، تلقَّفَته مئاتُ الأيدي، وتوجَّهَت أنظارُ الآلاف إليه، ورُفع علىٰ سيَّارةٍ مدرَّعة ليُلقي علىٰ الشعب خُطبته الأولىٰ!

كان هذا القصير المتين فلاديمير لينين.

ولينين، ولا بأس ببعضِ الحديث المختصَر عنه، كان -كما قال علي أدهم-

---

(١) زيارة لمكتبات العالم، ص٩٨.

(٢) زيورخ مدينة سويسرية، وقد ظل فيها أربعةَ عشر عامًا.

(٣) وفي مقالٍ عن حياته في مجلّة العصور/ العدد ٣٤/ ١ يونيو ١٩٣٠ «أنه كان يقضي ١٥ ساعةً يوميًّا في دار الكتب جعلته من أعلمِ رجال القرن العشرين إطلاقًا».

(٤) ساعات القدر، ص٢٩١.

مُفكرًا ممتازًا، وعالِمًا واسعَ الاطِّلاع، قبل أن يكون زعيمًا سياسيًّا، وثائرًا هادمًا! وكان عقلُه في صميمِهِ عقلَ متعصِّبٍ يعتقد أنه قد عرَفَ الحق واهتدىٰ إلىٰ سبيله. ويقول مكسيم غوركي[١] في تبريرِ الشدَّة التي لجأ إليها لينين لحماية النظام الذي وضَع أساسه: «إنَّ واجب قادة الشعب المخلِصين لَمِمَّا يخرج عن طَوقِ البشر في الصعوبةِ، والزعيم الذي لا يكون طاغيةً إلىٰ حدٍّ ما من المُحال وجودُه! وقد قُتل كثيرون في عهدِ لينين، ولكن لولا هذا القمعُ لأصبحَت المقاومة التي لقيها النِّظام الجديد أوسعَ نطاقًا وأقوىٰ عزمًا وأشدَّ خطرًا، وعلاوةً علىٰ ذلك، فإن علينا أن نُقيم وزنًا لهذه الحقيقة، وهي أنَّ تقدُّم الحضارة قد قلَّل من قيمةِ الحياة الإنسانية، ومما يُثبت هذه الحقيقةَ في الحياةِ الأوروبية المعاصرة تقدُّمُ فنِّ إبادة الناس، واستساغةُ هذا العمل!»[٢].

وقبل أن نقلب صفحة لينين؛ لا بد من القول -لمزيدٍ من الإيضاح- «أنه عقبَ الثورة الروسية في عام ١٩١٧ تمكَّن لينين، الذي استحدثَ بِنْيةً إدارية للاشتراكية الراديكالية، وأسْهمَ في استحداثِ برنامجٍ أيديولوجي هو الشيوعية، من تعديلِ المعتقَدات الماركسية بصورةٍ عميقة؛ لِتتواءمَ مع الظروفِ الروسية. ويُعَدُّ كتابه الصادر في عام ١٩٠٢ (ما العمل؟ What Is To Be Done?)[٣] المصدرَ الأساس للعقيدة التنظيمية الشيوعية. وفيه تبرزُ أربع أفكار؛ هي: الخوف من أن تكون العفوية قوةً موجَّهة في الثورة، واعتقادُ أنَّ الطبقة العاملة بحاجةٍ إلىٰ

(١) وهو الأديب الروسي الشهير، كان صديقًا مُقرَّبًا من لينين، وكتبَ عنه كثيرًا؛ ناصرًا، ومدافعًا، وساردًا بعضَ ذكرياته معه. اقرأ كُتيِّبَه (أيام مع لينين).

(٢) تلاقي الأكفاء، ص١٢١.

(٣) اختار لينين هذا العنوان تيمُّنًا بنيكولاي تشيرنيشيفسكي، وهو الفيلسوف الاشتراكي المادي الذي «كان له التأثيرُ الأكبر في لينين، وعلىٰ جيلٍ كامل من الراديكاليين في روسيا»، فإن له روايةً ذات حِسٍّ يوتوبي بهذا العنوان.

الإرشادِ والتوجيه من طَليعةٍ ثوريةٍ لديها وعيٌ سياسي، وأن تكون هذه الطليعةُ حزبًا صغيرًا يتكوَّن من ثوَّار مختارين بعناية، ومنضبِطين في أدائهم، ويعملون في ظلِّ توجيهٍ شديدِ التمركُز، ومفهوم (الاحتكار السياسي) بمعنىٰ غيابِ المنافسة مع هذا الحزب في القدرةِ علىٰ الوصول إلىٰ الجماهير. قُمِعَت جميعُ أشكال المعارضة وسُوِّغَت اللينينيَّة، بعد أن صارت أيديولوجيا الدولة، انتقالَ الحكومة الروسية من التسلُّطية إلىٰ الاستبداد»[١].

أما جوزيف ستالين الذي كانت تحتوي مكتبتُه عند وفاته علىٰ نحو ٢٥ ألف كتاب في ٤٠ فرعًا مختلفًا من فروع المعرفة؛ فإنَّ له شأنًا خاصًّا مع القراءة والكتب؛ لذلك كان يدرك جيّدا الأثرَ الخطير الذي قد تُحْدِثه الكتب، وقد كان -كما يقول روبرتس- «يؤمن شأنَ جميع الزعماء البلشفيين بأنَّ القراءة غيرُ قادرة فقط علىٰ تغيير أفكار الناس وضمائرهم، وإنما هي قادرةٌ علىٰ تغيير الطبيعة البشرية ذاتها».

كان ستالين يفرض علىٰ نفسه حصةَ قراءةٍ يومية تتراوح بين ٣٠٠ و٥٠٠ صفحة! وكان يُحب القراءةَ في التاريخ كثيرًا بشكلٍ عام، وتاريخ روسيا بشكلٍ خاص. وقرأ -بالطبع- كتابَ (الأمير) لمكيافللي مراتٍ عديدة، ومن الطريف أيضًا وجودُ بعض التعليقات له علىٰ كتاب (كفاحي) لزميل الدكتاتورية والطغيان هتلر. وإذا كنتَ مهتمًّا فإنه قد مات في مكتبة[٢]!

وبعد هذا، لعلَّ فيما قاله خورخي كاريون شيئًا من الحقيقة: «فإننا نادرًا ما نُفكِّر

---

(١) إبادة الكتب، ص٩٦.

(٢) راجع مقال أحمد شافعي عن كتاب (مكتبة ستالين) للسياسي البريطاني جيفري روبرتس - إندبندنت. يذكر دجيلاس في كتابه (محادثاتي مع ستالين) أن مفردات ستالين كانت غنيةً وحيَّة ومليئة بالأمثال والأقوال؛ وذلك أنه كان مُطَّلعًا علىٰ الأدب الروسي، وفي حديثه عن غوركي في ص١٥٠ دليلٌ علىٰ اطِّلاعه.

في أن القائمين علىٰ أنظمةِ السيطرة والقمع، ومُناصري الإعدامات، والرقابة المُشدَّدة علىٰ الكتب، في عالمنا المعاصر، هم الأشخاصُ أنفسُهم المغرَمون بالثقافة، وأنهم يُمارسون الكتابة، وأنهم يَهْوَون القراءة.. باختصار: هم عُشَّاقٌ للمكتبات»[١].

* * *

سيظلُّ هذا المقال خِداجًا ما لم أتطرَّق فيه إلىٰ استبدادِ تجَّار الرقيق قديمًا، وكيف كانت القراءة والكتب من المحظوراتِ علىٰ العبيد. كان أصحابُ الرقيق -كما يقول مانغويل- يخشَون (مثل جميع الحكَّام الدكتاتوريين، والطغاة، والملوك المستبدِّين، وغيرهم من الحكَّام غير الشرعيين) إلىٰ حدٍّ كبير قوةَ الكلمة؛ لأنهم يعرفون تمامًا أن القراءة قوة. وكان العبدُ الذي يُمسَك به متلبِّسًا بالقراءة يُعاقَب أشدَّ العقاب، وقد يصل هذا العقابُ إلىٰ الشنق كما في الولايات الجنوبية.

وقد أخبرَنا دوك دانيل دودي قائلًا: «عندما كان المرء يُمسَك به للمرة الأولىٰ متلبِّسًا بفعلِ القراءة والكتابة، كان يُجلَد بسوطٍ مصنوع من جِلدِ البقر، وفي المرة الثانية بسوطٍ مجدولٍ من تسعةِ أشرطة، وفي المرةِ الثالثة كان يُقطع المفصل الأول من سبَّابته!».

ويقول العبد ليوناردو الذي أَمسَك به سيِّده وهو يقرأ فجلَدَه بقسوة: لقد «أطفأ فيَّ مبدئيًّا تعطُّشي للمعرفة، ولم أقدر علىٰ أي محاولةٍ أخرىٰ حتىٰ فِراري»[٢].

ومن المذكرات المؤثِّرة ما كتبه فريدريك دوغلاس الذي أصبح أيقونةً في القرن التاسعَ عشر، ولْيسمَحْ لي القارئُ الصبور أن أكشف له شيئًا عن حياةِ هذه الشخصية المُعْجِبة.

---

(١) زيارة لمكتبات العالم، ص١٠٦.

(٢) تاريخ القراءة، ص٣٠٨-٣٠٩.

استطاعَ فريدريك دوغلاس، العبدُ الذي أُرسل إلىٰ بالتيمور للعمل خادمًا وعاملًا في صناعة السُّفن، أن يتعلَّم القراءة والكتابة، وعندما بلغ إحدىٰ وعشرين سنة؛ أي في عام ١٨٣٨ هربَ إلىٰ الشمال؛ حيث أصبح أشهرَ رجلٍ أسود في زمانه؛ إذ صار مُحاضِرًا ومُحرِّرًا صحفيًّا وكاتبًا.

في سيرته الذاتية -أو سيرة عُبوديَّته- (قصة حياة فريدريك دوغلاس) يتذكَّر دوغلاس كيف كانت ظروفُ حياته وأفكاره عندما كان طفلًا: «لماذا أكون عبدًا؟ لماذا بعض الناس عبيدٌ والآخَرون سادة؟ هل كان ثَمة زمنٌ لم يكن فيه الأمر كذلك؟ كيف بدأَت هذه العلاقة؟ غير أنني، ذات يوم، باستغراقي في التفكيرِ في ذلك الأمر، لم أقضِ وقتًا طويلًا للعثورِ علىٰ حلٍّ لهذه المسألة. ليس الأمر في اللون، بل في الجريمة، ليس الله مسئولًا عن ذلك، بل الإنسان.. أذكر الآن بوضوحٍ شديد كم كانت سعادتي بفكرةِ أن أكون حرًّا يومًا ما. كانت هذه الفكرة المُبهِجة حلمًا فِطريًّا لطبيعتي البشرية، وتهديدًا دائمًا لعبوديتي. كانت الفكرة حُلمًا قويًّا لم تستطع كلُّ قُوىٰ نظامِ الرِّق علىٰ إطفائهِ وإسكاته»(١).

في مُذكراتهِ يُحدِّثنا عن سيِّدته التي وصَل للعيش معها حديثًا، وكيف أنها بدأتْ تُعلِّمه القراءة، يقول: «بعد أن وصلتُ لأعيش بين أسرتها بدأتْ برِقةٍ تُعلِّمني الأبجديَّة، ثم ساعدَتني في تعلُّم تهجِّي الكلمات ذات الثلاثة والأربعة أحرف، وعند هذه النقطة من تقدُّمي اكتشفَ مستر أولد ما يجري، وفي الحال منَعَها من الاستمرار في تعليمي أكثرَ من ذلك، أخبرها مِن بين أشياءَ أخرىٰ قالها، أن هذا غيرُ قانوني، وغيرُ مأمون العواقب، وبنفس كلماته قال: (إذا أعطيتِ زنجيًّا بوصةً، سيأخذ ذراعًا، لا يجب أن يتعلَّم الزنجيُّ شيئًا غيرَ طاعة سيِّدِه، في أن يعمل ما يُطلب منه عمله، التعليم يُفسد أفضلَ زنجيٍّ في العالم. والآن، إذا علَّمتِ هذا الزنجيَّ -وكان

(١) التاريخ الشعبي للولايات المتحدة، ج١، ص٢٩١.

يقصدني- القراءة، فلن يبقىٰ هنا، سوف يُصبح من غير المناسبِ له أن يبقىٰ عبدًا، سوف يُصبح في الحال متمرِّدًا وبلا نفعٍ لسيِّده، وبالنسبة له نفسِه سيكون ذلك سيئًا ومصدرًا لألمٍ كبير؛ إذ سيُسبب له السخط والتعاسة))»[١].

وهُنا تذكَّرتُ تلك المحاورةَ -في رواية (كوخ العم توم)- التي كانت بين إيفا ووالدتها: ذات يوم قالت لأمِّها، فجأةً:

- ماما، لماذا لا نُعلِّم الخدمَ القراءة؟
- سؤالٌ غريب حقًّا. إن الناس لم يتعوَّدوا ذلك.

فقالت إيفا:

- ولكنهم يجب أن يَقرؤوا الكتابَ المقدس ليفهموا إرادة الله!

فأجابتها أمها في شيءٍ من الضيق:

- أوه، في استطاعتهم أن يسمعوا آيات الكتاب تُتلىٰ عليهم عند الحاجة.
- ولكن يبدو لي، يا ماما، أن الكتاب المقدَّس ينبغي أن يَقرأ كلُّ امرئ لنفسه.

فقالت أمُّها:

- إيفا! أنتِ طفلةٌ غريبة حقًّا!

وأردفت إيفا:

- لقد علَّمت الآنسة أوفيليا، توبسي القراءة.
- نعم، وأنتِ ترَين إلىٰ أيِّ حدٍّ نفعَها هذا التعليم! إن توبسي هي أسوأُ مخلوق عرَفته في حياتي!

أغلقت الأم هذا النقاشَ بقولها:

---

(١) مذكرات عبد أمريكي، ص٤٦.

- حسنًا يا إيفا. إنكِ لا بد أن تُقلِعي عن هذه الأفكار يومًا[1].

نعود إلىٰ دوغلاس الذي كتبَ بعد أن سمع كلمات مستر أولد: «انسكبَت هذه الكلماتُ عميقًا في قلبي، حرَّكَت فيه العواطفَ النائمة، واستدْعَت إلىٰ الوجودِ تيَّارًا جديدًا تمامًا من الأفكار، كانت هذه رؤيةً خاصة وجديدة تُفسِّر الأشياءَ الناقصة والمُبهَمة التي كافح رأسي الصغيرُ عبثًا ليفهَمَها، الآن فهمتُ ما كان بالنسبةِ لي أكثرَ المصاعب حَيرة؛ أعني قوَّة الرجل الأبيض في استعبادِ الرجل الأسود، لقد كان هذا مكسبًا عظيمًا، ولقد قدَّرتُه عاليًا، منذ تلك اللحظة فهمتُ الطريق من العبوديةِ إلىٰ الحريَّة، وكان هذا بالضبط ما أردتُهُ، وحصَلتُ عليه في وقتٍ أقلَّ مما توقَّعت. وبينما كنتُ حزينًا بسبب التفكير في خَسارتي لمساعدة سيدتي الطيِّبة، كنتُ سعيدًا بالمعلومةِ التي لا تُقدَّر بثمن، والتي كسَبتُها من سيدي بالصدفة المحضة، ورغم الوعي بصعوبةِ التعليم دون مُعلِّم، امتلأتُ بأملٍ كبير، وهدفٍ ثابت، هو أن أتعلَّم كيف أقرأ، مهما كلَّفَني ذلك من صِعاب. إن الطريقة الواثقة جدًّا التي تحدَّثَ بها سيدي، واجتهاده في التأثير علىٰ سيدتي بالحديث عن العواقبِ الشريرة لتعليمي، أفادا في إقناعي بأنه كان عميقَ الإحساس بالحقائق التي تفوَّه بها، لقد وهبَني ذلك أفضلَ تأكيدٍ بأنه لا بدَّ لي من التعويل علىٰ الثقةِ الكبرىٰ في النتائج التي قال عنها إنها ستتبعُ تعليمي القراءة»[2].

وفي موضعٍ آخرَ من مذكراته يكتب بعد أن تدرَّجَ قليلًا في القراءةِ وتكشَّفَت له بعضُ الحقائق: «فكلما تقدَّمتُ في القراءة، تقدَّمتُ في بُغضِ وَكُره مُستعبِديَّ، لم أستطع أن أراهم في أيِّ صورة غير أنهم حُزمةٌ من اللصوصِ النابحين الذين ترَكوا بلادهم وذهبوا إلىٰ أفريقيا وسرَقونا من أوطاننا، وفي بلادٍ غريبة أجبَرونا

(١) كوخ العم توم، ص١٤٢-١٤٣.
(٢) مذكرات عبد أمريكي، ص٤٦.

علىٰ العبوديَّة. تقزَّزتُ منهم باعتبارهم أخسَّ وأحطَّ البشر. وبينما قرأتُ وتأمَّلت القضية تأكدتُ أن القنوط الكامل الذي أشار إليه السيد هوف بأنه سينتج عن تعليمي القراءةَ، قد أقبل فعلًا ليُعذِّب ويقلب روحي في نكَدٍ لا يوصَف[1]، وبينما كنتُ تحته أحسَستُ في نفس الوقت أن التعليم أعطاني رؤيةً لحالتي البائسة، لكن دون شفاء، لقد فتح عيني علىٰ المستنقَعِ المرعب، لكن دون سُلَّم لأخرج منه.

وفي لحظاتِ العذاب حسَدتُ زملائي العبيدَ علىٰ غبائهم، كثيرًا ما تمنيتُ لو كنتُ حشَرة، فضَّلتُ ظروفَ أخسِّ الزواحف عن ظروفي، وتمنيتُ أن أكون أيَّ شيء -مهما كان- للتخلُّص من التفكير، هذا التفكير في حالتي هو الذي عذَّبَني ولم يكن هناك خلاصٌ منه»[2].

ثم يُحدِّثنا في موضعٍ آخر بسطورٍ مؤلمة يائسة، واصفًا حياته عند سيِّدٍ له جديد: «أعود فأقول إنه إذا كان هناك وقتٌ في حياتي تجرَّعتُ فيه أكثرَ من غيره مرارةَ الرِّق؛ فقد كانت الستة أشهر الأولىٰ في مقامي مع مستر كوفاي، كنا نعمل في كلِّ الأوقات، ولا جوَّ حارًّا جدًّا علينا، ولا باردًا جدًّا حولنا، ولا مطرَ ولا جليد، يصعب علينا العملُ فيه، عمل، عمل، عمل، في النهار والليل، أطولُ الأيام كان هو أقصرَها عند مستر كوفاي، وأقصرُ الليالي كانت أطولَها، كنتُ في البداية لا أتحمَّل، ولكن عدة أشهُر من هذا الحال روَّضَتني، لقد نجَح مستر كوفاي في ترويضي؛ روَّض جسَدي وروحي ونفسي، انكسرَتْ مُرونتي الطبيعية، لُغتي العقلية، ميلي للقراءة، انطفأَت الشرارةُ المبهِجة التي لمعَت أمام عيني، انغلق عليَّ ليلُ العبودية الأسود، أصبحتُ رجلًا تحوَّل إلىٰ دابة!»[3].

---

(١) وهكذا تفعل الحقيقةُ بالمرء -أحيانًا- عندما يكتشفها!

(٢) مذكرات عبد أمريكي، ص٥٢.

(٣) مذكرات عبد أمريكي، ص٧٣.

ولكنَّ روحه بعد ذلك تحرَّرَت من قيْدِ اليأس، وتحسَّسَت آثار الحريَّة حتىٰ وجَدَتها. هربَ فكان رمزًا للعبيد، وشاركَ في الحربِ بين الشمال والجنوب، «وقد كتبَ في صحيفتهِ حاثًّا السودَ علىٰ التطوُّع في جيشِ الاتحاد، قائلًا: (أُعْطِيَت لكم الفرصة الآن لِتُنهوا في يومٍ واحدٍ عذابَ قرون، ولتنهَضوا مُجتمِعين من الانحطاطِ الاجتماعي لمكانةٍ تَساوٍ مع كلِّ أصنافِ البشر)».

ثم بعد أن ذكَّرَهم ببعض المناضلين السُّود الذين ضحَّوْا بأرواحهم في سبيل الحريَّة، قال: «أولئك رجالٌ تبعوا John Brown[(١)] النَّبيلَ وسقَطوا شهداءَ عظماء لقضية العبيد. تذكَّروا في الصراع مع الظلم أن الربَّ ليس من صفاتهِ أن يصطفَّ مع الظالم.. فهذه فرصتُنا الذهبية»[(٢)].

وأختم الحديث عن دوغلاس بكلماتٍ قالها في خِطابهِ الذي ألقاه يوم عيد الاستقلال في الرابع من يوليو عام ١٨٥٢: «ليس علىٰ وجه الأرض شعبٌ مُذنب بما يُمارسه من أفعالٍ دمَوية كشعبِ الولايات المتحدة في هذه الساعة. اذهبوا أين شئتم وابَحثوا أين أردتم وجُوبوا كلَّ الممالك وكلَّ بلاد الظلم في العالمِ القديم، وسافِروا إلىٰ أمريكا الجنوبية وفتِّشوا عن كلِّ انتهاك، ثم قارِنوا ما رأيتموه مع مُمارسات هذه الأمة التي تحدثُ كلَّ يوم، وسوف تقولون معي إن أمريكا لا نظيرَ لها في البَربريَّة والكذب اللذَين لا يعرفان الخجل»[(٣)].

وفي ختام المقال، وبعد هذا التَّطْواف -الذي أرجو أن يكون ماتعًا علىٰ الأقل، إذا خلا من الفائدة- مع المستبدِّين، والطغاة، والقراءة الممنوعة، وخطورة المعرفة،

---

(١) مناضلٌ شهير ت١٨٥٩ كان مناهضًا للعبودية بعُنف، قال قبل شنقه: «يملؤني، أنا جون براون، اليقينُ بأن الجرائم التي ارتكبها هذا البلدُ المذنب لن يُطهِّرَها إلا الدم». اقرأ عنه في ج١، ص٢٩٨-٣٠٠ من كتاب (التاريخ الشعبي للولايات المتحدة) لهوارد زِن.

(٢) حلم البراءة، ص٤٤-٤٥.

(٣) التاريخ الشعبي للولايات المتحدة، ج١، ص٢٩٤.

وحرق الكتب[1] والمكتبات، والاستعباد؛ أُحبُّ أن أؤكِّد مع بارتليت بأن «الإلحاح المريع لتدمير الكتب أو قمعِها، ما هو إلا اعترافٌ بقوَّتِها، لا أقصد النصوصَ العِلمية والسياسية والفلسفية المذهِلة فحسب، بل النصوص القصيرة الوديعة كذلك، من كتبِ الشعر والأدب، والتي تحمل مع ذلك قدرةً هائلة علىٰ إصابتنا بالتغيير»[2]، وأسأل مع توماس كارليل وأتساءل: «لماذا لا توجد مكتبةُ صاحبِ الجلالة في كل بلدة ريفيَّة؟ هناك سجنٌ ومِشنقةُ صاحب الجلالة في كلٍّ منها!»[3].

---

(١) وأحب أن أشير هنا إلىٰ كلمةٍ لافتة للشاعر الروسي صاحب نوبل جوزيف برودسكي يقول فيها: «لا أعرف إن كان الأسوأ هو إحراق الكتب أم عدم قراءتها!». [كتاب: ما أجمل العيش من دون ثقافة! ص٣١].

(٢) عاشق الكتب، ص٢٤٥.

(٣) المكتبة في الليل، ص٧٩-٨٠.

قُبلة أحمد أمين

«كان دارسي الشخصيةُ التي تُقدمها أوستن لتكون مُحبَّة للقراءة؛ يُكنُّ احترامًا للكُتب، ويَعتبر اقتناءها نِعمةً عظيمة»[1].

(١) سنة القراءة الخطرة، ص١٦٥.

إني امرؤٌ لا أحفُل بأجواءِ القراءة الرومانسية؛ مكانٍ هادئ، كوبِ قهوة، إضاءةٍ خافتة، فِراش وثير، فواصلَ أنيقة.. كلُّ هذا لا أتشوَّفه ساعةَ الاختلاء بكتابي، بل لعلِّي لا أُبالغ إذا قلتُ: إن أجمل قراءاتي وأكثَرها متعةً وأخلَدها أثرًا تلك التي كانت في أوقاتٍ سيئة وأماكنَ رديئة إذا ما قُورِنَت بالصورة الطبيعية لأماكن قراءة الكتب.

هذا حالي مع قراءة الكتب، ولكن تعاملي الحسِّي مع الكتاب مختلفٌ تماما. فأنا حريصٌ جدًّا علىٰ سلامةِ الكتاب -غلافًا كان أم مجلدًا- من الخدوش والخموش والإصابات هيِّنِها وعظيمِها، ولا أظنني قادرًا علىٰ تصوير الألم الذي أشعر بهِ عندما أكون واقفًا منهمِكًا في تصفُّحِ كتابٍ ما، فيَهْوي مِن يدي إلىٰ الأرض ويتأثَّر كعبُه!

وقد بلغ من حِرصي علىٰ سلامةِ الكتاب من كلِّ أذًىٰ يُصيبه أنني لا أستخدم أيَّ نوع من أنواعِ الفواصل المخصَّصة للكتب؛ وذلك أنني اكتشفتُ أنَّ لها أثرًا علىٰ الورق كلما طالَ استخدامُها، وإنما أكتفي بالمِنديل لِخفَّتهِ ونعومتهِ[1].

وخوفي علىٰ كتبي قد لا يبعد كثيرًا عن خوفِ السياسيِّ وعاشق الكتب البلجيكي الشهير تشارلز فان هالثيم، الذي امتلك مكتبةً تضمُّ ما يزيد علىٰ ٣٢،٠٠٠ مجلَّد، كان هذا الرجل يخاف علىٰ مكتبتهِ خوفًا عجيبًا، بلغ به أن يحظر علىٰ الخدمِ حظرًا مطلقًا إشعالَ النار في أي غرفةٍ بغرَض التدفئة، مهما انخفضَت درجة الحرارة؛ خشيةَ نشوبِ حريق يلتهم مكتبتَه الضخمة[2]!

---

(١) وقد يرافقني هذا المنديل أثناء قراءة عشرة كتب أو تزيد، يتنقل من كتابٍ لآخر، لا أعتقه حتىٰ يفنىٰ!

(٢) رائحة الحِبر (قراءات من المكتبة العالمية)، ص١٥١.

وحتىٰ أكون واضحًا في تعاملي مع الكتب -لمن يُهمُّه الأمر-؛ فحِرصي علىٰ سلامةِ الكتاب من الخارج لا يعني أنَّني أحرِص علىٰ خُلوِّه من التعليقات والخربَشة من الداخل! فأنا لا أسعدُ بصُحبةِ الكتاب دون التعليقات الكثيرة علىٰ صفحاته؛ أُصوِّب خطأً وقفتُ عليه، أوثِّق رأيًا أخالفُ المؤلفَ فيه، أُثني علىٰ تعبيرٍ بديعٍ أدهشَني، أذمُّ فكرةً نتنة كدَّرَت مُتعتي، أستدركُ وأُحيل إلىٰ مصادرَ للفائدة، أترحَّمُ وأترضَّىٰ علىٰ أحدِهم، وأهجو وألعن آخَر... وهكذا[1].

وقد يكون هذا مِفتاحًا لاكتشاف الكُتب التي قرأتُها بذهنٍ حاضر ووعيٍ تام. فإذا كثُرَت تعليقاتي علىٰ الكتاب -ولا يُهمُّك فحواها- فهذا دليلٌ علىٰ نشاطي أثناء قراءته، أما إذا كانت صفحاته خاليةً من خربشةٍ هنا أو هناك فهذا -للأسف- دليلٌ علىٰ أحد أمرين لا ثالث لهما؛ نومي أثناء القراءة، أو نوم صفحاتِ الكتاب.

* * *

يظنُّ بعضهم أنَّ في الحِرص علىٰ سلامةِ كعبِ الكتاب أو غلافه أو صفحاته شيئًا من المبالغة، ولم توجد الكتبُ لهذا التعامل، وإنما وُجِدت للقراءة فقط. وهذا ما عنَتْه آن بسُخريتها: «ماذا يخسر العُشَّاق العذريُّون بإيمانهم أن الكُتب خُلِقَت للقراءة لا غير!». وهذا القول ضربٌ من الثرثرةِ تُشعرني بانتفاخٍ خفيٍّ في نفسِ صاحبها. فلا تعارض بين قراءة الكتاب وحمايته من الضرر الخارجي. وعليك أن تتأكَّد أيها القارئ العنيف أنَّ مَرْأىٰ كتبك وهي مُكسَّرةُ الكعوب ممزَّقة الأوصال؛

(١) وقد اكتشفتُ قريبًا -للأسف- أنني أشبهُ بهذا الفعل ستالين الذي كان -كما تقول آيمليا جنتلمان- يُعلِّق علىٰ الكتب التي يقرؤها، مثلًا يكتب (أوافق)، و(هذا صحيح)، ويعبِّر أحيانًا عن ازدرائه فيكتب (ها ها) أو (كلام فارغ) أو (كذاب) وهكذا... [من مقال أحمد شافعي عن كتاب (مكتبة ستالين) لجيفري روبرتس في الإندبندنت العربية]. ولكني علىٰ كل حالٍ لم أصل إلىٰ مرحلةِ جان مورو الذي جاء ذكره في (مكتبة باريس) والذي ذكرَت أوديل أنه نُفي من المكتبة لأنه كان يمسح مُخاط أنفِه بالكتب التي لا تُوافق ذائقتَه!! [مكتبة باريس، ص١٧٦].

لن يخلق بداخلنا شعورًا أنك قارئٌ نهِم وبحَّاثة لا يُشاكلك أحد. اهدأ، لن نشعر بهذا تجاهك أبدًا.

وإذا علمتَ عن آن هذه أن والدها كان «ينتزع الفصول التي أنهاها ويَرميها في القُمامة بهدفِ تقليل وزن الكتب التي يقرؤها علىٰ متنِ الطائرة»، وأنَّ زوجها من عادتهِ القراءة «في الساونا، حيث تَتْلف الأوراقُ بفعلِ الحرارة وتتساقط كبَتلاتِ أزهارٍ في عاصفة»، فلا تعجَبْ من وصفِها الساخر لكلِّ مَن يهتمُّ بسلامةِ الكتب من التَّلَف بأنه «يؤمن بالحُب العذري»، وأنها وعائلتها لا يرَون القدَاسة إلا في الكلماتِ وحدها، «أما الورق، والتجليد، والغلاف الكرتوني، والصمغ، والخيطان، والحِبر الذي يحتوي الكلمات.. فهي مجرَّدُ وعاءٍ ناقل لا غير». وأنا أدعو القارئَ إلىٰ التأمُّل والحكم علىٰ المشهد التالي: رسولٌ أوصلَ رسالةً شفهيةً إلىٰ أحد الملوك، فلما أنهىٰ الرسولُ مُهمَّتَه، واستوعب الملِكُ رسالته، قامَ الملك الجبَّار بقتلهِ!. فهل يرىٰ القارئُ الفطِن أن تعامل الملك كان سليمًا وتصرُّفه حكيمًا مع الرسول؟

وهذا الذي يقرأ في الساونا ولا يلتفتُ لتساقطِ أوراق الكتاب، ذكَّرني بفعلِ مُنىٰ ابنة المؤرخ الكبير حسين مؤنس في صِغَرها، لمَّا كانت تصنع أسطولَ مَراكبَ من ورقِ كتبِ أبيها وتلعب بها في حوض الاستحمام أو في طَشْت الغسيل في الحمام! ولكنها بعد ذلك لما بدأَت تقرأ أدركَت قيمة الكتب؛ لأنها فتحَت لها عوالِمَ جديدة لم تكن تعلم أنها موجودة، وتعزو الفضلَ في هذا لوالديها، فتقول عنهما وتذكر حال الكتب وكيف تُعامَل في بيتهم: «ويرجع الفضلُ في هذا الكشف إلىٰ كلٍّ من أبي وأمي، ثم أصبحَت القراءة -وبالذات بعد دخول المدرسة- عادةً أقوم بها كلَّ يوم حتىٰ أصبحَ من الصعب التخلُّصُ منها. وتابعني أخي علىٰ نفسِ العادة وأصبح أكثرَ شغفًا منِّي بالقراءة، ويرجع فضلُ ذلك إلىٰ الأبَوين ووجود مكتبة بالمنزل

واحترام الكتاب؛ فالكتب في بيتنا كانت تُعامَل بعنايةٍ وتوضَع في مكانٍ آمن وتنظَّف ولا يُكتب فيها إلا بالقلمِ الرصاص لو لزم الأمر»(١).

وأنا مُعْجَبٌ بالإجلال العظيم الذي كانت تُكِنُّه خادمةُ الغرف الدانماركية للكتب، والتي كانت آن فاديمان بعد أن اشتدَّ عودها تسخر من (إعجابها الأفلاطوني) للكتب. تروي لنا آن موقفًا من طفولتها قائلةً: «عندما كنتُ في الحاديةَ عشْرة وأخي في الثالثةَ عشرة، اصطحبَنا والدانا إلىٰ أوروبا. في فندق (أوتيل إنجلترا) في كوبنهاغن، ترك كيم علىٰ المنضدةِ بجانب السرير كتابًا مقلوبًا علىٰ صفحاتهِ المفتوحة كما يفعل كلَّ ليلة تقريبًا منذ تعلُّمِ القراءة. عصرَ اليوم التالي، عاد ليجدَ الكتاب مغلقًا، قُصاصةٌ من الورقِ تشير إلىٰ الصفحةِ المطلوبة، وفوقَه ملاحظةٌ موقَّعة من خادمةِ الغرفة جاء فيها: (سيِّدي، يجب ألَّا تفعل هذا أبدًا لأي كتاب)». وأخبرَتنا أيضًا بعد مُضيِّ الحياة بها أو مُضيِّها في الحياة أن زوجها -ذاك الغريب الذي يقرأ في الساونا!- كان «لا يتخلَّىٰ عن عادتهِ في وضعِ الكتاب مقلوبًا علىٰ صفحاتهِ المفتوحة؛ مما يتسبَّب بكسرِ كعبه». فما كان من شريكهِ في الغرفة -الذي كان يعرِف للكُتب قيمتها وأنها أجلُّ من أن نُعاملها معاملةً براغماتية خالصة- إلا أن قال له متألِّمًا: «جورج، إن كسرتَ كعبَ كتابٍ مجدَّدًا بهذه الطريقة، فتأكَّدْ أنك تكسر عمودي الفقري»(٢).

كلُّ مَن عايش الكتبِ، وألِفَ صُحبتَها، وأدرك نفعها وفائدتها؛ يرجو أن يطول مقامُها عنده وبقاؤه بينها، فتجدُه كثيرًا ما يخشىٰ ساعةَ فقْدِها. وأسبابُ الفقد كثيرة؛ منها: البيع، أو الضياع، أو التلف. وتلفُ الكتاب -في الغالب- يكون سببُه الإهمال. لذلك أنا أرعىٰ كتابي، وأهتمُّ بسلامتهِ، وأجتهد في الحفاظِ عليه؛ لكي يطول مقامه عندي، ولا أُضطرُّ لمفارقتهِ بسبب الإهمال.

(١) في بيتِ حسين مؤنس، ص٣٦-٣٧.

(٢) من كتبي (اعترافات قارئة عادية)، ص٤٩-٥١.

والتخلِّي عن الكتب بسبب التلف أو مُفارقتُها لأيِّ سببٍ آخر أمرٌ مؤلم جدًّا، وأخذَني عقلي إلىٰ ذلك المشهد الذي وقفَ فيه الروائي اللبناني إلياس خوري أمام مكتبته بعد أن قرَّر التخلُّص من بعضِ كتبِه؛ وذلك أنَّ مكتبته لم تعُد تتَّسع للكتبِ الجديدة. وما إنْ حزمَ أمره في يومٍ من الأيام لتنفيذ هذه الخطوة حتىٰ أصيب باكتئابٍ عميقٍ؛ لأنه كلما اقتربَ من الكتبِ التي أراد رمْيَها داهَمه شيءٌ من تأنيبِ الضمير، فكيف يمكن لامرئٍ أن يتخلَّص من كتبٍ رُسِمَ عليها ذكرياتُ مُراهقته وشبابه المبكِّر، أو كتب ترَكَت بصمةً ما في حياته[1].

كتبَ مانغويل مرةً يقول: «أنا أعرف تمامًا أنَّ شيئًا ما يموت في داخلي عندما أستغني عن كتُبي، وأن ذكرياتي تعود إليها دومًا وأبدًا، وتصيبني بحنينٍ مؤلِم للغاية»[2].

الكتاب النَّفيس كالصاحِب العزيز؛ إذا أردتَ أن تطول علاقتُك به فلا بد من الوفاء له وحمايتِه ورعاية حقوقه. وفاؤك يكون بحفظِهِ من التلف وعدم التفريط به، وحمايته بتهيئةِ المكان المناسب له، ورعاية حقوقه تكون بالسهرِ علىٰ قراءته والاجتهاد في تشرُّب مادته وفَهمه.

* * *

في لحظةٍ عاطفيةٍ تدفعُ العاشِقَ إلىٰ الاعتراف بجُرأةٍ من غيرِ وَجَلٍ يُشتِّتُ فِكرَه أو خَجَلٍ يحبس لِسانَه؛ تُكاشفنا المُغرَمة ناتالي بقولها:

«أُحِبُّ الكُتب. أُحِبُّ جميع الكتب! الكتب الصغيرة جدًّا، المكتوبة بحركةٍ واحدة، مثلها مثلُ الكبيرة التي هي ثمرةُ حياةٍ بكاملها، والقديمة بأغلفتها المُمزقة، ولكن أيضًا تلك التي خرجَت لتوِّها من عند الناشر، متباهيةً بحواشيها الحمراء الجميلة.

---

(١) الكتابة بحبرٍ أسود، ص١٦٩.

(٢) تاريخ القراءة، ص٢٦٦.

أُحبُّ الكُتبَ التي تحكي قصصًا رومانسية تستدِرُّ الدموعَ، ولكني أيضًا أجِدُ متعةً عظيمة في استسلامي للمتاهات العقلية (والعِلميّة) في البحوثِ التي تمحني الإحساسَ بأني أكثرُ ذكاءً. أُحبُّ كُتبَ الفن التي تُدخِل إلىٰ البيوتِ لوحاتِ اللوفر أو البرادو، أو الصور الغريبة الآتية من القارات الخمس. كم واحدٍ منَّا ما كان ليعرف شيئًا عن تلك الروائع لولا وجودُ الكُتب! أُحب صفَّ الكُتب. عندما تكونُ مرتَّبةً في الرفوفِ، ننظر إليها ورؤوسنا محنيَّةً قليلًا، كأننا نُبَجِّلُها حتىٰ قبل أن نفتحها»[1].

نقفُ بعد قراءةِ هذه المشاعر الجيَّاشة والسطور النابِضة بالغرام عند قولها: «مُرتَّبة في الرُّفوفِ»، وأذكر أنني قرأتُ بأن رصَّ الكُتب «منتصبةً علىٰ كُعوبها، ومكدَّسة في صناديقَ خشبيةٍ مصنوعة خِصيصًا لهذا الغرض» كان ابتكارًا من هيرناندو كولون (١٤٨٨-١٥٣٩)، ذلك الرجل الذي حاول قراءةَ كلِّ الكتب واقتناءَ كلِّ المؤلفات.

ومن أخبارِهِ العجيبة أنه اقتنىٰ سَبعَمائة كتابٍ من مدينة نورمبرغ الألمانية عشيَّةَ عيد الميلاد في سنة ١٥٢١م! ثم شدَّ الرِّحال إلىٰ مدينة ماينتس حيث ابتاع ألفَ كتابٍ آخَر في غضون شهرٍ واحد فقط! وسافر بعدها «متنقلًا ما بين روما وبولونيا ومودينا وبارما وتورين وميلانو والبندقية وبادوا وإنسبروك وأوجسبورج وكونتستانس وبازل وفرايبورج وكولونيا وماستريخت وأنتويرب وباريس وبويترس وبورجوس؛ مقتنيًا أيَّ شيء مطبوع يقع تحت بصرِه». وكانت طريقته كلما ابتاع كتابًا أن يعمد إلىٰ تسجيل ثمنِه، ومكان وتاريخ شرائه، وأحيانًا مكان قراءته له[2].

وهذهِ واللهِ طريقتُنا قبل أن نعرف كولون أو نسمعَ به، ولا أظنُّني وحيدًا في هذا؛ فإن جُلَّ مَن أعرِف مِن عُشَّاق الكتب وأربابِ القراءة يفعلون ذلك.

---

(١) رواية (مكتبة ساحة الأعشاب)، ص١٧-١٨.

(٢) راجع: رائحة الحبر (قراءات من المكتبة العالمية)، ص٤٣-٤٨.

نعود إلىٰ رفوف المكتبة، لا بد أن يعرف القارئُ أنَّ لِأخذِ الكتابِ من الرَّفِ طريقةً احترافيةً قد لا يعلمها كلُّ أحد، بل لعلِّي قادرٌ أن أحكم علىٰ مدىٰ خبرتك في التعاملِ مع الكتب من خلالِ جذبِك للكتاب من مكانهِ المُخصص في المكتبة. إذا كان الرَّفُّ مضغوطًا غاصًّا بالمجلدات المتراصَّة -وهذا الضغط ليس جيّدا، ولكنها ضرورةٌ لا بد منها-، وليس هنالك فراغاتٌ تُساعدك علىٰ خلخلةِ كتابك وجذْبه من الرَّفِّ، فمِن الخطأ أن تسحبَه -كما يفعل كثيرون- من زاوية كعبِهِ؛ لأن مصير كعبِهِ التلفُ بعد تكْرار هذه العملية. وفِعلُ ذَوي الخبرة أن تضغط بإصبعك السبَّابة فوق صفحاتِهِ أمام الكعب قليلًا ثم تسحبَه ببطءٍ حتىٰ يَميل إليك من الأعلىٰ، فتُمسك بهِ من خَصْرهِ الناحل، وتأخذه بين يدَيك بيُسرٍ وسهولة.

إذا فهمتَ الطريقة فالحمد لله، وإن لم تفهمها فالحمد لله أيضًا لأنها سرٌّ من أسراري، أو ما كنتُ أحسبُه كذلك حتىٰ وقفتُ علىٰ كلامٍ لعابدة العظم تذكر فيه احترامَ جدِّها علي الطنطاوي رحمه الله للكتب، وحِرصَه علىٰ العناية بها ورعايتها، فعَلِمتُ أن السِّر معلومٌ لدىٰ الجميع. وإليك ما كتبَتْ: «لقد كان التعامل مع الكتبِ عند جَدي عِلمًا لا بد من إتقانه؛ فالكتاب لا يُشترىٰ كلَّ يوم، إنما هي نسخةٌ واحدة وتبقىٰ إلىٰ آخِر العمر، وقد يرثُها الأبناءُ من بعد. لذلك كان يُعلِّمنا طريقةَ تناول الكتاب عن الرَّفِّ بحيث لا يَفسَدُ غِلافُه: فنضع السبابة علىٰ الطرَفِ العُلوي من حرفهِ الخلفي، ونُميله برفقٍ حتىٰ نتمكَّن من إمساكِه بيدنا، ثم نسحبه. أما تقليب الصفحات فإنَّ له فنًّا آخَر: فكان يمنعُنا منعًا صارمًا من لعقِ أصابعنا قبل قلب الصفحة (خوفًا علىٰ الورق من الفساد بسبب البلل) أو الضغط علىٰ الورقةِ بشدَّةٍ في زاويتها السُّفلية اليسرىٰ لقلبها؛ (لأن ذلك يُشوِّه الورقة، وقد يتسبَّب في تمزق طرَفِها)، أما الأسلوب الصحيح للتقليب فهو جذبُ الورقة بسبَّابةِ اليد اليسرىٰ (بمساعدة الإبهام والوسطىٰ) من الزاويةِ العلوية اليسرىٰ للكتاب، جذبًا إلىٰ الأعلىٰ لا ضغطًا إلىٰ

الأسفل! ثم كان يحظر علينا أن نضع داخلَ الكتاب قلمَ رصاصٍ أو كتابًا آخَر أو أيَّ شيء يَزيد سُمكُه عن ورقة، فضلًا عن قلبِ الكتاب وهو مفتوح؛ لأنَّ ذلك يُفسِّخ كعبه ويُفرِّق مَلازِمَه»[1].

وأنت اختبر واختر لنفسك؛ هل ترىٰ أن التعامل الصحيح مع الكِتاب يكون علىٰ طريقةِ الأديب الحبيب الطنطاوي، أم لا بد لنا أن نسير علىٰ خُطىٰ آن فاديمان وزوجِها الغريب الذي يقرأ في الساونا؟!

وأرىٰ أنَّ هذا هو السبب الحقيقي الذي يجعل شيخ العربية محمود شاكر رحمه الله لا يسمح لأحدٍ يكون جالسًا عنده أن يتناوَل الكِتاب بنفسه، وإنما يطلبهُ منه وهو الذي يُحضره إليه.

في كتاب (العلَّامة محمود محمد شاكر كما عرَفتُه) يُحدِّثنا الدكتور عبدالله عسيلان عن أبي فِهرٍ قائلًا: «ولم يكن يسمح لمن يُريد كتابًا من مكتبتِهِ أن يتناولَه بنفسه، بل لا بد أن يطلبَ منه الكتاب، وهو الذي يُحضره بنفسه. أدرَكتُ هذا يومَ أن كنتُ أزوره يوميًّا إبَّان دراستي في مرحلةِ الدكتوراه، مستفيدًا من عِلمهِ ومن مكتبته؛ حيث كان يوجِّهُني قائلًا: (إذا أردتَ كتابًا اطلبه مني وأنا أُحضره لك، وإذا فرَغتَ منه اتركه وأنا أُعيده في مكانه، ولا تُحاول إعادته بنفسك حتىٰ لو كنتَ تعرف مكانه)». ويُعلِّل الدكتور حفظه الله قائلًا: «لأنه خبيرٌ بأماكن كتبه، ويخشىٰ أن يوضَع الكتاب في غيرِ مكانه فيصعب الوصولُ إليه عند طلبه والحاجةِ إليه»[2].

ولو كان الأمرُ كذلك فقط، أي إنَّ عادته هذه سببها أنه يخشىٰ أن يضع أحدُهم الكتابَ في مكانٍ آخر فيُفسد عليه ترتيبَ المكتبة وحِفظَه لرفوفها، لَما احتاج أن يُؤكِّد بقوله: (حتىٰ لو كنتَ تعرِف مكانه)، واكتفىٰ بأن يقول: خُذ أيَّ كتاب تحتاج

(١) هكذا ربَّانا جدي، ص١٢٧-١٢٨.

(٢) العلامة محمود محمد شاكر كما عرَفته، ص٣٦.

إليه من المكتبة، ولكن لا تحاول إعادتَه بنفسك. هكذا نفهم أن السبب فقط هو خوفُه أن تضيع الكتب بتغييرِ أماكنها في المكتبة.

والواضحُ من قوله، أن أبا فِهر كغيرهِ من العلماءِ والأدباء والمثقَّفين كان حريصًا علىٰ سلامةِ كتبه. لذلك سيكون دليلًا علىٰ عدَمِ المبالاة أن يترك الطَّلَبة الذين كانوا يتَوافدون علىٰ مكتبته الحافلة لما يحتاجون إليه من المصادر النادرة والمراجع المهمَّة أن يتناولوا الكتب بأنفسهم من المكتبة؛ فإنه لا يعلم مدىٰ خبرتهم بسَحبِ الكتاب من الرَّف، وكما عَلِمتَ أن هذه المهمة ليست سهلةً علىٰ كل أحد!

وحِرصُ شيخ العربية والطنطاوي علىٰ كتبهما يُشبهه حرصُ كلارك الذي كان يشتري نسختين علىٰ الأقل من الكُتبِ التي تُعجبه؛ وذلك ليضمن سلامةَ إحدىٰ النسختَين، ولا يُحب أن يقترب أحدٌ من الرُّفوف لحظةَ غيابه. وعندما ارتكبَت حماتُه خطيئةَ تناوُلِ كتابٍ من مكتبتهِ، ظلَّ يُلاحقها كظِلِّها ليتأكَّد من حِفاظها عليه وأنها لن تُسيء معاملته، «كأن تضعَه مقلوبًا علىٰ صفحاته المفتوحة علىٰ طاولة»[1].

* * *

عندما تدفعُك الحاجة وتسوقَ أقدامَك -بعد رفْعِك أكفَّ الضراعة إلىٰ خالقك- إلىٰ كريمٍ ليُخفِّف عنك الحِملَ الذي أثقل كاهلَك، فيفعل. تجدُ في نفسِك احترامًا عظيمًا وإجلالًا كبيرًا له، وتتشبَّث بعلاقتك به وتحرِص علىٰ ألا تُقطَع حِبال الوداد بينك وبينه، وتُحافظ علىٰ التواصل معه دائمًا؛ وكُل هذا لأنه صاحبُ معروفٍ عليك[2].

---

(١) من كتبي (اعترافات قارئة عادية)، ص٥٥.

(٢) وإني أعجب من أُناسٍ في طبائعهم رَداءة؛ يغشاهم المعروف فلا يُحرِّكهم، يَمضَغونه

ألا يُمكن أن يخلق الكتابُ الذي انتفعتَ به، والذي أودَع فيه مؤلفُه ثمرةَ عِلمه وفِكرِه وتجرِبتِه؛ بداخلك شعورًا بالامتنان[1] يُجبرك علىٰ احترامه، والمحافظة عليه، والتعامل الحَسَن معه، والشوق الدائم للاتِّصال به؟!

لا يزال موقفُ ذلك الريفيِّ الأمِّي الذي أبىٰ أن يَلمس كتابًا من كُتب العقاد؛ لأنه لم يكن علىٰ وضوء! يَقْرع أبوابَ عقلي ويُنبِّه فِكري إلىٰ هذهِ الفِطرة السليمة التي جعلَته يُوقِّر الكُتبَ دون أدنىٰ معرفة لما تَحوي وتضم، هكذا فقط شعر أن هذا الشيءَ مُقدَّس ويجب احترامه. ولم يترك العقادُ هذا المشهدَ يمرُّ صامتًا في حياته، بل كتبَ يَرْوي لنا هذا الحَدَث ويُلْمِع إلىٰ معنًىٰ سامٍ في تصرُّف هذا الريفي الأمِّي. يقول: «واحتَجْنا يومًا إلىٰ نقلِ بعض الرفوف من هذه الحجرة إلىٰ الحجرةِ التي تليها ريثما نصلحها ونَفرُغ من طِلائها. فاستعَنَّا بقريبٍ لبوَّاب المنزل يومئذٍ علىٰ النقلِ مع خدمِ البيت، وكان ريفيًّا أميًّا يزور قريبَه أو يزور (آل البيت) علىٰ التعبير الصحيح.

أو لعلها أولُ زياراته للقاهرة في طلبِ الخدمة وطلبِ البركة علىٰ السواء.. ولم يكن له علمٌ بالأحرُفِ العربية ولا بالأحرف الإفرنجية، فإذا رأىٰ كتابًا في هذه الأحرف أو في تلك فكلُّه كتاب، وكله مما يقرؤه المطهَّرون. فلما اقتربَ من باب المكتبة خلع نعْلَيه وتهيَّب أن يمدَّ يده إلىٰ الكتبِ لأنه كما قال لم يكن علىٰ وضوء!!

أليس لهذا الريفيِّ الأمي مَنطقٌ صادق فيما فعَل علىٰ البداهة؟ (إنه تعوَّد أن يقرن صورةَ الرجل العالِم بصورةِ رجلِ الدِّين، فما بالُه لا يقرن كتابَ العِلم بالقداسة الدينية؟) وهل يكون الكتاب لغير علم أو لغير قداسة؟!

ويمضون! لا يعرفون معنًىٰ للشُّكر أو الذِّكر. واللهِ لو وسَّعَ لي أحدُهم في مجلسٍ لاسترَقَّني، وأخذتُ أذكر صَنيعه هذا في الغداة والعَشي.

(١) في مقالٍ عن (قُوىٰ السعادة) يذكر د. جايسون بورز بأن هناك صفتان فقط تصمدان أمام التنبؤ بالسعادة، وَفْقًا لدراسةٍ قام بها عالمُ النفس سكوت باري كوفمان.. الأولىٰ: الامتنان، والثانية: حب التعلُّم. راجع المقالة في كتاب [الحياة التي لم نعشها، ص١٣٥].

(لقد أكبَرْتُ تحيةَ الجهل للعِلم في مسلكِ هذا الريفي الصالح)، وأستغفرُ الله لأنني أفسدتُ سُمعة الكتبِ في رأيهِ علىٰ الكُره مني، فأعلَمتُهُ أنها كأبناءِ آدمَ وحواء؛ فيها الصالح والطالح، وفيها الطيِّب والخبيث، وأنها لا تَحرُم في جميعِ الأحوال علىٰ اللمسِ بغير وضوء، فلم أُجرِّئه علىٰ حُرمتها ولا أقنعتُه بلمسها حتىٰ أريتُه علىٰ غِلافِ بعضِها صورَ التماثيل العارية، وفي صفحاتِ بعضها صورَ السادة والسيدات.

فتحلَّل من حرَجٍ، وأقدَم بعدَ إحجام»[1].

* * *

ولكننا إذا وقفنا بعد ذلك عند الناقد الصِّربي زوران جيفكوفيتش فإننا سنجدُ تطرُّفًا في التبجيل للكتب! فإنه يرىٰ أن الغلاف الورقي أسوأُ إهانةٍ تلقَّتْها الكُتب، وأن الذين يُغلِّفون الكتب بالورق ما هم إلا مجموعةٌ من معدومي الضمير!

«لم أحتقر شيئًا في حياتي كاحتقاري للكتب ذاتِ الغلاف الورقي. إن الغلافَ الورقي أسوأُ إهانةٍ يمكن توجيهُها إلىٰ شيءٍ عظيم لا ينبغي له إلا التبجيلُ والإجلالُ في كل الأحوال. لا أحدَ سوىٰ الجهلة والسفهاء يدَّعون أنَّ من الخطأ أن تحكم علىٰ الكتاب من غلافه. يقولون إن العمل الأدبي العظيم يظلُّ عظيمًا بغضِّ النظر عن طريقة تجليده. كلام فارغ! يجب أن يعكس التغليفُ مكنونَ الكتاب. أترضىٰ أن تُغلِّف جوهرةً بأوراقِ جرائد قديمة مثلًا؟ وما العملُ الأدبي الرفيع إن لم يكن أجملَ جوهرة يحملها المرء؟! وماذا تنتظر من معدومي الضمير الذين يُغلِّفون كتبًا بالورق؟! لا تقديس للكتب في قلوبهم، ولن يتورَّعوا عن استغلال أفضل الأسماء وأعظمها، إن رأوا أنهم سيَجْنون من ورائها مالًا! الحقُّ

(١) أنا، ص١٧٧ - عباس العقاد. شتان بين فِطرة هذا الريفي وصاحب العقار الوقح الذي حَكَمَ بعد وفاة الشاعر الحضرمي علي بن أحمد باكثير، بطرد الساكنين، فقام بإلقاء كتبهِ خارجَ الشقة وعلىٰ سلالم العمارة! [العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم، ص١٤٢ - العلاونة].

أنني لا أعرف إلىٰ أين سوف ينتهي بنا المطافُ إن استمرَّينا في تهميش كلِّ شيء والعبث به بهذه الطريقة[1].

ولأن الكاتب الكبير دوستويفسكي لا ينفكُّ يَحضر في ذهني دائمًا؛ تذكَّرتُ ما جاء علىٰ لسان شاتوف في الجزء الثاني من روايةِ (الشياطين): «.. لأن قراءة كتاب وتجليدَه مرحلتان من مراحلِ الحضارة تضم كلٌّ منهما فترةً طويلة. ففي البداية يتعلَّم الإنسانُ القراءة، شيئًا فشيئًا، خلال عدة قرون، ولكنه لا يعتني بكتبه أيَّ اعتناء، بل يُعاملها معاملةَ شيء ليس له قيمة. أما تجليد الكتاب فهو علامةٌ علىٰ أنَّ الكتاب أصبح يَحْظىٰ باحترام، وهو يدلُّ علىٰ أن الإنسان أصبح لا يُحب أن يقرأ فحسب، بل علىٰ أنه أصبح يعرف ما للقراءة من عظيمِ الشأن»[2].

* * *

أما عادل الغضبان[3] الذي جمع مكتبةً نفيسة فقد كان في احترامه ورعايته للكتب صاحبَ ذوقٍ خاص؛ «إذ كان يُجلِّد الكتب تجليدًا فاخرًا بألوانٍ تختلف باختلافِ موضوع كلِّ كتاب، فالدواوين والدراسات الشعرية تُجلَّد بلون، وكتب التراث تلوَّن بلونٍ آخَر، وكتب الدراسات الأدبية بلونٍ ثالث، وكتب العلوم بلونٍ رابع، وهلُمَّ جرًّا»[4].

* * *

---

(١) المكتبة، ص١٠٣-١٠٤.

(٢) الأعمال الأدبية الكاملة لدوستويفسكي ج١٣ ص٣٠٠.

(٣) أديب وشاعر مصري، حلبي الأصل. وهو صاحب فكرة إصدار السلاسل المختلفة مثل: (اقرأ)، و(نوابغ الفكر العربي)، و(أعلام التاريخ)، و(ذخائر العرب)، و(وأولادنا) ورأس تحرير مجلة الكتاب (١٩٤٥-١٩٥٣).

(٤) العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم، ص١٠١-١٠٢.

إذا كان الريفي الأمِّي قريب بوَّابُ بيت العقاد شعَر تجاه الكتاب بالتوقير والإجلال وهو يجهل جهلًا تامًّا ما بين دَفَّتَيه، ولم يَنْعَم بفائدتهِ أو يَذُق متعته، فلا تعجَبْ من أيِّ مبالغة تقرأ عنها أو تسمع بها عمَّا يحمله صدرُ مَن أدرك قيمةَ الكتاب من الاحترام إلىٰ درجةِ الشعور بالامتنان. إذا عرَفتَ هذا، فهمتَ السِّر وراء تلك القُبلة التي شاهد حسين والدَه الكاتب الكبير أحمد أمين يطبعها علىٰ غلافِ أحدِ كتبه[1].

ولعلَّ أحمد أمين كان يُحِس بما تُكِنُّهُ إليه كتبُه من مشاعر، فأرادَ أن يُكاشِفَها بمشاعرِهِ تجاهَها بهذه القُبلة. وإذا سألتَ: هل للكُتبِ مشاعر؟ أحيلك إلىٰ يوجين فيلد الذي قال في كتابهِ (شؤون الحُب في وسواس جمعِ الكتب) الذي صدرَ عام ١٨٩٦م: «يبدو أن عددًا قليلًا من الناسِ يُدرِكون أنَّ للكتب مَشاعر...، خيرُ ما أعرفه، هو أن كتبي تعرفني وتُحبُّني، أستيقظ في الصباح وأُحدِّق في غرفتي، أطمئنُّ علىٰ حالِ كنوزي الحبيبة، عندها أنادي بلذةٍ علىٰ كتبي: يومًا سعيدًا لكم أيها الأصدقاء الأعزاء، أيُّ ودٍّ تبعثونه لي، وأي سعادةٍ تغمرون بها سَكينتي!»[2].

وكلمات ونستون تشرشل عن كتبهِ تدلُّ علىٰ عظيمِ مكانتها عنده، وأنه يُعاملها معاملةً خاصة جدًّا، ولا يتهاون في عنايتها، يقول: «ما الذي يجب فعله حِيال كتبي؟ كان السؤال، وجاء الجواب: اقرأها. يا لها من إجابةٍ رصينة. لكن إذا لم تتمكَّنْ من قراءتها تعامَلْ معها بيدَيك.. تلَمَّسْها. تمعَّنْ فيها.. دَعْها مفتوحةً علىٰ سَجيَّتِها من الصفحات، واقرأ من الجملةِ الأولىٰ التي تقع عليها عيناك، ثم انتقل إلىٰ أخرىٰ، مُبحِرًا معها برحلةِ اكتشافٍ لِسَبر الأعماق المجهولة. أعِدْها براحتَيك إلىٰ موطنها علىٰ الرفوف.

---

(١) في بيت أحمد أمين، ص١٦. وفي ص٢٤-٢٥ أن رفقة الكتاب كانت أحبَّ إلىٰ والده من رفقة أولاده.

(٢) عاشق الكتب، ص٨٢.

صنِّفْها وَفقًا لغايتك الخاصة، فإن كنتَ غافلًا عمَّا فيها فإنك علىٰ الأقل تحفظ مكانَ وجودها. وإن لم تصبح صديقةً لك، دَعْها بأيِّ حالٍ لتكون أحدَ معارفك. وإذا لم تستطع دخولَ دائرة حياتك، لا تبخل عليها بانحاءةِ تقديرٍ علىٰ الأقل»[1].

وعقلي لا ينفكُّ عند كلِّ حديثٍ عن الكتبِ يُذكِّرني بذلك المشهد الساحِر الذي لن يستطيع أكبرُ مخرجٍ سينمائي مهما بذَل واجتهدَ أن يُصوِّره لنا بنفسِ الدِّقةِ التي أتاحتها لنا عقولُنا عند قراءتنا له في الكتب. فدونك المشهد: «رُئِيَ أبو أيوب سليمانُ بن داود الشاذَكُوني -وهو من الحُفَّاظ الكبار، وتُوفِّي في أصبهان سنة ٢٣٤هـ- بعد موته في النومِ، فقيل له: ما فعَل الله بك يا أبا أيوب؟ قال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: (كنتُ في طريقِ أصبهان، فأخذَني المطر، وكان معي كُتبٌ، ولم أكن تحتَ سقفٍ ولا شيء، فانكبَبْتُ علىٰ كتُبي حتىٰ أصبحتُ وهدَأ المطر، فغفر الله عزَّ وجل لي بذلك)»[2]. يا له من مشهدٍ آسرٍ أخَّاذ، يملك القلبَ ويَسْلب اللُّب. فأيُّ قدرٍ عظيمٍ يحمله هذا الرجلُ للكُتبِ والعِلم؟!

* * *

وقبل أن أختم المقال بكلامٍ للكاتب الفرنسي دوهاميل أقول: احْرِص علىٰ تنظيف مكتبتك مرةً في الأسبوع علىٰ الأقل من الغُبار؛ فإن له -أي الغبار- قدرةً غريبة علىٰ الاسترخاء فوق الكتب وفي المساحات الفارغة من رفوفِ المكتبة، حتىٰ وإن كنتَ تقطن في مدينةٍ أهلها لم يسمعوا يومًا لفظةَ (غبار) فضلًا عن رؤيته، ستجده هناك مُستلقيًا بأمانٍ في مكتبتك العامرة. فلا بد أن تتعاهدَ رفوفك التي تحمل ثمرةَ جهود الأوائل والأواخر بالعناية والتنظيف. انفُضِ الغبار عن كتبك بين فَيْنةٍ

---

(١) عاشق الكتب، ص١١٣-١١٤.

(٢) صفحات من صبرِ العلماء، ص٢٥٩.

وأخرىٰ؛ فإنَّ في هذا شيئًا من ردِّ الجميل.

والآن لِأترُكِ المجال لدوهاميل ليختمَ المقال: «إني أكرِّر أنَّ الكتاب يسعىٰ إلىٰ الخلودِ وهو يتطلَّب مكانًا في حياتنا الزمنية، وفي حياتنا الروحية، كما يَرمي إلىٰ أن يسكن بيوتنا، وأن يكون في متناوَلِ بصرنا وأيدينا، وهو زينةٌ في ذاتهِ كزينة الرياش، وعندما نُغلِّفه بالجلد أو بالأقمشةِ الثمينة أو الذهب نراه يُشبه الحُليَّ. ونحن ننظر إليه نظرةَ حبٍّ وعِرفانٍ بالجميل، ونعلم أنه حاضر، ما نَمدُّ إليه يدًا إلا سارعَ إلينا يُحدِّثنا بما يستطيع أن يقول، وإذا عرَفْنا كيف نسأله رأيناه مُستعِدًّا للإجابةِ تمامَ الاستعداد، وثمرةُ الثقافة الحقيقية هي (أن نعرف كيف نستخدم الكتب) كما لاحظ (أندريه جيد) فيما أظنُّ وإن لم تكن تلك ألفاظَه»[1].

(١) دفاع عن الأدب، ص١٢٣.

إرادة الحياة

«يقول مُخرجٌ سينمائي شهير: مَن يقرأ كثيرًا، فهو إمَّا واسعُ الثراء أو فقيرٌ مُعدَم. وأضيف أنا: أو سجين مثلي!»(١)

(١) هروبي إلىٰ الحرية [أوراق السجن ١٩٨٣-١٩٨٨]، ص٣٨.

بعد سجنٍ دام ٢٧ سنةً يكتب نيلسون مانديلا في سيرتهِ: «لا يسلب السِّجنُ الإنسانَ حريَّتَه وحسب، بل يُحاول أن ينتزع هُويته؛ فكل واحدٍ يرتدي بدلةً من نفسِ الطابَع، ويأكل نوعَ الطعام نفسه، ويتبع الجدول اليومي نفسه من العمل والروتين. السِّجن نظامٌ استبدادي قهري لا يقبل الاستقلالَ أو تَميُّزَ الشخصية. وعلىٰ المناضل بحكم أنه مُناضل، وبحكم كونه إنسانًا، أن يُقاوم طغيان السِّجن وأن يَحُول دون أن تُسلَب منه تلك الخصائص»[1].

السِّجن مكانٌ تُسحَق فيه الكرامة الإنسانية، وموضع تجسُّه في كلِّ ثانيةٍ يدُ الموت، ولأنه كذلك؛ سعىٰ بعضُ نزلائهِ - ظالمين كانوا أم مظلومين- أن يتحسَّسوا آثارَ الحياة فيه، فكانت هذه الحياة المُتطلَّبة في الكتب، فأخذوا بالانغماس في قراءتها متىٰ ما تهيَّأَت لهم الأسباب وسنَحَت لهم الفُرَص.

تدور هذه المقالة في فلَكِ القراءة في السِّجن، والأُنس بالكتب خلف القضبان. سنقرأ معًا كيفَ أنَّ الموضع الذي كان من الطبيعي جدًّا أن يُصبح نهايةَ آمال الإنسان وهلاكه فإذا به يتحوَّل إلىٰ بدايةٍ للحياة والبعث بفضل الكتب. وسنقف علىٰ أحوالِ بعض المساجين مع القراءة، ورغبتهم الملحَّة في استشعار لذة المعرفة وهم علىٰ شَفير الموت! ولن نَبخل علىٰ القارئ الكريم بإتحافهِ ببعض اللطائف التي وقَفْنا عليها في هذا الموضوع، ونتطرّق إلىٰ قضية: هل الكتب قادرةٌ علىٰ تغيير نفسية المُجرم وإصلاحه؟ وغير ذلك مما ليس في الذِّهن الآن، ولكني أثقُ بحضوره في الوقتِ المناسب.

* * *

(١) رحلتي الطويلة من أجل الحرية، ص٣١٩.

«إن الأمة علىٰ استعدادٍ لأن تسحقَ أكبرَ رأس يَخون الدستورَ أو يعتدي عليه».

كانت هذه كلمة العقَّاد التي جهرَ بها في البرلمان والتي سُجن علىٰ إثرها تسعة أشهر (من ١٣ أكتوبر ١٩٣٠ إلىٰ ٨ يوليو ١٩٣١م) بتهمة العيب في الذاتِ الملَكية؛ لأن المقصود بأكبر رأس هو الملك فؤاد. الشاهد أن هذه الشهور أثَّرَت علىٰ صحتِهِ وجعلته يرتدي كوفيَّتَه الشهيرة.

نعم؛ كانت تجربة السِّجن قاسيةً عليه جدًّا، ولكنها لم تكسره، فنراه بعد خروجه يتَّجه إلىٰ قبر سعد زغلول منشدًا:

لبثتُ جَنين السِّجنِ تسعةَ أشهُرٍ	وهـأنَـذا فـي سـاحـةِ الـخُـلْـد أولَـدُ
ففي كلِّ يومٍ يولدُ المرءُ ذو الحِجَا	وفـي كُـلِّ يـومٍ ذو الجهالةِ يُلحَدُ
وما أقعَدَتْ لي ظُلمةُ السجن عزْمةً	ففي كـلِّ ليلٍ حين يَغْشاك مَرقدُ
وما غيَّبَتني ظُلمة السجن عن سَنًىٰ	من الـرأي يَتْلو فَـرْقـدًا منه فَرْقدُ
عِدَاتي وصَحْبي لا اختلافَ عليهما	سيعهَدُ فـي كـلٍّ كما كـان يعهَدُ

أخبرنا العقاد عن أول أمرٍ قام به بعد أن زاره ضابطٌ من رُتبة (اليوزباشي) في الثاني عشرَ من أكتوبر وأعطاه ورقةً فيها دعوةٌ من صاحبِ السعادة النائب العمومي لحضور مكتبه في الساعةِ العاشرة من صباحِ اليوم التالي، كان أول أمر قام بِهِ بعد التوقيع علىٰ الورقةِ ورحيلِ الضابط حتىٰ قبل تجهيز أدويته التي يتعاطاها والملابس التي سيحتاج إليها هناك: «وأخـذتُ في إعـدادِ الكتب التي سأقرؤُها في السِّجن!»[1].

(١) عالم السدود والقيود، ص١٢.

وقد حدَّثنا عن النِّظام في السِّجن فيما يخصُّ القراءة والكتبَ قائلًا: «يَسمح النظامُ في (قره ميدان؛ أي الميدان الأسود باللغةِ التركية) بالقراءةِ للمحجوزين علىٰ ذمَّةِ التحقيق والمحكوم عليهم بالحبس البسيط، وتنحصرُ القراءة المسموح بها في الكتبِ الدينية والعلمية والأدبية التي (لا تُخلُّ بالنظام) ما عدا الروايات وكتب التسلية، ويرجع الأمر في التفريقِ بين ما هو جائزٌ من المقروءات وما هو محظورٌ إلىٰ رأي الموظف (الكتابي) الذي يتَّفقُ وجودُه ساعةَ وصول الكتاب...» ثم يقول إنه يومَ وصل إليه إعلانُ التحقيق وقع اختياره علىٰ كتابينِ في التاريخ والأدب، وهما: «الطبعة الجديدة من مختصرِ تاريخ العالم للمُصلِح الإنجليزي هـ. ج. ولز، وسيرة بيرون للكاتب الفرنسي أندريه موروا مترجمةً إلىٰ الإنجليزية، فأفرَدتُهما جانبًا ووضعتُ علاماتٍ علىٰ الكتبِ الأخرىٰ التي سأطلبها بعد الفراغ من هذين الكتابين».

ويُكاشِفُنا عن سببِ انتخابهِ هذين الكتابَين، فيقول: «ولم يكن اختيارًا في الحقيقةِ ذلك الذي هَداني إلىٰ اختصاصِ تاريخ العالم وسيرة بيرون بالقراءة في أيامِ السجن الأولىٰ، ولكنَّ الكتابين كانا قد وصَلا إليَّ في البريدِ الأخير، فوجدتُ الفرصة سانحةً للفراغِ منهما في هذه العُزلة المقسورة.

علىٰ أنني لو تعمَّدتُ الاختيارَ المناسب (لمقتضىٰ الحال) كما يقولون؛ لما اخترتُ غيرَ كتابين من هذا الباب وعلىٰ هذه الوتيرة، فليس أحبَّ إلىٰ الإنسانِ من أن يُعوِّضَ حركةَ الجسم إذا فقَدها بحركةِ الخيال، وليس أقربَ من المعقولِ من أن يلتمس في عالمِ القراءة ما يعزُّ عليه في عالمِ الواقع، وأي قراءة أليقُ بالسجين علىٰ هذا الاعتبار من تاريخٍ يُصاحب به حركةَ الإنسانية بأسْرِها من بدايةِ نشأتها ومن قبلِ نشأتها إلىٰ يومها الحاضر؟ أو من سيرةِ رجلٍ قضىٰ حياتَه كلَّها جامحًا بين رحلاتِ

الخيال ورحلات السياحة ورحلات الهوىٰ والمغامرة... فقد أحسنَ القدَرُ الاختيارَ لي فيما أرىٰ!»[1].

ولعلِّي أُثبت من طريفِ ما ذكره عند حديثه عن (التسلية في السجن) قوله: «وتيسَّرَت لي القراءةُ طرَفًا من الليلِ بعد دخول النور في الحجرة، فكنتُ أقرأ حتىٰ أملَّ الصفحات فألهو بمُراقبةِ النمل علىٰ الجدران، ويَطيب لي هذا النوعُ من اللهو لأنني أستأنفُ بهِ أيامًا من الطفولةِ كنتُ أقضيها في هذه المراقبة»[2].

ومن العقاد إلىٰ المُلاكم الأدبي الدكاترة زكي مبارك الذي اتُّهم إبَّان ثورة ١٩١٩ بتهمتَين خطيرتين؛ كما يقول ذلك الضخمُ البريطاني الذي استجوبه. والتهمتان: اشتراكه في تحريضِ المصريِّين علىٰ الثورة بخُطَبٍ كثيرةٍ في الأزهر، وتحرير المنشورات الثورية. ولم يُنكر الدكاترة ما اتُّهم به، بل كان يقول بعد الفراغ من ذِكر التهمة: «هذا صحيح، هذا صحيح».

والآن لِنُفسحِ له المجالَ ليُحدِّثَنا عن ليلةِ اعتقاله، وأرجو ألَّا تكون قد نسيتَ أول أمرٍ فعله العقاد عندما خرج من عنده الضابطُ الذي أخبره بدعوةِ صاحب السعادة، وانتبِهْ لما فعله زكي مبارك. يقول: «لم تكن لي رغبةٌ في الاعتقال، مع أنه فرصةٌ للراحة من متاعبِ الحياة التي كنتُ أقاسيها أيامَ الثورة! فقد عِشتُ مشرَّدًا مدةً تَزيد علىٰ شهرَين؛ لأنه كان من الخطرِ أن أَبيت في منزلي وهو في ذلك الوقت شقةٌ صغيرة في شارع الغُوريَّة، ومن أدبِ الإنجليز احترامُ المعابد، وإذن فلا خوف من الإقامةِ في الأزهر الشريف بالليل، ولكنها إقامةٌ مُتعِبة؛ فقد كان يتفق أن أقضيَ

---

(١) عالم السدود والقيود، ص٣٩-٤١.

(٢) عالم السدود والقيود، ص١٢٧. هذا يُذكرنا بمانديلا: «بعد فترة من السجن الانفرادي وجدتني أستمتع بصحبة الحشرات التي كانت تعيش داخل الزنزانة، وأوشك أن أتحدث إلىٰ الصراصير!». (رحلتي الطويلة من أجل الحرية، ص٣١٩).

اللياليَ بدون عَشاء. في إحدىٰ الليالي مضَيتُ إلىٰ المنزلِ وأوقدتُ مصباحًا فاستهوَتْني القراءة وأنا أجهلُ ما سيقع، فقد طرَق البابَ طارقٌ يقول: (افتح الباب يا أستاذ). مَن هذا الطارق؟ هو مأمور قسم الدرب الأحمر ومعه خمسةَ عشر جُنديًّا. ذلك المأمور هو المرحوم الشيخ محمد فرج وكان هَواه مع الثورة، فلم يَعتقل أحدًا من الثائرين إلا وهو راغمٌ، فقد كانت أمورُ الحكومة إلىٰ السلطةِ العسكرية.

قلتُ: أنا أفهم ما تريد يا حضرة المأمور، ولكني أرجو أن تُمهِلَني لحظات، (ثم أهوَيتُ علىٰ الكتبِ فاخترتُ ما أحتاج إلىٰ مراجعتهِ من الأدب العربي والأدب الفرنسي)، وربَطتُ تلك الكتبَ في بطانيةٍ وخرَجتُ محروسًا بعناية الله المصوَّرة في المأمور والجنود». ثم ذكر أخْذَهم إياه إلىٰ قصر النيل، وقال لما أصعَدوه إلىٰ غرفةِ المعسكر التي تُشرف علىٰ النهر: «فنظَّمتُ كتبي وأخذتُ أقرأ ما اخترتُه من الأدب الفرنسي».

وعن قراءتهِ في السجن يقول: «كنتُ وحدي بالغرفة.. ولكنَّ زائرًا يجيء بعد أسبوع، وذلك الزائر هو حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز مديرُ الأزهر لهذا العهد.. كنا صديقَين فصِرنا غريَمين. أنا أصحو بعد نصف الليل فأُوقد المصباحَ وأقرأ بصوتٍ مرتفع كما أوصاني مَن علَّموني اللغة الفرنسية، فينزعج الشيخ دراز ويقول: الله ينكد عليك.. ثم يتدثَّر ويُسْلم أجفانَه إلىٰ النوم العميق. وحين يصحو يُعاتبني فأقول إن أيام الاعتقال فرصة ندرس فيها ما يمكن درسُه من علوم.. فيضحكُ ويقول: الله يفتح عليك»[1].

لقد طاب المعتقلُ لزكي مبارك ما دام يقرأ، بل إنه كان يشتري بالمال المخصَّص لطعامه كتبًا ليُشبعَ نهَمَه المعرفي في عزلته القسرية!

---

(١) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص٣٣-٣٥.

ولكن هذا لا يعني أن المعتقل كان بردًا وسلامًا عليه؛ فقد كتبَ مرة: «إن أيام الاعتقال أورَثَتني أحزانًا كثيرة، وهي أحزانٌ ما زالت تفطر قلبي، ولكني أفَدتُ من أيام الاعتقال؛ فقد عرَفتُ معنىٰ الاغتراب في الحياة وهو معنًىٰ جميل»[1].

* * *

كان قد دخل في نقاشاتٍ مع أصدقاءٍ له غاضبين حول الشأن السياسي، فما هي إلا أيامٌ والضباط يقتحمون عليه حُجرته ويعتقلونه، ثم تُختَم أوراقه بالشمع الأحمر، ويأتي بعد ذلك الحُكم عليه بالإعدام! كل هذا بسبب ما يُسمَّىٰ بمؤامرة بيتراشيفسكي. ولكنَّه نجَا من هذا الحكم القاسي إلىٰ حكمٍ أقلَّ قسوةً وهو السجن أربع سنوات مع الأشغال الشاقة بسجنٍ في سيبيريا. يقول شتيفان زفايغ، أوه، نسيتُ أن أخبركم عمَّن نتحدَّث، نعم؛ إنه الروائي الكبير دوستويفسكي.. نعود إلىٰ قول زفايغ متحدِّثًا عن سجنه وحاله فيه: «وطَوال أربعة أعوام يُحيط ألفٌ وخَمسمائة وتدٍ من البلُّوطِ بكلِّ أُفقِه، وعلىٰ هذه الأوتاد يعدُّ بجروحه ودموعه أيامَه في السجن التي يبلغ عددها ثلاثَمائة وخمسة وستين مضروبةً في أربعة. أما رفاقه فمجرمون ولصوصٌ وقتلة. وأما عملُه فصقلُ الرخام وحملُ القرميد وجرفُ الثلج. وكان الإنجيل هو الكتابَ الوحيد المسموح به، وكان صديقاه الوحيدان كلبًا أجربَ ونَسرًا مشلولَ الجَناحين، ويمكث أربعة أعوام في (بيت الموتىٰ)، في العالم السُّفلي، ظِلًّا بين الظلال، مَنْسيًّا لا اسم له»[2].

ذكرَ دوستويفسكي أن إحضار الكتب إلىٰ السجن يُعد مُجازفةً كبيرة ومخاطرة عظيمة. «فإذا عثَرَت الإدارة علىٰ كتابٍ في السِّجن أثناء التفتيش، قامت مشكلةٌ

---

(١) زكي مبارك (دراسة تحليلية لحياتِهِ وأدبه)، ص١٩ - أنور الجندي.

(٢) اقرأ ما كتبه زفايغ في ١٤٠ صفحة عن دوستويفسكي في كتابِهِ (بُناة العالم)، فإنه نفيس وصاحبك مأخوذ به.

ضخمة ونشأتْ قصةٌ طويلة، فأنت تُسأل مِن أين جئتَ بالكتاب، وتُتَّهم بأنَّ لك شركاءَ تواطأتَ معهم. بماذا كان يمكن أن أُجيبُ لو أُلقيَت عليَّ أسئلة كهذه الأسئلة؟ لقد عشتُ في السجن بغير كتب..». ولكن لعلَّهم بعد ذلك سمَحوا ببعض الكُتب، فيقول عن شعوره عندما أمسك بين يديه أولَ كتاب بعد سنوات عديدة: «يصعب عليَّ أن أصفَ الشعور الغريب الذي شعرتُ به، والانفعالَ الشديد الذي عانيتُه حين قرأتُ في السجن أول كتاب أُتيح لي أن أقرأه. لقد أخذتُ ألتهِمُه في المساء حين أُغلِقَت علينا الأبواب، فما زلتُ أقرأ الليل كلَّه حتىٰ مطلع الفجر»[1].

علىٰ كلِّ الألم الذي عاناه في الفترةِ التي قضاها دوستويفسكي في السِّجن فإنه اعترَف بأن هذه التجرِبة كانت مُفيدةً له، حيث قال بعد خروجه منه بزمن: «لطالما باركتُ القدَرَ الذي وهَب لي أن أُعانيَ هذه التجرِبة. لقد كان لهذه السنينَ الأربع التي قضيتُها في السجنِ فضلٌ كبير عليَّ. إن نفسي وإيماني وفكري، إن ذلك كلَّه قد تبدَّل تبدلًا عظيمًا بفضلِ هذه التجرِبة».

وذِكرُ زفايغ يُحتِّم عليَّ إيرادَ شيءٍ من تُحفتهِ النادرة (لاعب الشطرنج)، فما خبرُ السيد ب مع الغيستابو، وكيف كانوا يُعذبونهم في المعتقَل، وعن تدقيقه في التفاصيل التافهة، وارتعاش قدَمَيه بعد اكتشافه وجود كتاب!.

أخطرُ ما يمكن أن يُجابِهَه السجينُ في زنزانته؛ الفراغ! فإنه خَصمٌ عنيد وعدوٌّ فاتك، ولا ننسىٰ كلمة أحمد أمين في سيرته: «الفراغ هو أدهىٰ ما يُمْنىٰ به الإنسان». لذلك عندما اكتشف أربابُ التعذيب هذا الأثرَ الخطير الذي يفعله الفراغُ بالسُّجناء أسْلَموهم إليه، وحرَصوا علىٰ خُلوِّ أيديهم مما قد يُساعدهم في التغلُّب عليه، وهذا يأخذنا إلىٰ وصف السيد ب في رواية زفايغ لطريقة تعذيب الغيستابو، فيقول: «كانوا يريدون تعذيبنا بطريقةٍ أشدَّ تهذيبًا؛ لأن الضغط الذي مارَسوه علينا من أجلِ

(١) الأعمال الكاملة، ج٥، ص٤٧٤-٤٧٥ - ترجمة الدكتور سامي الدُّروبي.

استنطاقنا وأخذِ المعلومات المنشودة، كان أشدَّ مكرًا من ضرباتِ العصا والتعذيب الجسدي؛ لقد كانوا يُعذِّبوننا بالعُزلة! عُزلة خالصة لا يمكن أن تخطر علىٰ بالِ أحد. لم نتعرَّض لأيِّ تعذيب جسدي.. بل أسْلَمونا ببساطةٍ إلىٰ فراغٍ مُطلق، ومن البديهي -وركِّز هنا- أنْ لا شيء في العالم يُعذِّب النفسَ البشرية أكثرَ من الفراغ»(١).

المهم، كيف وصفَ السيد ب شعورَه وحالته عندما رأىٰ أول كتابٍ في المعتقل؟ دونك ما قال: «أيُعقَل أن يكون هذا الشيءُ كتابًا بالفعل؟! وبدأت رُكبَتاي ترتعشان: أجل، إنه كتاب! لقد مضَت عليَّ أربعةُ أشهر لم ألمس خلالها كتابًا واحدًا بيديَّ. ومجرَّد التفكير في تأمُّل سلسلةٍ من الكلماتِ وعددٍ من الأسطرِ والصفحات والأوراق كان كفيلًا بإبهاري. كتاب يُتيح لي الاطِّلاع علىٰ أفكارِ رجلٍ آخر، أفكار مختلفة وجديدة قد تَشغَلُني عن هواجسي. أيُّ اكتشافٍ مذهلٍ ومريحٍ هذا!».

ثم يَزيد واصفًا حالَه مع الكتاب ورغباته الداخلية تجاهه، قائلًا: «قد تتصوَّر دون شكٍّ أنني سحَبتُ الكتاب فورًا لأتأمَّله وأقرأه، كلا! علىٰ الإطلاق! لقد أردتُ في البدايةِ أن أتذوَّق الفرحة الكاملة التي كان يمنحُني إياها وجودُه معي. فأخَّرتُ عمدًا لحظة تصفُّحي له من أجلِ متعةِ الحلم المثيرة وأنا أتساءل أيُّ نوعٍ من الكتبِ أريده أن يكون: تمنَّيتُ أن تكون حروفه صغيرة جدًّا وأن يتضمَّن العديدَ من الكلماتِ والعديد من الصفحاتِ الرقيقة حتىٰ تطولَ فترة قراءتي له. بعد ذلك تمنَّيتُ أن يكون كتابًا صعبًا يتطلَّب مني مجهودًا فكريًّا كبيرًا، خاليًا من كلِّ قُبحٍ وبساطة، شيئًا ما يمكن تعلُّمه وحفظه عن ظهرِ قلب»(٢).

وأمنيتُه في أن يكون الكتاب ذا حروفٍ صغيرة جدًّا لكي يطولَ وقتُ قراءته له، ينقلنا إلىٰ الكاتب النيجيري وولي سوينكا الذي قال للجنديِّ عندما كان سجينًا

---

(١) لاعب الشطرنج، ص٤٥.

(٢) لاعب الشطرنج، ص٥٤-٥٨.

بشكلٍ واضحٍ وصريح: «إن موضوعات الكتب ليست مهمَّة، المهم فقط هو أن ينتقيَ أضخم الكتب ويحضرها لي. كلما كان الكتاب أضخمَ كان أفضل».

حدَّثَنا سوينكا في مذكراته عن جوعهِ إلىٰ القراءة في السجنِ والتهامِه الكتبَ -أيًّا كان نوعها أو حالتها- بعد رفعِ الحظر عنها، يكتب: «جاءت الكُتب علىٰ مدىٰ ثلاثة أسابيع، ثم لا شيء! كنتُ مسرورًا جدًّا، المقابلة مع المشرف الكبير حقَّقَت أهمَّ التنازلات، ورفعَت الحظر عن الكتب، حتىٰ ولو أنها أخذَت أسبوعًا كاملًا قبل وصول أولِ كتابٍ جاء من مكتبةِ السجن، وهو عبارةٌ عن مجلدٍ مُهلهلٍ ومشوَّه بالعنوان الوحيد الواضح (خطابات الملكة فيكتوريا)، وفي ساعةٍ واحدةٍ فقط فرَغتُ من قراءةِ صفحاته الباقية، وفي تسعةِ أيام انتهيتُ من قراءةِ مجموعة الكتب الموجودة في السجن، وهي أغربُ مجموعةٍ يتجمَّع علىٰ أوراقها المطويَّة الترابُ وبيضُ الصراصير. ليس أمامي أيُّ اختيار في طلبِ الكتب. في البدايةِ انتقدتُ عدمَ تقديم قائمةٍ بالكتب تُمكِّنني من الاختيار -فمن الواضح أنهم لن يأخذوني إلىٰ الكتبِ لكي أنتقيَ منها-، وحين أخبرني الجنديُّ في اليومِ التاسع أنني قد قرأت آخِرَ كتاب، فهمت.

فقد حدث بعد الانتهاء السريع من الملكةِ فيكتوريا أنْ أخذ هذا الجنديُّ يُحضر لي أربعةَ أو خمسة كتب في كل مرة. لقد حافظتُ علىٰ صُحبة ب. ج. وودهاوس، وأجاثا كريستي، ونباتات غرب أفريقيا وطهارة الأراضي الأخرىٰ..»[1].

* * *

الكتاب في نظرِ السجين المعزول عن العالم الخارجي هو المتعة الخالدة والنعيم المقيم؛ لأنه بصحبته ينجو من الشعورِ بالوحدة، وهذا الشعورُ سيِّئ لدىٰ كلِّ إنسان، فما بالك بالسجين؟ ثم إنه -أي الكتاب- يُسهِم في تحريك خلايا دماغه، فينهض

---

(١) مذكرات سجين، ص٢٢٩-٢٣٠.

الفِكرُ ولا يُصاب بالجمود المعطِّل لنشاطات العقل، وثالثًا يُعينه على تمضيةِ الوقت وقتلِ سيف الفراغ المصْلَت فوق رقبة المعتقل في كلِّ لحظة، ألَا ترى عبدالعظيم أنيس يكتب في خطابهِ إلى زوجته عندما كان في القلعة (٢٣/ ١/ ١٩٥٩) بعد أن بثَّ إليها أشواقَه وأحواله في السجن: «أرجوك أن تسألي رئيس التحرير إن كان في مقدورهِ التوسُّطُ من أجلِ الزيارات والكتب، فالكتب تُساعد على قتل الوقت»[1].

وفي خطابهِ العاشر لها وهو في سجن الواحات (ديسمبر ١٩٦١) يكتب بعد أن أعياه الشوقُ إلى الكتبِ والقراءة: «ولقد كنتُ أتمنَّى لو كانت هناك مكتبةٌ في داخلِ السجن لتشفيَ غليلي إلى القراءة»[2].

ولهذا الذي ذكَرناه آنفًا عن فائدة الكتاب للسجين؛ سرَت رِعْدةٌ حُلوة في جسدِ محمد علي الطاهر عندما أخبره السجَّانُ بأنه يُمكنه أن يأتيَ له بكتابٍ يقرأ فيه، فيقول بعد أن أخذ منه الجوعُ مأخذَه: «فإذا بالسجَّان يدخل ومعه آنيةٌ فيها طعامٌ فتأمَّلتُه فإذا هو مما تَعافه الكلاب، فاكتفيتُ بقطعةٍ من الخبز وتركتُ الباقيَ للسجان الذي فرح به وانطلق لشأنه قائلًا: أتريد أن آتيَك بكتابٍ تقرأ فيه؟ فكدتُ أطير فرحًا، وقلتُ: أممكنٌ هذا؟ فقال: إن بعض المحبوسين يُسمح لهم بإحضار رواياتٍ وقصص فكانوا عند خروجهم يتركونها لتسليةِ مَن يَخلُفهم، فقلتُ له: هاتِ ولك الشكر. وبعد قليل رجع ومعه رواية (بول وفرجيني) من تأليف الكاتب الفرنساوي برناردين دي سان بيير، فتناولتُها وأخذتُ أطالعها بلهفةٍ شديدة، وهي رواية من القصص الرفيع الأنيق، وقد نقَلها إلى العربيةِ المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي قبل ثلاثين سنة، ولكني لم أطَّلِع على هذه الترجمة، وأما التي جاء بها السَّجان فهي مترجمة بقلم

(١) رسائل الحب والحزن والثورة، ص٢٦.
(٢) رسائل الحب والحزن والثورة، ص٥٩.

الأستاذ عمر عبدالعزيز أمين». ثم ذكر بعض الاقتباسات من الرواية، فكان مما وقف عليه وصفُ الكاتب حالة بول صديق فرجيني، وسرد مُحادثاته مع صديقه العجوز، فأجرىٰ سان بيير علىٰ لسانَيهما الحديثَ الآتي: قال الحكيم: (إن الأشياء التي نراها أمامنا كلَّ يوم لا تُشعِرُنا بمرور الزمن وبسرعة الحياة التي نحياها؛ لأنها تتقدَّم معنا في السنِّ تقدمًا غيرَ محسوس. أما الأشياء التي نراها فجأةً بعد أن تَغيب عن أبصارنا بضعة أعوام فإنها هي وحدها التي تُنذرنا بسرعة التيار في نهرِ حياتنا. ولذلك يندهش الغريبُ النازح ويحزن حين يعود إلىٰ وطنِهِ بعد غيابٍ طويل، فلا يجد أصدقاءه ومُعاصريه)»[1].

ويكتب بعد ذلك لما سمحَت له الحكومةُ بالكتب والصحف والسجاير، ففرح فرحًا عظيمًا: «فصِرتُ أقرأُ وأقرأ إلىٰ أن أتعب»[2].

* * *

نقف عند الملكة ماري أنطوانيت، التي لمَّا كانت في آخِر حياتها محبوسةً في سجن الكونسيرجري، وبعد أن ضُيِّق عليها الخِناق، وأُعِدَّت لها زنزانةٌ خاصة أُوصِدَت ببابٍ حديدي مُزدوِج، وسُدَّت نافذتُها بجدارٍ يصل إلىٰ منتصَفِ قُضبانها الحديدية، ولم يَعُد الحراسُ يتبادلون الحديثَ معها كما كانوا في السابق.. في هذه العزلة التَّامة، وبعد خمسٍ وعشرينَ سنةٍ ونيِّفٍ تذكَّرَت -كما يقول زفايغ- الملكةُ إحدىٰ وصايا والدتها الدائمة، فطلبَت لأول مرةٍ في حياتها كتبًا للقراءة، راحت تلتهمُها كتابًا بعد آخَر بعينَيها الملتهِبتَين، ولم تكن ما تطلبُه مسرحياتٍ أو أقاصيصَ غرامٍ عاطفية؛ لأن هذا يُذكِّرها بالزمن الماضي، بل كُتب مغامرات مثيرة؛ أسفارُ

---

(١) ظلام السِّجن: مذكرات ومفكرات، ص٤٠-٤١.

(٢) ظلام السجن، ص٤٨.

الكابتن كوك، وأقاصيصُ عن الغَرْقىٰ، والفتوحات الجريئة، ومُطالَعات تأسِرُ الخيال وتُثير الأحاسيس وتَحبس الأنفاس، وتحمل السجينةَ علىٰ نسيان الزمنِ والعالم، وتملأ دُنياها بأشخاصٍ أحسنَ الخيالُ صُنعهم ليكونوا الرفقاءَ الوحيدين في عُزلتها الأخيرة[1].

* * *

أيمن العتوم شاعرٌ وكاتب أردني معاصر، ذكر في سيرة أَلَمِه الروائية حالَه مع القراءة في السجن وأثَرها في نفسِه، فيقول: «... المهم أن هذا العالم ليس عالمي، كان عالمي بعيدًا كلَّ البُعد عن ذلك، فقد كنتُ أعيش تأملاتي في أجواءٍ مختلفة تمامًا، كنتُ قد وضعتُ لنفسي مِنهاجًا مُكثَّفًا ومدروسًا لقراءة الكتب.. كل ما وقع تحت يدي التهمتُ سطورَه التهامًا، كانت قراءاتي هروبًا مني إليَّ، وكانت خروجًا من عالمِ السجن الكريهِ إلىٰ عالم الفكر الفسيح، بل كانت انتصارًا للحريةِ علىٰ القيد؛ كانت القراءة تُعطيني مساحاتٍ من الحرية أوسعَ مما لو صنَعها خيالي بنفسِه، بل أوسعَ من تلك المساحات التي تُعطيها القراءات ذاتها خارج السجن!»[2].

ولأنَّ الكتب تُشعر السجينَ بالحرية بل تُوسِّع مساحاتها في عقله كما يقول الكاتب؛ فلا بد من منعها وحظرِ وصولها إليه! يقول بعد الحظر: «ثم مُنِعَت كثيرٌ من الكتب التي كانت تصل إلينا من الخارج لقراءتها، وتَذرَّعوا أنها ممنوعةٌ ولا يُمكن أن تدخل لأنها تُفسد عقلية السجين، وتخرب فكره». وذكر بعد ذلك خطيبة صديق السِّجن عكرمة وأنَّ لها الفضلَ في كثيرٍ من ثقافتهما؛ حيث إنها كانت تُرسل بل توصل إلىٰ خطيبها الكتبَ بانتظام. يقول عن هذا: «كان عكرمة أكثرَنا تلهُّفًا علىٰ

---

(١) ماري أنطوانيت، ص٣٩٨-٣٩٩.

(٢) يا صاحبي السجن، ص٢٤٠. نقرأ في (مكتبة ساحة الأعشاب)، ص٢٥٢: «تستطيع الكتب أن تجعل قضبانَ السجن تختفي، بالمعنيين معًا، الحقيقي والمجازي».

طلبِ الكتب من الخارج[1]، وكانت خطيبته تبعث له الكتبَ بانتظام، وتزوره بانتظام، وأعترفُ اليوم بأنَّ لها في بعض ثقافتنا فضلًا لا يُنكَر؛ ذاك أن الكتب التي استطاعت أن تُدخِلَها كانت تصلُ إليَّ بعد عكرمة، فقرأتُها جميعًا. ولم تكن كتبًا عاديَّة، أو كتبًا متوفِّرة في مكتبةِ السجن؛ كانت كتبًا ينتقيها عكرمة بذكاء، ويطلب من خطيبتهِ أن تأتيَ بها.. صحيحٌ أن عملية إدخال الكتاب في البداية كانت تمر بمراحلَ عديدة، تمرُّ علىٰ الضابط المسؤول، ثم علىٰ الأمن الوقائي أو البحث الجنائي، ثم علىٰ مسؤول المهجع، وأخيرًا علىٰ مديرِ السجن، ثم بعد أكثرَ من خمس مراحل وموافقات تصل إلىٰ السجين في مهجعه!»[2].

وسأختم النقل عنه بحديثه عمَّا فعلَته به الروايات التي قرأها في السِّجن، يكتب: «بدأتُ بقراءة (أحدب نوتردام) لغتها الرائعة والمؤثرة لعبَت بمشاعري في كل الاتجاهات؛ أبْكَتني كما أضحكَتني، وأدهشَتْني كما صدمَتني، وأمتعتني بسرديَّتِها الراقية، عشتُ مع أبطالها كما لو كانوا أصدقائي، وتعاطفتُ مع الأحدبِ الذي عشق الحسناء، ومع دَمامة خَلْقِهِ، واحْدِيداب ظهرِه، وقِصَر قامته، إلا أنه استحقَّ التقدير والتعاطف لأنه كان يَفيض نُبلًا وأخلاقًا، وكان مُستعدًّا للتضحيةِ من أجل مساعدة الفتاة الجميلة! صنعَت الروايات التي أدخلتُها معي إلىٰ هذه الزنزانة الانفرادية عالمًا فسيحًا هِمْتُ في سُبُحاته، وطِرْت في أجوائه. استطاعت هذه العوالمُ التي شكَّلَتها قراءاتي هنا أن تُخفف شيئًا من قَتامة الجدران المحيطة بي، وأن تُطامن قليلًا من

---

(١) في ص٢٩٤ تحدَّث عن صديقه عكرمة قائلاً: « كان عكرمة يُتقن الحديث عن كل الكتب حتىٰ تلك الكتب التي لم يقرأها؛ كان قادرًا علىٰ الانتقال بين مئات الكتب ذاكرًا أسماءها، وأسماءَ مؤلفيها وهو يُحدِّثني عن كتابٍ واحد بين يديه انتقاه دون تخطيطٍ من رفٍّ ما! أيُّ قارئ نهم هذا؟! أيُّ مهووسٍ بالكلمات هذا؟! كان لا يتوقف عن الحديث إذا بدأه حول كتابٍ أو فكرة، حتىٰ وإن كانت كلُّ جارحة فيَّ تستصرخه أن يفعل!».

(٢) يا صاحبي السجن، ص٢٥٢.

ارتفاع الحواجز التي تحجبُ العالمَ الخارجي عني، وأن تُعوِّض النقصَ الناتج عن انعدامِ الكلام مع أي إنسان بأي لغةٍ كانت!»[١].

* * *

ضغطُ الالتزامات وكثرة الأشغال في الحياة تَعوق الإنسان عن الانفراد بالكتبِ وإيجادِ الوقت الكافي للقراءة. ولكن هذا يخصُّ الإنسانَ خارج أسوار السجن، أما داخلها فالحالُ مختلف؛ فإن الوقت موجود، لذلك قد تكون إقامتُك هناك -حرس الله مُهجتَك وحفظك عزيزي القارئ- مصدرًا رئيسًا لتكوينِ ثقافتك وتوسيع دائرة اطِّلاعك. فكم من مُثقفٍ ومفكِّرٍ ومناضلٍ كانت فترةُ السجن بالنسبةِ له أغنىٰ مراحلِ حياته المعرفية. فهذا غاندي الذي كان يقول عن السجن: «كيف يكون في الحياةِ بالسجن حِرمان، في حين أن الحياة به ليست أقلَّ بساطةً من الحياةِ في خارجه، ولا الطعام به أقلَّ من الطعام الذي تعوَّدتُ تناوله»، كان الانتقالُ من دارهِ إلىٰ السجن فرصةً لإكمال ثقافته الأدبية، وقد حدَّثَنا أنه قرأ في السجن مؤلَّفاتِ كارلايل، وبن جونسون، وولتر سكوت، وكتب تولستوي وتورو ورسكن مع الكتب الهندية المقدسة مثل البجافادجيتا، ومن أقواله: «قرأتُ في السجنِ الكثيرَ من الكتب لأول مرة، وكنتُ في العادةِ أبدأ في الصباح بقراءة الجيتا، وأخصُّ منتصف النهار لقراءة القرآن، وفي المساء كنتُ أقرأ الكتاب المقدس مع أحد الصينيِّين المسيحيين». ثم ذكَر قراءته لكتب الديانات والسيرة النبوية. وكما قال علي أدهم: «وهكذا كان له الاعتقالُ فرصةً للاطِّلاع علىٰ الكتب التي كانت حياتُه السياسية الحافلة بالعواصف تحول بينه وبين التفرُّغ لقراءتها، قال عن نفسه: (كنتُ أجلس، وأخلو إلىٰ كتبي، وقد خالجَني سرورٌ كسرورِ شاب في الرابعة بعد العشرين من عمره، وأنسىٰ أنني في الرابعة بعد الخمسين، وصحتي معتلَّة)»[٢].

---

(١) يا صاحبي السجن، ٢٦٠.

(٢) شخصيات تاريخية من سقراط إلىٰ راسبوتين، ص٢٦٠. وفي ج٣، ص٤٣٢، من كتاب (قصة الحضارة).

وذُكر عن فيدل كاسترو أنه لمَّا كان في السجنِ استطاع أن يطَّلِع علىٰ أعمال كثيرٍ من الكُتَّاب العالميِّين والمفكرين الكبار، وكان يقرأ بشراهةٍ كلَّ ما يقع تحت يدَيه، من (فيكتور هوجو) و(زفايغ)، وصولًا إلىٰ (ماركس) و(ويبر)، وذلك بفضلِ زُوَّاره الذين كانوا يُقدِّمون إليه الكتبَ كهدايا. ومعلومة للمهتم: (بيان الحزب الشيوعي) و(الدولة والثورة) هما الكتابان اللذان غيَّرا حياة كاسترو، وكان قد اشتراهما من المكتبة الشيوعية في شارعِ كارلوس الثالث في هافانا[1].

وفي سيرته (الطريق الوعْر) يُخبرنا رئيس كوريا الجنوبية السابق لي ميونج-باك والذي كان رئيسًا تنفيذيًّا لهيونداي عن قراءتهِ عندما سُجن في (سيودامون)[2] مع اللصوص: «أخذتُ في السجنِ بقراءة الكتب. كنت أقرأ أيَّ كتاب تقعُ عليه يدي. لقد كان السجن مكانًا جيِّدًا للقراءة والتفكير بدون إزعاج. فقد كنتُ أفكر في الحياةِ وفي معنىٰ السعادة. بالنسبة لي، كان الجلوس في السجن هدوءًا، والقراءة والتفكير بدون الحاجة للتخطيط والاختباء والعمل الشاق والجوع، أمرًا لا بأس به. بل إن السجن في الواقع كان وقتًا للتجديد، جسديًّا ورُوحانيًّا»[3].

بل إنه قد أشار إلىٰ أن قراءته في السجن أفادَتْه كثيرًا عندما خرَج، حيث يقول: «ازداد اهتمامي بالتجارة والاقتصاد، وعندما كنتُ في السجن، قرأتُ كثيرًا

---

(١) زيارة لمكتبات العالم، ص١٠١.

(٢) في هوامش سيرته آخر الكتاب، ص٣٠٩ عن سجن سيودايمون: افتُتح سجن سيودايمون (يعني «البوابة الغربية» باللغة الكورية)، الواقع في غرب وسط سيول، في عام ١٩٠٧. في البداية، استخدم اليابانيون السجن لحبس المشتركين في الأنشطة المناهِضة للاحتلال الياباني. وفي فترةٍ لاحقة، استخدمه النظام السلطوي في كوريا لحبس الناشطين الديمقراطيين وغيرهم من قادة الحقوق المدنية. وأُقفل في عام ١٩٨٧، واستُخدم كموقعٍ تاريخي ومُتحَف.

(٣) الطريق الوعر، ص٥٧.

في كِلا المجالَين، اعتقادًا منِّي بأن كوريا بحاجةٍ إلىٰ التركيز علىٰ هذين المجالين وتحسينِهما»(١).

* * *

والآن لِنقف قليلًا عند أنور السادات وما ذكَره في سيرتهِ عن القراءة في السجن، فإنه ذكَر قراءته هناك في غيرِ موضعٍ من قصةِ حياته، والبداية لما كان في (سجن الأجانب) الذي دخله في السادس والعشرين من رمضان ١٩٤٢، وقد أخبرنا أن تلك الليلة كانت ليلةَ القدر، ولا أعلم هل عرَفَها بعلامتها أم كان قولُه تخرُّصًا لا معنىٰ له، المهم، ليس هذا ما نريد، ذكَر عن قراءتهِ في هذا السِّجن الترفيهي الذي كان التدخين فيه مسموحًا بل إن السَّجَّان فيه هو مَن يُشعل السيجارة للسجين(٢)!

يقول: «لما وجدتُ الأمور بهذا الشكل تشجَّعتُ وطلبتُ الجرائد فأحضَروها لي ومعها بعض الكتب. فكَّرتُ في أن أُقوِّي نفسي في اللغةِ الإنجليزية فطلبتُ بعض الكتب بهذه اللغة، وأرسل إليَّ هيكمان مأمورُ السجن مجموعاتٍ من القصصِ القصيرة وغيرها. ومن الكتبِ التي ما زلتُ أذكرها كتابٌ عن جمعيةٍ في الريف الإنجليزي يجتمع أعضاؤها كلَّ أسبوع ويتناول كلُّ واحد منهم موضوعًا يتكلم فيه -نظرتهم للحياة- ما يحدث في قريتهم أو القُرىٰ المجاورة أو أحوال الحصاد والمحصول.. إلخ.. ويُسجِّلون ما يدور في الاجتماعِ ثم في نهاية كلِّ ثلاث شهور يجمعون أحاديثهم في كتاب»(٣).

ثم لمَّا نُقل إلىٰ معتقل (ماقوسة)، والذي مكث فيه من ديسمبر ١٩٤٢ إلىٰ سبتمبر ١٩٤٣، تعرَّف هناك علىٰ الشابِّ حسن جعفر وأخذ بالقراءة معه، فيكتب

---

(١) الطريق الوعر، ص٦١.
(٢) لأنه ليس من حقِّ السجين أن يحمل معه كبريتًا أو ولاَّعة.
(٣) البحث عن الذات (قصة حياتي)، ص٥٤.

عن ذلك: «وجَدتُ في حسن شابًّا دمْثَ الخلق لطيفًا للغاية وكان يعرف الألمانية والإنجليزية، فطرأتْ لي فكرةٌ طرَحتُها عليه علىٰ الفور وهي أن يُعلِّمَني الألمانية، وكنتُ قد قرأت أن الشيخ محمد عبده لما بدأ تعلُّم الفرنسية وجد أن أحسن طريقة أن يقرأ روايةً بالفرنسية؛ علىٰ أن يُعاونه في قراءتها شخصٌ يعرف الفرنسية والعربية معًا، فالرواية هي شريحةٌ من الحياة بكلِّ ما فيها من أوصافٍ وحوار ونقاش... إلخ.

وكان مع حسن جعفر روايةٌ لإدجار والاس مترجمةٌ إلىٰ الألمانية، فاتفقنا علىٰ قراءتها معًا.. وفعلًا كنا نجلس كلَّ يوم علىٰ سُلَّم القصر الداخلي نقرأ الرواية.. في أول الأمر كنتُ أقرأ في اليوم ٤ سطور، ثم وصلنا إلىٰ نصف صفحة.. فصفحة، وبالتدريج بعد سبعة شهور استطعتُ أن أقرأ فصلًا كاملًا إلىٰ أن جاء الشهر التاسع فانتهيتُ من الرواية كلِّها وأصبحتُ أقرأ الألمانية كما يقرؤها حسن جعفر تمامًا»[١].

وأما قراءته في سجن (قره ميدان) فكان لها أثرٌ عميقٌ في روحه؛ فقد ألْجأَتْه عُزلته في الزنزانة ٥٤ إلىٰ مقابلةِ ذاته، ولَعَمري إنَّ لقاء الذات والاختلاءَ بها في لحظةِ مُكاشَفةٍ لَثقيلٌ جدًّا علىٰ مَن أدرك وتأمَّل! وأخبرنا كيف أن القراءة شَفَتْه من الأزمة العصَبية التي كان يُعاني منها، وإليك كلامَه بتمامه، يقول: «مكانان في هذا العالم لا يمكن للإنسان فيهما أن يهربَ من ذاته، هما الحرب والسجن. وفي الزنزانة ٥٤ عشتُ مع نفسي، تُلازمني وألازمها ليلَ نهار، لم تكن هذه الفرصةُ قد أُتيحت لي من قبلُ، فقد كنت مشغولًا بأشياءَ كثيرة؛ أعمل بالجيش وأشتغل بالسياسة بينما كان تيارُ الحياة اليومية يجرفني معه أينما ذهَب أو ذهبت. أما الآن فأنا أعيش في الزنزانة ٥٤ دون أن تكون لي صلةٌ بالعالم الخارجي. فلا راديو ولا صُحف ولا أي شيء علىٰ الإطلاق. وحدةٌ رهيبة لم يكن هناك مِن سبيلٍ إلىٰ الخلاص منها سوىٰ أن أعيش مع نفسي. وفعلًا عِشتُ معها، ولكن رغم هذه المعايشة لا أستطيع أن أنفذ إليها،

---

(١) البحث عن الذات، ص٥٧-٥٨.

كأنَّ شيئًا ما يقف بيني وبينها. ظُلمات كنتُ أعاني منها من زمن ولكني لم أُدرِكْها تمامَ الإدراك لأني لم أستطع أن أنقُلَها إلىٰ منطقةِ الضوء. وعندما سمَحوا لنا في السجنِ بالكتب والمجلات والصحف انكبَبْتُ عليها أقرأ بنَهمٍ وأجدُ في كل سطرٍ شيئًا جديدًا يفتح آفاقًا لم أعرفها من قبل.

ولم يقتصر أثرُ قراءاتي المتعدِّدة علىٰ توسيعِ آفاقي الفكرية والعاطفية، بل لقد ساعَدَتني هذه القراءاتُ علىٰ المزيدِ من التعرُّف علىٰ الذات. فاستطعتُ أن أتخلَّص من أزمةٍ عصبيةٍ كنتُ أعاني منها منذ زمن، وكانت بسبب القبض عليَّ في الساعةِ الثانية صباحًا في بردِ الشتاء القارص في كلٍّ مِن عامَي سنة ٤٢ و٤٦. لم أكن أُدرك طبيعةَ هذه الأزمة ولكني كنتُ أشعر أنها تُعكر صفْوَ سلامي الروحي، إلىٰ أن دخلتُ السجن وعشتُ مع نفسي، فَطَفَت هذه المعاناة علىٰ السطحِ تلقائيًّا. أسبوعٌ واحد في السجن يكفي لهذا. أمَّا كيف تخلَّصت من هذه الأزمة فالفضل يرجع إلىٰ مقالٍ قرأتُه في الـ(ريدرز دايجست) لأحد علماء النفس الأمريكان. كانت خلاصة المقال أو النتيجة التي وصل إليها الطبيب النفساني بعد تجارِب ٤٢ سنة هي أن الإنسان في أية مرحلةٍ من مراحلِ حياته مُعرَّض لأن يُصاب بصدمةٍ تكون نتيجتها أن يحسَّ أن كل شيء حوله مغلق، وكأنه في سجنٍ لا باب له. أول باب لهذا السجن أن يعرف الإنسانُ ماذا يُضايقه، وثاني باب الإيمان. ما معنىٰ الإيمان؟ أن تنظر إلىٰ أيِّ شيء كريهٍ يحدث علىٰ أنه قدرٌ لا بد من مُواجَهته وتحمُّلِه. وبعد ذلك تتغلَّب علىٰ الآثار الناجمة عن هذا. فيجبُ ألا تُفكر أنه ليس هناك حلٌّ لأية مشكلة، لأن الحلَّ دائمًا هناك..»[1].

* * *

(١) البحث عن الذات، ص٨٨-٩٠.

رأينا السادات يذكر أنه استطاع تقويةَ لغته الإنجليزية في السِّجن، ثم تعلَّم الألمانية بمساعدة الشاب حسن جعفر، وهذا ليس بغريبٍ ولا عسير إذا أجاد السجينُ الاستفادة من وقتِ فَراغه وعُزلته الإجبارية، والسجناء علىٰ كلِّ حال كما ذكر كارلوس ليسكانو لهم شغفٌ باستثمار الوقت، وقد أخبر في سيرة سجنه أنه اتفَق مع رفيقه في الزنزانة غونزاليس ذاك الذي كتبَ بأنه كان رجلًا مثقَّفًا وشهمًا، أقول: اتفقا بأن يقوما بشيءٍ إيجابيٍّ، شيءٍ يهبُ الحياة كي لا يتَحجَّر المرءُ ويستسلم لمشيئة الجلَّادين. وكان هذا الشيء هو دراسةَ اللغة الإسبانية، وهذا ما كان[1].

وقرأنا عن الناقد الإيطالي دي سانكتيز بأنه قام بترجمةِ كتاب هيغل في المنطق وهو في السجن[2].

نعم؛ قد يكون السجنُ مكانًا سيِّئًا للدراسة علىٰ حدِّ قول غرامشي[3]، ولكنه علىٰ كلِّ حال ليس مكانًا تستحيل فيه الدِّراسةُ ويتعسَّر فيه الإنجاز.

وقبل الابتعاد عن ليسكانو الذي قضىٰ في غَياهبِ السجون ثلاثَ عشرة سنة خرَج بعدها صِفرًا -كما يقول- لا انتماءَ ولا وظيفة ولا أهل! نذكر قولَه بأن تكوينه في السجنِ كان بفضلِ قراءةِ الكتب والحديث مع المساجين عنها[4].

ويقول عن مَلاذِه ومَهْربه: «في سنواتِ السِّجنِ الأولىٰ حاولتُ أن أعيدَ بناء نفسي قليلًا. لكنَّ موت أمي، في العام ١٩٧٦ قذفَ بي في عالمٍ من العزلة. وبعد موتِ أبي في العام ١٩٧٨ جعل القمعُ الحاصل في البلادِ وضرورة الانحناء من

(١) عربة المجانين (سيرة السجن)، ص٢٠-٢١.
(٢) فصول في الأدبِ والنقدِ والتاريخ، ص١٩٠.
(٣) الأمير الحديث، ص١٢ - غرامشي.
(٤) الكاتب والآخر، ص١٨٠ - كارلوس ليسكانو.

أجل البقاء حيًّا؛ الوحدةَ مَلاذي، والقراءةَ مَهربي الوحيد. جوعُ القابعِ في وحدتهِ كانت تسدُّه الكتب، وبدأتُ أَصير كاتبًا»[١].

ويُخبرنا عن القصة التي بقيَت عالقةً في رأسهِ من قراءات السجن قائلًا: «أتذكَّر قصةً لجيرزي كوزينسكي[٢]. (أطفالٌ بولنديُّون يصطادون العصافير، ويلوِّنون ريشها، ثم يُطْلِقون سَراحها. حين تعود العصافير إلىٰ حريَّتِها تَلْحق بسِرْبها، فلا تتعرَّف عليها العصافيرُ الأخرىٰ، فتُهاجمها وتقتلها). من بين قراءاتي في السجن بقَيت هذه القصةُ المُفزعة في ذاكرتي. أنهض، أنظر إلىٰ قائمة كتب السجن التي أحتفظ بها في منزلي. عُنوان الرواية: العصفور المبرقَش، وهي تحمل الرقم ١١٩٠، وتوجد في القسم ١،٣،١ (أدب أمريكا الشمالية). إنَّه لَأمرٌ خطير، دومًا، أن تكون مختلفًا[٣]!

وآخِر ما سأُثبته عن ليسكانو وقراءاته في السجن قولُه: «أُكرّس كلَّ وقت ممكن للقراءة. ومنذ عشرين سنةً لم أقرأ من أجل المتعة. عشرين سنةً لم أذُقْ متعةً أن أفتح كتابًا بالصدفة. آخِرُ ما قرأته في السجن كان رواية (الجبل السحري). كان ذلك في العام ١٩٨٤ . كان قد أُفرج عن رفيقي في الزنزانة، وكنتُ وحيدًا. وكي لا أبقىٰ طيلةَ النهار منتظرًا الأخبار التي قد تُعلن إصدارَ العفو عنَّا، قرَّرتُ أن أقرأ كتاب توماس مان. كان ذلك بمثابةِ كابحٍ حال بيني وبين الجنون. كنتُ أبيِّض كتاباتي وملاحظاتي، وأقرأ الجبل السِّحري. بعد ذلك الكتاب جاءت الحرية»[٤].

* * *

---

(١) الكاتب والآخر، ص١٤٩.

(٢) كاتب أمريكي من أصل بولندي (١٩٣٠-١٩٩١)، وهذه القصة (العصفور المبرقش) ١٩٦٥ هي أشهر أعماله.

(٣) الكاتب والآخَر، ص١٠٩.

(٤) الكاتب والآخر، ص١٨١.

قبل أن أنقلَ مقتطَفاتٍ مما كتبه مصطفىٰ أمين فيما يخصُّ موضوعنا، أُشير سريعًا إلىٰ غرامشي الذي مرَّ ذِكرُه قبل قليل. عندما كان في السجن -وهو طبعًا لم يخرج منه إلا علىٰ فِراش الموت!- أُذِن له بقراءةِ بعض الصحف اليوميَّة، ولأنه قارئٌ نهِمٌ ومثقَّف يرغب بالتزوُّد المعرفي من أجلِ مشروعه الفكري؛ اشترَك بمكتبةِ السجن اشتراكًا مُضاعفًا يُتيح له الحصولَ علىٰ ثمانيةِ كتب في الأسبوع بدلًا من أربعة، كما كانت تصله بعضُ الكتب والمجلات من خارج السجن[1]. وكتبَ مرةً يقول بأنه يدرس قواعد اللغة الألمانية، ويقرأ (الآنسة الفلَّاحة) لبوشكين، بل ويحفظ عن ظهر قلب نحوَ عِشرين سطرًا من النص[2].

وقد قرأ في سجنهِ رواية (الحرب والسلم) وأرسلها بعد ذلك هديةً لأخته، ولعلَّه أرسل بعض الكتب لعائلته، وكان حريصًا ألا يطَّلِع عليها سِواهم، يقول من رسالةٍ كتبها لأمِّه بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٣١: «.. أجبتُ بالترتيب علىٰ الرسالتين، إلىٰ تريسينا لأجل الكتب التي حدَّثتُ كارلو ألا يطَّلع الأغرابُ عليها. أفراد الأسرة فقط يمكنهم قراءتها إذا رغبوا في ذلك. مبْدَئي هو كالتالي: لا أريد أن تُصبح كتبي وسيلةَ تسليةٍ لأشخاص هم مسؤولون بشكلٍ مباشر عن سجني، سأُرسل لتريسينا كهدية، أحد أجمل روايات ليو تولستوي: (الحرب والسلم)، حيث توجد ناتشا وهي بطلة جذابة»[3].

ويذكر مانديلا في الفصلِ التاسع من سيرته عندما تحدَّث عن قراءتهِ في السجن وأنه قرأ كلَّ الروايات المسموح بها، وروايات أمريكية وخاصة (عناقيد الغضب) لجون ستاينبك؛ أقول ذكَر بأنه أعادَ روايةَ (الحرب والسلم) لتولستوي

(١) شجرة القنفذ والرسائل الجديدة، ص٣١ - غرامشي.
(٢) شجرة القنفذ، ص١١٨.
(٣) رسائل السِّجن (رسائل غرامشي إلىٰ أمه ١٩٢٦-١٩٣٤)، ص٨١.

غيرَ مرة، يقول: «أما الكتاب الذي عُدتُ إلىٰ قراءتهِ المرةَ تِلو المرة هو كتاب تولستوي العظيم (الحرب والسلام War and Peace). لقد أُعجبت بدرجةٍ خاصة بشخصية الجنرال كوتوزوف الذي قلَّل جميعُ مَن في القصر الروسي من شأنه. فقد انتصرَ علىٰ نابليون لأنه لم تَستهْوِه قيمُ القصر الزائفة الزائلة، واتّخذ قراراتِه بِناءً علىٰ فهمٍ عميق لرجاله وأمَّتِه. وعلَّمَني ذلك أن المرء كي يقود قومه عليه أن يعرفهم حقَّ المعرفة»[١].

ونذكر أيضًا جان-بول كوفمان Jean-Paul Kauffmann الذي اعترفَ بعد أن قضىٰ ثلاثَ سنوات رهينةً في لبنان، أنه إنما يَدينُ ببقائهِ علىٰ قيدِ الحياة لكتابين تلقَّاهما من جَلَّاديه: الإنجيل (والحربُ والسلم) لتولستوي، قرأهُ اثنتين وعِشرين مرة![٢].

والآن لِنَعُد إلىٰ الصحافي مصطفىٰ أمين الذي أسَّس أخبار اليوم مع أخيه وتوءمِه علي أمين، وهو ممَّن ذاق وَيْلات السجون، وقد اعتُقل مرَّاتٍ لا تُحصىٰ في حياته، وكتبَ كثيرًا عن سجنه، ونشَر خطاباته ورسائلَه التي كان يكتبها إبَّان سجنه في كتبٍ عديدة، ولن أُطيل في التقديمِ عنه، سأَنفُذ مباشرةً إلىٰ ما أريد وأقفُ عند ما ذكره عن الكتب والقراءة في رسائله.

يقول في رسالةٍ مؤرَّخة (نوفمبر سنة ١٩٦٥): «عزيزتي.. مكثتُ أربعةَ أشهر في سجن المخابرات لا أقرأ جريدة، ولا كتابًا واحدًا! كنتُ أشعر كأنني الميتُ الحي. الصحفي الذي يعيش بلا صُحف، والكاتب الذي يعيش بلا كتب، هو أشقىٰ رجلٍ في العالم. إنني أُشبِهُ الإنسانَ الذي يعيش بلا طعام، أربعةَ شهور بلا طعام!

---

(١) رحلتي الطويلة من أجل الحرية، ص٤٦١.

(٢) في (مكتبة ساحة الأعشاب)، ص٢٥٢.

وكان يحدث من وقتٍ إلىٰ آخَر أن أجد صفحةً من جريدةٍ مُلْقاة في صندوقِ القُمامة في السجن، كنتُ أقوم بعدة حركات بهلوانية حتىٰ أحصلَ علىٰ الصفحة الممزقة، وأُخْفيَها، وأذهب إلىٰ التواليت، وأغلق الباب، وأفردها في حذَر، ثم أقرؤها. وأحسُّ بسعادة عجيبة والصفحةُ الممزقة في يدي، كأنني رأيتُ ليلة القدر!»[1].

وجاء في رسالةٍ أخرىٰ لأخيه (٣٠ يناير ١٩٦٦) عندما كان في سجن الاستئناف، وذلك بعد أن وصَف زنزانته وكيف أنها أصبحَت أجملَ من غرفة المأمور لأنه كلَّ يوم يُضيف إليها شيئًا: «وعندي في الغرفةِ لمبة كهربائية للمكتب، أكتب الآن وأقرأ علىٰ ضوئها وأنا نائمٌ فوق السرير. وفوق المائدة رفٌّ وضَعتُ عليه جميعَ الأدوية، وصنعتُ رفَّين في المائدة؛ أحدهما للكتب، والثاني للسجائر.. وهكذا ترىٰ أنني حوَّلتُ غرفةً ثلاثةَ أمتار في مترين إلىٰ شقةٍ واسعة مُريحة!». ويُكمل بعد ذلك متحدثًا عن قراءته: «وإنني أُمضي وقتًا طويلًا في القراءة، وأجد فيها لذةً ومتعة، ولقد كنتُ في وقتٍ من الأوقات، قبل دخولي السجن أشكو من أنني لا أجد الوقت الكافيَ للقراءة. وكنتُ أقول لنفسي إنه لا بد أن أدخلَ السجن لأقرأ كلَّ الكتب التي أريد أن أقرأها..»[2].

ولا نزال نتتبَّع ما يَعْنينا في رسائله، فنجده يقول في رسالةٍ أخرىٰ (٢٤ مارس ١٩٦٦) ذاكرًا بعضَ الكتب التي قرَأها في السجن: «حالتي في السجن تتحسَّنُ يومًا بعد يوم.. قرأتُ كتابًا ترجمه أحمد بهاء الدين عن رسائل نهرو من السجن إلىٰ ابنته أنديرا غاندي، وقرأت كتابًا عن بنيتو موسوليني تأليف كريستوفر جيزيت..»[3].

---

(١) سنة أولىٰ سجن، ص٤٦.

(٢) سنة أولىٰ سجن، ٨٤–٨٥. لما سأل حنفي المحلاوي السياسي والوزير إبراهيم شكري ما الذي استفاده من تجربة السجن، قال: «كانت أعظم فرصة أن أقرأ!». (سياسيون وقضبان، ص٥١).

(٣) سنة أولىٰ سجن، ص١١٠.

وفي رسالةٍ بتاريخ (١٧ أغسطس ١٩٦٦) عندما كان في سجن القناطر يقول مُخبِرًا عن حاله: «كلُّ ما أفعله هو أن أقرأ صُحف العالم وأقرأ بعضَ الكتب، أقرأ يوميًّا ثمانيَ ساعات. أشعر بقية ساعات اليوم تضيع عبثًا، وكلما قرأتُ شعرتُ بأنني ازددتُ جهلًا. إن هناك آلافَ الكتب أريد أن أقرأها. إنني أتابع أبوابَ الكتب الجديدة في الصحف والمجلات العالمية. أريد أن أطَّلِع علىٰ كلِّ فكر جديد في العالم»[1].

قبل طيِّ سجِلِّ مصطفىٰ أمين أريدُ الإشارة إلىٰ معنًىٰ ظريف؛ وهو أنَّ السجون أحيانًا قد تضمُّ -لأقدارٍ قدَّرها القديرُ- أُناسًا في مرتبةٍ عاليةٍ من السموِّ الأخلاقي[2]؛ تجد فيهم مَن يُضحي في سبيل الصداقة، وآخَر يُدافع عن غريبٍ مستضعَف، وثالثٍ يأنفُ من الدَّناءةِ وأهلِها، وقد يكون وهو علىٰ هذه الحال سفَّاحًا أو متهمًا بجريمةٍ نكراء! وفي المقابل نجد خارجَ أسوار السجون مَن يتَّصفُ بأرذلِ الصفات وأحَطِّ الأخلاق! وكنتُ بعد قراءةٍ لا بأس بها في أدبِ السجون أجدُ إشاراتٍ إلىٰ هذا المعنىٰ، فأُحبُّ أن أُثبِتَ هنا شَذراتٍ طريفةً من بعض ما وقفتُ عليه.

ومن الطريفِ ما ذكَره مصطفىٰ أمين عن صديقهِ الذي كان يُهرِّب له الخطابات، فيقول في إحدىٰ رسائله: «ولقد فقَدتُ هذا الأسبوعَ صديقًا عزيزًا واسمه (النص)، وهو متَّهَم بعدةِ جرائمِ سرقة. وقد كان هو الذي يحمل لي يوميًّا الطعام ويشترك في تهريب الخطابات، وكان مُخلِصًا وأمينًا جدًّا. ولكن أُفْرِجَ عنه بعد أن أمضىٰ ٤٨ شهرًا، وقد وعَدني أنه سوف يستقيم، وأنه سيفتح دكانًا، وهو يحمل الإعدادية، وقد فارقتُه وأنا أشعر أنني أفارقُ صديقًا عزيزًا. وسوف يتولىٰ حمْلَ الطعام بدلًا منه حرامي آخرُ اسمه (بطيخة) وأرجو أن يكون خيرَ خلف لخير سلف!»[3].

---

(١) سنة ثانية سجن، ص١١٦-١١٧.

(٢) راجع وصف دوستويفسكي (في أعماله الكاملة، ج٥، ص١٠٧-١٠٨) لأخلاق أحد المسلمين عندما كان في السجن.

(٣) سنة أولىٰ سجن، ص١٤٠.

وفي سيرة مالكوم إكس -سنأتي علىٰ ذكرها- أخبرنا بأنَّ السجين الأسمر بيمبي كان يُثبت للمساجين بالحجةِ والبرهان «أن الذين يوجدون خارجَ السجن ليسوا أفضلَ منَّا، وأن الفرق بيننا وبينهم أنهم لم يقَعوا في يدِ العدالة بعد!».

والكاتب الساخر محمود السعدني يقول: «لقد سُجنتُ عدة مرات، ولكن لم تُتِح لي الظروفُ أن أرىٰ السجن الحقيقي إلا في المرة الأخيرة، فقد قُدِّر لي أن أتعرَّف علىٰ عالمٍ كنتُ سأذهب إلىٰ قبري حزينًا لو متُّ دون أن أراه، واكتشفتُ كذلك أن السجن جزءٌ من الحياة، وما يجري خارج الأسوار يَجري مثلُه بالضبط في السجن. وإذا كان خارجَ السجن أثرياءُ يموتون من التُّخمة، وفقراءُ يموتون من الضَّيم، وإذا كان في الخارج أصحابُ نفوذ وأبناءُ أكْرَمين وأبناءُ كلب، وإذا كان هناك تسيُّبٌ وسرقة ونهب ونصب، وإذا كان هناك فسادٌ وأشياءُ لا تُرضي الله ولا العباد.. ففي السجن أيضًا تدور هذه الأشياء بالتمام والكمال وتركيزٍ أشدَّ، مع فارقٍ بسيط، هو أن نُزلاء السجن أصدقُ وأشرف»[١].

ويكتب دوستويفسكي بعد تجرِبة السِّجن، وكان قد تذكَّرَ كيف كان بعضُ السجناء متديِّنين، ويُصلُّون، وأنهم يَتوقون إلىٰ رحمة الله ويرجون غُفرانه: «إنَّ في كل مكان أشرارًا! فمَن يدري؟ قد لا يكون هؤلاء السجناء شرًّا مِن غيرهم، قد لا يكونون أسوأَ من أولئك الذين يعيشون خارج الأسوار»[٢].

وأختمُ هذه الشذَرات بما ذكَره الرئيس بيجوفيتش في تصدير كتابه (هروبي إلىٰ الحرية)، يقول بأنه كان إذا أنهىٰ دفترًا من دفاترِ هذا الكتاب أوْدعَه في خِزانة زميلٍ (ولم يُسمِّهِ) له في السجن -مُدان في جريمةِ قتل-، وذلك أنه عندما كانت السلطات تُداهم مَهاجعهم للتفتيش لم تكن تحرص علىٰ خِزانةِ هذا الرجل كثيرًا. ثم

(١) الولد الشقي في السجن، ص٤٢.

(٢) راجع مقدمة الجزء الخامس من أعمال دوستويفسكي الكاملة.

ذكر الصديق الآخَر -المدان في جريمة تزوير- واسمه فاسلين ك الذي قام بتهريبِ عشَرة دفاتر خارج السجن في صُندوق شطرنج. وعندما سلَّم الرزمة لأبنائه رفَض أن يأخذ أيَّ نقود! ثم يكتب بيجوفيتش بعد ذلك: «أحيانًا يتمتَّع هؤلاء الذين نُسمِّيهم مجرمين بشعبيةٍ مؤكَّدة، بل وبالحب. ويرجع هذا إلىٰ أنهم يعرفون عادةً ما الذي تَعْنيه الرفقة الحقيقية، وهم علىٰ استعدادٍ للقيام بالمخاطرات. وغالبًا يفتقد مَن يُطلق عليهم (أناس متأنِّقون) هذه الصفات»[1].

* * *

قد يكون المعتقل -أحيانًا- هو مرحلةَ الانتقال الحقيقية في حياة الإنسان، وقد تكون قيودُه التي يَرسُف بها هي بدايةَ حريَّتِه، وطالما وقَفْنا علىٰ نماذجَ لم تتبدَّل أحوالُهم إلىٰ الأفضل إلا خلف القضبان، بعد أن كانوا في الخارج مثالًا علىٰ الانحطاط البشري!

برنارد ستيجلر من الفلاسفةِ المتمرِّدين، بعد تنقُّلاتٍ كثيرة في العمل هنا وهناك، أدرك مواردَه المالية خللٌ كبير، فلم يعد قادرًا علىٰ القيام بأي سحب علىٰ المكشوف من بنكه.. ثم وقَع أسيرًا للكحول في مرحلةٍ بائسة من عمره، فكَّر بعد ذلك في سرقة البنك. يقول: «لقد ذهبتُ لسرقةِ أحد البنوك لتعويض السحب علىٰ المكشوف الخاص بي.. وقد نجَحت.. لقد سارت الأمور بشكلٍ جيِّد حقًّا.. تذوقتها وسرقتُ ثلاث وكالات أخرىٰ». بعد ذلك قام بسطوٍ مسلَّحٍ مُميت اعتُقِل علىٰ إثره مُتلبِّسًا، وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات عام ١٩٧٨. وكانت حاله في السجن سيئة، ثم تحسَّنَت بعد ذلك عندما تدخَّل صديقه الفيلسوف جيرار غرانيل الذي استطاع الحصولَ علىٰ إذنٍ استثنائيٍ من قاضي التحقيق لإرسال بعض الكتب إليه.

---

(١) هروبي إلىٰ الحرية، ص٢٦.

بدأ ستيجلر التهامَ الكتب وقراءتها بلهفةٍ كبيرة عندما كان في زنزانته الخاصة، وهذا هو الذي صنع التغييرَ في فكره وحياته(١).

وفي كتابها عن (الدماغ القارئ) ذكرَت ماريان وولف خبرَ لقائها مع ستيجلر، هذا الرجل الذي لم يجعله فيلسوفًا غيرُ السجن، تقول: «منذ فترة قصيرة؛ إذ دعاني الفيلسوف برنارد ستيجلر، مديرُ معهد البحث والابتكار في متحف بومبيدو في باريس، لتقديم بحثي في أحد المؤتمرات. لقد كان حدَثًا مثيرًا للأعصاب بالنسبةِ لي، وانتهىٰ بعشاءٍ بعد ذلك، حضَره ما لا يقلُّ عن خمسةَ عشر رجلًا، امرأةٌ وحيدة بين ثلَّة رجال لا تُجيد لغتَهم، جلسَت بجوار البروفيسور ستيجلر عاقدةً العزمَ علىٰ قتلِ خجَلي في هذا الموقف؛ لذا قُدت دفَّة الحديث وسألته كيف أصبح فيلسوفًا. بعد وقفةٍ طفيفة، لكنها ملحوظة، قال: في السجن(٢).

توقَّفتُ هُنيهة، في محاولةٍ يائسة لكبحِ جِماح لساني، بيد أنني استسلمت، وطرَحتُ السؤال الذي يستحيل تجاهله: لماذا؟ فقال: (سطو مسلَّح. كنتُ في السجن منذ عدة سنوات). لقد أوضحت الفرضيَّة المباشرة بجِلاء: لقد كنتَ سياسيًّا.. جزءًا من اللواء الأحمر الفرنسي!. كان ذلك بداية الحوار الذي أجريناه أنا والبروفيسور برنارد ستيجلر، حول ما يحدث في حياة السجن، في هذه الحالة بسبب الضمير والجريمة.. قرأ ستيجلر أولًا، للهروب من واقع السجن الذي يعيش فيه، ثم تحوَّل ذلك لرغبة تعلُّم نَهمة لا تشبع. اكتشفَ الفلسفةَ من الكتبِ التي أحضرها مجموعةٌ من المتطوعين له أسبوعيًّا، علىٰ غِرارِ العمل المتفاني لمنظمة القارئ في بريطانيا العظمىٰ. وبحلول عامه الأخير في السجن، كان يقرأ لمدة عشرٍ إلىٰ اثنتي

(١) مقال (من السجن إلىٰ الفلسفة) للحسين أخدوش، في منصة معنىٰ بتاريخ ٤ ديسمبر ٢٠٢٠.

(٢) لما سُئِلَت هنرييت عبودي عن الذبحة الصدرية التي أصابت زوجها جورج طرابيشي، وهل كانت نتيجةً لآثار السجن؟ قالت: «نعم، من آثار السجن طبعا. وهو ما وجّه -أي السجن- بوصلةَ عالمه نحو الثقافة». [أيامي مع جورج طرابيشي، ص١٨٩].

عشْرة ساعة يوميًّا، بما وصفه بلحظات (رِضًا وفرَحٍ لا مثيلَ لهما) في حياته، سواءٌ قبل السجن أو بعده»[١].

ومن أهمِّ قصص التحوُّل الإيجابي قصةُ المناضل الشهير مالكوم إكس، ومعلومٌ كيف كان قبلَ دخوله السجن من فسادٍ أخلاقي لا يكاد يُجاريه فيه أحد، كان للقراءة فضلٌ كبير في نقلهِ من حالٍ إلىٰ حالٍ أخرىٰ.

أقبل مالكوم علىٰ الكتب في السجن، وذلك بعد أن قام بالدراسة والتعلُّم ليتمكنَ من القراءة بسهولة، وكلُّ هذا بعد التأثير العظيم الذي خلَّفَه فيه السجينُ الأسمر بيمبي. فيقول مخبرًا عن حاله بعد ذلك: «فأقبلتُ علىٰ القراءةِ بنَهمٍ شديد، وأصبحتُ لا أُرىٰ إلا وفي يدي كتاب، ولم تعُد هناك قوةٌ علىٰ وجه الأرض تستطيع أن تنزعَني منه، وفتحَت لي القراءةُ الأبواب علىٰ دُنًىٰ عجيبة».

ثم تحدَّث عن قراءتهِ في سجن نورفولك بعد ذكره مكتبةَ السجن التي تتضمَّن كتبًا كثيرةً في مواضيعَ عدة: «وكان موظَّفو سجن نورفولك الذي تُعدُّ إعادةُ التربية فيه أسبقَ الأسبقيَّات، يستقبلون النُّزلاء ببشاشةٍ إذا عَهِدوا فيهم اهتمامًا خاصًّا بالقراءة. وكان هناك بالفعل مَن كانوا يقرؤون بلا انقطاع، ولا سيَّما الذين يشاركون في المناقشات، بل كان مِن بينهم مَن كان يُنعَت بدائرةِ معارفَ متنقلةٍ ويعتبر من نجوم السجن. وعندما بدأت أفهم ما أقرؤه وانفتحَ لي ذلك العالمُ الجديد، بدأت بدَوري ألتهمُ الكتبَ وأستعيرُ فوق ما يسمح قانونُ المكتبة وأقرأ أكثرَه في الزنزانة.. وتقدَّمتُ فبدأتُ أقرأ الكتب الجِدِّية، ولكن انطفاء الضوء في العاشرة مساءً كان يُثير سخطي إذ كان يأتي وكأنما بالقصد عندما أكون غارقًا في موضوعٍ هام. وكان في الممرِّ لِحُسن حظِّي مصباحٌ قريب من باب زنزانتي، فبدأتُ أجلس علىٰ البلاط وأقرأ بعدما تتعوَّد عيناي علىٰ ضوئه الخافت حتىٰ إذا ما سمعتُ خُطىٰ الحارس وهو يمرُّ

(١) أيها القارئ عُد إلىٰ وطنك، ص٣٦٤-٣٦٦.

بالزنازين علىٰ رأس الساعة قفزتُ بسرعةٍ إلىٰ سريري، وتظاهرتُ بالنوم إلىٰ أن يمرَّ فأعود إلىٰ مكاني وأواصل قراءتي حتىٰ الثالثةِ أو الرابعة من صباح كل يوم بحيث لا أنام إلا ثلاثَ أو أربع ساعات في الليلة، ولكن ذلك لم يكن مهمًّا لأنني كنتُ قد تعوَّدت علىٰ قلة النوم وأنا في الشارع»[1].

ثم بعد ذلك لمَّا أخذ يُعدد قراءاته في السجنِ التي بلْوَرَت فِكرَه وحددَت اتجاهه، قال: «لقد غيَّرَت القراءة مجرىٰ حياتي تغييرًا جذريًّا، ولم أكن أهدفُ من ورائها إلىٰ كسْبِ أية شهاداتٍ لتحسين مركزي، وإنما كنتُ أريد أن أحْيا فِكريًّا. وأظهر لي اكتشافي للقراءة أن الجنس الأسود في أميركا يعيش أصمَّ، أبكمَ، أعمىٰ». يُكمل: «منذ أيام اتصَل بي هاتفيًّا من لندن كاتبٌ إنجليزي وطرَح عليَّ بعضَ الأسئلة من ضِمنها سؤال عن الجامعةِ التي تخرَّجتَ منها[2] فقلت: (الكُتب). ذلك أنني ما إن أجد عندي رُبع ساعة من الوقتِ الشاغر حتىٰ أملأَه بقراءة شيءٍ أنفعُ به الإنسان الأسود». ويسترسل: «ولكن دعني أعود إلىٰ موضوعِ الذي سألني عن الجامعةِ التي درَستُ فيها والذي قلتُ له إنها الكتب. قلتُ له أيضًا: إنها (مكتبة جيِّدة). وبالفعل ما زلتُ لا أركب الطائرةَ إلا وبين متاعي اليدوي كتابٌ أريد أن أقرأه، وهذا يعني أنني قد قرأتُ في الطائرةِ وحدها عددًا هائلًا من الكتب. ولو لم أكن أخوض حربًا ضَروسًا ضد الرجل الأبيض لَأمضيتُ بقية عمري في القراءةِ وإشباع رغبتي في المعرفة. ومن هذه الناحية لا أظنُّ أن هناك شخصًا استفادَ من السجنِ كما استفدتُ أنا منه؛ ذلك أنني لم أكن لأتعلم في الجامعة قدْرَ ما تعلمتُه في السِّجن!»[3].

---

(١) لذلك سنجده يكتب لاحقًا في ص١٨٣ من سيرته أن السبب وراء لبسه النظارة هو قراءته علىٰ مصباح الممر.

(٢) والصواب: «الجامعة التي تخرَّجتُ فيها».

(٣) مالكوم إكس، ص١٦٧-١٦٨.

وقال مرةً وهو يتحدث عن قراءتِه في السجن والكتب التي تمكَّنَ من قراءتها: «لم أكن أعرفُ ما كنتُ أفعله. كلُّ ما هنالك أنني أحببتُ الكتب بالسليقة ووجدتُ فيها فيتاميناتٍ فكرية». وفي مقامٍ آخَر: «مع وَتيرة الغلَيان الذي يعرفه العالم اليوم والذي لم يَعُد فيه مجالٌ للتأمُّل أو التفكير العميق ولا وقت يمكن استعماله استعمالًا جيِّدًا، مع هذه الوتيرة أرىٰ أن السجن يأتي بعد الجامعة مباشرةً كأنسبِ مكانٍ لمن يريد أن يُفكر. إن السجين إذا كان لديه الحافز يستطيع أن يُغيِّر مجرىٰ حياته»[١].

وأنا لا أستطيع مُجاوزة مالكوم دون استحضار ذلك النصِّ المؤثر الذي لطالما أعَدتُ قراءته في مراحلَ مختلفةٍ من حياتي، وهو نصٌّ كافٍ لشرح التحوُّل الذي صنَعه الإسلامُ في روح هذا الإنسان، وفيه تجد مشاركةَ قراءاتِ السجن في هذا التحوُّل، ولكنَّه أشار إلىٰ هذا بشكلٍ خَفي. اقرَأْ وتأمَّل: «كنتُ في كليَّةِ الحقوق بجامعة هارفارد حيث كنتُ مَدْعوًّا لإلقاء محاضرة، ونظرتُ بالصدفة من النافذةِ وإذا بي أُطِلُّ علىٰ الناحيةِ التي تقع فيها العمارةُ التي توجد بها الشقةُ التي كنتُ أُخْفي فيها مسروقاتِ عصابتي. وهزَّني المشهدُ كموجةٍ عارمة وعادَت صورُ الأيام التي كنتُ أعيش وأفكر فيها كالحيوان، فقلتُ في نفسي: (ما أعمقَ ما امتدَّت إليَّ يدُ الإسلام لترتفع بي! ولولاها لكنتُ الآن وأنا في السابعةِ والثلاثين من عمري ميِّتًا أو سجينًا ممتلئًا قسوةً ومرارةً أو مجنونًا في أحد مُستشفيات الأمراض العقلية أو في أفضل الأحوال [أحمر دترويت] ذابل، يُهرِّب ويسرق ما يكفي لأكلِه ومُخدِّراته تحت رحمة مُهرِّبين قُساةٍ أصغرَ سِنًّا من نوعِ ما كنتُه عندما كنتُ أُعرفُ بأحمر دترويت، ولكن الله مَنَّ عليَّ فهداني إلىٰ الإسلام، وساعدَني الإسلامُ علىٰ الارتفاع بنفسي عن أوساخِ هذا العالم المتعفِّن وأوحالِه إلىٰ الحدِّ الذي أجِدُني فيه أقف خَطيبًا في هارفارد!). وذكرتُ قصة قرأتها في السجن عندما كنتُ مُغرِقًا في قراءة الأساطير

---

(١) مالكوم إكس، ص٣٩٠.

الإغريقية، قصة الصبي إيكاروس. هل تذكرُها؟ لقد ركَّب له أبوه جَناحَين ألصَقَ ريشهما بالشمع الخام وقال له: (إياك أن تُحلِّق بهما عاليًا). وبدأ إيكاروس يطير وتمادىٰ به الطيرانُ فحَسِب أنه مسيطرٌ علىٰ الوضع وارتفع في الفضاء وظلَّ يرتفع حتىٰ ذاب الشمعُ من حرارة الشمس فهَوَىٰ.

وهناك، أمام تلك النافذة عاهَدتُ الله علىٰ ألا أنسىٰ أن الإسلامَ هو الذي أعطاني الأجنحة التي أُحلِّق بها. ولم أنسَ ذلك أبدًا. لم أنسَه لحظةً واحدة»[١].

* * *

ومن النماذج التي يَحسُن ذِكرُها بعد مالكوم إكس؛ كريس ويلسون. هذا الرجل كان ممَّن أنقذَتهم القراءةُ في السجن، لقد غيَّرَت مكتبةُ السجن حاله وبدَّلَت أحوالَه. ويلسون قام وهو في السابعةَ عشْرة من عمره بقتلِ أحدهم إثْرَ شجارٍ وقَع بينهم، فحُكم عليه بالسجن المؤبَّد، وكان في ذلك اليوم يبكي في زنزانتهِ الانفرادية؛ لأن حياته -كما يقول- قد ضاعت. أشدُّ مَآسيه وآلامِه وأعنفُ صفعاتِ الزمان له عندما قرَّرَت عائلتُه التخلِّيَ عنه والتوقُّفَ عن التواصل معه؛ لأنه محكومٌ عليه بالمؤبد، فما هي الفائدة من زيارته؟ وكانت هذه كلماتِ أمِّه له! لكنه في السجن كان قد تعرَّف علىٰ ستيف، وهو أيضًا محكومٌ عليه بالمؤبد. يصف ويلسون رفيقَه هذا بأنه «كان يقرأ الكتب كلَّ يوم، في كل وقت». وعندما كان ويلسون يُبْدي تشاؤمه من وضعِهما، كان ستيف يتفاءل ويبتسم ولا يُعير نكَبات الأيام أدنىٰ اهتمام. يقول: «كنتُ معجبًا بإصراره وتفاؤله، علىٰ الرغم من الحكم القضائي المشدَّد ضدَّه؛ فقد كان عازمًا علىٰ الاستفادة من حياته». ثم أخذ يقضي جُلَّ وقته في السجن بالقراءة، وذكر أنه قرأ سِيرَ كثيرٍ من الشخصيات مثل فريدريك دوغلاس، ودافينشي، ونابليون، وأحبَّ الأخير كثيرًا وتعلَّق به؛ لأنه -كما يقول- كان منبوذًا مثله.

---

(١) مالكوم إكس، ص٢٧٩.

يكتب متحدثًا عن مكتبةِ السجن: «وأصبحتُ أعيش في تلك المكتبة، وأعيش من أجْلِها، فقد كانت تحملُني إلىٰ كل مكان: عاليًا في الفضاءِ الخارجي، وإلىٰ الوراء في التاريخ، وعميقًا في نفسي. ربما أكون قد قضيتُ أكثرَ من ١٠ آلاف ساعة في مكتبة سجن باتوكسنت». ويقول عنها بعد ذلك أيضًا: «ولم أكن أعيشُ من أجْلِها فقط، بل كنتُ أيضًا أعيش بفضلِها. مكتبة سجن باتوكسنت أنقذَتني من اليأس القاتل، وهي التي أنقذَت أيضًا مئات الأشخاص الآخَرين». يختم مقالته بقوله: «إن عالمنا المحسوس صغيرٌ جدًّا، ولكن هناك طريقة للإفلات منه، وهذه الطريقة تُسمىٰ: مكتبة. وهي مُتاحة للجميع، لا يوجد طفلٌ فقير إلىٰ درجة عدم قدرته علىٰ القراءة، وليس هناك يومٌ باردٌ يمنعنا من الذَّهابِ إلىٰ المكتبة، ولا توجد زنزانةٌ صغيرة بشكلٍ لا يسمح بفتح الكتب. مهما كان شخصك، وأينما كان مكانُك؛ المكتبة هي الباب المفتوح أمامك نحو عالمٍ أوسع»[1]. وقد دوَّن ويلسون تجربتَه الفريدة في السجن ورِحلتَه إلىٰ هدفه المنشود في كتابٍ له بعُنوان The Master Plan: My Journey from Life in Prison to Life of Purpose.

تقول ماريان وولف في كتابها: «هناك قلَّةٌ قليلة من الشخصياتِ التاريخية، سلَّطَت الضوء علىٰ أهميَّة لذةِ القراءة التي قد تُغيِّر حياةَ القارئ. كتبَ ديتريش بونهوفر، في أسوأ ظروفه، واحدًا من أكثر الكتب المؤثرة علىٰ الإطلاق (رسائل وأوراق من السجن) بعد أن أُلقِيَ في معسكراتِ الاعتقال بسبب آرائهِ حول ألمانيا النازية. تُصوِّر الرسائلُ روحًا محاصرة، راسخةً لا تتزعزع، كانت قد بقيَت علىٰ قيد الحياة بفضل قراءته الذاتية، كانت تلك الرفاهيةَ الوحيدة التي يمكن أن توفِّرَها عائلتُه، كما كان يقرأ لزملائهِ السجناء، ولحُرَّاس سجنه أيضًا!.

---

(١) من مقالٍ له في منصة Medium بعنوان: The Books That Saved My Life in Prison.

إن أكثر ما يَلفت الانتباهَ في رسائله هو السعادةُ التي لا تشوبها شائبة، التي اكتسَبها من قراءاته، ونقلها بعد ذلك إلىٰ الآخَرين مع يأسهِ العميق. لقد كتبَ في إحدىٰ الرسائل الموجَّهة إلىٰ خَطيبتهِ الشابَّة: (صلَواتك وأفكارك الطيِّبة، مقاطعُ من الكتاب المقدَّس، مقطوعاتٌ موسيقية وكتب، كلها مغمورةٌ بشيءٍ من الحياة والواقع كما لم يحدث من قبل. أنا أعيش في عالمٍ كبيرٍ غيرِ مرئي، لكنه حقيقيٌّ بلا شك). أعتقد أنَّ الملاذ غيرَ المرئي في فِعل القراءة، هو الذي أسهَم في بقائهِ حيًّا خلال فترة الحرمان تلك حتىٰ النهاية»[١].

* * *

ويلسون عندما ذكَر صديقه ستيف قال عنه بأنه كان يقرأ ويرغب في الاستفادة من حياته. ولك أن تتساءل هنا: سجينٌ محكومٌ عليه بالمؤبد، خاتمتُه بَدَت واضحةً أمامه، ما الذي يدفعه إلىٰ القراءةِ والتعلُّم والسعي للانتفاع من أيامه؟ ما مصدرُ هذهِ الرغبة العجيبة؟! المازني في إحدىٰ مقالاته أورد قصةً نقَلها عن الناشر الأمريكي هالدمان جولياس، وهي قصة السجين جيمس ستيوارد المحكومِ عليه بالإعدام، وسيتم تنفيذ هذا الحكم بعد عِشرين يومًا، ولدافعٍ خفيٍّ أراد ستيوارد قراءةَ عِشرين كتابًا في أيامه المتبقِّية، وليس العجب في رغبته هذه، وإنما في اختياراته! مِن بين اختياراته نجد (محاكمة سقراط وموته) و(نظرية البعث) و(آخِر أيامِ محكومٍ عليه بالإعدام)، وهذه اختياراتٌ لها ما يُبرِّرها، ولكن ماذا عن رغبته في قراءة (كيف تُحب) و(نشوء الحب) و(الأغلاط الشائعة في كتابة اللغة الإنجليزية) و(معجم القوافي) و(كتاب المترادفات) ؟! يقول المازني: «إنه رجلٌ بينه وبين الموت عِشرون يومًا، فغير مفهوم أن يحب أن يتعلَّم التقفية، وأن يُكثِرَ من الألفاظِ المترادفة،

(١) أيها القارئ عُد إلىٰ وطنك، ص٣٦٢-٣٦٣.

وأن يجتنب الأخطاء النَّحوية؛ ذلك أن هذه كتبٌ تُطلَب للإعداد الفني، ولحياة تتَّسع وتطول ويحتاج صاحبها إلىٰ الثروة اللُّغوية، فليس أبعثَ علىٰ الدهشة من الاستعانة بمِثلِ هذه الكتب علىٰ الاستعداد للموت!». لا أحدَ يستطيع الكشف عمَّا كان يعتمل في نفسِ هذا السجين لمَّا طلَبَ هذه الكتب، غير أنها كتب -كما قال المازني- تَشي وتدلُّ علىٰ إرادة الحياة[1].

يذكر فيكتور فرانكل أن الإنسان قد يتعطَّش للمعنىٰ حتىٰ وهو في طريقهِ إلىٰ الموت! ثم أورَد خبر بعضَ المساجين المحكومين بالإعدام وسرقتهم للكتب! «كان من المقرَّر أن تُغادر وسيلةُ نقل تضم حوالي ١٠٠٠ شابٍّ في صباحِ اليوم التالي. وحين أتىٰ الصباح، اتَّضح أنه خلال الليل تعرَّضَت مكتبة الجيتو للسطو. كلُّ شاب من الشباب -الذين حُكم عليهم بالإعدام في معسكر الاعتقال في أوشفيتز- زوَّد نفسه بكتابَين للشاعر أو الروائي أو العالم الذي يُفضِّله، وأخفىٰ الكتابين في حقيبته!»[2].

وهنا تذكَّرتُ تلك الأسئلةَ التي قذفَ بها بائعُ المكتبة النحيلُ في وجه الكاتب روبرتو بولانيو: «ما هو الكتاب الذي ستمنحه لرجلٍ محكوم عليه بالموت؟ قلت: لا أعرف. فقال البائع: ولا أنا، وأظن ذلك رهيبًا. ما هي الكتب التي يقرؤها الرجال اليائسون؟ ما هي الكتب التي يُحبونها؟ كيف تتخيَّل غُرفة القراءة لرجل محكوم؟»[3].

وقريبٌ من حال الرجل المحكوم عليه بالإعدام وينتظر الموتَ كانت حالَ الكاتب والناقد الأسترالي كلايف جيمس؛ لمَّا شخَّصَه الأطباءُ وأخبروه بإصابته

---

(١) العمر الذاهب، ص١٦٢-١٦٧.

(٢) صرخة من أجلِ المعنىٰ، ص٣٤.

(٣) مقال (من يجرؤ) - روبرتو بولانيو.

بسرطان الدم سنة ٢٠١٠، قرَّر نقل مكتبته الشخصية إلىٰ منزله في مدينة كمبردج ليُواصل الحياة بين الكتب. كان سبب تأليفه كتاب (قراءات أخيرة) أنَّ جامعة ييل طلبَت منه الكتابة عن الكُتب التي قرأها مؤخرًا، يقول جيمس: «ربما كانوا يقصدون آخِرَ كتبٍ سوف تقرؤها في حياتك!». وكان قد صدَّر كتابَه بكلمةٍ لافتة، وهي: «إن كنتَ لا تعرف بالضبط اللحظةَ التي تُطفَأ فيها أنوارُ حياتك، فعليك مواصلة القراءة حتىٰ تنطفئ هذه الأنوار»[١].

* * *

ومِن طريفِ ما قرأتُ حول موضوعنا قصةٌ ذكَرها محمود السعدني، ولن تجدَها في كتابِهِ (الولد الشقي في السجن) أو (الطريق إلىٰ زمش)، وهما الكتابان اللذان كتبَهما عن فتراتِ اعتقاله، ولكن في كتاب حنفي المحلاوي (حكايتي مع السجن - مفكرون وقُضبان)، المهم، يقول السعدني: «أقول لك، حتىٰ أيام السجن في عهدِ عبد الناصر قد أفادتني؛ لأنه لم يكن مسموحًا لنا بالقراءة ولا بالكتابة، فيما عدا قراءةَ الكتب الدينية؛ لذا أقبلتُ علىٰ قراءتها كلِّها، حتىٰ الكتب الدينية المسيحية واليهودية، وقد استفَدتُ جدًّا لأنني بمساعدة بعض النزلاء تمكَّنتُ من الحصولِ علىٰ بعض كتبِ التراث؛ مثل كتاب الأغاني وخلافِه. وعلىٰ فكرة يوجد بالسجن مكتبة ضخمة أسَّسها من قبلُ الشيوعيون والإخوان المسلمون[٢] الذين سُجنوا هناك، وتحضرني قصةٌ لطيفة متعلِّقةٌ بقراءاتي داخل السجن. ففي أحد الأيام ذهبتُ

---

(١) رائحة الحبر، ص٤٩-٥٣.

(٢) في مذكرات نجيب الكيلاني، ص٢١٦ نقرأ أنهم قد وضعوا نظامًا لهم بالسجن الذي قد يمتدُّ لسنوات لا يعلم إلا اللهُ أمَدَها، كان ثاني القضايا المهمة التي تحتاج إلىٰ دراسة لديهم هو: «تحويل إحدىٰ الزنازين إلىٰ مكتبةٍ نجمع فيها ما تيسَّر لنا من كتب، والطلب من أهلينا تزويدنا ببعض الكتب المسموح بها، في شتىٰ المجالات الثقافية، واختيار واحدٍ منا ليكون أمينًا للمكتبة؛ كي يتولَّىٰ الإشرافَ والإعارة».

إلىٰ المكتبةِ أبحث في دفاترِها، فاكتشفتُ وجود أجزاء من كتاب (قصة الحضارة) وبعد بحثٍ طويل، اكتشفتُ مِن المسؤول عن هذه المكتبة أن الكتاب غيرُ موجود وأن أحد المساجين قد استعاره من قبل، علىٰ كثرةِ عدد أجزائه.

ومرَّت الأيام، وكلما ذهبتُ للمسؤول عن المكتبةِ أسأله عن أجزاء كتاب (قصة الحضارة) أكتشف أنها ما زالت مستعارة، ولما شككتُ في الأمرِ طلبتُ مقابلة السجين الذي استعارها، فقالوا لي إنه مقيمٌ في عنبر [ب] بالدور الثالث في الزنزانة [١٧]، واسمه أحمد قطقط مسجون مخدرات، ومحكوم عليه بخمسَ عشرة سنة سجن، ولما سألتُه عن الكتاب أبلغني أنه يستخدمه مخدَّة (ينام فوقها)، لقد كان هذا الرجل ينام فوق (قصة الحضارة)!! لقد كانت فترة السجن الأخيرة فترةَ ثقافةٍ إجبارية»[١].

ويَذكر الكاتب أحمد ناجي قصةً طريفة عندما كان في السجن، يقول بأنه استيقظ أحد الأيام ليلًا يريد الذَّهاب إلىٰ الحمَّام، فلمَّا ذهب هناك وجد أحدَ المساجين الذين قد عُرفوا بالفتك وصَلَفِ القلب وغِلَظ المشاعر، سجين عُرِف بالجشع والطمع، وله تاريخٌ طويل في عالم السَّفال والرذالة، وجَدَهُ في زاويةٍ من زوايا الحمام يجهش بالبكاء! بكاء هذا السفَّاح أمرٌ يستدعي الفضولَ فلا بد أن الخَطْب جلَل والمصابَ عظيم، فلمَّا سأله عن سببِ بكائهِ، قال بأنَّ داخِلَه مشاعرَ مزعجة ويريد إخراجَها، فلم تُقنع ناجي هذه الإجابةُ الغريبة، فأعاد عليه السؤالَ بإلحاح، فكانت الإجابة الصادمة بأنه قرأ رواية (في قلبي أنثىٰ عِبرية) للكاتبة التونسية خولة حمدي فتأثَّر ببعضِ فقراتها، وهذا سبب بكاؤه! يقول ناجي بعد أن تصفَّح الرواية محاولًا الكشف عن سبب تأثر هذا السجين المجرِم بها: «لم يكن هناك سرٌّ في الرواية، بل السر في مكان آخَر.

---

(١) حكايتي مع السجن - مفكرون وقضبان، ص٤٤.

انتبهتُ لأول مرة لهذه القوَّة الخفية، للكلمات والأدب والرواية»[١].

وهنا لا بد أن نُردِّد مع بول أوستر: «يجب ألا ننسىٰ أن هتلر بدأ حياته كفنَّان، وأن الطغاة المستبدِّين والديكتاتوريين يحبُّون قراءةَ الروايات، والقتَلة الموجودين في السجن يقرؤون الرواية أيضًا..»[٢].

* * *

طالما حدَّثتُ نفسي: ماذا لو أجبَرَت إداراتُ السجون المساجينَ علىٰ القراءة؟ تكون قراءة الكتب بمنزلة الواجب المفروض عليهم، ويوضع وقتٌ محدَّدٌ للانتهاء من عددٍ مختارٍ من الكُتب، ثم بعد ذلك يُختبَر السجين القارئ فيما قرَأه من الكتب؛ هل استوعَبها، وما الذي استفاده منها؟ ويُعطىٰ ورقةً يُطلب منه فيها تلخيصُ الكتب التي قرأَها. فإذا نجح في هذا الامتحان تُعطىٰ له بعضُ المميزات في السجن، أو تُقلَّص مدة سجنه. وإذا فشل في مُجاوزة الامتحان يُطلَبُ منه إعادة قراءة الكتب من جديد! أليس هذا أجْدَىٰ من الجَلْدِ والعقوبات الجَسدية التي لا تدلُّ علىٰ انتماءٍ للجِنس البشري.

قبل أيام وقفتُ علىٰ خبرٍ في إحدىٰ القنوات مفادهُ أنَّ سجنًا في بوليفيا أتاح للمساجين التقليصَ من فترة عقوبتهم مقابلَ ساعاتٍ من القراءة. ولهذا القرار أصبحَت الكُتب هي أفضلَ رفيق في الزنزانة لكثيرٍ من السجناء والسجينات؛ حيث إنَّ ٤٠٠ صفحةٍ يقرؤها السجين تُقلِّص من مدة السجين ٤٠ ساعة! وهذا البرنامج الحكومي يُطبَّق الآن في ٤٧ سجنًا هناك، والخبر مُتداوَلٌ في القنوات الإخبارية. قرأتُ أنَّ هذا البرنامج مُقتبَسٌ من تجرِبةِ أحد السجون في البرازيل، وهنا أذكر ما دبَّجه الكاتبُ والمترجم المغربي محمد آيت حنا حول هذه التجرِبة، يقول

---

(١) حرز مكمكم (القراءة والكتابة داخل السجن)، ص٩١-٩٢.

(٢) حديث الروائيين، ص٤٨.

في أسطرٍ طريفة تحمل في آخرِها معنًىٰ عميقًا: «أحد سجون البرازيل قامَ بتجرِبةٍ فريدة، لا يمكن إلا تثمينُها: (القراءة مقابل الحريَّة)؛ بحيث إن كل مسجون يقرأ كتابًا ويُلخِّصه يُخصَم من مدةِ سجنه عددٌ معيَّن من الأيام. هي بالطبع تجرِبةٌ إنسانية رفيعة، لكن لا أدري لِمَ انتابَني كابوسٌ، بعد أن قرأتُ الخبر: رأيتُني سجينًا لا حولَ له ولا قوَّة، يُجبرني المساجينُ الأقوياء، وذَوو النفوذ علىٰ أن أقرأ وأُلخِّص بدلًا منهم، هكذا كلما قرأتُ أكثرَ تقلَّصَت مُددُ عقوبتهم، ليُغادروا السِّجن، واحدًا بعد آخَر، تاركيني وحدي هنا في هذا السِّجن المضاعف، حيث لم تُقدِّم لي الكتبُ أيَّ أفقٍ أو مساحة حرية، وإنما زادَت من وحدتي وكآبتي، وأضافت إلىٰ سجني سجنًا آخَر!»[1].

* * *

في آخر فصلٍ من كتابهِ عن السِّجن والمساجين ذكَر جعفر الخليلي بعضَ الملاحظات العامة، منها ضرورةُ وجود مكتبةٍ في السجن، يقول: «أ. والعناية بالتعليم في السجن ليست عنايةً جِدِّية كاملة، وإنه لَمِن أوجبِ الواجبات بذْلُ العناية بالتعليم وإكراهُ السُّجناء عليه، وتعيين المدرسين الأكْفاء ومحاسبتهم حسابًا جدِّيًّا علىٰ ما يبذلون في سبيلِ مُكافَحةِ الأمية ورفع مستوىٰ المساجين وما يَبلُغون من هدفٍ في هذا السبيل. ولقد وجَدتُ مكتبة السجن مكتبةً قد تألَّفَت مجموعتُها من الكتبِ علىٰ سبيل الصدفة؛ فقد نشأتْ فكرةُ المكتبة أولَ ما نشأتْ في رأسِ أحد المساجين وهو (الملَّا فاضل الرادود) قبل عدة سنوات، وقد جُمِعَت لها الكتبُ من هنا وهناك، وكان علىٰ وزارة الداخلية أن تُوصِيَ في كل سنة بإضافة مائة عددٍ وأكثر من الكتبِ التي تهمُّ المساجين وتشوقهم للقراءة وتُغذيهم بالمغازي المفيدة، وينبغي أن تكون كلُّ الكتب أو جلُّها من القصص لتعمل علىٰ إصلاحِ نفوس

(١) مكتباتهم، ص١٣٠.

المساجين وتقوية آمالهم بالحياةِ، والاعتماد علىٰ أنفسهم لِكَسب ثقةِ المجتمع بهم في السجنِ وفي خارج السجن.

فالكتب اليوم هي إحدىٰ الوسائلِ الفعَّالة في تهذيبِ المجتمع، ولعلَّ المساجين أحوجُ إليها من غيرِهم، ولقد كُتبَ عن مفعولِ المكتبات في السجنِ الشيءُ الكثير في الممالك المتحضِّرة، وإليها عزا أربابُ الخبرة تغييرَ اتجاه نسبةٍ كبيرة من السجناء. ولقد رأيتُ أنا بعضَ مَن صقَلَهم السجنُ بفضل الكتب، فأخرج مَواهبهم في صورٍ متعدِّدة من قولِ الشعر، أو لُطف الكلام، أو رقَّة النفوس، كما رأيتُ أحدَ شعراء العامية من المساجين ينصرف إلىٰ ترجمةِ رباعيَّات الخيام بالشعر الشعبي الدارج، ويَسكُب هذه الرباعياتِ في رباعياتٍ لا تقلُّ روعةً من مسكوبها باللغة الفُصحىٰ وفي أدبِ القريض! ولقد سألتُ عددًا من مُلازمي مكتبة السجن كما سألتُ مأمورَ المكتبة، وهو أحد المساجين، عن الكتبِ المفضَّلة التي يَميلون إلىٰ قراءتها، فقال لي الجميع وبدون استثناء إنها الكتب القصصية، ولكنَّ حظ هذه المكتبة من الكتبِ القصصية كان أقلَّ من الكتب الأخرىٰ»[1].

والبنهاوي أشار في كتابهِ عن الكتب والمكتبات إلىٰ أهميةٍ توفِّر مكتبة في السجن وأنها ضروريةٌ لِخَلق التغيير في نفس السجين، يقول: «يتوق جميعُ نُزلاء السجون إلىٰ أن يَشغَلوا أنفسَهم بالعمل -عمل أيِّ شيء- ولعلَّ مِن أهمِّ ما يُفكر به القائمون بإدارةِ السجون تحقيقَ هذه الرغبة المشروعة من جانبِ النُّزلاء. والكتب وحدها لا يمكنها حلُّ المشكلة، ولكنها تستطيع أن تفعل الكثير في رفعِ الروح المعنوية عند النزلاء، وخصوصًا القادرين منهم علىٰ القراءة؛ لذلك فإنَّ وجود مكتبة بالسجن معناه توفيرُ النشاط الذي يرغبه السجناء، وليس أدلَّ علىٰ ذلك من إجاباتِ نزلاء أحد السجون الأمريكية علىٰ بعضِ الأسئلة التي وُجِّهَت إليهم، فمنهم مَن قال

---

(١) كنت معهم في السجن، ص٢٢٦-٢٢٧.

ببساطة: (لولا وجودُ الكتب لَأصابني الجنون)، ومنهم مَن قال: (ولقد ساعدَتْني الكتبُ في الاحتفاظ بعقلٍ سليم وذهن نشطٍ طَوال فترة العقوبة)، أو القائل: (السجن يبدو كأقبحِ مكان لو لم تكن به مكتبة)»[1].

عندما سأل حنفي المحلاوي إبراهيم شكري عن رأيه في سجونِ مِصر، كان مِن إجابته قولُه: «إن المواطن حين يدخل السجنَ بعد حكمٍ عادل، لا بد أن يقضيَ هذه العقوبةَ بشكلٍ يتَّسم بالإنسانية؛ حتىٰ لا يخرج من هذا السجن وكلُّه انتقامٌ علىٰ هذا المجتمع الذي عامَلَه بهذه القسوة. أضِفْ إلىٰ ذلك لا بد وأن تُتاح لهذا السجين فرصةٌ طيبة لرؤيةِ أسرته، وفرصةٌ أخرىٰ للقراءة، وهكذا يخرج مُواطنًا صالحًا»[2].

ختامًا، بعد أن أطَلْنا الحديثَ في هذا الموضوع؛ أرجو أن تُوفَّر الكتبُ للمساجين وألَّا يُحرم مُعْتَقَلٌ من القراءةِ بشكلٍ عام، وعلىٰ وجه الخصوص أولئك الذين سيَقْضون مدةً معلومة من عمرِهم ثم يخرجون إلىٰ أهلهم، يجب أن يكون لديهم ما يحفظ لهم اتِّزانهم العقليَّ وانضباطهم الروحي، ولن يُحقق لهم هذا المطلبَ سوىٰ الكُتب.

لا نُريدهم أن يكونوا إذا خرَجوا مثلَ أولئك المساجين الذين وُصفوا في كتاب هنري شاريير: «صدِّقني يا بابيون، لا أقصد أن أُصيبك بالإحباط واليأس عندما أخبرُك بهذا، ولكنني أعرفُ العديد من السجناء الذين عادوا إلىٰ فرنسا بعد أن أمْضَوا مُدَدًا قصيرة من الأحكام، تتراوح بين خمسة وسبعة أعوام، وأنا أعرف ما الذي حلَّ بهم، كانوا قد تحوَّلوا إلىٰ بقايا بشريةٍ حقيقية!»[3].

---

(١) عالم الكتب والقراءة والمكتبات، ص١٥٧.
(٢) حكايتي مع السجن (سياسيون وقضبان)، ص٥٤.
(٣) الفراشة، ص٣١ - هنري شاريير.

معبدُ الفِكر

«بدأتُ حياتي كما سوف أُنهيها بلا شكٍّ: بين الكتب»[1].

---

(١) الكلمات، ص٣٦. نقرأ في سيرة الفيلسوف النمساوي كارل بوبر (بحث لم ينته)، ص٢٠: «كان الجو الذي نشأت فيه مليئًا بالكتب». ويقول (في ص٢٢) بعد ذكره لوالده ومكتبته التي تأثر بمحتوياتها: «وهكذا كانت الكتب جزءًا من حياتي قبل وقتٍ طويل من تمكّني من قراءتها». وأشار بعد ذلك إلىٰ أن القراءة -وبدرجة أقل الكتابة- هي الحدث الرئيس في التطوّر الفكري للفرد.

تزاحمَ في سنواتِ القرن السَّالِف من تاريخِ هذهِ الأمة نوابغُ لا أظنُّ آثارَهم تُمحىٰ ما بقيَت الدنيا. أدباءٌ كبار حفَروا إبداعاتهم في جبين التَّاريخ، فوقفَ مُبَجِّلًا بَراعتَهم مُعْترفًا بسُموِّها عن المحوِ والطمسِ والنسيان.

ولأنَّ الكِتاب كان له شأنٌ في حياتِهم، وأثرٌ واضح في نِتاجِهم، وفضلٌ عظيم في سُمُوقِ منزلتهم علىٰ أقرانهم؛ أبَحْنا لأنفسنا اقتحامَ عَرينهم، والتَّجوالَ في منازلهم، والاطِّلاع علىٰ فِردَوسهم الأرضيِّ الذي سَمَا بهم إلىٰ سِجلِّ الخالدين.

كيفَ كانت علاقةُ بعض الأدباء بالكتاب، وما قيمة القراءة في وِجْدانهم، وعلىٰ ماذا تحتوي مكتباتُهم، وما هو شكل الفوضىٰ المُحبَّبة التي كانوا يعيشون فيها؛ سنُحاول اكتشاف كلِّ ذلك في مقالنا هذا.

* * *

يُحدِّثنا فتحي رضوان عن لقائهِ بأمير الشُّعراء أحمد شوقي قائلًا: «.. كلما اقتربتُ من الحجرة التي عرَفتُ أنه ينتظرني فيها، زاد اضطرابي، ثم وجَدتُ نفسي آخِرَ الأمر أمام شوقي بك أمير الشُّعراء. هل أستطيع أن أُصدِّق حواسي وأنا بعدُ طالبٌ في كليةِ الحقوق، إني أرىٰ بعَيني صاحبَ هذا الاسم الضخم، الذي يكاد يكون قطعةً من تاريخنا العظيم، يتحرَّك أمامي. نظرتُ إلىٰ الحجرةِ، أو أجَلْت عيني فيها بسرعة، فلم أرَ فيها شيئًا باهرًا من الرياضِ أو الأثاث. فقد كانت وسَطًا بين الاتِّساع والضيق، وكان كلُّ ما فيها من الأثاثِ عاديًّا، ويُخيَّل إليَّ الآن أنَّ ما استوقف نظري وقْتَذاك هو مجموعةٌ من الكتبِ تناثَرت هنا وهناك، بعضها مفتوحٌ ومنكفِئ، وبعضُها مُغلق، منها ما وضع اثنين اثنين وما وُضع ثلاثة ثلاثة، ومنها ما ألقىٰ به في الأرض، وما ترك

فوق وسادةِ أريكةٍ وهكذا. إذن شوقي يقرأ، أو أنه لا يزال يقرأ»[1]. وأخبرَنا أنَّه رأىٰ في حُجرتهِ من الكتب المعروفة: الأغاني، والكامل، والعِقد، ونَفْح الطِّيب، والأمالي[2].

ولِنُدلِّلَ علىٰ علاقةِ شوقي بالقراءةِ والكُتب؛ سننقل عن أحمد محفوظ الذي قال في مُقدمةِ كتابهِ عن حياةِ شوقي: «.. صاحَبتُه اثنَي عشرَ عامًا صحبةً دائمة». يقول محفوظ مخبرًا عن قراءةِ شوقي: «إن قراءته الدائمةَ ونظره الطويل في الكتبِ القديمة والحديثة. ترَكَت في نفسهِ رواسبَ من المعرفةِ اجْترَّها فضمَّنَها نظْمَه. فكان يُجهِدُ قارئَه في التعرُّفِ علىٰ تضميناتهِ العِلمية أو التاريخية، فلم يتيسَّر لغير المثقفين ثقافةً عالية متابعتُه والفهمُ عنه»[3]. ويؤكد علاقته بالكتب وشغَفه بالمعرفةِ بقوله: «مما أعرفهُ عنه أنه كان يقرأ كلَّ كتاب تُخرجه المطابع؛ سواءٌ كان مؤلَّفًا أو مترجَمًا لكاتب قديمٍ أو مُحدَث. وهذا لشغَفهِ بالمعرفة وحُبِّه في الاطلاع. فهو يقرأ كتبَ الطب والفقه والحديث والعلوم والجغرافيا والأدب، وكل ضروب المعرفة.

وكان يُعجبه أن يكون وافِرَ المحصول من مُفرداتِ اللغة العربية. فقد بلَغ في ذلك حظًّا عظيمًا لكثرةِ نظره في دَواويـنِ الفحول من الشعراءِ الجاهليِّين والمخضرِمين والمحْدَثين، وكتب الأدب الرفيعة؛ كالحيوان للجاحظ، والأغاني للأصفهاني، والكامل للمُبرِّد، والأمالي للقالي»[4].

بل وذكر محفوظ أنَّ شوقي بعد مرَضهِ وحتىٰ بعد أن أصبح شبَحًا لامعَ العينين، وذلك أنه كان يَحيف علىٰ بدنهِ في الطعام؛ ذكر بأنه انْكبَّ انكِبابًا كُليًّا علىٰ النظْمِ والقراءة. « كأنه يريد أن ينسىٰ مَرَضه في هذين، واختار مِن الكتب: كتب الصوفية؛

(١) عصر ورجال، ص٨٨-٨٩ - فتحي رضوان - مكتبة الأنجلو.
(٢) عصر ورجال، ص١٠٤.
(٣) حياة شوقي، ١٣١.
(٤) حياة شوقي، ١٣٣.

كالإحياء للغزالي وإظهارِ الحق. وجعل القرآن فاتحةَ كلِّ قراءة؛ يقرأ كاتبُه عليه من سورةٍ أو سورتين»[1].

ومما وثَّقهُ أنور الجندي حول قراءةِ شوقي قولُه عن نفسِه بعد أن جاء أمرُ نفْيِه إلىٰ إسبانيا: «فجمَعتُ عائلتي واصطحبتُ مكتبتي، وسائرَ مرافقي، وغادرتُ مِصر إلىٰ برشلونة.. فأدخلتُ أولادي المدارسَ الراقية ثم عكَفتُ علىٰ قراءة كتب الأدب العربي في غيرِ أوقات النزهة، فاستوعبتُ منها ما لم أكن استوعبتُ وطالعتُها كلَّها حتىٰ أكاد أقول إنه ليس في الأدبِ كتابٌ لم أستوعبه خلالَ السنين التي مكَثتُها في إسبانيا»[2].

ونختم الحديث عن شوقي بإثبات شهادة سكرتيره أحمد عبد الوهاب أبو العز في مؤلَّفهِ الذي كتبَ في مقدمتهِ: «... وهكذا تَسنَّىٰ لي أن ألتزمَ هذهِ الشخصيةَ النادرة مُلازَمةً نادرة.. فقد كنتُ أقابل مولاي في كلِّ صباح فلا يَتركُني ولا أتركه إلا بعد نصف الليل بساعةٍ أو بساعتين، وعلىٰ الأخصِّ في السنواتِ الأخيرة فقد كنتُ في تبعيَّتِه أكاد أكونُ وظلُّه سواءً».

ذكرَ أبو العز أنَّ شوقي «كان لا ينام بعد الغداء قطْعيًّا، بل كان دائمًا أبدًا يجلس علىٰ مقعدٍ طويل بعد الغَداء يُقلِّب في عدة كتب»[3].

وأخبر عن مكتبته بأنها كانت «حافلةً بالكتبِ القيِّمة، وبها ما يَزيد عن الألف سِفْر عربي وعن الخَمسِمائة باللغةِ الفرنسية والتركية»[4].

* * *

(١) حياة شوقي، ١٨٧.
(٢) صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر، ص٣٧٥-٣٧٦ - أنور الجندي.
(٣) اثني عشر عامًا في صحبةِ أمير الشعراء، ص٧٨.
(٤) اثني عشر عامًا في صحبةِ أمير الشعراء، ص٧٤.

ولعلَّه من الطريفِ أن يكون الأديبُ الذي نذكره بعد شوقي هو عباس محمود العقاد، ومعلومٌ كُره العقاد لشوقي، ومحاولاته هدْمَ هذا الصرح العظيم، ولكن كما قال الرافعي: «هنا يجب أن أُصرِّح أني لم أقرَأْ قصيدةَ شوقي التي منها (عيسىٰ الشعور) إلا في كتاب (الديوان) الذي أصدرَه العقاد سنة ١٩٢١م حين توهَّم أنه يستطيع أن يَهدِم شوقي بمقالةٍ في مثلِ السهولة الذي تستطيع أن تحملَ بها الجبلَ ملفوفًا في نسخةٍ مِن جريدة!»[١]. وتحضرُني هنا طريفةٌ رواها الشناوي، يقول: «لما سُئل العقاد عن رأيِهِ بصوت الموسيقار محمد عبدالوهاب، قال: (لا عيبَ فيه إلا إعجابُ شوقي به!)»[٢].

العقاد عَلَمٌ مشهور لا يحتاج إلىٰ تعريف، بل لعلَّه قد بلغ مكانةً من الإساءةِ إليه فيها التعريف به! لما كتبتُ هذا السَّطر الأخير سمعتُ دَويًّا في عقلي لبيتٍ من الشِّعر قاله ذاك الذي سمَّاه الذهبي في (السِّيَر): «شاعر الزمان»[٣]، وقال عنه في (العِبَر): «ليس في العالمِ أشعرُ منه، وأمَّا مِثلُه فقليل!»[٤]، وأنت بلا ريبَ أدركتَ أنه المتنبِّي، أقول تذكرتُ بيته العجيب في مدحِ كافور:

تجاوزَ قدْرَ المدحِ حتىٰ كأنَّهُ　　　بأحسَنِ ما يُثْنىٰ عليهِ يُعابُ!

المهم، علاقة العقاد بالقراءة والكتب اختصَرها وديع فلسطين بقوله: «لم يكن يتَصوَّرُ الحياة بغيرِ كتب»[٥] بل لا نُبالغ إذا قلنا إنَّ اسمه والكتبَ مرتبطان لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخَر. فلذلك نحن هنا لا نُحاول التدليلَ أو إثبات شيء

---

(١) صون القريض (نَظَرات الرافعي في الشعراء والشعراء)، ص٢١٥ - د. عبدالرحمن قائد.
(٢) زعماء وفنانون وأدباء، ص١٥٠.
(٣) سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص١٩٩.
(٤) العِبر في خَبرِ من غبر، ج٢، ص٣٠٦.
(٥) مقال: أنا والمكتبات الخاصة - وديع فلسطين - مجلة الأديب - العدد ١٢/ ١ ديسمبر ١٩٦٩.

خفيٍّ غير معلوم؛ فهل يحتاج النهارُ إلىٰ دليل؟ -وهذا شطْر بيتٍ للمتنبي أيضًا!- وجُلُّ ما سنُورده شذراتٌ مُنتخَبة للفائدة وإتمامِ النقص.

تحدَّثَ عن نَهَمِهِ المعرفي مرةً فقال: «والمقياس الواحد الذي أَقيس به جهدي في جميعِ أدوارِ حياتي هو النهَمُ إلىٰ المعرفة، فإنني لا أذكر سِنًّا لم أكن فيها أُحبُّ أن أعرف، وأن أقرأَ وأن أختبر، وأن أُفيد من كلِّ ذلك توسعةً في آفاقِ الشعور»[1].

ومِن أفضلِ مَن يُكاشفنا عن صميمِ ارتباط العقاد بالقراءة والكتب هو صاحبُه محمد طاهر الجبلاوي الذي دامت صحبتُه للعقاد أكثرَ من ٤٠ سنة، ذكَر في مُستهَلِّ مقالٍ له بعد وفاةِ صاحبه بشهرٍ تقريبًا: «عرَفتُ العقاد سنة ١٩٢٠، ودامت صحبتي له حتىٰ يومِ وفاته رحمة الله عليه. كنا نلتقي مرتين كلَّ يوم في الصباح؛ حيث يمرُّ بالمكتبات للاطِّلاع علىٰ ما يَستجِدُّ من الكتب..»[2].

يقول الجبلاوي عن قراءة العقاد: «والعقاد شَغوفٌ بالقراءةِ حريصٌ علىٰ ألَّا يفوته علمٌ بشيء. فُسحته اليومية يقضي أكثرَها في البحثِ عن الكتبِ وقد يبلغ ما يُنفقه في شرائها كلَّ شهر أكثرَ من ستِّين جنيهًا كما رأيتُ بنفسي. وقد يرىٰ بعضُ القراء أنَّ هذا التقدير فوق المعقول فكيف يستطيع أن يقرأ إنسانٌ كتبًا بهذا المقدار؟ وأين الوقت الذي يتَّسع لكلِّ ذلك؟ إن ما يُنفقه العقاد في شراءِ الكتب يفوق هذا المبلغ.. وله طريقتُه في القراءة.

فبعض الكتب يقرؤها من أول صفحة فيها إلىٰ آخِر صفحة وبعضها يقرأ ما يُهمُّه منها. ويقول لي في ذلك: إنني حين أتناولُ الكتاب أكون كالرجل حين يَدخُل بيتَه، يعرف بغيرِ عَناءٍ الحجرةَ التي يجلس فيها.

---

(١) أنا، ص٩٩.

(٢) مقال العقاد كما عرَفتُه - محمد طاهر الجبلاوي - العدد ٤٠ / ١ أبريل ١٩٦٤ - مجلة الثقافة لمحمد فريد أبو حديد.

ويقول في الكتاب الذي يقرؤه: إنني أعرفُ مَواضع الإبداع في الكتابِ كما يعرف الرجلُ البصيرُ بالنساء مواضعَ الحُسْن فيها لأول مرة»[1].

وأنيس منصور يذكر خبرًا يدلُّ علىٰ سَعةِ اطِّلاع العقاد وعظيمِ ما تحويه مكتبتُه من المصادر والمراجع. لما أخبر أنيس منصور العقاد أنه اشترىٰ كلَّ الكتب المترجمة لفيلسوفٍ ألماني سأله العقاد: كم كتابًا له عندك يا مولانا؟ فقال: كلُّ الكتب التي تُرجِمَت إلىٰ الإنجليزية.. إنَّهما كتابان. ضحك العقاد ونادىٰ خادَمَه: يا إبراهيم، يا إبراهيم: هاتِ الكتب الملْقَاة علىٰ السرير. وجاء إبراهيم بسبعةِ كتبٍ للفيلسوف الألماني. يقول: «ولم أكن أعرف أن كل هذه الكتب قد تُرجِمَت له! وضحك الأستاذ ليقول: يا مولانا.. كلُّ شيء موجود هنا، إنني أطلب الكتب أحيانًا وهي في المطبعة!»[2].

وعن مكتبةِ العقاد يقول حافظ محمود: «لقد أقام مِن نفسهِ دائرةَ مُخابرات عن الكتبِ الهامة التي تَصدُر في العالم كلِّه. حتىٰ إنك لتجد في مكتبةِ العقاد مَراجعَ أجنبية لا تجد بعضَها في المكتباتِ العامة التي تتمتَّع بإمكانيات الدولة»[3].

وبعد أن كتبَ وديع فلسطين في أول مقالته: «فعُدَّة الأديب كتبُه، يشتريها ويَقْتنيها وتُهدىٰ إليه ويستهديها ويستنسخُ ما ندَر منها، ويُحافظ عليها مهما كلَّفَه ذلك مِن مال، ويُنميها ويُكثرها بلا حدودٍ مهما ضيَّق علىٰ نفسهِ وعلىٰ أسرته

---

(١) من ذكرياتي في صحبة العقاد، ص١٤٥.

(٢) في صالون العقاد كانت لنا أيام، ص١٢ ولا ألومك إذا أردت أن تتساءل عن هذه الصدفة العجيبة التي جعلت كتب هذا الفيلسوف الألماني تكون علىٰ سرير العقاد في نفس اللحظةِ التي أخبره أنيس منصور فيها أنه اشترىٰ كل كتبه!

(٣) مقال بشير الهاشمي [الكتاب والقراءة في حياة الأديب العقاد] في مجلة الناشر العربي العدد ١٤/ يوليو ١٩٨٩.

في الحيِّز المكاني للعيش ليتَّسع بيتُه للكتبِ وإنْ ضاق بسائرِ الأمتعة وأسباب الراحة»؛ قال عن مكتبة العقاد، وهو ممَّن هيَّأَت لهم الأقدارُ السعيدة زيارتَها: «... مكتبة العقاد، وهيَ أضخم مكتبة خاصة منوَّعةِ الموضوعات حتىٰ لقد ملأَت الكتبُ شقتين كاملتين، وانتشرَت في المطبخِ والشرُفات وفي غُرَفِ النوم وفوق الثلاجة!»[1].

وهذا المشهد لبيت العقَّاد وهو غاصٌّ بالكتب في كلِّ أرجائهِ ذكَّرني بما قاله الكاتب الإنجليزي كولن ويلسون عن كُتبِه التي زاحمَتْ أثاثَ بيتِه، يقول: «كنتُ طَوالَ حياتي شخصًا مَهْووسًا بالكتبِ، وهو الأمر الذي يُجيب عن سببِ امتلاكي لرفوفٍ كثيرة للكتبِ في بيتي تَحْوي ما بين عِشْرين إلىٰ ثلاثينَ ألفَ كتاب، ويمكن لك أن تتصوَّرَ الحالَ إذا عرَفتَ أنَّ كلَّ غرفةٍ في بيتي تَحْوي رفوفًا مُتخَمةً بالكتبِ -غرفة النوم ليست مستثناةً من هذا الوصف- حتىٰ باتَ يُعدُّ مستحيلًا من الناحيةِ الواقعيةِ إيجادُ فسحة لإضافة أيَّة كتب جديدة..»[2].

في (صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر) يذكر الجندي أن «مكتبة العقاد أضخمُ مكتبة في عصرنا»[3].

ويُلخِّص الارتباطُ الوثيق بين العقاد والكتب تخيُّلَ الحكيم له وهو في الجنة! يقول: «صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم تخيَّلَني في بعضِ كتبه قد دخَلتُ الجنة وذهبتُ أطوف في أرجائها؛ عسىٰ أن أرىٰ وِجْهة مكتبةٍ أقف أمامها وأتأمَّل عَناوين الكتب فيها، فلما طال بي المطاف ولم أجد مكتبةً ولا كتبًا ضَجِرت منها وطفقتُ أقول: (ما هذا؟ جنة بغير كتب؟).

---

(١) مقال: أنا والمكتبات الخاصة.

(٢) الكتب في حياتي، ص١٥-١٦ - كولن ويلسون.

(٣) صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر، ص٣١.

ويقول قائل: أقِراءةٌ في الجنة؟ إذن أنتَ سُوسة كتبٍ يا صاح!

كلَّا أيها القائل، وهذه غلطتُك الكبرىٰ؛ فإن سوسة الكتب هو الذي يعيش في الكتبِ كما يعيش السوس، وأما الذي يقرأ الكتاب ليوسع حياتَه في العالم؛ فالكتاب عنده طريقٌ إلىٰ عالمه، أو هو نظَّارة يُكبر بها نظرَه ليُضاعف رؤيته، فهو من صميمِ الحياة وليس بالصومعةِ التي تعزلُ ساكنَها عن الحياة»[1].

وما أكثرَ ما نسمع عند الحديث عن الكتب وعشقِها ترديدُ كثيرٍ من القُرَّاء تَخيُّلَ بورخيس القائل: «لقد تخيَّلتُ دائما أن الفِرْدوس عبارةٌ عن مكتبةٍ بينما يظنُّه الآخَرون حديقة أو قصرًا»[2]، ويتجاهلون تَخيُّل الحكيم للعقاد وهو يَجرُّ خُطاه في الجنة بحثًا عن مكتبة!

ونذكر هنا ما قرَأْناه عن الإمام أبي العلاء الهَمَذَاني ت٥٦٩هـ الذي رُئي في المنام بعد وفاتهِ في مدينةٍ جميعُ جُدرانها من الكتب، وحوله كتبٌ لا تُحدُّ وهو مُشتغلٌ بمطالعتها. فقيل له: ما هذه الكتب؟ قال: سألتُ الله أن يَشغَلني بما كنتُ أشتغلُ به في الدنيا، فأعطاني»[3].

وهذا الخبر ينقلنا إلىٰ أمنيةِ واسِع المعارف المغربي عبدالله كنون، لمَّا سألهُ الأديب التونسي السيد مصطفىٰ بن حميدة هذا السؤال: ما هو أحسنُ كتاب قرأته في موضوعه؟ كانت إجابتُه: «لا يمكن الجواب بإطلاقٍ عن هذا السؤال، وخصوصًا لِمَن كان مثلي علىٰ كثرةِ ما قرأ من الكتبِ في الموضوع الواحد، لا تزال أمامه لائحةٌ طويلة بالكتبِ التي لم يقرأها في كلِّ موضوع. فأنا إذا تمنَّيتُ أن أعيش طويلًا، فإنما أتمنىٰ ذلك لأجل أن أستوعب ما أريد من الكتب، وإذا كان ثابتٌ البُنَانيُّ قال:

(١) سيرته (أنا)، ص٩٩-١٠٠.

(٢) سداسيات بابل، ص١٨٦.

(٣) صفحات من صبرِ العلماء، ص٣٢٣.

(اللهم إن كنتَ أعطيتَ أحدًا مِن خلقك الصلاةَ في قبره، فأعْطِنيها)، وقيل إنه كُشِف عن قبره فوُجِد قائمًا يُصلي! فأنا أدعو الله القادرَ الذي لا يُعجزه شيءٌ أن يُمتِّعَني في الحياةِ الأخرىٰ بغرفةِ مُطالعة، تُجْبىٰ إليها ثمراتُ العقول: من كتبٍ ومجلاتٍ وصحفٍ أدبيةٍ، ودواوين شعرية قديمة وحديثة؛ حتىٰ أكون علىٰ اتصالٍ تامٍّ بالحياةِ الفكرية في الدارِ الدنيا قبل فَنائها، وأمتع نفسي في الجنةِ بعد فَناء هذه الدار بأعظمِ لذَّةٍ روحيةٍ في نظري. واللذةُ الوحيدة في نظر الرازيِّ كما قال في جمعِ الجوامع: (وحصَرَها الإمام والشيخ الإمام في المعارف)»[1].

وفرجينيا وولف في آخِر مقالٍ لها بعُنوان (كيف نقرأ كتابًا كما يجب) تكتب: «لطالما حلَمْتُ في بعض الأحيان، حينما يأتي فجرُ يوم القيامة، ويأتي الفاتحون ورجالُ الدولة العظام والمحامون النبلاء لتسلُّمِ جوائزهم، مثل التِّيجان والأمجاد ونحْتِ أسمائهم علىٰ رخامٍ لا يَفْنىٰ.. سيتحدث الرب إلىٰ بطرس -أحد تلاميذ المسيح الاثني عشَر حسَب العقيدة المسيحية- ويقول بينما يلمحنا ونحن نتأبَّط كُتبَنا: (انظر، إنهم لا يحتاجون مكافأة، ليس لدينا ما نُعطيه، فهم يُحبون القراءة، وهذا أعظمُ النعيم)»[2].

وأريد أن أختمَ الحديث عن العقاد بذِكْر زيارة لويس عوض له في شقَّتهِ، يقول: «وبعد أيامٍ من زيارتي لطه حسين زُرتُ عباس العقاد، وكان الجوُّ عنده يختلف تمامًا عن الجو عند طه حسين. كان يسكن شقةً في أحد الأدوار العليا، غالبًا الدور الثالث وكان ضوء الشارع عنده قويًّا. وفتح الباب لي خادمٌ يلبس جلبابًا وأدخلَني حجرةَ الاستقبال التي سُمِّيت بعد ذلك (صالون العقاد). وهناك جلَستُ وانتظَرتُ نحو خمس دقائق ثم دخل العقَّاد بقامتهِ الفارعة ولم يكن في بدلتهِ مثل طه حسين. دخل

(١) واحة الفكر، ص٤٤.

(٢) داخل المكتبة خارج العالم، ص٣٣.

لابسًا بيجامة وعليها روب دي شامبر شتوي، شبيه بالبطانية الكاروهات، وكان يلبس حول رقبته كوفيةً وعلىٰ رأسهِ ما يُشبه الطاقية، فنهضتُ وصافحتُه وأشار بالجلوس فجلَست. وكانت حجرةُ الاستقبال واسعةً فيها طقم من (المذهب) مستكمل بكراسيَّ من نفسِ النوع وهي غالبًا تقليد الأوبيسون. وكان مكتبه في مُواجَهة حجرةِ الاستقبال، فرأيتُ قسمًا من مكتبته المشهورة. بعد ذلك زُرتُ مكتبة العقاد فوجَدتُها أكبرَ من مكتبةِ طه حسين، وكانت علىٰ رفوفٍ ترتفع إلىٰ السقف تقريبًا»[1].

وبعد أن ذكر لويس عوض أن العقاد لم يكن يحمل حبًّا كبيرًا للجامعةِ والجامعيين، وأنه لا يُخفي زِرايته بها وبهم، وحاول -أي عوض- أن يُعلِّل سببَ ذلك بأنه لم يكن يحمل إلا الشهادةَ الابتدائية، ولعلَّه كان يتمنَّىٰ أو ربما حاوَل أن يكون أستاذًا في الجامعةِ ولو بالانتداب! بعد ذكره هذا لم يستطع أن يحبس كلماته الآتية -وهي شهادة يَحسُن إثباتها-، قال: «العقاد لم يُحاضر ساعةً واحدة في الجامعة، ومع ذلك فقد كان ما برأسِ العقاد من العلمِ يربو علىٰ خمسةِ أساتذة مجتمِعين من تخصُّصاتٍ مختلفة!»[2].

* * *

أما عن المازني وكيف كان شكل الفوضىٰ الخلَّاقة التي يعيش فيها، فإننا سنكتفي بمرافقةِ عبد الحميد جودة السحَّار لزيارته.

«والْتقَت عينايَ بعينَي المازني أكثرَ من مرة، وبدَأَني بالتحية فحسبتُ أنه يُحيِّيني لأنني ابنُ عمٍّ صاحب البيت الذي يسكن فيه، ولكن لما توثَّقتْ بيني وبينه الصداقة عرَفتُ أنه يبدأ بتحية كلِّ مَن يُقابله في الطريق أكثرَ من مرة»[3]. ولمَّا حان موعد

(١) أوراق العمر (سنوات التكوين)، ص٤٣٨.

(٢) أوراق العمر، ص٤٧٦.

(٣) صور وذكريات، ص١٧٧.

الزيارة: «وجاء يوم الجمعة فأحسَستُ ذلك الاضطرابَ الذي يُحِسُّهُ المقْدِم علىٰ مخاطَرة، كنتُ أعرفُ المازني، وكنتُ أركب سيارتَه كلما وجَدني علىٰ محطةِ الترام وأنا في طريقي إلىٰ الكلية، وقد كتبَ مَقالًا ضافيًا عن كتابٍ لي، ومع ذلك تهيَّبتُ المقابلة.

وصعدتُ في درَجِ منزله مُتمهِّلًا لأجمع شتاتَ نفسي، ثم وضعتُ إصبعي علىٰ الجرسِ فأحسستُ رَنينه في جوفي، وفتح الباب فإذا بخادمٍ شعثاءَ تُطِلُّ برأسها ثم تتركني وتختفي دون أن تسألني عمَّن أكون وما أريد، وسمعتُ صريرَ باب فالتفَتُّ فإذا بالباب الذي عن يميني يُفتَح، وإذا بالخادم تَدْعوني للدخول. ودخلتُ وأغلقتُ الباب خلفي، وانسلَّت الخادمُ وأغلقت بابَ الغرفة خلفها، وبقيتُ وحدي.

دُرتُ بعيني في المكان قبل أن أجلس، فإذا بكُتبٍ تُغطي المكتبَ والأرائك، والمقاعد، فتقدَّمتُ علىٰ حذَرٍ حتىٰ لا أرتطمَ بالكتب التي صُفَّت علىٰ الأرض، وأزحتُ بعضَ الكتب عن مقعدٍ قريب في حِرصٍ ثم جلست.

ومرَّت دقائقُ فُتح الباب بعدها ودخل المازني يرتدي جِلبابًا فوقه عباءةٌ من وبَر الجمَل، وتقدَّم إليَّ وصافحَني، واعتذَر في بساطةٍ عن الكتب المبعثَرة ثم جلس.. وبدأ يتحدَّث فانقشَع اضطرابي وأصَخْت سمعي وتعلَّقَت عيني به، فهو مُحدِّث بارعٌ، وإنني أُقرِّر بعد أن عرَفتُ جميع كتَّابنا الكبار أن المازني كان أَلْبَقَهم حديثًا، وأكثرهم تدفقًا، حتىٰ إنك لا تُحِسُّ فرقًا كبيرًا بين كتابتِه وحديثه، وما أوسعَ الهُوَّة بين أحاديثِ كثيرٍ من كبارِ كُتَّابنا وكتابتهم!»[1].

ومشهدُ الكتب الذي رآه السحَّار في بيت المازني وهي في حالةِ فوضىٰ فوق الأرض، وعلىٰ المقاعد، ليسَ مَشْهدًا غريبًا علىٰ أهل بيته؛ لأنه الأصلُ في حياة المازني ومكتبته. كان للفوضىٰ نَصيبٌ كبير في حياته، والفوضىٰ هي الوصفُ

(١) صور وذكريات، ص١٩٥-١٩٦.

الأجدَرُ بمكتبتِه، وما أكثرَ ما يثورُ علىٰ أسرته إذا أرادوا ترتيبها وتهذيبَ منظرِها، ويُكرِّر: (هكذا تعوَّدتُ أن أرىٰ مكتبتي، ولا أحبُّ أن أراها إلا هكذا!). وكم كلَّفَته هذه الفوضىٰ من ثَمن؛ فكثيرًا ما كان يضلُّ الطريق إلىٰ كتابٍ يكون قد اشتراه حديثًا، فيُضطرُّ إلىٰ شرائه مرةً ثانية، وأحيانًا يفقد الكتابَ للمرة الثانية بنفسِ الطريقة، فيلجأ إلىٰ شرائهِ مرة ثالثة[1]!

كان من عادةِ المازني أن يتحوَّل من منزلٍ إلىٰ آخَر؛ لأنه -كما يقول- ليس أثقلَ ولا أشقَّ علىٰ نفسه من الإقامة في بيتٍ واحدٍ زمنًا طويلًا، ولو كان الأمر بيدِه لاتّخذ منزلًا جديدًا كلَّ يوم! ولكن كثرة الكتب في مكتبتهِ هي التي راضَتْه علىٰ السكون وحجَزتْه عن مُراده.

فكان إذا انتقل إلىٰ منزلٍ جديد اختار أوسعَ الحجرات فيه لضمِّ كتبِه، ولكن هل في الوجود حجرةٌ كافية للكتب؟ من الحقائقِ المسلَّم بها عند عشَّاق الكتب أنها لا تُحبُّ الثباتَ في مكانٍ واحد، فهي تُواصل الزحف حتىٰ تملأ أرجاءَ المكان، فإذا ضاق المكان الذي يحتضنُها تتوسَّع إلىٰ خارجه، وهكذا حتىٰ تبتلعَ المساحات كما يقول زوران جيفكوفيتش الذي كتبَ مرةً: «لم أُنشِئ مكتبةً في شقتي منذ انتقلتُ إليها. وهي شقةٌ صغيرة، فيها غرفةٌ واحدة ورَدْهة ومطبخٌ وحمام، وجميعها ضيقةٌ متناهيةُ الصِّغَر، حتىٰ إنك لا تستطيع الالتفاتَ دون أن تخبطَ ذراعيك بالجدران. ومن المعروف أن الكتب تبتلع المساحاتِ ابتلاعًا. وهذا قانونٌ لا يمكن تبديلُه؛ فمهما أعطيتَ للكتب من مساحةٍ فإنها لا تكتفي أبدًا. تحتلُّ في البدايةِ الجدران، ثم تنتشر لِتشغَل حيِّزًا يمكن أن يحتويَها، حتىٰ لا يبقىٰ سوىٰ السقف الناجي الوحيد من هذا الغزو. ثم تتوالد الكتب الجديدة، ولا تحتمل عندئذٍ فكرة التخلُّص من أيِّ

(١) مقال في الرِّسالة الجديدة، العدد ٦/ سبتمبر ١٩٥٤. و(مكتبتي) للمازني، مجلة الرسالة، العدد ١٠٣/ ١٩٣٥.

كتاب لديك أبدًا. وهكذا تُزيح الكتبُ عن طريقها كلَّ شيء غيرها ببطءٍ وخفية، كأنها نهرٌ منساب»[1].

وهذا يُذكرني بما قرأته للأديب الطبيب د. عدي الحربش في مقالٍ له يتكلَّم فيه عن القراءة في حياته، قال في آخِره: «عندما استقرَّيت في بيتي الحاليِّ قبل عشر سنوات، اخترتُ إحدىٰ الغُرَف الواسعة وجعَلتُها مكتبةً لي بمباركةِ زوجتي. أحضرتُ حِرَفيًّا بنىٰ لي مكتبةً خشبيةً متينة علىٰ طول أحد الجدران، أسوةً بمكتبة والدي القديمة في الملز. أفرَغتُ الكراتينَ العِشرين التي أتيتُ بها من كندا فاستقبلتها بأريحيَّة. لكني بعد بِضع سنوات اضطُرِرت إلىٰ استعمال جدارٍ ثانٍ، ثم بعد سنوات استعمَلتُ الجدار الثالث، ولولا أن أحجبَ نور الشمس وأصبح خُفَّاشًا لاستعملتُ الرابع. وَضَعتُ الكتبَ أمام الكتب، ثم وضعتُها فوق المكتبة حيث لا أصلُ إلا بالسلالم، ثم وضعتُها علىٰ الطاولات، والمكتبة في كل مرَّة ترضىٰ وتبتلع، لكن أخشىٰ ما أخشاه أن تتجشَّأ المكتبة ذاتَ يوم وتستفرغ كلَّ ما أفرَغتُه في جوفها من كتب!»[2].

* * *

ماذا عن (الملاكم الأدبي) الدكاترة زكي مبارك؟ يقول عن نفسهِ ومكتبته: «كان أبي بمصر الجديدة وهو يتأهَّب للموت، فأنفقتُ خمسين جنيهًا لأُنقذه من مرضِ الموت فابتسم وقال: (في هذه اللحظة يَطيب لي أن أموت). فأخذتُ سيارةً لنقلهِ إلىٰ سنتريس ورأيتُ أن أطوف به علىٰ مكانٍ خطَّطتُ به منزلي الجديدَ بمصر الجديدة، فقال: (اللهم اجعله عامرًا، اللهم اجعله عامرًا، اللهم اجعله عامرًا).

(١) المكتبة، ص٣٣. عندما أورد أبو غدة كلمة العلاّمة محمد راتب الطباخ: «العلم يحتاج إلىٰ ثلاثةِ أمور: مال قارون، وعمر نوح، وصبر أيوب»، قال: وأزيده رابعًا، وهي: دار السلطان، لتتَّسِع للكتب. [قيمة الزمن عند العلماء، ص٢٠٢-٢٠٣].

(٢) عنادل حجرية، ص٤٠٦-٤٠٧.

وقد استجاب الله لدعاءِ أبي، ففي منزلي مكتبةٌ هي سرٌّ من أسرارِ الخلود، وإليها غُدوِّي ورَواحي حين يُكايدني زماني»[1].

ويكتب بعد ذلك عن ضرورةِ وجود مكتبة في البيت، وأنها: «زينةٌ جميلة إلىٰ أبعدِ حدود الجمال». أما مكتبته فيقول عنها: «لِمكتبتي ميزانيةٌ شهرية، وقد أغنَتْني وأفقَرَتني، وأنا بهذا الفقر سعيد»[2].

كشفَت لنا كريمةُ ابنةِ الدكاترة سرَّ الدور الثاني الذي كان يسكن فيه والدها وحدَه، فما هو شكل هذا الدَّور وما سرُّه؟! تقول: «وقد عِشتُ سنوات والطابَقُ العُلوي هذا يَشغَل بالي.. فكانت تدور بمُخيلتي الكثيرُ من الأسئلة التي حيَّرَتني لفترة طويلة وأنا في الحلقة الأولىٰ من سِنِي حياتي. من هذه الأسئلة علىٰ سبيل المثال لا الحصر، لماذا يعيش أبي بمفردِه في الطابَقِ العلوي؟ وماذا يفعل أبي وحده في هذا الطابَق؟ وما الذي يَحتويه هذا الطابَقُ؟ ولماذا يُغلق أبي هذا الطابقَ العُلْوي دائمًا بالمِفْتاح وهو خارجٌ إلىٰ عمله ولا يتركه مفتوحًا كي نراه؟». تقول بأنها عاشت السنين الطِّوالَ وهذه الأسئلةُ تَشغل فِكرَها حتىٰ أتىٰ ذلك اليومُ الذي حطَّمَت بهِ حقائقُ الواقع أوهامَ الخيال المقلقة. كتبَت تُخبرنا عن الذي رأته في هذا الطابق يومَ صَحِبَها والدُها إليه: «فأرىٰ، ويا للعجب.. أرىٰ الرَّدْهةَ وقد غُطِّيَت أرضُها بأكداسٍ مكدَّسة من الجرائد والمجلات، حتىٰ يُخيّل إليك أنها فُرِشَت بسجادٍ مصنوع من كتلٍ من الجرائد والمجلات. وحوائطُ الردهة كلُّها قد اختبأَت وراء مكتباتٍ تعلو حتىٰ تصلَ إلىٰ السقفِ وبها النفيسُ الغالي من الكتبِ الأدبية والفلسفية.

وفي وسَط الردهة كانت هناك مائدةٌ لا يظهر منها غيرُ أرجُلِها التي بها تستطيع أن تحكم علىٰ أن هذه أرجُلٌ لمائدة مُستطيلة، والسبب أيضًا هو أن الكُتب والمجلات

(١) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص٧٩.

(٢) زكي مبارك بقلم زكي مبارك، ص١٥٧.

تُغطيها وترتفع عليها حتىٰ تُقارب النجفة المُعلَّقة في وسَطِ الصالة». وبينا هي مذهولةٌ بهذه الكتب المتراكمة في كل مكان، إذا برَنين التليفون، فلما تبِعَت الرنينَ وصَلَت إلىٰ حُجرةٍ فيها مكتب، ولكن هذا المكتب أيضًا لا يظهر منه غيرُ جوانبه؛ لأن أعلاه واقعٌ تحت احتلال الكتب والمجلات. ولما انتقلَت إلىٰ غرفةِ الجلوس لم تجد اختلافًا كبيرًا عما سبق؛ كانت الكتبُ قد غطَّت السجادَ وجميع كراسي الصالون بلا استثناء!.

ويبدو أن عادةَ فوضىٰ الكتب -وحياة المبدعين غالبًا تحكمها الفوضىٰ!- لدىٰ زكي مبارك أصيلة يصعب تبديلُها أو اجتثاثها من حياته، فها هو في باريس يقول من رسالةٍ أرسلَها لصديقٍ له في الخامسَ عشر من يناير ١٩٣١: «صديقي عبدالمجيد، أكتبُ إليك هذا وقد قهَرني البردُ علىٰ المكثِ في غرفتي؛ فإنَّ الجليد يتساقط علىٰ الناسِ وهم سائرون في الطرقات، وليس لديَّ مِن مرافق الحياة ما يتمتع به أكثرُ الجيران، فنحن في يوم أحد، ولكلِّ جارٍ فنوغراف يستمع إلىٰ أناشيده وموسيقاه، أو أهلٌ يعطفون عليه، أو أصدقاء يسألون عنه، في حينٍ لا أجد ما أدفعُ به السأمَ والملال غيرَ ثلاثين كتابًا أو تَزيد، مُبعثَرة في أرجاءِ الغرفة في اضطرابٍ له روعتُه وجماله في ساعاتِ النشاط..»(١).

ومن طريفِ ما ذكَرَت كريمة في مقالها طريقةُ التواصل العجيبة التي كانت بين زكي مبارك وعائلتِه عندما يكون في طابَقِهِ الخاص. فتقول: «قلتُ في حديثي إننا كنا دائمًا نقطنُ منزلًا يتكوَّن من طابقين، أبي وحده مع كتبه في الطابقِ العلوي، ووالدتي معنا في الطابق الأول. وكان همزة الوصل بين أبي وأمي، بل بين أبي وبيننا جميعًا جرسٌ صغير يربط بين الطابقين، فلو رن الجرس مرةً واحدة لكانت أمي هي

---

(١) ذكريات باريس، ص٢٩٤.

المطلوبة، ولو رنَّ الجرسُ مرتين لكان المطلوب أخي الأكبر وهكذا. فكان كلٌّ منا يعرف بعددِ دقات الجرس. وكنتُ أنا علىٰ هذا أحمل رقم ٥، فلو رن الجرسُ خمس مرات لكنتُ أنا المطلوبة، علىٰ أني لم أرَ في حياتي هذا الطابقَ الثانيَ إلا بعد أن دخلتُ في الحلقة الثانية من عمري»[١].

* * *

ولا بأس أن نتطفَّل علىٰ أجواء الكاتب الكبير مصطفىٰ صادق الرافعي ونرىٰ كيف كان منظره في مكتبه، ولن نجد أفضلَ مِن تلميذه الوفي محمد سعيد العريان يُخبرنا عمَّا نريد ونسعىٰ إلىٰ استجلائه. يكتب عن لقائهِ بعد أنْ أحبَّه وراح يتتبعُ آثاره في الصحف والكتب: «كان ذلك في خريفِ سنة ١٩٣٢ وقد قصَدتُ إليه في دارهِ مع وفدٍ ثلاثةٍ نسأله الرأيَ والمعونة في شأنٍ من شؤونِ الأدب؛ فلَقِيَنا مُرحِّبًا مُبتسمًا وقادنا إلىٰ مكتبه، ثم جلس وجلسنا؛ وفي تلك الغرفة التي تتنزَّل فيها عليه الحِكمةُ ويُلقَّىٰ الوحيَ جلسنا إليه ساعةً يُجاذبنا ونُجاذبه الحديثَ لا نكاد نشعر أنَّ الزمن يمرٌّ..

كان جالسًا خلف مكتب تكاد الكتبُ فوقه تحجبه عن عينَيْ مُحدِّثِه، وعن يمينه وشمالهِ مناضدُ قد ازدحمَت عليها الكُتب في غيرِ ترتيب ولا نظام، تُطِلُّ من بين صفحاتها قصاصاتٌ تُنبئك أن قارئها لم يَفرُغ منها بعد، أو أنَّ له عند بعض موضوعاتها وقفاتٍ سيعود إليها، وعلىٰ حيطان الغرفة أصونةُ الكتب المتراصَّة لا يبدو من خلفها لونُ الجدار!»[٢].

ماذا كانت تعني مكتبة الرافعي للرافعي في مرحلةٍ ما من حياته؟ كانت مكتبته «هي دُنياه التي يعيش فيها: ناسُها ناسُه، وجوُّها جوُّه، وأهلُها صَحابته وخِلَّانه، وعلماؤها رُواتـه، وأدباؤها سُمَّاره؛ فأخذ عنها العِلم كما كان يأخذ المتقدِّمون

---

(١) مقال لابنته كريمة بعنوان (أبي زكي مبارك) – مجلة الرسالة، العدد ١٠٩٧/ ٢١ يناير ١٩٦٥.
(٢) حياة الرافعي، ص١٢.

من علماءِ هذه الأمةِ عن العلماءِ والرواة فمًا لِفَم؛ فنشأ بذلك نشأةَ السلف: يرىٰ رأيهم، ويُفكر معهم، ويتحدَّث بلُغتِهم، وتستخِفُّه أفراحهم، وتتراءىٰ له أحلامُهم ومُناهم»[١].

ومن الفائدة هنا -كما يقول العريان- أن أشيرَ إلىٰ اثنين من أدباءِ العربية كان يقرأ لهما الرافعي أكثرَ ما يقرأ إلىٰ آخِر أيامه: هما الجاحظ وصاحب الأغاني، وكان يُعجَب بأدَبِهما ويَعجب لإحاطتهما عجبًا لا ينقضي وإعجابًا لا ينتهي، وكان لا بد له حين يهمُّ بالكتابة بعد أن يجمع عناصرَ موضوعه في فكره أو في مذكرته أن يفتح جزءًا من الأغاني، أو كتابًا من كتبِ الجاحظ يقرأ فيه شيئًا مما يتَّفق، ليعيشَ فترةَ ما قبل الكتابة في جوٍّ عربيٍّ فصيح[٢].

* * *

ومنظر الرافعي والكُتب تحجبُه عن عينَيْ مُحدِّثه يجعلني أعبر القرون السالفة لأقفَ مع أبي الغُصن علىٰ أبي تمام. روىٰ ابنُ المعتز عن محمد بن قدامة قال: دخلتُ علىٰ حبيب بن أوس بقَزْوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يُرىٰ، فوقَفتُ ساعةً لا يعلم بمكاني لِما هو فيه، ثم رفع رأسه فنظر إليَّ وسلم عليَّ، فقلتُ له: يا أبا تمام، إنك لتنظر في الكتبِ كثيرًا وتُدمِن الدَّرْس فما أصبرَك عليها! فقال: والله ما لي إلفٌ غيرها ولا لذةٌ سواها، وإني لخليقٌ إن أتفقَّدْها أن أُحْسِن».

وتَتمَّة الخبر للمُهْتم: «وإذا بحُزمَتَين: واحدة عن يمينهِ وواحدةٍ عن شماله، وهو منهمكٌ ينظر فيهما ويميزهما من دون سائر الكتب، فقلتُ: فما هذا الذي أرىٰ من عنايتك به أوكدَ من غيره؟ قال: أما التي عن يميني فاللات، وأما التي عن يساري

---

(١) حياة الرافعي، ص٣١.

(٢) حياة الرافعي، ص٧٥.

فالعُزَّىٰ، أعبدهما منذ ٢٠ سنة. فإذا عن يمينه شِعرُ مُسلم بن الوليد صريعِ الغواني، وعن يساره شِعر أبي نُواس»[١].

* * *

والآن لِنُفسح المجال للطماوي حتىٰ يُحدِّثنا عن الكاتب الذي وصَفه أنور الجندي بأنه أكبرُ قارئ في مصر بعد العقاد! وقال عنه: «ما تزال مكتبتُه الحافلة تحوي أحدثَ الدِّراسات التاريخية والأدبية والفكرية من أنحاءِ العالم، وهو قارئٌ رَصين، وباحثٌ أصيل، وما تزال دراساته ممتدَّةً في مُراجَعاتِ الأدب والفكر والفن منذ قرأتُ له أوَّلَها عام ١٩٢٢ في جريدةِ الدستور التي كان يُصدِرُها فريد وجدي، وما أظنُّ أن هناك مَن يُضاهيه في هذه المزية في العالم العربي كله»[٢].

والكاتب هو علي أدهم، وقد أعلنتُ غيرَ مرة إعجابي بشخصهِ وقلمهِ ومؤلفاته؛ لذلك أجَزتُ لنفسي إعطاءَ المُتحدِّث عنه ما يريد من المساحة، فها هو الطماوي يُخبرنا عن لقاءٍ من لقاءاته الكثيرة معه وما تحوي مكتبته الغنيَّة القابعة فوق سطح العمارة! يقول: «أخذتُ أتردَّد عليه في بيتهِ الذي يقع قريبًا من مستشفىٰ هليوبوليس، ومما جعَل زياراتي إليه كثيرةً أنَّ سكني غيرُ بعيد عن منزله. كان يلقاني في حُجرةٍ وَسيعة فوق سطح عمارته، وكانت هذه الغرفة تضمُّ مكتبته.

ومكتبته تتَّسع لعدة آلاف من الكتب، مُنظَّمة مرتَّبة، ونظيفة، ومُعظم الكتب في حالةٍ جيدة وإن كانت قديمةَ الصُّدور. ومن يتأمَّلها يجد القسم الإنجليزي فيها أكثرَ من القسمِ العربي، وتضمُّ المؤلفات الفلسفية والتاريخية مثل كتب كارليل، وهيجل، وسبينوزا، وشوبنهور، وكروتشه، وماكولي، وهازلت وغيرهم. كما تضمُّ كتبًا عربية

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز، ص٢٨٣.
(٢) صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر، ص٣١.

للمَسعودي وابن بسام وياقوت والمقري وابن خَلدون وأجزاء من الأغاني وكثيرًا من دواوين العرب إلىٰ جانبِ مؤلَّفاتٍ حديثة. هذا غيرُ أعمالٍ رِوائية لتولستوي وتشيكوف وترجينيف ودوستويفسكي وسومرست موم وولتر سكوت. وبالرغم من أن مكتبته لا تخضع للتنظيم العلمي إلا أنه كان يعرف مكانَ كلِّ كتاب فيها. فإذا دعَت الضرورةُ إلىٰ تَبيُّنِ شيءٍ بعينه نهض في خفَّةٍ واتَّجه إلىٰ مكانِ الكتاب والتقطه في يُسرٍ وسرعة.

وبالرغم من أنه لم يكن شاعرًا إلا أنه ذوَّاقةٌ للشعر ونقَّادة له، وذاكرتُه تعي مادةً شعرية متنوِّعة وغزيرة، فإذا واتَتْ مناسبةٌ ألقىٰ شعرًا كثيرًا، وأحيانًا يتوقَّف ليشرحَ كلمة، أو يَلفِتَ النظر إلىٰ حادثةٍ تضمَّنَها بيتٌ ثم يُعاود الإلقاء، أما الشعراء الذي كان يستعذبُ شِعرَهم فهم أمثال الشريف الرَّضِي، وأبي تمام، والبُحْتري، وأبي العلاء، وابن الرومي، وعنترة، وبعض الأندلسيِّين، أما المتنبي فأكاد أقول إنه كان يحفظ ديوانه إلا ما ندَر من أبياتٍ وقصائد، وكان يعجب بكثيرٍ من شعرِ شوقي ويُمثل لذلك بقصائدَ وأبياتٍ له، يُلقيها فلا يتعثَّر.

وعلي أدهم موضوعيٌّ في كلِّ ما يصدر عنه. سألتُه يومًا عن خادمته وكانت قد تركَته لتعملَ عند آخرين. فقال: إن فيها بعضَ الجوانب الحسنة وبعض الجوانب السيئة، وأخذ يسرد شيئًا من هذا وذاك وكأنه يُحلِّل شخصيةً أدبية وتاريخية، ولم ألحظ أنه كان يتحدثُ بانفعال أو انحياز.

وقد عرَفتُ فيه التواضعَ الأصيل، والصراحةَ وعدم التعالُم، قلتُ له يومًا: يقولون إن فلانًا يعرف سبعَ لغاتٍ معرفةً جيدة. هل هذا ممكن؟ فردَّ قائلًا: لا تُصدِّق. إني أقرأ الإنجليزية منذ أكثرَ من ستين سنةً قراءة جادَّة، وأحيانًا أرجع إلىٰ المعاجم لأكشفَ عن كلمةٍ مكوَّنة من ثلاثةٍ أو أربعة حروف.

وظل أدهم يقرأ مجلة التايم التي تَصدُر باللغةِ الإنجليزية ويُتابع فيها أخبارَ الكتب التي تظهر في أوروبا، فإذا أعجبه منها بعضُ الكتب سعىٰ إلىٰ شرائها؛ وبذلك كان يقفُ علىٰ آخِر ما تُصدِرُه المطابع الأوروبية. وكان يُحدثني عن بعض ما يَلفت نظره. قال لي ذات يوم: كم تُقدِّر عددَ الكتب التي صدَرَت عن نابليون؟ قلت: بالطبع كثير. ولكن لا أعرف علىٰ وجه التحديد عددَها. فقال: لقد أُجري إحصاءٌ عن أهمِّ شخصيتين في التاريخ كتب عنهما. فإذا بالمؤلفات عن نابليون تجاوزَت ثلاثة عشر ألفَ كتاب، بينما كُتِب عن المسيح عليه السلام أحد عشر ألفًا فقط. ثم أضاف قائلًا: إني أمتلك أحدَ عشر كتابًا عن نابليون من ثلاثةَ عشر ألف كتاب»[١].

* * *

أما شيخ العربية محمود شاكر فيَكفيك أن تقرأ الوصف الآتيَ لتتكوَّن لديك صورةٌ واضحة للمكان الذي كان يعيش فيه: «الكتب تملأ كلَّ حيطانِ وجدران الشقة التي يسكنها، وأينما تَلفَّتَّ في أنحائها، لا تقع عيناك إلا علىٰ كتب، وكأنَّ الجُدران اختفَت، أو أن خِزَانات الكتب هي الجدران!»[٢].

فلا تعجَبْ بعد قراءة الوصف السابق لكلمة الأديب والأستاذ الكبير عبدالقدوس الأنصاري صاحب مجلَّة المنهل، عندما دخل شقتَه فصمَتَ ونظر حوله ثم قال: «إنني أعلم أن الناس تكون عندهم مكتبةٌ في بيت، أما هذا فهو بيتٌ في مكتبة!»[٣].

ما الذي هال الدكتور عبدالله عسيلان عند أول لقاءٍ له بأبي فِهر؟ يقول: «وممَّن تهيَّأ لي اللقاءُ به في بداية دراستي للماجستير عام ١٣٩١هـ، أستاذنا العلامة المحقِّق

---

(١) علي أدهم بين الأدبِ والتاريخ، ص٢٤-٢٥.
(٢) قصة مكتبة، ص٢٤.
(٣) ظِلُّ النديم، ص٨٩.

أستاذ الجيل، الأستاذ محمود محمد شاكر، التقيتُ به في بيته، ذهبَ بي إليه أحدُ أساتذتي، عرَّفَني به، وهو الأستاذ الدكتور عبد القدُّوس أبو صالح، ذهب بي إلىٰ بيتِ الأستاذ، وحينما التقيتُ بأستاذي هالني أولَ ما هالني مَرْأىٰ البيت، فأينما اتَّجهْتَ ببصرك في البيت لا يقع إلا علىٰ الكتب، البيت كلُّه كتب؛ الصالون كتب، غرفة الطعام كتب، الممرَّات كتب، غرفة النوم كتب، فبيتُه كله كتب!»[1].

عايدة الشريف تكاد تكون -كما يقول يعقوب الغنيم[2]- هي المرتادةَ الوحيدة من النساء لمجلس شيخ العربية، وقد كانت مُداوِمةً علىٰ الحضور كلَّ يوم جمعة، كتبَت تقول عن لقائها الأول به، والذي كان يوم الجمعة السادس من ديسمبر عام ١٩٧٠: «حين مَثُل أمامي فاتحًا لي البابَ بنفسهِ، فإذا بهيئته تُطيح بما رسَمتُه له من صورٍ من خلال الروايات التي سمعتُها عنه ووصفِهم إياه بالشيخ.. لم ألحَظْ في الوهلة الأولىٰ لرؤيته، إلا بساطتَه وتواضُعَه الأصيل بالفعل مع ابتسامته الوَدودة، وقدَّرتُ أن عمره تَجاوز الستِّين بقليل». بعد هذا كتبَت عمَّا يَعْنينا هنا: «ولما لم أكن أعرفُ مِن الجلساء أحدًا، فقد كنتُ أُخفي خجَلي بالنظر إلىٰ الكتب التي لاحظتُ أنها تملأ جُدران الرَّدْهة المواجِهة لي. مجلَّدات بأجزاء كثيرة، وعناوين لم أسمع عنها في متابعاتي لتاريخ العربية ورِجالاتها..» ووصَفَتها في الصفحةِ التي تليها بـ«الهائلة»[3].

يكتبُ عنه بعد وفاته تلميذُه الدكتور عبدالقدوس أبو صالح قائلًا: «كنتُ أتردَّد.. علىٰ منزله العامر في معظمِ أيام الأسبوع، أمكثُ فيه من العصر إلىٰ جُنْح الليل، أُفيد من مكتبتهِ العامرة وعِلمه الغزير. وربما قصَدتُه في الضحىٰ والمساء..

---

(١) قصة مكتبة، ص٦٨.

(٢) قراءة في دفتر قديم، ص٢٥.

(٣) محمود محمد شاكر (قصة قلم)، ص١٣٠-١٣١.

حتىٰ كأني أصبحتُ فردًا في أسرته، دون أن أجدَ منه تثاقلًا أو إعراضًا. بل كان -رحمه الله- لا يتردَّد في مُناولتي أيَّ كتاب أطلبه، إذا لم يكن في غرفة مكتبه، فهو يأتي به من إحدىٰ الغرف الداخلية التي امتلأَت برُفوف الكتب». ولمَّا تحدَّثَ عن بَرنامجِهِ اليومي قال: «... ثم تأتي فترةُ القراءة حيث يستلقي الشيخ علىٰ أريكةٍ طويلة بعد أن يختار أحدَ الكتب من مِنضدة طويلة تتوسَّط قاعة الجلوس، وقد اختلطَ فيها أنواعُ الكتب ما بين تراثيٍّ قديم ومعاصرٍ جديد، وما بين كتبٍ لُغوية وفكرية، وما بين دراسات أدبية أو دَواوينَ شعرية»[1].. وعن طريقته في القراءة أنه «كان لا يقرأ في كتابٍ واحد غالبًا؛ حتىٰ ينفيَ عن نفسهِ المَلالة، فيقرأ حتىٰ إذا أخذه المللُ من كتاب، انتقَل إلىٰ غيره، ثم يعود إلىٰ ما كان يقرأ وهكذا»[2].

كانت مكتبةُ شيخ العربية تحوي من النفائس ما لا يوجد في غيرها، وقلَّما يَفتح أحدُ زوَّارِه كتابًا فيها إلا ويجد لأبي فِهر تعليقًا هنا أو هناك؛ لذلك كانت مكانتها عظيمةً في نفسِه. نقرأ في (ظلِّ النَّديم): «ومكتبةُ شيخنا كانت من المكتباتِ الباذخة النفيسة.. هذه المكتبة عَلِقَت بها أنفاسُ محمود شاكر، وكانت مُعتكَفَه في هذه الحياةِ الدنيا، يهَبُها وقْتَه وعمرَه وضوءَ عينَيه وحرائق فِكره ولهفته في البحثِ والتمحيص، يُفاتش أوراقها ويُمِدُّها بزادٍ لا عِدْل له من التعليقاتِ والحواشي والتصحيحات في كل فنٍّ كُتب بهذا اللِّسان العربي في الشعرِ واللغة، والأدب والبلاغة، والتفسير والحديث، والفِقه والتاريخ، والمنطق والفلك والطب، والمِلَل والنِّحَل والعقائد!

تحملُ مجلداتُها العتيقة عمرَه، فتلمس الكتابَ فيتَخلَّجُ بالحياةِ بين يدَيك، فها هي أنفاسُ أبي فهر تُطلُّ عليك في مَراياه الورقية، وهذا وقْعُ قلَمِه علىٰ أوراق

---

(١) العدد السادس عشر من مجلة الأدب الإسلامية، ج٤، ص٩-١٠.

(٢) ظل النديم، ص٦٩.

الكِتاب، وهذه تعليقاتُه يومَ كان يحتشد احتشادًا لِيَجْلوَ عن قلبهِ طِلَّسْماتِ الشك والحيرة في رحلتِهِ الكبيرة الطويلة المثْقَلة بالجراح والنصَب وأشواك الأسئلة؛ للوصولِ إلىٰ سِرِّ البيانِ الذي امتنَّ اللهُ تعالىٰ به علىٰ الإنسان، والنَّفاذ إلىٰ غيب الحقيقة التي تناثرَت بين يدَيها أهوالٌ مُضنيةٌ حالكةُ السواد، أذِن الله بزوالها، وأطلَّ قلقُ اليقين علىٰ قلبهِ المتوقِّد وعقله المشتعل!.. فهي تاريخٌ وروح، وعمرٌ حيٌّ قد ارتحَل صاحبُه، وميراثٌ باذخٌ يقوم عليه هذا البيت!»[١].

لذلك كانت زوجُه أمُّ فهر رحمها الله مُدرِكةً لقيمة المكتبة «ومنزلتِها في نفسِ الشيخ، وتجلَّىٰ ذلك واضحًا بعد أن انتقل الشيخُ إلىٰ رحمةِ الله، حيث بقيَت مُحافظةً عليها أكثرَ من عشرِ سنوات علىٰ الرغم من العُروضِ المالية المغْرِية ممَّن يرغبون في الظفَرِ بها، دُفِع لها ما يَزيد علىٰ مليون جنيه، وأعرف ممَّن كان حريصًا علىٰ اقتنائها الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ[٢]، والشيخ جمعة الماجد صاحب مركز ومكتبة جمعة الماجد في دُبي. ومع هذا الإغراء المالي كانت ترفض كلَّ ما عُرض عليها ثمنًا للمكتبة، وفي إحدىٰ زياراتي لمنزل الشيخ ومكتبته؛ سألتُها عن سبب تمسكها بالمكتبة، فردَّت عليَّ بعبارةٍ تفيض بالوفاء للشيخ حينما قالت: (دي المكتبة روح الشيخ، وما دامت موجودة، فالشيخ موجود). ومن هذا المنطلق بقيَت المكتبة إلىٰ يومِنا هذا، وهي الآن بين يدَي ابنه الدكتور فِهر وابنته زُلفىٰ، وكان ابنه فهر يطمح في أن يوجَد مَن يُحقِّق تطلُّعَه في إقامةِ مركزٍ علمي باسم والده يضمُّ

---

(١) ظل النَّديم، ص٥٢.

(٢) الشيخ صالح ممن عُرِف بعشق جمع الكتب، ويُذكر بأن مكتبته من أكبر المكتبات الخاصة في العالم العربي، وقد قرأتُ في مذكرات زيد بن عبدالعزيز بن فيَّاض، ج٢، ص٦٣٣ أن مكتبته -أي الشيخ صالح- عام ١٤١١هـ كانت تضم ٣٠ ألف كتابًا، واليوم بعد مضيٍّ ثلاثة عقود علىٰ هذا التاريخ كم تضمُّ يا ترىٰ؟ وفقه الله وزاده من فضله.

مكتبته، ولكنه لم يجد مَن يُلبي طموحه وطموح أخته»[1].

* * *

ومكتبة شيخ العربية التي تملأ كلَّ جدران شقَّته تُحرِّض ذاكرتي علىٰ إثبات ما قرَأتهُ قريبًا عن رجلٍ غريب لا أظن بأن اسمه قد طرَق سمْعَ كثيرين. كان أعلىٰ بيت هذا الرجل وأسفله ومدخله وحُجَره ونوافذه كلها ملأىٰ بالكتب!

هو أنطون ماكليابيشي (١٦٣٣-١٧١٤) من مدينةِ فلورنسا، خدَم أولَ أمره في دكانٍ فاكهانية وأخذ ينظر في الأوراقِ التي تُصَرُّ بها الفاكهة فوقَع في نفسهِ أن يتعلَّم القراءة، فاتصل بكتبي ولم يَعْدِم من يُعلِّمه، وكان ذا ذاكرةٍ قوية، ما حفظ شيئًا ونسيه. وحفظَ أسماء الكتب ومَظانَّها حتىٰ أصبح عبارةً عن مكتبةٍ سيَّارة ثم اتصل بالغراندوق (كوْسم الثالث) وجعله قيِّمًا علىٰ كتبه ولم تكن هذه الكتب لِتَشفيَ مطامعه، بل أخذ يُطالع فَهارس المكاتب الأوربية مطبوعها ومخطوطها ويسأل كبار العلماء السيَّاح عن نوادرها حتىٰ صار يَعرف كلَّ دقيقٍ وجليل من أحوالِ الكتب. ولم تكن له عنايةٌ بهِنْدامه ونظام معيشته، بل كان في ليله ونهاره مستغرقًا في أسفاره. وهو غريبٌ في خُمولهِ حتىٰ كان يأكل في الغالبِ بَيضًا وخبزًا وماءً -والخبز والماء أكلُ العلماء كما قيل-. وقد أراده البابا والملك أن يمتثلَ بين أيديهما فتجاهلَ ما أمَرَا به وعاش علىٰ كسلهِ إحدىٰ وثمانين سَنة، وأوصىٰ بمكتبتِه لبلده وكانت تبلغ ثلاثين ألفَ مجلَّد، وجعل لها موردًا تعيش به، وما زالت معروفةً به إلىٰ الآن. وممَّن ذُكِر عنه طريقتُه الغريبة في القراءة؛ كان إذا أخذ كتابًا لم يكن طالعَه من قبل، ينظر في فِهرسه ومُقدمته ويتصفَّح أوائلَ فصوله، وبعد دقائق يقول

---

(١) العلامة محمود محمد شاكر كما عرَفته، ص٤٤-٤٥. ولمَّا سألها الشيخ وجدان العلي السؤال ذاتَه، أجابت: «لقد قلتُ لهم: إن ذَهابَ المكتبة عندي أعظمُ علىٰ قلبي من ذَهاب صاحبها، فما دمتُ حيَّةً فلن أفعل ذلك، فإذا متُّ فأنتم وما تريدون!». [ظل النديم ص٥٢].

لك رأيه في موضوع الكتاب والمصادر التي أخَذ منها مؤلفُه، ولا ينسىٰ ذلك علىٰ الدهر[1]!

وطريقتُه في مطالعةِ الكتب ذكَّرَتْني بمطالعةِ يحيىٰ، ذلك الشابِّ السوري الذي كان يَقطُن الغرفة المجاورة لغرفة هشام شرابي. يكتب عنه في سيرته: «كان يحيىٰ تلميذًا كَسولًا قَلَّما يحضر المحاضرات، وخاصة إذا كانت في الصباح. لكنه كان مأخوذًا بالقراءة إلىٰ حدِّ الهوَس. وكانت لديه مكتبةٌ ضخمة، ملأَت غرفة النوم الصغيرة. كان يُطالع الكتب وهو يُدخِّن السجائر الواحدة تلوَ الأخرىٰ. كلما نزل إلىٰ البلدِ في عُطلةِ آخِر الأسبوع عاد مُحمَّلًا بالكتب الجديدة، وكان يشتري الكتبَ أيضًا خلال الأسبوع من مكتبةِ خياط، مقابل الجامعة في شارع بلس. كان من عادةِ يحيىٰ ألَّا يُنهيَ قراءةَ كتاب أو تدخينَ سيجارة، يضع السيجارة بين شفَتَيه وينساها إلىٰ أن تحرقَهما. وكان يقرأ الكتابَ في صفحاتِه الأولىٰ، متوقفًا بين الفترة والأخرىٰ ليُعلن أنَّ هذا هو أعظمُ كتاب قرأه في حياته، وبعد حينٍ يُلقيه جانبا!»[2].

وجان جاك روسُّو كان يقول إن المطالَعة أثناء الأكل كانت لذَّتَه علىٰ الدوام. ويشرح طريقتَه قائلًا: «ألتهمُ صفحةَ كتاب وشيئًا من الطعام، وكأنَّ كتابي يتغدَّىٰ معي!»[3].

وأما الشاعر أمل دنقُل فتكتب زوجته عبلة الرويني عنه: «يبدأ في قراءةِ الكتاب فلا ينام حتىٰ الانتهاء منه، أو إذا غالبَه النوم يضعُ الكتاب مفتوحًا أمام عينَيه حتىٰ إذا استيقظ خلال نومه المتقطِّع، يُواصل قراءته؛ ولهذا لم ينَمْ سوىٰ في الضوء دائمًا.. بل كانت قراءته تأخذُ أوضاعًا غريبة؛ مرةً وهو مُمدَّد بعرض السرير بينما الكتاب

---

(١) مقال [الجنون بالكتب]، مجلة المقتبس، العدد ٢ / ١ فبراير ١٩٠٦.

(٢) الجمر والرَّماد (ذكريات مثقف عربي)، ص٤٨.

(٣) الاعترافات، ص٣٨١.

مفتوحٌ علىٰ الأرض!»[1].

وعلىٰ ذِكْرِ أمل دنقل، من الطرائف ما كتبَهُ المسيري عنه في رحلتِهِ حيث يقول: «وقابلتُ المرحوم أمل دنقل عدةَ مرات، وكان يرفض أن يُحيِّيَني كلما تقابلنا دونما سببٍ واضح؛ إذ إنني لم أُسِئ إليه قط، بل ولم أكن أعرفُه. ولكني فوجئتُ به ذات مرة يُحيِّيني بحرارةٍ بالغة، وقال إنه كان يظن أنني عميلٌ أمريكي لأنني تعلَّمتُ في الولايات المتحدة!»[2].

ومن أغربِ القرَّاء علىٰ الإطلاق المتزمِّت جوزيف جوبير الذي وصف شاتوبريان عادةَ المطالعة لديه بقوله: «عندما يقرأ، يُمزِّق من الكتبِ الصفحاتِ التي لا تروق له، وهكذا أصبح لديه مكتبةٌ لاستخدامه الخاص، مؤلَّفةٌ من كتبٍ مفرَّغة، محصورة داخل مجلدات فضفاضة»[3].

وهنا نذكر ما كتبَهُ الفيلسوف الألماني هانز غادامير عن الفيلسوف الألماني أيضًا ماكس شيلر الذي تميَّز -كما يقول- بنهمٍ عظيمٍ للفكر. فاقتحَم كلَّ ما يمكن أن يُغذِّيَه، وامتلكَ طاقةً تنفُذ إلىٰ جوهرِ كلِّ شيء. قال بأنه مما يُروىٰ عنه أن «قراءاته كانت تستبدُّ به لدرجة أنه يُمزِّق صفحاتٍ من الكتاب الذي يقرأ فيه ويدسُّها في يدَيْ من يراه من زملائهِ لِيُجبره علىٰ مشاركته القراءة! ولهذا يُقال إنه استخدم نسخًا عديدة من كتاب نيكولاي هارتمان (ميتافيزيقا المعرفة)، الذي كانَ باهظ الثمن»[4].

---

(١) الجنوبي، ص٧٠.

(٢) رحلتي الفكرية، ص٦٧٢.

(٣) في غابة المرآة (دراسة عن الكلمات والعالم)، ص٣٨.

(٤) التلمذة الفلسفية (سيرة ذاتية)، ص٨٠-٨١.

والشاعر الإنكليزي شيللي كان إذا أراد أن يقرأ هيرودوتس تعرَّىٰ وجلسَ علىٰ صخرةٍ جرداء، وأخذ يقرأ حتىٰ يتوقفَ العرق عن التصبُّب[1]!

وأظن القارئ الكريم يعلم مسبقًا أن هنري ميلر قرأ بل التهمَ في فترةِ شبابهِ الكلاسيكيات الممنوعة وهو في الحمَّام؛ لأنه كان المكانَ الآمن علىٰ حدِّ قوله[2]!

أما شيخ العروبة أحمد زكي باشا فإنه لمَّا بنىٰ مسجدًا في الإسكندرية، حفر فيه قبرًا أعدَّه لنفسه، والذي حصل بعد ذلك أنه كان يتمدَّد في قبره المنتظَر ويقرأ الكتب[3]!

ويُذكر عنه أيضًا أنه كان يؤثِرُ القراءة واقفًا -كما يقول عنه طه حسين- فلا يكاد يبدأ القراءة حتىٰ يندفعَ فيها وينسىٰ نفسه[4].

ولعلَّ الناقد العالمي هارولد بلوم كان ذا طريقةٍ لافتة في القراءة؛ فإن زميله أستاذ الفلسفة في جامعة ييل البروفيسور ريتشارد بيرنشتاين قد قال عنه بأن «مُشاهدته وهو منهمكٌ بالقراءة تجربةٌ تبعث علىٰ الرُّعب». وبلوم وصف نفسه يومًا بأنه: «وَحْش قراءة، ويستطيع قراءةَ واستيعاب كتابٍ بأربَعِمائة صفحةٍ في ساعةٍ واحدة!»[5].

بل كان بلوم منذ صِغَره ذا شأنٍ عجيبٍ مع القراءة؛ فإننا نجد في طفولتهِ أنه كان يقرأ الكتبَ وهو جالسٌ علىٰ أرضية المطبخ حيث كانت أمُّه تطهو الطعام، حتىٰ إنها كانت تتعثَّر به أحيانًا أثناء تحرُّكِها فتربت علىٰ رأسه فيشعر بطاقةٍ قوية ودفءٍ غامر. ولم ينسَ كلمة مما قرأه وهو جالسٌ أسفل قدمَيها، فلما ماتت شعر بألمٍ عظيم، ولم

---

(١) تاريخ القراءة، ص١٧٩.

(٢) الكتب في حياتي، ص٣٧٣.

(٣) أخيار وأشرار وظُرفاء وثقلاء، ص٢١٢-٢١٣.

(٤) أحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة، ص٢٧٣ - أنور الجندي.

(٥) إضاءة العتمة (أفكار ورُؤىٰ)، ص١١٠.

تُسلِّه غيرُ تلك النصوص التي استوعبها في المطبخ[1]!

وإذا تصفَّحْنا سيرة سومرست موم وجدناه يعترف قائلًا: «أُقرُّ أنني قارئٌ سيئ، أقرأ ببُطء، ولا أقوىٰ علىٰ القفز، ويصعب عليَّ أن أترك كتابًا قبل أن أُتمَّه مهما كان سيئًا أو مُضايقًا[2].

وموم هنا يقول: لا أقوىٰ علىٰ القفز، ولم يستثنِ الروايات أو غيرَها في قوله، ولكنه في تعليقهِ الموجز الذي رافق تلك الروايات العشر التي تحدَّث عنها في مقالاته بعد أن طلب منه محرِّرُ (Redbook) كتابةَ قائمةٍ بأفضل عشر روايات في العالم من وجهةِ نظرِه. يقول في تعليقه: «القارئ الذكي سيحصل علىٰ متعةٍ أكثر من قراءتها إذا تعلَّم فنَّ القفز المفيد!»[3].

علىٰ أيةِ حال أنا أرىٰ أن تؤخَذ نصيحةُ روبنز أستاذ جلال أمين بعين الاعتبار، وهي أنه لما ذكرَ لجلال كتاب شومبيتر في تاريخ التحليل الاقتصادي، وهو -كما يقول جلال أمين- كتابٌ مشهور ويتمتع بتقدير الجميع، ولكنه يحتوي علىٰ ١٢٠٠ صفحة من الحجمِ الكبير والبُنط الصغير. سأل أستاذه: «كل الكتاب؟» فأجابه إجابةً بقيَت عالقة في ذهنهِ لم يمحُها كَرُّ الدهور: (يجب أن تتعلَّم كيف تقفز في القراءة! You-have to learn how to skip!)[4].

* * *

بعد هذهِ الزيارات الخاطفة لبيوت بعض الأعلام -مع ما تخلَّلَها من استطراداتٍ أرجو أن تكون ماتعة لا مُملَّة، مُكمِّلة لا مُخِلَّة-، والتي كشفَت عن قيمةِ الكتاب

---

(١) في خندق واحد، ص١٨٠.
(٢) عصارة الأيام، ص٩٨.
(٣) روائيون عظام ورواياتهم، ص٥.
(٤) ماذا علمتني الحياة، ص١٥٠.

والقراءة لديهم، أطوي آخِرَ صفحةٍ من هذا المقال بكلمةٍ بديعة لعبدالله كنون، يقول فيها: «وأعظمُ مظاهرِ عبقريَّة الشَّعب ونبوغه هي كتبُه ومنتجات عقول أبنائه. فالكِتاب إذن هو باعثُ الحركة الأدبية ودليلُ الحيوية الفكرية في كلِّ عصر وفي كل جيل. والمكتبة هي مَعبد الفِكر ومُعْتكَف المفكرين، وهي المعمل الذي تُصنع فيه العقول وتُصاغ الأذواق»[1].

(١) واحة الفكر، ص٤٤.

الينبوع الأصلي

«سيطِرْ عليّ الكُتب ولا تجعلها تسيطرُ عليك. اقرأْ لتعيش ولا تعشْ لتقرأ».
[إدوارد بولور ١٨٠٣-١٨٧٣][١].

(١) عالم الكتب والقراءة والمكتبات، ص٢٢٩.

مُحدِّثك أيها الكريم، وُلِدَ ونشأَ وأيْفعَ وشبَّ واكتهلَ -ولعلَّه سيَشيخ إذا قُدِّرَ له أن يشيخ- في قريةٍ صغيرةٍ نائيةٍ عن كُلِّ معنًىٰ ظاهرٍ من معاني النهضةِ والحضارة. قريةٌ لا تَعجبُ إذا رأيتَ بجانبِ عددٍ لا بأس بهِ من بيوتِ أهلها (حوشًا أو شبكًا للغنم). قريةٌ جُلُّ أهلها من مُلَّاك الإبل الأصيلين، وليسوا من رجال الأعمال الذين ينظرون إليها بعينِ التِّجارة. ولا تخلو عائلةٌ تسكنها اليوم ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م من علاقةٍ تربطُهم بالإبل؛ سواءٌ أكانت هذه العلاقة حديثةً أم تاريخية. ويندرُ أن تدْلِفَ إلىٰ أحدِ مَجالسها وتأخذَ مكانك منه حتىٰ تَطْرب لأخبار البادية والصحراء وأحوالِ الإبل ومَراعيها.

انتبه! قبل أن يُلقيَ بك فَهمُك في مَهاوٍ سحيقة لمعانٍ فاسدةٍ لم أَهدُفْ إليها؛ اعْلَم أنَّ هذه القرية بالنسبةِ لي مَفْخرةٌ خالدة، وقد رُبيتُ في كنفِها علىٰ كل معاني العِزة والإباء والشَّمَم والسخاء، واكتسبتُ من كبارها الذين لم يبقَ منهم أحدٌ يدبُّ علىٰ الأرض اليوم -رحمهم الله جميعًا- السَّمْتَ والاحترام والأدبَ في الكلام.

قدَّمتُ بما قدَّمتُ عن حال قريتي لأوضِّح لك أنني قادرٌ بل أحقُّ من غيري -بعد أن وُفِّقتُ لقطفِ ثمرةٍ صغيرة من بُستان المعرفةِ الذي لا حدَّ له- لإدراك فضلِ وقيمة القراءة والكُتب وما توفِّره من الثقافةِ والعِلمِ.

لذلك، سأحرِص في هذا المقال علىٰ زرْعِ فكرةٍ قديمة/ جديدة في رأسك، وهي أن الكُتب لن تُقدِّم لك كلَّ معرفةٍ تحتاج إليها في الوجود، وأنَّ معارف الوجود ليست محصورةً في الكتب.

وأرغب في البداءة أن أُقدِّم بقصةٍ أنقلها عن سومرست موم ذكَرَها في سيرتهِ، وإن كان سياقُ إثباته لها هناك مختلفًا عمَّا أريده هنا، ويذكر موم أنه قرأها في مجلدٍ من مجلدات أناتول فرانس (الحياة الأدبية La Vie Literaire). وزُبدتُها كما رواها:

«ارتقىٰ العرشَ مرةً ملكٌ شرقي شاب، وكان توَّاقًا إلىٰ أن يُقيم العدلَ في الناسِ فأرسلَ إلىٰ حكماءِ القوم، وأمرَهم أن يجمعوا حِكمة العالم في كتبٍ حتىٰ يتمكَّن من الاطلاعِ عليها فيسلكَ سواءَ السبيل، وانصرفوا ثم عادوا إليه بعد ثلاثين سنة مع قافلة من الجمالِ تحمل خمسةَ آلافِ مجلد، وقالوا له: لقد جمعنا هنا كلَّ ما عرَفَته الحكماء عن التاريخ ومصير الإنسان، ولكن الملك كان مُنهمِكًا في أمورِ الدولة لا يستطيع أن يقرأ كلَّ تلك الكتب، فأمرهم أن يختصروا هذه المعرفة في عددٍ من الكتب أصغَر. وعادوا بعد خمس عشرة سنةً وجمالهم تحملُ خَمسمائة كتاب فقط، وقالوا: أيها الملك تجدُ في هذه الكتب كلَّ ما في العالم من حكمة، ولكن الكتب كانت كثيرةً فأعاد الملك الحكماء ليختصروها، ومرَّت السنون وعادوا بما لا يزيد عن خمسين كتابًا، وكان الملك مُتعبًا هرِمًا ولم يكن وقتُه يسمح بقراءة حتىٰ هذه الكتب القليلة، فأمر الحكماءَ بأن يختصروا الكتب ويجمعوها في كتابٍ واحد يُعطيه جوهرَ المعرفة الإنسانية حتىٰ يعرفَ أخيرًا ما ينبغي أن يعرفه. وانصرفوا وتابعوا عملهم وعادوا بعد خمسِ سنوات وكانوا قد أسَنُّوا وهَرِموا ووضعوا نتيجةَ جهودهم في يدِ الملك ولكن الملك كان في ساعةِ الموت وليس في مقدوره أن يقرأ الكتاب الذي أحضروه»[1].

ولن أُعلِّق علىٰ هذهِ القصة، وللقارئ الحصيف الحريةُ الكاملة في إدراجها في سياقٍ مناسب، وأن يستخرج الفائدةَ من إثباتي لها هنا.

* * *

(١) عصارة الأيام، ص٢٥٢.

أربأُ بعقل النابِه الفطِن أن يُحوجني إلىٰ الإطنابِ في الحديثِ عن فضلِ القراءة والكتب ومكانتِها؛ لأن هذا مِن الأمور المعلومة الواضحة التي يكون في شحْذِ الأدلةِ لإثباتها استهانةٌ بمدارك القارئ.

لذلك سأنفُذ إلىٰ عُمق ما أُريد دون أيِّ مقدماتٍ احترازية.

ظنَّ كثيرٌ من الناس أنَّ في الكتبِ ما يحتاج إليه الإنسان لمعرفة كُلِّ شيء في الحياة، وأنَّ القارئَ النَّهِم لا بد أن يكون عالمًا بكلِّ حقائق الوجود. وهذا الظن هو الذي أورث عالمَ القراءة هالةً مقدَّسةً لا حقيقة لها، وأوقع بعضَ القُرَّاء في درَكات الكِبْر المُهلِكة، ودفَع بآخَرين إلىٰ الانكفاءِ علىٰ أنفسهم والاكتفاءِ برفوفِ مكتباتهم.

ولعلَّك عرَفْتَ كما عرَفتُ أو لقيتَ كما لقيتُ قُرَّاءً يوصَفون بـ(الكِبار)، وبعد استنطاقهم في شؤونٍ حياتيَّةٍ كثيرة؛ تبدَّىٰ لك قِصَرُ نظرتهم وقلَّةُ حكمتهم، وأبصرتَ واحِدَهم لا يُجيد غيرَ الاقتباس من الكُتب، وترديدِ أقوال الكُتَّاب، واستحضار عُنوانات التواليف التي قرأها!

والسبب في هذا قصرُ تجرِبته -بكسرِ الراءِ لا ضمِّها- في الحياة، وضعفُ التجرِبة يورثُ الغفلةَ في الواقع والجهل بالناس.

وأنا هنا لا أحاول الفصلَ في أيُّهما أفضلُ؛ المنغمسُ بالحياة أم الغارقُ في الكتب؟ بل أريد الإشارةَ إلىٰ حال ذلك الذي اكتفىٰ بالمجلداتِ ظنًّا منه أنها توصله إلىٰ المعرفةِ الشاملة الهادية إلىٰ التصرُّف السليم والرأي الحكيم في دنياه الفانية.

والذي عليهِ رأيي فيما يخصُّ الاكتفاءَ بالتجارِب أم بالكتب هو ما قال العقادُ رحمه الله: «ولا تُغني الكتبُ عن تَجارِبِ الحياة، ولا تُغني التجارِبُ عن الكتب؛ لأننا نحتاج إلىٰ قسطٍ من التجرِبة لكي نفهمَ حقَّ الفهم. أما أنَّ التجارب لا تُغني عن الكتب، فذلك لأن الكتب هي تَجارِبُ آلافِ من السنين في مُختلفِ الأمم والعصور،

ولا يمكن أن تبلغ تجرِبةُ الفرد الواحد أكثرَ من عشرات السنين»[1].

فالجمع بين الاثنين هو المنهج القويم.

ولذلك نجد فدوىٰ طوقان التي تصفُ نفسها بأنها كانت «قارئةَ كتبٍ شرهةً»، بل (دودة كتب) تقرأ كلَّ ما يقع في يدها[2]، تكتب معترفةً وناصحة بعد أن أدركَت ضرورة التجرِبة وأهميةَ اقتحام العالم الخارجي: «حين خرَجتُ إلىٰ الحياةِ كنتُ عَزْلاء من سلاحِ الخبرة ومعرفة الناس، فكانت المواجَهةُ مُتعِبة صعبة يُعوِزُها التكافؤ. إن الكتب وحدها لا تكفي كمصدرٍ لمعرفةِ الحياة وما في العلاقاتِ البشرية من تعقيدٍ وتصادُم. علينا أن نَحْيا في الحياةِ ذاتِها، فتَجارِبُنا الخاصة تظلُّ هي الينبوعَ الأصلي لتلك المعرفة»[3].

ومثلُ حال فدوىٰ كان موم الذي عندما شعر بضآلةِ ثقافته وأحسَّ إحساسًا عميقًا بجهلِهِ أخذ يقرأ دون توقُّف وفي كل الفنون، ولكنه في لحظةٍ حكيمة انتبَه إلىٰ ضرورةِ الاختلاط بالناس واستكشافِ عالمهم، فيقول عن هذا: «ولم أتخلَّ عن الكتبِ إلا لأنني شعرت بأنَّ الزمن أخذ يمضي وبأنَّ عليَّ أن أعيش. لقد انخرَطتُ في العالَمِ لأن ذلك كان خِبرةً لا بد منها لممارسةِ الكتابة، وكذلك لأنني رغبتُ في أن أخوض التجرِبةَ لذاتها، ولم أكن لأكتفيَ بأن أكون كاتبًا فقط. الخُطَّة التي وضَعتُها لنفسي حتَّمَت عليَّ أن أفعل أقصىٰ ما أستطيع لأقومَ بدوري الرائع كرجلٍ في هذا الوجود، لقد رغبتُ أن أُقاسيَ الآلام المشتركة، وأستمتعَ باللذائذ المشتركة التي هي جزءٌ من المصيرِ الإنساني المشترك. ولم أجد مُبرِّرًا لإخضاعِ دواعي الحسن لنداء الروح المغري وصمَّمتُ علىٰ أن أبلغ غايةَ ما أستطيعه من مخالطةِ الناس، ومن

---

(١) أنــا، ص٧٢.

(٢) رحلة جبلية، رحلة صعبة، ص١٥٣.

(٣) رحلة جبلية، رحلة صعبة، ص١٥٨.

الطعامِ والشراب، ومن العلاقات الاجتماعية... والرياضة، والفن، والسفر، ومن أي شيء... ولكن ذلك تطلَّبَ جهدًا، وكنتُ دائمًا أعود مرتاحًا إلىٰ كتبي وصُحبة نفسي»[1].

* * *

ولم نصل إلىٰ مرحلةِ التطرُّف فنُنكِر فائدةَ ما نقرؤه في الكُتب من خبراتٍ ووصايا لفهمِ بعضِ أمور الحياة، ولكننا نَحثُّ علىٰ الاعتدالِ في الاستقاء من الاستفادة، ونُلمِحُ إلىٰ أنَّ الاعتماد علىٰ نظرِ غيرِنا في فَهْمِ حياتنا الخاصة قد يَقْضي شيئًا فشيئًا علىٰ تفرُّدِ ذواتنا واستقلالِ شخصياتنا.

وهذا هو الذي عَناه كافكا في جزءٍ من نصيحته التي قدَّمها لغوستاف يانوش ابنِ أحد زملائه الذي كادَ لُعابه يسيل لمَّا رأىٰ كتبًا معروضةً في واجهةِ إحدىٰ المكتبات، فقال له كافكا بعد أن شاهد هُيامه الواضح بالكتب: «إذن أنت الآخَرُ من مُحبِّي الكتب الذين تُحرِّكُ القراءةُ رؤوسَهم يَمْنةً ويَسْرة»، فأجاب يانوش: «نعم، أعتقد أنني لا أستطيع العيشَ دون كتب، إنها بالنسبةِ إليَّ العالَمُ بأسره».

قطَّب كافكا بعد هذه الإجابة جَبينه، ثم هدأ ونطق بكلماتٍ حكيمةٍ ولهجةٍ مشفقةٍ ناصحة، وكاشفَ الشابَّ برأيِهِ حول الفصل بين عالم الكتب والواقع المَعيش. وزُبدة وجهة نظرِه أن «الكتاب لا يمكن أن يُعوِّض العالَم، هذا مستحيل. إن لكلِّ شيءٍ في الحياةِ معناه ووظيفتَه الخاصة التي لا يُمكن أن تُشغَل بالكامل من قِبَل شيء آخَر. فالمرء -علىٰ سبيلِ المثال- لا يمكن أن يعيش حدَثًا عبرَ شخص آخر. هذا هو الحال بالنسبةِ إلىٰ العالم والكتاب» فأَنْ نحبس أنفُسَنا في عوالم الكتب؛ يعني حبْسَ حياتنا، مثل طائر يُغرِّد داخل القفص بلا فائدة[2]!

---

(١) عصارة الأيام، ص٩٨.

(٢) تاريخ القراءة، ص١١٠ بتصرُّف.

وللروائيِّ الفرنسي مارسيل بروست كلامٌ مُهم حول خطرِ القراءة، يقول: «ما دامت القراءةُ بالنسبة إلينا هي المحرِّضَ الذي تَفتح مفاتيحُه السحرية في أعماقِنا أبوابَ المساكن التي لم نعرف الدخولَ إليها؛ فدَورها صحيٌّ في حياتنا. ولكن، علىٰ العكسِ من ذلك، يُصبح دورها خطيرًا عندما تحلُّ محلَّ الحياة بدلًا من أن توقِظَ فينا الحياةَ الشخصية للعقل، وعندما لا تعود الحقيقةُ تبدو لنا كمثالٍ لا يمكننا تحقيقُه إلا بالتقدُّم الحميم لتفكيرنا وبجهدِ قلوبنا، ولكن كشيءٍ ماديٍّ، موضوع بين أوراقِ الكتب كعسلٍ صنَعه الآخَرون وليس علينا إلا عَناءُ تناوُلِه من رفوفِ المكتبات العامة، ثم تذوُّقُه بشكلٍ غير فاعلٍ في استرخاءٍ تامٍّ للجسم والعقل!»[1].

* * *

لا ينبغي أن نُكلِّف الكتبَ ما لا تُطيق؛ فإن مَنْفعتها مهما بلغَت فلن تُمكِّن الفرد من اكتشاف معادن البشر، ولن تُوفِّر له المعرفةَ الكافية الشافية عن خَلائقِ الناس، ولن تُظهِرَ له الواقعَ كما يبدو حقيقة، ولن تُساعده في فحصِ قدرته علىٰ تَحمُّلِ نوائب الأيام، وفوق هذا كلِّه فإنها ليست الموردَ الوحيد للثقافة ونِتاج الأفكار.

يكتب الأستاذ إيليا حليم حنًّا في مقالٍ له عن القراءة في مجلَّةِ الرِّسالة: «والكتاب وحدَهُ لا يصل بنا إلىٰ النموِّ العقلي والنفسي إلا إذا مزَجْنا قراءاتنا بتأمُّلاتنا وخبرتنا وتجارِب الغير وما يجري معنا وحولنا كلَّ يوم وكلِّ ما نراه في الطبيعةِ ويقع تحتَ حسِّنا وإدراكنا. فكلُّ هذه كتبٌ مفتوحة يجب ألا نُهمِلَها عندما نقرأ ونفكر. قال جونسون: (مَن يتصوَّر أن الأفكار لا توجد إلا في الكتبِ وأنَّ في الكتب كلَّ الأفكار، فما هو إلا واهمٌ. الأفكار تجري مع الأنهار، وتطفو علىٰ وجه البحر، وتتكسَّر علىٰ شواطئه، وتسكُن التلال والجبال، وتسطع مع

---

(١) أيام القراءة، ص٤٣.

نورِ الشمس، وتنسدل علىٰ أجنِحةِ الظلام. إن الأفكار موجودةٌ في كل مكان وزمان)»[1].

وتأكَّدْ أنَّ الشدائد -لا الكتب- هي التي تُظهِرُ حقيقةَ الأصدقاء وصِدْق مواقفهم، وأذكر ما كتبه عباس خضر في ذكرياتِهِ الأدبية عن قصةِ كَسْر رجله وما تعلَّمَه من تلك الحادثة، يقول: «إذا كان لبعضِ الشدائد فوائدُ فإنَّ ذلك الحادث الذي كُسِرَت فيه رِجْلي وما تلاه من اضطراري إلىٰ عُزلةٍ كرّهَتني في العزلة.. كان ذا أثرٍ لا من حيث القراءةُ والاطِّلاعُ فحسب، فالثقافة -كما نعلم أيضًا- غيرُ مقصورة علىٰ ما يُقرأ، فثَمة تجارِب الحياة وأهمُّها الشدائد. وهذه الشدة كانت (مِصْفاة) و(مِسْبارًا) لِمَن عرَفتُ من الناس علىٰ أني لم أرم (التَّفل) الذي تخلَّف في المِصفاة.. فقد تعلَّمتُ -فيما تعلمتُ- أن آخُذَ الناسَ علىٰ عَلَّاتهم، وإن كان لا بد من التمييز بين من نجَح بمجموعٍ كبير، ومن نجح بمجموعٍ أقلَّ ومن رسَب..»[2]، ثم ذكر أحد الذين نجحوا من أصدقائه وهو الدكتور عبده بدوي، وقد حصَل -كما يقول- علىٰ مجموعٍ لم يصل به إلىٰ مائةٍ في المائة بسببِ علَّةٍ فيه، والكمال لله، ومَن ذا الذي تُرضىٰ سَجاياهُ كلُّها؟!

وإن عارَض معارِضٌ وقال بأنَّ الكتب قادرةٌ علىٰ خلْقِ تصوُّرٍ كافٍ عن الناس، ووصْفِ صفاتهم وأخلاقهم، وأنك لستَ مُلزمًا أن تُعاشرهم لمعرفة كلِّ هذا عنهم. نقول له: وكيف ستكتشف حقيقةَ ما قرأته؟ نعم؛ ستجد نفسك مُضطرًّا إلىٰ مخالطتهم لتُدرِكَ هذا. وما الذي جعلَ لكتابِ ابن حزمٍ رحمه الله عن (الأخلاق والسير) ذلك الرَّواجَ الكبير والأثرَ الخطير في نفوسِ القرَّاء إلا لأنَّ مؤلفه كَتَبهُ بعد تجرِبةٍ طويلةٍ في العيشِ بين الناسِ، وفحصِ سلوكياتهم ودوافعهم.

---

(١) مقال بعنوان [القراءة وأصول الثقافة] في مجلة الرسالة/ العدد ٨٤٢ / ٢٢ أغسطس ١٩٤٩م.

(٢) ذكرياتي الأدبية، ص٨٣.

وقد يقول المعارِض الذكيُّ مرةً أخرىٰ: حسنًا، كتابُ ابن حزمٍ -وغيره كثير- عن أخلاقِ الناس مفيدٌ حتىٰ في زماننا هذا، وها نحن نعود إليها ونكتشف صدقَ فحواها، إذن، مرةً أخرىٰ الكتبُ كافية للقارئ!

نقول: أخلاقُ الناس وطبائعهم أعقدُ وأوسعُ من أن تضمَّها الكُتب، والمكتفي بتجارِبِ غيره مُعطِّلٌ لعقلهِ دافنٌ لتفرُّد شخصيته، ومع الأيام سيجد نفسَه عاجزًا عن القدرة علىٰ التقييم في كثيرٍ من مواقفِ حياته؛ وذلك أنه اعتاد الاتِّكاءَ علىٰ غيره ففقَد خاصيةَ النقد الذاتية المعينةَ له في فَهْمِ المسار واتخاذِ القرار.

والخلاصة سيجد القارئ الفطِن أن صفحات الكتب تدفعه دائمًا إلىٰ الخارج للتحقُّق مما فيها، وهذا يُحيلنا إلىٰ ما كتبه كراتشكوفسكي في ذكرياته عندما قال: «ولقد أدخلَتني الكتبُ إلىٰ عالمٍ جديد، وعرَضَت عليَّ أناسًا بطريقة أسهلَ وأسرع مما لو حاولتُ أنا بنفسي ذلك. وإنه من المفهومِ أنني كنتُ أشعر مع الكتب بحُريةٍ أكثرَ مما مع الناس. وهكذا دخَلَتِ الكتبُ في صراعٍ مع البشر، وما كان ذلك للمرة الأولىٰ في حياتي، وكان النصرُ حليفًا للكتب، وكان انتصارًا حاسمًا، كما يبدو لي، إلا أنَّ الحياة علَّمَتني أنه لا يمكن الفصلُ بين البشرِ والكتب، فمن جديدٍ وجَدتُ الكتب تُوجِّهُني إلىٰ البشر»(١).

* * *

ومن الإشكالات الكُبرىٰ التي تنتج عن فكرةِ أنَّ في الكُتب حقائقَ الوجودِ كلِّها؛ هي بزوغ طبقةٍ من البشرِ يظنون أنهم وحْدَهم المخوَّلون للحديثِ في كُلِّ شيء، وأنهم في مكانةٍ عاليةٍ فوق غيرهم، وأنَّ آراءهم هي المُعتبَرة والأصلُ في شتىٰ الموضوعات.

---

(١) مع المخطوطات العربية [صفحات من الذكريات عن الكُتُبِ والبشر]، ص٦١ - كراتشكوفسكي.

وهذه الطبَقة تحدَّثَ عنها موم كثيرًا في سيرته التي سمَّاها (الخلاصة The Summing up)، وعرَّبها الناقد والمترجم الفلسطيني حسام الخطيب بـ(عُصارة الأيام)، وترجمها بعد ذلك العراقي جعفر صادق الخليلي جاعلًا عُنوانها (تجرِبتي في الأدب والحياة)، وهي من أجَلِّ السِّيَر وأمتعِها لما فيها من شفافيةٍ في الطرح، وصدقٍ في القول، وسردٍ ماتعٍ لتَجرِبةٍ حافلة، وجُرأة متناهية في بَسْطِ الآراء، وكما قال البحَّاثة ريتشارد كوردل عنها: «هي خلاصةٌ لأفكاره في الأدبِ والفن والأخلاق والدِّين والدراما، مع إشاراتٍ من الحين إلىٰ الحين لبعض ملابسات حياته»[(١)].

كتبَ موم لمَّا رأىٰ تشدُّق هذه الطبقة المنتشرة في كثيرٍ من المجتمعات والتي تتباهىٰ بثقافتها وما استقَتْه من الكتبِ فترَفَّعت عن غيرها بكِبْرٍ وغرور: «يُخيَّل للمرء أن غرَض الثقافة لم يكن إلا لتمكين المرء من أن يُلبِسَ هُراءه لَبوسَ الرِّفعة والسُّمو!»[(٢)].

وهذا يُعيدنا إلىٰ قولٍ لإيليا حليم حنًّا في مقاله المشار إليه آنفًا عن القراءة: «والقراءة ليست غايةً في ذاتِها، وإنما وسيلةٌ للعيش عيشةً إنسانية سعيدة عندما ننتفعُ بما نُطالع انتفاعًا عمَليًّا يقودنا إلىٰ عمَلٍ مُتقنٍ وحياةٍ أفضَل. ولا فائدة من القراءةِ التي لا نبغي من ورائها إلا حشوَ رؤوسِنا لنظهرَ أمام الناس أننا ملَكْنا ناصيةَ العلم والثقافة»[(٣)].

ثم يذكر موم مِثالًا للنَّموذج الشائع لهذه الطبقة مُعرِّجًا علىٰ قيمةِ الثقافة الحقيقية، وأن معرفة الحقِّ وإدراكَ الجمال ليس حكْرًا لأحَد، يقول في كلامٍ نفيس:

---

(١) وقد تحدث عن خلاصة (الخلاصة) الكاتب علي أدهم في كتابه (فصول في الأدب والنقد والتاريخ)، ص٦٥-٧٥.
(٢) تجربتي في الأدب والحياة، ص١٩. والآتي سيكون مأخوذًا من ترجمة الخطيب لسيرة موم.
(٣) مقال [القراءة وأصول الثقافة].

«والتر باتِر كان مخلوقًا ضعيفًا، وليس من ضرورةٍ لأن نحكم عليه بعُنف، ولستُ أكرهه لنفسِه بل لأنه مثالٌ للنموذج الأدبي الشائع الممقوت، نموذجِ الشخص الذي أُشبع بغُرور الثقافة.

إن قيمة الثقافة تكمُن في تأثيرها علىٰ الشخصية، وهي لا تُساوي شيئًا ما لم تَسْمُ بالشخصية وتُمدَّها بالقوة. إن فائدتها مرتبطةٌ بالحياة، وهدفها الخير لا الجمال، وكثيرًا ما تبعثُ في نفسِ الإنسان رِضًا وسرورًا. ومن منَّا لم يرَ ابتسامةَ الباحث العريضة إذ يُصحِّح خطأً في روايةِ قولٍ مأثور، ونظرة الناقد الفني المتألمة إذ تمتدحُ أمامه لوحة لم يلتفتْ إليها من قبل؟ ليس لقراءةِ ألف كتاب من القيمةِ ما يفوق فِلاحةَ ألفِ حقل، كما أن القدرة علىٰ إنشاءِ وصفٍ صحيح للوحة ليس لها من القيمةِ ما يفوق إصلاحَ سيارة معطوبة. ففي كلتا الحالتين نجد نوعًا خاصًّا من المعرفة، سواءٌ عند الفلَّاح، أو عند الميكانيكي، وما أشدَّ سخفَ المثقفين إذ يعتقدون أنَّ معرفتهم وحدها هي ذات الشأن. إن الحقَّ والخير والجمال ليست من احتكارِ أولئك الذين تخرَّجوا من المدارسِ الباهظةِ التكاليف وانغمَسوا في المكتباتِ وتردَّدوا علىٰ المتاحف. ليس للفنان أيُّ حق في التعالي علىٰ الآخَرين، وما أشدَّ حُمقَه إذ يعتقد أن معرفته أهمُّ من معارفِ غيره، وما أشدَّ جُبنَه إذا لم يَجْرِ معهم مرتاحًا في مِضمارٍ واحد»[1].

وفي آخرِ سيرته يعود من جديدٍ للحديثِ عن هذه الطبقة المتشدِّقة ويشير إلىٰ أنَّ قيمة الفن بما يُخلِّفه من ثمار، فيقول في كلامٍ لا يقلُّ نَفاسةً عن سابقه: «وإنما أقصد الآن مَن جعلوا همَّهم الأولَ في الحياةِ تأمُّل الفنِّ وتذوُّقه، ولم أرَ في هؤلاء ما يستحقُّ الإعجاب، فهم مغرورون راضون عن أنفسِهم، ينظرون باحتقارٍ إلىٰ الذين يقومون بأعمالهم المتواضعةِ التي رماهم بها القدَر، بينما هم أعجزُ الناس

---

(١) عصارة الأيام، ص٩٥-٩٦.

عن تولِّي مهامِّ الحياة العملية، ولأنهم قرَؤوا عددًا ضخمًا من الكتب، وشهدوا عددًا مثلَه من اللوحات، فهم يظنُّون أنفسَهم أعلىٰ درجةً من غيرهم، ويفزعون إلىٰ الفنِّ ليهربوا من واقعِ الحياة. ومن خلال احتقارهم السخيف للأمورِ العادية، يُنكِرون قيمة الفعاليات الأساسية في الحياةِ الإنسانية. إنهم ليسوا بأفضلَ مِن مُدمني المخدرات، بل أسوأ منهم؛ لأنَّ مُدمن المخدرات مهما يكن أمره، لا يترفَّع عن الناسِ ولا ينظر إليهم من علٍ.

إن قيمة الفن تَكمنُ في أثره، كما هو شأن الطريقة الصوفية، وإذا لم يستطع الفنُّ أن يعطيَ سوىٰ اللذة، مهما كانت هذه اللذةُ روحيةً خالصة، فليس يترتَّب عليه شيءٌ ذو بال، بل لا يكون في نتائجِهِ أهمُّ من تناول اثنتَي عشرة مُحاوَرةً ونصف لتر من (المونتراشيه).

وإذا كان الفنُّ عـزاءً فلا بأس بذلك، ما دام العالم يعجُّ بالشرور المحتمة، ويَحسُن بالمرء أن يكون له تراثٌ يتفرَّغ إليه من حينٍ لآخَر، لا بقصد الهرب من الواقع، بل ليمدَّ نفسه بقوةٍ جديدة تُعينه علىٰ الصمود؛ لأن الفن إذا جاز أن يُعَدَّ من بين القيم الكبرىٰ في الحياة، فيجب أن يُعلِّمَ الناس التواضعَ والاعتدال، والحكمةَ والحِلم. إن قيمة الفن ليست الجمالَ، بل العمل الصحيح.

وما دام الجمال قيمةً كبرىٰ من قيمِ الحياة، فمِن الصعب أن نُصدِّق أنَّ الحاسة الجمالية التي تُمكنِّنا من تذوُّق الجمال وقفٌ علىٰ طبقةٍ معيَّنة، ومن المستحيلِ أن نعتقد بأن شكلًا من أشكالِ الإدراك الحسِّي تحتكرُه النخبةُ يمكن أن يُعدَّ ضرورةً للحياة الإنسانية، ومع ذلك فإن هذا هو ما يدَّعيه علم الجمال. وعليَّ أن أعترفَ بأنني كنتُ أرتاح ارتياحًا شديدًا للاعتقاد بأن تذوُّقَ الفن وقفٌ علىٰ القلةِ المختارة، وذلك أيامَ الشباب الغِرِّ، أيامَ كان الفنُّ عندي تاجَ الجهد الإنساني ومُبرِّرَ الوجود،

ولكنني سرعان ما أضربتُ عن هذهِ الأفكار؛ فالفنُّ لا يمكن أن يكون إقطاعًا لفئةٍ معينة، وأنا أميل إلىٰ الاعتقادِ بأن الأثر الفني الذي لا يتذوَّقُه إلا أشخاصٌ تلَقَّوا تدريبًا خاصًّا ليس بشيء، شأنه في ذلك شأنُ الفئة التي تتذوَّقه، ولا يكون الفن عظيمًا مرموقًا إلا إذا أمكنَ أن يتذوَّقَه جميعُ الناس، والفن الذي يخصُّ عُصبة دون غيرها ليس إلا لهوًا.. وإذا كان لتأثيرِ الفن أن يتعدىٰ إلانةَ النفوس وإرضاءها، فعليه أن يُقوِّيَ الشخصية ويَزيد من قدرتها علىٰ العمل الصحيح. وما أقلَّ ما أُحِبُّ الوعظ، ولكنني لا أستطيع إلا أن أَقبَله هنا؛ ذلك أن العمل الفني يُقاس بما يُعطيه من ثمار، وإذا كانت ثمارُه غيرَ صالحة فهو معدوم القيمة، ومن الحقائقِ الشاذة التي تفرضها طبيعةُ الأشياء ولا أجد لها تفسيرًا: أن الفنان يُمارس تأثيره التوجيهي إذا لم يستهدِفْه عامدًا، وتكون موعظتُه أبلغَ أثرًا إذا لم يشعر أنه يقفُ موقف الواعظ، فالنحل يُنتج الشمع لأغراضه الخاصة، دون أن يشعر أن الإنسان يستخدمه لمنافعَ مختلفة»[1].

* * *

ومما لا بدَّ من الإشارة إليه، وهو أمرٌ نتَج أيضًا عن الهالة المُقدَّسة المحيطة بالكُتب، والتي جعلَت من القارئ كائنًا مُنزَّهًا عن ارتكابِ ما يُدنِّس عِرْضَه، وقمينٌ به أن يكون كذلك، ولكنَّ هذه النظرة تجاه القُرَّاء بعيدةٌ عن الواقعِ وليست صحيحة، فلا تستبعِدْ أبدًا أن يكون ذاك القارئُ النَّهم الذي تعرفه علىٰ مُستوًىٰ مُتدنٍّ من الأخلاق، وكم في العالم من أُناسٍ عُرِف عنهم عِشقُهم للقراءةِ وولَعُهم بالكُتب وهم أراذلُ لا تحكمهم منظومةٌ أخلاقية سامقة، ولم يُعرَفوا بفضائلَ تسمو بأرواحهم عن سَفال العالم الوضيع.

وهنا تذكَّرتُ حوارًا من روايةِ (قرية ستيبانتشيكوفو وسُكَّانها) لدوستويفسكي، عندما سأل فوما فومتش عن كوروفكين ومن يكون؟ قيل له:

---

(١) عصارة الأيام، ص٢٩٨-٣٠٠.

- إنه رجلٌ مثقَّف يا فوما، إنه عالم.. أنا أنتظر قدومَه، سيُعجبك حتمًا يا فوما.

فكان ردُّ فوما:

- هِممْ.. أشكُّ في ذلك، لا بد أنه واحدٌ من أولئك الأدعياء المحْدَثين، المحشوَّة رؤوسهم كتبًا. هؤلاء أُناس لا روح لهم يا كولونيل، القلب لا وجود له عندهم! وما نفع العِلم بلا فَضيلة[١]؟

* * *

وبعدُ، فإنِّي في هذا المقال لا أُحاول أن أكون مُتطرِّفًا بين معتدِلين، بل مُعتدلًا بين مُتطرِّفين؛ فأنا ضدُّ الذي يَبخسون الكُتبَ قيمتها، وضد أولئك الذين يرفعونها فوق درجتَها ويُكلِّفونها ما لا تُطيق.

ثم إني لا بد أن أُحذِّر القارئ الفذ من إدامةِ مُجالسة الكُتب حتىٰ لا يكون مصيرُه كما ذكر الأديب إبراهيم المازني في قوله: «ومُجالسة الكتب تُحيل المرءَ أشبهَ بها، حتىٰ لَيعود وكأنما لا ينقصه إلا أن يُغلَّف ويوضَع علىٰ الرفِّ بين إخوته! وطولُ العهد بها يُشيبُ النفسَ قبل إشابةِ الرأس، ويُطفئ لمعةَ العين، ويعوق تدفُّق النشاط الجثماني، ويُغري بالسُّهوم والصمت، ويفعل ما هو شرٌّ من ذلك: يبعث علىٰ التعلُّق بالمُثُل العُليا وصور الكمال، ويُشْرِب النفس حُبَّها، ويُعلِّمها نِشْدانها، فإذا راح يضربُ في غَمْرةِ الحياة تعثَّر ولقِيَ في كلِّ خُطوةٍ صدمة، كالذي يسلك طريقًا ومعه مُصوَّرٌ لخِلافه!»[٢]. فاحذَرْ يا صديقي أن تُغلَّف وتُحشر في رفٍّ مزدحم!

وقد تحدَّث عن ضَررِ إدمان مُجالسة الكتب والانغماس الدائم في القراءة الكاتب علي أدهم، وذكر أنَّ هذا الأمر قد يُؤثِّر علىٰ العقل وقدرات الذهن، فيقول

---

(١) راجع الجزء الثالث من أعمال دوستويفسكي الكاملة، ص٢٠٢.

(٢) العمر الذاهب، ص٣٦٤.

في كلامٍ بديع: «.. ولكن إدمان القراءة ومُتابعة الاطِّلاع وإطالة المكث بين الكتبِ قد تكون عَقبةً في سبيلِ التفكير الحُرِّ المستقل، وقد تُرهق الذهن وتُضعفه وتشلُّ حركته وتقضي علىٰ استقلالهِ، ويُصبح بذلك ضرَرُها أكثرَ من خطرِها وأخطرَ من نفعِها.

والحقائق والمعلومات التي نتَلقَّاها من الكتبِ قد تُثقل رؤوسَنا وتزحمها وتُشيع فيها الفوضىٰ والاضطراب، والرجل الذي يقرأ كثيرًا تلتقي في عقلهِ ضروبٌ مختلفة من الأفكارِ والآراء وقد تظلُّ هذه الأفكارُ والآراء غرائبَ وضرائر لا تربط بعضَها ببعض رابطةٌ ولا تُوحِّدها جامعةٌ ولا ينظمها سلك.

والإنسان في أثناءِ القراءة يترك لغيره التفكيرَ ويُصاحبه، وقد ينساق معه ويندفع في تيَّارِه ويستأسرُ له ويستعبد لأفكارِه، وهذا هو خطَرُ القراءة التي لا يَصحبُها التفكيرُ ولا تَتْلوها المراجعة وإرسال النظر فيما قرأه الإنسان، وتقليبه علىٰ جوانبهِ ليتبيَّنَ فيه الطيِّبُ من الخبيث، والصالحُ من الفاسد. وإذا غفَلَتْ الفكرة الناقدة وضعُفَتْ قوة التمييز اطمأنَّ العقلُ إلىٰ الخضوعِ والاستسلام، وتقبُّل الآراء المتناقضة، والمعلومات الزائفة، وعجَز عن التوفيقِ بين الآراءِ المختلفة وتوحيدها والملاءَمةِ بينَها، وضلَّ في تِيهها، وأفْلتَ من يدِهِ زِمامُها، وعجز عن السيطرةِ عليها وتسخيرها والإفادة منها، والعقل الذي يضلُّ طريقه، وتُثقله معلوماته، يجد صعوبةً كبيرة في تحديدِ غايته، وإذا عرَف غايتَه وهدفه عجز عن بلوغهما. ولذا قد ترىٰ في بعض مُدمني القراءة تَهافُتًا في المنطقِ، وانحرافًا في الآراءِ، وسخفًا في التفكيرِ، لا نرىٰ له نظيرًا في العامةِ أو أشباه العامة من أصحابِ المعرفة القليلة، والذين يعيشون في آفاقٍ جِد محصورة قد يُحسنون الاستفادةَ من التجاربِ، ويَفطِنون لعِبَرِ الحوادثِ واحتكاكهم بأهلِ الرأي والراسخين في العلمِ فتصقل عقولهم وترْقىٰ مَداركهم.

وقلةُ العِلمِ يمكن إصلاحُها والإضافةُ إليها والمحافظة عليها فينمو العلم، والعلم الكثير مثل المال الكثير قد يُغْري بالإهمالِ والتطبيعِ ويُساء الانتفاع به»[1].

* * *

هيرمان هسّه الكاتب الألماني/ السويسري الشهير له كلماتٌ رنَّانة حول الكُتب والقراءة، وأرىٰ في إثباتها هنا فائدةً كبيرة، ووجودها -علىٰ كُلِّ حال- في هذا الموضع وفي آخرِ صفحات هذا المقال له ما يُبرِّره. يقول هسّه: «بالنسبةِ إلىٰ القارئ الواعي تعني قراءة كتاب التعرُّف إلىٰ جوهرِ إنسان غريبٍ وطريقة تفكيره، ومُحاولة فهمه واكتسابه كصديقٍ قدْرَ ما وَسِعَه. ليست وظيفةُ الكتب مُساعدةَ البائسين علىٰ توفيرِ حياةٍ بديلة، بل العكس تمامًا، فلا قيمةَ للكتبِ إن لم تأخذ بيَدِ قارئها نحوَ الحياة. وساعة القراءة هي ساعةٌ ضائعة مهدورة؛ إذا لم تمنَحْ قارئها دَفعةً من القوة لمواصلةِ الحياة.. لا ينبغي لنا أن نقرأ لكي ننسىٰ حياتَنا اليومية، بل العكس؛ علينا أن نقرأ من أجل أن نملِكَ زِمامَ حياتنا بشكلٍ أكثرَ وعيًا ونُضجًا، علينا ألا نُقبل علىٰ قراءة الكتب مثلَ تلامذةٍ خائفين مُقبلين علىٰ مُدرِّسين مُملِّين.. بل علينا الإقبالُ عليها بشجاعةٍ مثل متسلِّقي جبال الألب أو مثل مقاتلين مقبِلين علىٰ ترسانةِ أسلحة، لا كهاربين أو كارهين لعيش الحياة». ثم يقول في التعريفِ بأعداءِ الكتب الحقيقيين: إنَّ «أعداء الكتب الحقيقيِّين وأعداء الذوق السليم ليسوا مُحتقِري الكتب، بل المتبحِّرون في القراءةِ دون وعي؛ فرُبَّ زوجةٍ بسيطة لا تعرف من الكتبِ سِوىٰ الكتاب المقدَّس، استطاعت أن تستمدَّ منه معرفةً وسُلوانًا وفرحة أكثرَ مما يستطيع ثريٌّ مدلَّل أن يستمدَّها من مكتبتِهِ الضخمة.

---

(١) علي أدهم (مقالات متنوعة)، ص٧٤-٧٧.

في لحظةٍ بعينها يتحتَّم عليك أن تُلقِيَ بكل الكتبِ جانبًا، وأن تَخرج في نُزهةٍ إلىٰ الخلاء بمفردك قليلًا، مُستشعرًا جمالَ الطقس، الزهور، الضباب، الرياح، باحثًا في أعماقك عن البُقعةِ الساكنة التي يصير عندها العالمُ المشتَّت وحدةً شاملة»[1].

ختامًا لا تنسَ دائمًا قول إدوارد بولور: «اقرأ لتعيش ولا تعِشْ لتقرأ».

(١) راجع مقال (عن الكتب)، ص١٣٧-١٤٠ في كتاب (فن الكسل)، ترجمة أحمد الزناتي.

وجهٌ غضَّنَتهُ الكُتب!

هذهِ حكاية قصيرة كُنتُ متردِّدًا -ولا زلتُ- هل أُثبتها في هذا الكتاب أم لا؟ ولكنِّي قلتُ لنفسي: إذا كُنتُ ولا بدَّ مُثبِتَها فإن أنسبَ موضعٍ لها سيكون بعدَ مقالة (الينبوع الأصلي). وجعلي لها في آخرِ الكتاب لحاجةٍ في نفسي، ولا أظنُّني مُلزَمًا بكشفِ كلِّ ما بداخلي لك أيها القارئ المحترم! فدونَك إياها.

وجدتُ نفسي ماشيًا في الظلامِ وسطَ صحراءَ لم أستَبِنْ موقعَها من الخريطة! تبًّا، هذا المطلع المفاجئ ذكَّرَني بكافكا! لا أدري لماذا. «استيقظَ جريجور سامسا ذات صباح بعد أحلامٍ مزعجة، فوجد نفسه قد تحوَّل في فِراشهِ إلىٰ حشرة!»(١).

المهم، أخذتُ أُقلِّبُ رأسي في هذا الظلام، لا أعرف وجهة أولِّيها، ولا طريقًا أُيمِّم نحوه، ومن جميلِ حظي -كعادتهِ- أن هذهِ الليلةَ ليلةٌ طِرْمِساء؛ ليس للقمرِ فيها كلمةٌ مسموعة.

كيفَ وصلتُ إلىٰ هُنا؟ وما الذي وقع لي؟ ومن أين أتيت؟ وأنا هنا لا أُحاول الاقتباسَ من إيليا، إذا كنتَ ستُلمِح إلىٰ ذلك قارئي العزيز. «جئتُ، لا أعلمُ من أينَ، ولكنِّي أتيتُ. ولقد أبصَرتُ قدَّامي طريقًا فمشيتُ.. وسأبقىٰ ماشيًا إن شئتُ هذا أم أبيْتُ، كيفَ جِئتُ؟ كيفَ أبصرتُ طريقي؟ لستُ أدري!»(٢).

يا لهذا المعنىٰ الفاسد!

حاولتُ أن أستذكر الأحداث، فلم أُفلح، وكأنَّ شيئًا ابتلع وقائعَ الماضي الخاصة بي. دَهَمني شعورٌ مُخيف في تلك اللحظة؛ لقد أصبحتُ بلا تاريخ!

وأنا في حالةِ إعياءٍ فِكْري، أبصرتُ نارًا من بعيد، ولأنَّ لكلِّ شيءٍ في الوجود -تقريبًا- جانبًا حَسَنًا، فالليل الخِرْمِسُ يجعلك تُبصر أيَّ ضوءٍ كان، وإن كان لمعانَ أسنانِ نملةٍ تائهة! نعم؛ للنملةِ أسنان، ولكنها بكل تأكيد ليست كأسنانِك الجميلة.

---

(١) روايته (التحوُّل) أو (المسخ).

(٢) من قصيدة (الطلاسم) - ديوانه، ص١٩١ - دار العودة (بيروت).

يمَّمتُ إلىٰ ضوءِ النارِ مُردِّدًا قول ميمون:

لَعَمْري لقد لاحَتْ عُيونٌ كثيرةٌ   إلىٰ ضوءِ نارٍ في يَفاعٍ تَحرَّقُ

لم يكن لبيتِ الأعشىٰ موافقةٌ كبيرة ساعتي تلك، ولكنني أحببتُ استحضارَه، هكذا رغبةً ومِزاجًا.

لا أعلم حقيقةً هل كنتُ أجرُّ أقدامي إلىٰ تلك النار أم تجرُّني؛ ذلك أنَّ فكري كان يُراوح بين أمرين: الظفَر بالمأمول والخوف من المجهول.. علىٰ أيةِ حال، عندما اقتربتُ تجلَّتْ خيمةٌ منصوبة وجسمُ كائنٍ لم أكن متيقنًا من نوعِ خَلْقِه، ولكن ظِل لحيته جعَلني أستبشر؛ لأنني لا أعلم أنَّ في الجِنِّ مَن يُسبِلُ لحيته إلىٰ هذا الحد. ستسألني: وهل لقيتَ جنيًّا من قبل؟ لا.

وبعد حثِّ الخُطىٰ، ودفعِ العزيمة، والزهد في النفسِ الغالية؛ وقفتُ أمام الإنسان -وإن شئتَ الكائن- الغريب الذي يكاد يتحلَّق حول النار وحدَه من ضخامتِه.. كانت رؤية هذا المخلوق من أعجبِ العجَب في حياتي كلِّها، لم أعُد آبَهُ لفقدانِ تاريخي بعد لقائه.

وقفتُ أتأمَّلُه، لم يُحرِّك بصرَه تجاهي، كان يسأل النارَ الدِّفءَ بمدِّ يديه إليها، ولم يُبدِ أدنىٰ اهتمامٍ لهذا المتسمِّر أمامه.

طالَعتُهُ بتمعِّنٍ وعجَب؛ كان ضخمًا، ضخمًا جدًّا، لقد أوتي سَعةً في الجسمِ، وله لحيةٌ لو صفعَني بها لأسقطَني. مُتجعِّد الوجه، تجاعيد وجهه ذكَّرتْني بوصفِ بونْفين الساخر لتجاعيد جِلد جَدَّته «كقميصٍ ينتظر الكي!»[1]. أو -علىٰ العكس- كما وصفَ المازني -في رحلةِ الحجاز- ملابسَه عندما أرادَ التأنق قبل المأدُبة الرسمية، وكانت قد طال بقاؤها مطويَّةً في الحقيبة «وصارت كالوجه الذي غضَّنَته الشيخوخة»[2].

(١) الكُتب التي التهمت والدي، ص٥١.

(٢) رحلة الحجاز، ص١٣٤.

عينه اليمنىٰ غائرة، والشمال مُحاطة بالنتوءات. جسدهُ يعجُّ بالشَّعرِ كمزرعةٍ يرىٰ مالكُها حُرمة الحصاد. لا أستطيع أن أصفَ بشاعة مظهره، وقُبح ملامحه، ولكنَّه مع كل ما يتمتَّع به من دَمامة؛ كانت تُحيط بهِ هالةٌ غريبة من الحِكمة.

ولأنني في لحظةِ ذهولٍ فاجأتُه بأسئلةٍ قبل إلقاء التحيَّة: مَن أنت؟ وما الذي تفعلهُ هنا؟ وفي أيِّ منطقة نحن؟ .. مرَّت دقيقةُ صمتٍ ثقيلةٌ بعد ما تفوَّهتُ به ثم رفع رأسه إليَّ، أعني رفع بَصَره؛ لأنه يكاد يَفوقني طولًا وهو جالس!

يا لبشاعته (هَمْهَمتُ في نفسي)، تبدَّت لي دمامةُ خِلقته بوضوحٍ تام.. ثم نطق بصوتٍ مُجلجِلٍ يليق بضخامته، وألفاظٍ ثقيلة بحجمِ لحيته قائلًا: «عندما أحسستُ بخطواتك تتمطَّىٰ نحوي، قلتُ في نفسي: هذا القادم وقح، ولكنك عندما وقفتَ أمامي وألقيتَ أسئلتك، أيقنتُ أنك وقحٌ وأحمقُ أيضًا». ثم سكت.

تبًّا له! لم أستطع الردَّ عليه، صمَتُّ معه ثم أهويتُ جالسًا أسأل النار ما يسألها.

وبعد لحظاتِ صمتٍ عَقِم فكري فيها، قال: «العاقل مَن استنطقَ عقله قبل لسانه». ثم توسَّدَ يده اليمنىٰ ونام! نعم؛ نام غيرَ مبالٍ بأي شيء.

مللتُ انتظاره، ونهش صبري السَّأمُ، وغلَبني النُّعاس علىٰ نفسي، فأخْلَدتُ إلىٰ الأرضِ أسألها مثلَ سؤال النار قبلها قِسطًا من الراحة.. فنمتُ.

كم مرَّ من الوقت؟ لا أحيط بذلك علمًا، ولكنه أيقظني قائلًا: «اشرب هذا الشاهي، فلا أملك سِواه، أما إذا رغبتَ في الطعامِ فكُل من خَشاش الأرض!». نهضتُ مرتبكًا مرعوبًا بسبب صوته المزعج، اعتدلتُ وأخذتُ أرتشفُ الشاي وأُقبِّل حرارته كما يُقبِّل... حسنًا، لا داعي للتعمُّقِ في الوصفِ أحيانًا.

كأنَّ مَلامحه تبدَّلَت، ومِزاجه تغيَّر، لم أعُد أرىٰ التجهُّم مُحتلًّا قَسَمات وجهه، ولكنه لا يزال قبيحًا علىٰ أيِّ حال.

حاولتُ أن أتهذَّب وأتخيَّر خيرَ الألفاظ لاستدرارِ ما بجوفهِ وإخراج دفائنه؛ لأنني شعرتُ من مَعانيه السابقة أنه خَدينُ معرفةٍ وربيبُ عِلم. قلتُ بعد عصفٍ ذهنيٍّ جادٍّ:

- هلَّا أخبرتني يا سيدي الكريم ما قصتك، ولماذا أنت وحيدٌ في هذه المَهْلَكة أو المفازة كما تقول العرب؟

تهلَّل لمنطقي فقال:

- «لقد أحسنتَ السؤال، ولن تَعْدِم من جليسك حُسنَ الجواب. إنني إذا جاز لي الاقتباسُ من روث، أعني فيليب روث، (لو كان قد احتُفِظ بمذكراتٍ للألم، لكان المدخلُ الوحيد كلمةً واحدة: أنا)، أو علىٰ حدِّ تعبير الأديبة مي زِيادة، أنا (أسيرُ حُمَّىٰ الحياة).

لم تُعجبني كلماته الغامضة، فقلتُ:

- ماذا تفعل هنا في هذه الصحراء المخيفة؟

احتدَّت نظراته، وقال:

- «إنها ليست كذلك، ولو قلتَ الصحراء الواجِمة الكتومة كما عبَّرَت ميُّ ذات ليلة، لكان آنقَ وأليق».

- ميُّ هذه، هي التي جعلتْ من أدباءِ القرن العشرين الكبارِ أُلعوبةً وأُضحوكة في أرْوِقةِ التاريخ وأوراقه؟

بعد قولي هذا، أحْكَمَ قبضة يدِه مغضبًا، ولكنه لم يلبث أن أطلقها وأخذ يمسح لحيتَه ويُخلِّلُها بأصابعه الضخمة التي تُناقِض تلك التي وصَفها امرؤُ القيس (أساريعُ ظبْيٍ أو مَساويكُ إسْحِلِ)، ثم انطلقَ قائلًا:

- «لم تُخيِّب ظنِّي فيك، إنك أحمقُ حقًّا. إنكم أبناءَ هذا الجيل تُفضِّلون دائمًا الحلولَ اليسيرة، والمعالجة الهيِّنة، والحُكم المُتعجِّل. يعجز واحدُكم عن الاستقراء التام، والبحث الدقيق، وتحسُّسِ آثار الإنصاف وإنْ كلَّفَه هذا سنواتٍ وسنوات من التحرِّي والتنقيب. لو عرَفتَ نفسيةَ الأديب لأدركتَ ماذا يعني له الإلهامُ، ولو أعانك عقلُك علىٰ استيعابِ معنىٰ الإلهام، لَفهمتَ ووعيتَ الحاجة المُلحِّة لمصدرٍ له. ثم ما شأنُك أَنتَ حتىٰ أُسهِبَ بالشرحِ لك بما يفوق طاقتَك؟ قل لي: هل قرأتَ لمي زيادة؟».

- لا.

- «هذا ما ظننتهُ، جُلُّكم هكذا، تحكمون دون دليل، وتظلمون بلا تعليل، وجهلكم أكثرُ من معرفتكم. لو قرأتَ لمي مقالَها فقط عن مايكل أنجلو[1] صاحبِ الفنون الأربعة، ورأيت كيف تناولتْ شخصيته، وحديثها الموجز عن مدارس الفن الكبرىٰ في أثينا وفلورنسا والبندقية، وإلماعتها لتاريخ الفنِّ منذ أيام كودمودس وديوكليسيانس، وإحاطتها بفنِّ القوط وشرِّهم.. لَأخذ بلُبِّك هذا الكمُّ الهائل من الثقافة، وأسَرَتْك هذه المعرفة، ولم تَلُم أديبًا مرهفَ الحِس باحثًا عن مصادرِ الإلهام علىٰ إعجابه بها. وفوق كلِّ هذا كانت علىٰ قدرٍ سامقٍ من الخُلُق الرفيع. وسأُكاشفك بأمرٍ وإن كنتَ لا تستحق المكاشَفة؛ لو كنتُ في ذلك الجيل لم أنمْ ليلة الثلاثاء إلا علىٰ الرصيفِ الذي يقابل مسكنَها. ولا ألوم صبري علىٰ قوله:

روحي علىٰ دورِ بعضِ الحيِّ حائمةٌ — كظامئِ الطيرِ توَّاقًا إلىٰ الماءِ
إن لم أُمتِّع بميٍّ ناظِرَيَّ غدًا — أنكرتُ صُبْحَك يا يومَ الثلاثاءِ

(١) مجلة الهلال/ العدد٧/ ١ أبريل ١٩١٨. وهو في كتاب (مي زيادة - معشوقة الأدباء)، ص٢٢-٣٠.

ثُمَّ ليتك وقفتَ علىٰ كلماتِها الرَّنَّانةِ التي صَدحتْ بها في الجامعةِ الأمريكيَّةِ عن الأديبِ ورسالته، كان مما قالته في محاضرتِها تلك: (رِسالةُ الأديب تُعلِّمُنا أن نُفاخِر بلغتنا العربيَّة الممتازةِ علىٰ سائرِ اللغاتِ بأنَّها وُلِدت قبل لغات قديمة اندثرت منذ قرون، وما زالت العربيَّةُ تَفيضُ حياةً، مجاريةً حتىٰ أحدث اللغات، بالقوة والمرونة والجزالة والرَّشاقة. كُلُّ أمةٍ تسعىٰ الآن إلىٰ نشرِ لغتها بينَ الأمم الأخرىٰ، باذلةً في سبيلِ ذلك المالَ والإغراء والدعاية والجهود. أما نحنُ فانتشار لغتنا شيء واقع، وميزتها هذه تربط بين الأقوامِ العربيَّة برباطٍ قويٍّ جاعلة الفرد الواحد منا ملايين. رِسالة الأديب تُعلِّمُنا حُب العُزلة والسكون، وترجعنا عن الفخفخةِ وهوس الظهور، فنعكف علىٰ أنفسنا نُعالِج ممكناتها للظفرِ بمحمودِ النتائج. فالسُّنبلة المُتمايلة علىٰ صفحةِ المروج، حاملةً بشائر الحياة، لا تُولد حبَّتها ولا تنضج إلا في أحشاءِ الأرضِ، في جوِّ الوحدةِ والهدوء والكتمان. رِسالة الأديب تُعلِّمنا ألا نخشىٰ كارثة، ولا نتهيّب مغامرة. كُلُّ زمنٍ خطيرٍ في التاريخ كان زمن اضطرابٍ وكوارث، وأعظمُ فوائد الإنسانيَّة نجمت عن عصورِ العذابِ والخطر. الخطر مُرهف، ولا يُعرَف شأنُ ذي الشأن إلا يوم الكريهة. والعاصفة لا تقتلع إلا ضعيفَ الأغراس؛ أما الأشجار ذات الحيويَّة العصيَّة فالأعاصير تلحُّ عليها وتهزُّها هزًّا عنيفًا، فلا تزيدُها إلا قوةً ومناعة. أي شيء لا تُعلِّمنا رسالة الأديب؟ إنها قوَّة تستفزُّ قوتنا، وموهبة تحفز مواهبنا، وصرامة تردُّنا عن الحقَارة، وبسالة تدفعنا إلىٰ البَسالة، وعُذوبة تؤاسي أحزاننا، وأُغرودة تطرب أشجاننا وهي عالم مستقلٌّ متماسك يسوقنا إلىٰ تكوينِ عالمنا المتآلف المُستقل!)[1]. هل

(١) من محاضرةٍ لها بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٣٨م ألقتها في الجامعةِ الأمريكيّة ببيروت، ونشرتها مجلّة الرِّسالة (في العدد ٢٤٨) نقلاً عن جريدةِ المكشوف اللبنانية في الرابعِ من أبريل ١٩٣٨م.

رأيتَ الآن أي روح تملك هذه النَّابغة؟».

- تجلَّىٰ لي أنَّ شخصيتك بغيضةٌ لا تَأْلَفُ ولا تُؤْلَف، مُكفهِّرٌ تتلمَّظُ بالشتائم والحطِّ من قدْرِ غيرك... قاطعَني..

- «دعك من هذه النبرة الحزينة والأحرُفِ الباكية، واسمع هذا البيت للمتنبِّي، كُنتُ أُردِّدُه قبل تطفُّلك:

نضَحتُ بذِكْراكُمْ حرارةَ قلبِها   فسَارَت وطولُ الأرضِ في عينِها شِبرُ!

- هذا واللهِ الشِّعر، علَّق السقَّاف بعد هذا البيت بقوله: (هذا ما لا يقدرُ أحدٌ أن يقول مِثلَهُ، وهو من مواضعِ السجودِ في الشِّعر!)»[1].

- إنك مُعْجَبٌ بنفسك، تُحب إدارةَ الحديثِ علىٰ هواك، لا تنفكُّ تُلقي بالاقتباسات دونَ رابطٍ يجمعُها أو شملٍ يلمُّ شعثها، وما ذاك إلا لعُنْجُهيةٍ في طبعِك، وعلَّةٍ في عقلك، واضطرابٍ في فِكْرك.. اهدَأْ، فما أنتَ سوىٰ وحيدٍ في الصحراء، تملؤ نُتوءاتِ وجهك البيداءُ، تتأفَّف ممَّن يُحاورك، وتتطاول علىٰ جليسك، وكان هو الأجدَرَ بالتأفُّف منك والتطاولِ عليك...

هكذا رجَمتُهُ بكلماتٍ غاضبةٍ نفَثَها غيظي، وانتصبتُ واقفًا.

كانت ردَّة فعله غريبة؛ ضحك ضحكًا هستيريًّا أورثَ جسَده هزَّةً كادت الأرضُ أن تَميد بنا بسببها. وبعد أن فرَغ من قهقهتِهِ، قال:

- «لقد أحسنتَ هِجاءً يا فتىٰ، اجلس، وستطيب نفسُك بحديثِ ذي النتوءات؛ فلديه الكثير. وإياك أن تصنع من نُتوءاتِ وجهي حاجزًا يمنعُك من تَلمُّس الحكمة في منطقي».

---

(١) العود الهندي، ج٢، ص٤٣٩. في ج١، ص٤٨٩ من كتاب (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري) للآمدي، أن الفرزدق إذا أنشد بيتَ لَبيدٍ: (وجَلا السُّيولُ عن الطُّلولِ كأنَّها زُبرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقلامُها) يسجد ويقول: «إنا نعرف مكانَ السجود في الشعر كما تعرفونه في القُرآن». فابتدعَ الفرزدقُ هذه السجدةَ الشعرية!

أخذتُ نفَسًا عميقًا، وقلتُ لنفسي: لو تركتُهُ في هذا الليل البهيم إلىٰ أين ستقودني خُطواتي وأنا لا أعلم موضعي من الخريطة! بعد مراجعةٍ ذاتيةٍ تخلو من أدنىٰ تفكيرٍ عميق، جلستُ مُبدِيًا نفوري منه وإعراضي عنه.

قال:

- «ستُعلِّمُك الأيامُ يا فتىٰ أن الدنيا حُلوةٌ مُرَّة، ولن تنالَ حلاوتَها قبل تذوُّقِ مَرارتها، وإن المِرَان فيها علىٰ تحمُّل المرارة خيرٌ من الاعتيادِ علىٰ الحلاوة. احفَظْ هذا منِّي وانقُلْه عنِّي؛ فإنك واجدٌ أثرَ نفْعِه ولو بعد حين».
- حسنًا، لديَّ سؤال: ما بالك تتحدَّث وكأنك صفحةٌ في كتابٍ تراثي، وتُكْثِر الاقتباس من الكتبِ والكُتَّاب وكأنك رفٌّ في مكتبة؟

تحسَّس نتوءات وجهه وقال:

- كنتُ أعلمُ أن هذا ظاهرٌ للجميع، ولن أقدر علىٰ إخفائهِ وإن حاولت. قصتي مع الكتبِ تطول يا فتىٰ الفضول، ولكني أختصرُ لك ما يمكنُ روايتُه وتنفعك غايتُه. لقد بلَوْتُ الناس حتىٰ أبْلَوْني. غرابةُ طبعي، وحِدَّة مِزاجي، وفَرْط حساسيتي لم تُبقِ لي جِلْسًا. قادَني هذا إلىٰ عُزلةٍ أوشَكَت أن تُهلكني لولا رحمةٌ من المولىٰ أدركَتْني. كانت هذه الرحمةُ الأُنسَ بالكتب. ولن أزعجك -وإن كنتُ لا أهتمُّ كثيرًا لذلك- بِسَردِ جُمَلٍ في التغزُّلِ بتلك الحياة التي عِشتُها بين المجلدات، والمتعة التي أَلْفَيتُها وأَلِفتُها بين الصفحات، والاكتفاء العظيم الذي شعرتُ به بين الكلمات. المهم، كنتُ أظن أنني وجدتُ الشِّفاء من الداء، وإذ بي واقعٌ في هوَّةٍ من الأدواء أشدَّ ألمًا من سابقتها. بنَيتُ من الكتبِ عالمًا خياليًّا يلفظُه واقعي؛ فكنتُ أبحث بين البشرِ عن القيَم التي وجَدتُها في السِّيَر، وهذا ما أورَدَني مواردَ الأسىٰ والخيبة. ثم إني لم أعد أقنعُ بأي شيءٍ يُحيط بي، لقد انغمستُ حقًّا هناك بين الرفوف. ظننتُ في أول دخولي إلىٰ هذا العالم القِرائي الفسيح أنني

سأكون كفِرمين سام سافاج الذي يأكل الكُتب فتُغذيه[1]، وإذ بي صرتُ فيفالدو والد إلياس بونفين الذي التهمَتْهُ الكتب![2] لهذا فرَرْتُ من واقعي الذي لم أعُد قادرًا علىٰ خلقِ التواؤُمِ بيني وبينه. وهأنذا في باديةِ نجدٍ أتغذَّىٰ علىٰ ما بقي من صفحاتٍ في رأسي، ولأنني ظننتُ أن الكتب وحدها هي الغِذاء النافع والدواء الناجع؛ آلَ حالي إلىٰ ما ترىٰ من قُبحٍ في المظهرِ، وإن كنتُ -علىٰ الأقل عند نفسي- جليلًا جميلًا في المخبَر».

- يا لك من بائس! وهذا المآل يليق بمن يُكلِّفُ الكتبَ ما لا تُطيق، ويضعها في غيرِ مكانتها..

وقبل أن أُتمَّ ما أريد هجمَ عليَّ متناولًا رأسي بيدَيه الضخمتين، وآخِرُ ما أذكره عُمق جوفِه حين ابتلعَني!

استيقظتُ من النومِ مفجوعًا إثْرَ هذا الكابوس المرعِب، فأخذتُ مِنديلًا لأمسح التعرُّقَ الذي خَنَقَ مَلامحي، شعَرتُ بغرابةٍ وأنا أتحسَّس وجهي، فقمتُ فزِعًا إلىٰ مرآتي وإذ بصاحبِ النتوءات ينظر إليَّ من خلالها.. تبًّا، إنه أنا!

ومنذ تلك اللحظة وأنا أحاول التعايُشَ مع نتوءاتي في عالمٍ لا يقبلُ النتوءات ولا يرحم أهلَها.

(١) اقرأ رواية (مغامرات قارض كتب)، لسام سافاج.

(٢) اقرأ رواية (الكتب التي التهمَت والدي)، لأفونسو كروش.

فِهرس المصادر

١. إبادة الكُتب، ربيكا نوث، ترجمة: عاطف سيد عثمان، عالم المعرفة، يونيو ٢٠١٨م.

٢. آثار الإمام البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، سحب جديد ٢٠١١م.

٣. اثني عشر عاما في صحبةِ أمير الشعراء، تأليف: أحمد عبدالوهاب أبو العز.

٤. أحاديث المازني من قصص الحياة، ضبطه وراجعه: د. ياسر حمدو الدرويش، أفكار معاصرة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

٥. إحراق الكتب، ريتشارد أوفندن، ترجمة: زينة بارودي، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م.

٦. أحمد ديدات (سفير العهد الأخير)، محمد مصطفىٰ خميس، دار سما للنشر والتوزيع، الطبعة السادسة ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

٧. أحمد زكي باشا الملقب بشيخ العروبة، أنور الجندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.

٨. اخرج في موعد مع فتاة تُحب الكتابة، اختيار ترجمة: محمد الضبع، دار كلمات، الطبعة الخامسة ٢٠١٥م.

٩. أخي العزيز (مراسلات حسين وجلال أمين)، دار الكرمة، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢١م.

١٠. أخيار وأشرار وظُرفاء وثقلاء، عارف حجاوي، مدارات للأبحاث والنشر، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م.

١١. الآداب الشرعية لابن مفلح، تحقيق: شعيب الأرنـؤوط وعمر القيّام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٢. أدبُ الدُّنيا والدِّين، الماوردي، دار المنهاج، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

١٣. آراء أناتول فرانس، ترجمة: عمر فاخوري، مصدّر بمقدمة لفيلسوف الفريكة أمين الريحاني، عنيت بنشره مجلة مينرفا (بيروت).

١٤. أساتذتي، نجيب محفوظ، إعداد وتقديم : إبراهيم عبدالعزيز، دار ميريت، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٢م.

١٥. أسباب للبقاء حيّاً، مات هيغ، ترجمة: محمد الضبع، دار كلمات، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨م.

١٦. أشياء غريبة يقولها الزبائن في متاجر الكتب، جين كامبل، ترجمة: محمد الضبع، دار كلمات، الطبعة الخامسة ٢٠١٨م.

١٧. إضاءة العتمة [أفكار و رؤىٰ]، لطفيّة الدليمي، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠.

١٨. اعترافات بائع كُتب، شون بيثل، ترجمة: أحمد الزبيدي، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٢م.

١٩. الاعترافات، جان جاك روسُّو، ترجمة: خليل سركيس، مركز الدراسات، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٢.

٢٠. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين.

٢١. الأعمال الأدبية الكاملة، دوستويفسكي، دار ابن رشد.

٢٢. الأعمال الكاملة، عبدالفتاح كيليطو، دار توبقال، الطبعة الثانية ٢٠٢١م.

٢٣. الأعمال الكاملة، مالك بن نبي، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

٢٤. اقرأ وارق، علي محمد العمران، الصميعي، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

٢٥. إقلاع وهبوط (سيرة طبيب من رأس بيروت)، منير شماعة، رياض الريس، طبعة جديدة ٢٠٠٨م.

٢٦. الأمير الحديث، غرامشي، ترجمة زاهي شرفان وقيس الشامي، منشورات الجمل.

٢٧. الأمير، مكيافيللي، دار الآفاق الجديدة (بيروت)، تعريب: خيري حماد، الطبعة الرابعة والعشرون ٢٠٠٢م.

٢٨. أنا، عباس محمود العقاد، طبعة نهضة مصر، الطبعة الثالثة ٢٠٠٥م.

٢٩. اندبندنت عربية، مقال (مكتبة ستالين)، أحمد شافعي، ١٤ يونيو ٢٠٢٢.

٣٠. أوراق العمر (سنوات التكوين)، د. لويس عوض، مكتبة مدبولي.

٣١. الأيام الأخيرة في حياةِ هؤلاء، حنفي المحلاوي - دار المعارف.

٣٢. أيام القراءة، مارسيل بروست، ترجمة: زهرة مروة، دار الرافدين، الطبعة الثانية ٢٠٢٢م.

٣٣. أيام مع لينين، مكسيم غوركي، دار القلم (بيروت)، الطبعة الأولىٰ ١٩٥٣م.

٣٤. أيامي مع جورج طرابيشي، هنرييت عبودي، دار مدارك، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠م.

٣٥. أيها القارئ عُد إلىٰ وطنك (الدماغ القارئ في عالم رقمي)، ماريان وُولف، ترجمة: شوق العنزي، دار أدب، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م.

٣٦. بحثٌ لم ينته، كارل بوبر، ترجمة: عمر فتحي، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠م.

٣٧. البحث عن الذات (قصة حياتي)، أنور السادات، المكتب المصري الحديث، الطبعة الثالثة أكتوبر ١٩٧٩.

٣٨. البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: عبدالله التركي، دار هجر، الطبعة الأولىٰ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٩. بعض مشكلات الفلسفة، وليم جيمس، ترجمة: محمد فتحي، مراجعة: زكي نجيب محمود، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.

٤٠. بُناة العالم، شتيفان زفايغ، ترجمة: محمد جديد، دار المدىٰ، الطبعة الثالثة ٢٠١٥م.

٤١. بيت حافل بالمجانين، (حوارات باريس رفيو)، ترجمة وتقديم: أحمد شافعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥.

٤٢. بين الفلسفة والأدب، علي أدهم، دار المعارف.

٤٣. تاج العروس، الزبيدي، طبعة الكويت.

٤٤. التاريخ الشعبي للولايات المتحدة، هوارد زِن، ترجمة: شعبان مكاوي، المشروع القومي للترجمة، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٥.

٤٥. تاريخ القراءة، ألبرتو مانغويل، دار الساقي، الطبعة الخامسة ٢٠١٦م.

٤٦. تاريخ ألمانيا الهتلريّة، وليم شيرر، تعريب: خيري حماد، منشورات مكتبة المثنىٰ/ بغداد.

٤٧. تجربتي في الأدب والحياة، سومرست موم، ترجمة: جعفر صادق الخليلي، منشورات عويدات (بيروت)، الطبعة الأولىٰ ١٩٧٥م.

٤٨. تذكرة السامع والمُتكلِّم من أدبِ العالِم والمُتعلِّم، ابن جماعة الشافعي، اعتنىٰ به: محمد مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٤٩. تربية سلامة موسىٰ، دار الكاتب المصري، الطبعة الأولىٰ ١٩٤٧.

٥٠. تعريف عام بدين الإسلام، الطنطاوي، المنارة، الطبعة السابعة ٢٠١٧م.

٥١. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، تحقيق: سعد عبدالغفار علي، دار الاستقامة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٥٢. تكلمي الآن، أو اصمتي للأبد!، اختيار وترجمة: عُلا ديوب، دار كلمات.

٥٣. تلاقي الأكفاء، علي أدهم، دار المعارف.

٥٤. التلمذة الفلسفية (سيرة ذاتية)، هانز غادامير، دار الكتاب الجديد ٢٠١٣م.

٥٥. توفيق الحكيم في شهادته الأخيرة، صلاح منتصر، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦.

٥٦. جدد حياتك، محمد الغزالي، دار القلم (دمشق).

٥٧. جُدُدٌ وقدماء، مارون عبود، دار الثقافة بيروت.

٥٨. الجمر والرَّماد (ذكريات مثقف عربي)، هشام شرابي، دار الطليعة، الطبعة الأولىٰ ١٩٧٨.

٥٩. جنتلمان المكتبات، ترجمة: جمال الجلاصي، دار صفحة سبعة ٢٠٢١م.

٦٠. الجنوبي (سيرة أمل دنقل)، عبلة الرويني، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٢م.

٦١. حديث الروائيين، ترجمة: بدري السماري، دار أثر، ٢٠١٢م.

٦٢. حرز مكمكم (القراءة والكتابة داخل السجن)، أحمد ناجي، دار صفصافة للنشر والتوزيع، طبعة ٢٠٢٠م.

٦٣. حفريات في الذاكرة من بعيد، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٧م.

٦٤. حكاية عمر، بولس سلامة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولىٰ ١٩٦٢م.

٦٥. حكايتي مع السجن (سياسيون وقضبان)، حنفي المحلاوي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٦٦. حكايتي مع السجن (مفكرون وقضبان)، حنفي المحلاوي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٦٧. حلم البراءة (مالكوم إكس.. عطاؤه الفِكري ومنهجه الإصلاحي)، عبدالرحمن ضاحي، آفاق المعرفة، الطبعة الأولىٰ ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.

٦٨. حلمُ غاية ما، كولن ويلسون، ترجمة وتقديم: لطفيّة الدليمي، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٧.

٦٩. الحياة التي لم نعشها، ماريا بوبوفا وآخرون، ترجمة: آماليا داود، دار الخان، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢١م.

٧٠. حياة الرافعي، سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرىٰ.

٧١. حياة الكتابة، إعداد وترجمة: عبدالله الزماي، دار مسكيلياني، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨.

٧٢. حياة شوقي، وضع: أحمد محفوظ، تصدير: عزيز أباظة، مطبعة مصر.

٧٣. حياتي، أحمد أمين، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية ٢٠١٧م.

٧٤. الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مصطفىٰ البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

٧٥. خدش عظم الحياة، ترجمة : أحمد الزناتي، منشورات حياة، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٢م.

٧٦. خرافة النباتية، ليير كيث، ترجمة: عمر فايد، صفحة سبعة.

٧٧. خطىٰ مشيناها، عباس خضر، دار المعارف.

٧٨. داخل المكتبة خارج العالم، اختيار وترجمة: راضي النماصي، دار أثر، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٧/ ٢٠١٦.

٧٩. دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي، تعريب: عبد المنعم محمد الزيادي، مطبعة مصر ١٩٥٠.

٨٠. دفاع عن الأدب، جورج دوهاميل، ترجمة: محمد مندور، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م.

٨١. ديوان إقبال، الأعمال الكاملة، إعداد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٨٢. ديوان إيليا أبو ماضي، دار العودة (بيروت).

٨٣. ديوان دِعبل الخزاعي، جمعه وحققه: الدجيلي الخزرجي، مطبعة الآداب (النجف) ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

٨٤. ذاكرة القراءة، ألبرتو مانغويل، ترجمة: جولان حاجي، دار الساقي، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨.

٨٥. ذكريات باريس، زكي مبارك، المكتبة الرحمانية بمصر، الطبعة الأولىٰ ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١.

٨٦. ذكريات علي الطنطاوي، دار المنارة، الطبعة السابعة ٢٠١١م.

٨٧. ذكرياتي الأدبية، عباس خضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨٨. رائحة الحِبر، أحمد الزناتي، دار منطاد، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٩م.

٨٩. رائحة الكُتب، جامبييرو موغيني، ترجمة: دلال نصر، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠م.

٩٠. رجال من التاريخ، للطنطاوي، دار المنارة، الطبعة السادسة عشر ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

٩١. رحابة الإنسانية والإيمان، عبدالوهاب المسيري، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٢م.

٩٢. رحلة الحجاز، المازني، اعتنىٰ بها أبو الفضل القونوي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٩٣. رحلة جبلية رحلة صعبة، فدوىٰ طوقان، دار الشروق (عمان/ الأردن)، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

٩٤. رحلتي الطويلة من أجل الحرية، نيلسون مانديلا، ترجمها عن الإنجليزية: عاشور الشامس.

٩٥. رحلتي الفكرية، عبدالوهاب المسيري، دار الشروق.

٩٦. رحلتي، تحويل الأحلام إلىٰ أفعال، زين العابدين عبد الكلام ترجمة: لطفيّة الدليمي، المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٧م.

٩٧. رحيق العمر، جلال أمين، دار الشروق، الطبعة الثانية ٢٠١٠م.

٩٨. رسائل الرافعي لأبي ريّة، الدار العمرية.

٩٩. رسائل السِّجن (رسائل غرامشي إلىٰ أمه ١٩٢٦-١٩٣٤)، ترجمة: سعيد بوكرامي، دار طوىٰ للثقافة والنشر والإعلام، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٤م.

١٠٠. رسائل جورج أورويل، اختيار وترجمة: سارة أزهر الجوهر وأحمد عزيز سامي، منشورات تكوين، الطبعة الأولىٰ سبتمبر ٢٠١٩.

١٠١. الرسول المعُلِّم ﷺ وأساليبه في التعليم، عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٠٢. روائيون عظام ورواياتهم، سومرست موم، ترجمة: محمد حنانا، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٩.

١٠٣. روضة المحبين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد.

١٠٤. زعماء وفنانون وأدباء، كامل الشناوي، مؤسسة هنداوي ٢٠١٩م.

١٠٥. زكي مبارك (دراسة تحليلية لحياتهِ وأدبه)، أنور الجندي.

١٠٦. زكي مبارك بقلم زكي مبارك، إعداد وتقديم : كريمة زكي مبارك، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠٧. زيارة مكتبات العالم، خورخي كاريون، ترجمة: ريم داوود، العربي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨م.

١٠٨. ساعات القدر، شتيفان زفايغ، ترجمة: محمد جديد، دار المدىٰ، الطبعة الثانية ٢٠١٨.

١٠٩. الساق علىٰ الساق في ما هو الفارياق، الشدياق، نشرة يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بمصر.

١١٠. سامي الدروبي، إحسان بيات الدروبي، دار الكرمل، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٢م.

١١١. سائح في دنيا الله، الوهاب مطاوع، مدبولي.

١١٢. ستونر، جون ويليامز، ترجمة: إيمان حرز الله، مراجعة: نوف الميموني، دار أثر، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

١١٣. سجن العمر، توفيق الحكيم، دار الشروق، الطبعة الثانية ٢٠٠٨.

١١٤. سداسيات بابل، خورخي بورخيس، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٣.

١١٥. سنة القراءة الخطرة، آندي ميلر، ترجمة: محمد الضبع، دار كلمات، الطبعة الرابعة ٢٠١٧م.

١١٦. سنة أولىٰ سجن، مصطفىٰ أمين، دار أخبار اليوم.

١١٧. سنة ثانية سجن، مصطفىٰ أمين، المكتب المصري الحديث.

١١٨. سوانح أفكار لأمير البيان شكيب أرسلان مع موجز سيرته، قاسم الرويس، جداول، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٤م.

١١٩. سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية عشرة ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

١٢٠. السيرة العمرية، موسىٰ العازمي، دار الصميعي، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

١٢١. سيرة حياتي، عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٠.

١٢٢. شارع الأميرات (فصول من سيرة ذاتية)، جبرا إبراهيم جبرا، دار الآداب، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٧م.

١٢٣. شجرة القنفذ والرسائل الجديدة، غرامشي، ترجمة وتقديم: أمارجي، التكوين.

١٢٤. شخصيات تاريخية من سقراط إلىٰ راسبوتين، علي أدهم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٣م.

١٢٥. شذرات الذهب في أخبارِ من ذهب، ابن عماد الحنبلي، دار ابن كثير.

١٢٦. شرح قصيدة محمد العبدالله القاضي في الأنواء والنجوم، خالد العجاجي، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤.

١٢٧. الشرق الأوسط، مقال: (إنها دواوين لشاعر بكل اللغات)، أنيس منصور.

١٢٨. شظايا من عمري، عبدالمعين الملوحي، دار الملوحي للنشرِ والتوزيع ١٩٩٥م.

١٢٩. شغف القراءة، إيهاب الملاح، الرواق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٩م.

١٣٠. صديقي لا تأكل نفسك، عبدالوهاب مطاوع، دار الشروق، الطبعة السادسة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٣١. الصراع في الوجود، بولس سلامة، دار المعارف في مصر.

١٣٢. صرخة من أجلِ المعنىٰ، فيكتور فرانكل، ترجمة: عبدالمقصود عبدالكريم، صفحة سبعة، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢١م.

١٣٣. صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر، أنور الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية.

١٣٤. صفحات من صبرِ العلماء، أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الحادية عشرة ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

١٣٥. صور وذكريات، عبدالحميد جودة السحار، دار مصر للطباعة.

١٣٦. صون القريض (نَظَرات الرافعي في الشعراء والشعراء)، د. عبدالرحمن قائد، آفاق المعرفة، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢.

١٣٧. صيد الخاطر لابن الجوزي، تحقيق أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، مدار الوطن للنشر، الطبعة الرابعة ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.

١٣٨. صيد الخاطر، تحقيق وضبط وتخريج: حسن السَّماحي سويدان، دار القلم (دمشق)، الطبعة الخامسة ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م.

١٣٩. ضد المكتبة، خليل صويلح، دار أثر، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨.

١٤٠. طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق : عبد الستار أحمد فرّاج، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

١٤١. الطريق الوعر، لي ميونج-باك، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٢.

١٤٢. الطريق إلىٰ مكة، ليوبولد فايس (محمد أسد)، ترجمة: رفعت السيد علي، منشورات الجمل.

١٤٣. ظِلُّ النديم، وجدان العلي، مركز تفكّر للبحوث والدراسات، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

١٤٤. ظِلال من حياتي، محمد رجب البيومي، سنا الفاروق للنشر، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٤٥. ظلام السِّجن (مذكرات ومفكرات)، محمد علي الطاهر، طبعة دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

١٤٦. عاشق الكتب، أليسون بارتليت، ترجمة: حنان علي، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠م.

١٤٧. عالم الأمس، شتيفان زفايغ، ترجمة: عارف حذيفة، دار المدىٰ، الطبعة الثانية ٢٠١٨.

١٤٨. عالم السدود والقيود، العقاد، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م.

١٤٩. عالم الكتب والقراءة والمكتبات، محمد البنهاوي، العربي للنشر والتوزيع، طبعة مراجعة ١٩٨٤م.

١٥٠. عبدالفتاح أبو غدة ريحانة المحدثين وقدوة المحققين، إبراهيم بن حسن الأسطل، دار القلم، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩.

١٥١. العِبر في خبرِ من غبر، الإمام الذهبي، تحقيق: فؤاد سيّد، مطبعة حكومة الكويت.

١٥٢. عربة المجانين (سيرة السجن)، كارلوس ليسكانو، ترجمة: حسين عمر، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٧م.

١٥٣. عُصارة الأيام، سومرست موم، عرَّبه: حسام الخطيب، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع.

١٥٤. عصر ورجال، فتحي رضوان، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٦٧م.

١٥٥. عصيان الوصايا، لطفيّة الدليمي، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٩م.

١٥٦. العلامة محمود محمد شاكر كما عرفته، عبدالله عسيلان، نادي المنطقة الشرقية الأدبي ١٤٤٢هـ.

١٥٧. العلم الجديد، فيكو، ترجمة: د. أحمد الصمعي، دار أدب، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م.

١٥٨. العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم، أحمد العلاونة، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١٥٩. علىٰ هامش الأدب والنقد، علي أدهم، دار المعارف.

١٦٠. علي أدهم بين الأدبِ والتاريخ، أحمد حسين الطماوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٦١. عمالقة الصحافة، حافظ محمود، كتاب الهلال.

١٦٢. العمر الذاهب، د. عبدالرحمن بن حسن قائد، آفاق المعرفة، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م.

١٦٣. عنادل حجرية، عدي جاسر الحربش، صوفيا، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٢م.

١٦٤. عُنف الدكتاتورية، ستيفان زفايغ، دار مسكيلياني، ترجمة: فارس يواكيم، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠م.

١٦٥. العود الهندي، العلّامة السقّاف، دار المنهاج (الإصدار الثالث - الطبعة الأولىٰ ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١).

١٦٦. الفراشة، هنري شاريير، ترجمة: حسين عمر، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢١م.

١٦٧. فصول في الأدبِ والنقدِ والتاريخ، علي أدهم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٦٨. فصول في الثقافة والأدب، الطنطاوي، دار المنارة، الطبعة الرابعة ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

١٦٩. الفصول، عباس محمود العقاد، دار المعارف.

١٧٠. فقاقيع، أحمد خالد توفيق، دار ليلىٰ.

١٧١. فن القراءة، مانغويل، دار الساقي، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٦

١٧٢. فن الكسل، هرمان هسّه ترجمة أحمد الزناتي - منشورات حياة ٢٠٢٢م.

١٧٣. في أثر عنايات الزيات، إيمان مرسال، الكتب خان، الطبعة الخامسة ٢٠٢١م.

١٧٤. في إعادة اكتشاف التراث الإسلامي، أحمد الشمسي، ترجمة: عبد الغني ميموني، وأحمد العدوي، مركز نهوض للدراسات والبحوث، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٢م.

١٧٥. في الكتاب وأحواله، أحمد العلاونة، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢-٢٠١١.

١٧٦. في بيت أحمد أمين، حسين أمين، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٧٧. في بيتِ حسين مؤنس، منىٰ حسين مؤنس، دار المعارف.

١٧٨. في جوٍّ من الندمِ الفكري، كيليطو، المتوسط، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠م.

١٧٩. في خندق واحد، إعداد وترجمة: أحمد الزناتي، دار مدارك، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٢م.

١٨٠. في سبيل الإصلاح، علي الطنطاوي، دار المنارة، الطبعة الثامنة ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

١٨١. في صالون العقاد كانت لنا أيام، أنيس منصور، دار الشروق، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣.

١٨٢. في صحبة الفلاسفة، روبرت تسيمر، ترجمة: أبو هشّه، دار الحكمة، الطبعة الأولىٰ ٢٠١١م.

١٨٣. في غابة المرآة، مانغويل، ترجمة: سلمان حرفوش، دار كنعان، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٦.

١٨٤. فيض الخاطر، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة.

١٨٥. قراءة في دفتر قديم، د. يعقوب يوسف الغُنيم، صدر في الكويت ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

١٨٦. قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود، دار الجيل.

١٨٧. قصة تجاربي مع الحقيقة، ترجمة: محمد إبراهيم ومجدي عبدالواحد، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٨م.

١٨٨. قصة مكتبة، عبد الله عسيلان، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٨-٢٠١٧.

١٨٩. قصر الكُتب، روجيه غرينييه، ترجمة: زياد خاشوق، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨.

١٩٠. غرامشي وقضايا المجتمع المدني، دار كنعان، ترجمة: فاضل جتكر.

١٩١. قيمة الزمن عند العلماء، أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، الطبعة السادسة عشر ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

١٩٢. الكاتب والآخر، كارلوس ليسكانو، ترجمة: نهىٰ أبو عرقوب، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة (مشروع كلمة)، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٩٣. كافكا قال لي (أحاديث وذكريات)، غوستاف يانوش، ترجمة: نجاح الجبيلي، منشورات تكوين (الكويت)، الطبعة الأولىٰ سبتمبر ٢٠١٩م.

١٩٤. الكتاب بين الأمس واليوم والغد، روبرت دارنتون، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولىٰ ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٩٥. الكتابة بحبر أسود، حسن مدن، مسعىٰ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٥م.

١٩٦. الكُتب التي التهمت والدي، أفونسو كروش، مسكيلياني، الطبعة الثانية ٢٠١٩.

١٩٧. كُتب تحترق [تاريخ تدمير المكتبات]، لوسيان بولاسترون، وزارة الثقافة والفنون والتراث [قطر]، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٠م.

١٩٨. كُتب غيَّرت وجه العالم، روبرت ب. داونِز، مؤسسة حبوة للنشر والتوزيع.

١٩٩. الكتب في حياتي، كولن ويلسون، ترجمة: حسين شوفي، تقديم: لطفيّة الدليمي، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢١م.

٢٠٠. الكتب في حياتي، هنري ميللر، ترجمة: أسامة منزلجي، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٢م.

٢٠١. كتب ملعونة، علي حسين، دار أثر الطبعة الأولىٰ ٢٠٢١م.

٢٠٢. كرّاسات السجن، غرامشي، ترجمة: عادل غنيم، دار المستقبل العربي.

٢٠٣. كفاحي، أدولف هتلر، منشورات المكتبة الأهلية (بيروت).

٢٠٤. كفاحي، فريد الفالوجي، دار الكتاب العربي.

٢٠٥. الكلمات، جان بول سارتر، ترجمة: محمد مندور، تقديم: خليل صابات، المركز القومي للترجمة ٢٠١٥م.

٢٠٦. كنت صبيّا في السبعينيات، محمود عبدالشكور، دار الكرمة.

٢٠٧. كنت معهم في السجن، جعفر الخليلي، مطبعة المعارف (بغداد)، الطبعة الأولىٰ ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

٢٠٨. كوخ العم توم، هارييت ستاو، نقله إلىٰ العربية منير البعلبكي، دار العلم للملايين.

٢٠٩. لاعب الشطرنج، شتيفان زفايغ، ترجمة : سحر ستالة، دار مسكيلياني، الطبعة السادسة ٢٠٢١م.

٢١٠. لحن القول، د. عبد العزيز الحربي، دار ابن حزم، الطبعة الثالثة ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٢١١. لماذا نقرأ، لطائفة من المفكرين، تقديم: رجب البنا، دار المعارف.

٢١٢. اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون، موسىٰ العازمي، دار الصميعي، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٢١٣. ليل ينبتُ تحت الأظافر، تيد كوزر، اختارها وترجمها: سامر أبو هواش، منشورات الجمل.

٢١٤. لينين قارئًا، مقال لمريم ناجي بتاريخ ٣٠/ ١٠/ ٢٠١٨ في موقع منشور Manshoor.com.

٢١٥. ما أجمل العيش من دون ثقافة!، ثيسار أنطونيو مولينا، منشورات تكوين، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٢م.

٢١٦. ماذا علمتني الحياة، جلال أمين، دار الشروق، الطبعة السادسة سبتمبر ٢٠٠٩.

٢١٧. مارسيل بروست والتخلّص من الزمن، جيرمين بريه، ترجمة: نجيب المانع، الرافدين.

٢١٨. ماري أنطوانيت، ستيفان زفايغ، ترجمة: فارس متري ضاهر، منشورات وسم.
٢١٩. مآزق لينين (الإرهاب والحرب والإمبراطورية والحب والثورة)، طارق علي، ترجمة: أمير زكي، الكتب خان، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨.
٢٢٠. مالكوم إكس، أليكس هاليي، ترجمة: ليلىٰ أبو زيد، بيسان للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ٢٠١٦.
٢٢١. متعة القراءة، دانيال بِناك، دار الساقي.
٢٢٢. مُجدِّدون ومُجترّون، مارون عبود، دار العِلم للملايين ١٩٤٨.
٢٢٣. مجلة الآداب الأجنبية، سوريا.
٢٢٤. مجلة الأدب الإسلامي، السعودية.
٢٢٥. مجلة الأديب، لبنان.
٢٢٦. مجلة الثقافة لمحمد فريد، مصر.
٢٢٧. مجلة الرسالة الجديدة، مصر.
٢٢٨. مجلة الرسالة للزيات، مصر.
٢٢٩. مجلة العربي لأحمد زكي، الكويت.
٢٣٠. مجلة العصور، مصر.
٢٣١. مجلة الكتاب العربي، مصر.
٢٣٢. مجلة المجمع العلمي العربي، سوريا.
٢٣٣. مجلة المقتبس، سوريا.

٢٣٤. مجلة الناشر العربي، ليبيا.

٢٣٥. مجلة الهلال، مصر.

٢٣٦. مجلة اليمامة، السعودية.

٢٣٧. محادثاتي مع ستالين، ميلوفان دجيلاس، دار مجلة شعر بيروت.

٢٣٨. محاورات بيونس آيرس، خورخي بورخيس وإرنستو ساباتو، ترجمة: أحمد الويزي، دار شهريار، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٩.

٢٣٩. محمود محمد شاكر (قصة قلم)، عايدة الشريف، دار الهلال.

٢٤٠. مختصر تاريخ الفلسفة، نايجل واربُرتون، ترجمة: محمد مفضل، دار الكتب العلمية (بغداد).

٢٤١. مدخل إلىٰ تاريخ نشر التراث العربي، الطناحي، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٢٤٢. مدخل إلىٰ غرامشي، تحرير: شوستاك ساسون، ترجمة: سحر توفيق، المركز القومي للترجمة.

٢٤٣. المذاهب السياسية المعاصرة، علي أدهم.

٢٤٤. مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني، كتاب المختار.

٢٤٥. مذكرات جريح، بولس سلامة، مطبعة النسر في بيروت ١٩٥٠.

٢٤٦. مذكرات دجاجة ، إسحاق الحسيني، تقديم: طه حسين ورجب البنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٤٧. مذكرات سجين، وولي سوينكا، ترجمة وتقديم: نسيم مجلي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٣م.

٢٤٨. مذكرات عبد أمريكي، فريدريك دوغلاس، ترجمة: إبراهيم عبد المجيد، دار بيت الياسمين.

٢٤٩. مذكرات قارئ، محمد حامد الأحمري، دار الخلود، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٤.

٢٥٠. مذكرات قاسم الرَّجب، قدَّم لها وعلق عليها: د. عماد عبدالسلام رؤوف، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٥١. مذكراتي، زيد بن عبدالعزيز بن فيّاض، دارة الملك عبدالعزيز ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م.

٢٥٢. مسار، عبدالفتاح كيليطو، دار توبقال، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٤.

٢٥٣. المشوِّق إلىٰ القراءة وطلب العلم، د. علي بن محمد العِمران، دار الصميعي، الطبعة التاسعة ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

٢٥٤. مع المخطوطات العربية [صفحات من الذكريات عن الكُتُبِ والبشر]، كراتشكوفسكي، نقله إلىٰ العربية، محمد منير مرسي طبعة تراث، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

٢٥٥. مع بورخيس، ألبرتو مانغويل، ترجمة: أحمد م. أحمد، دار الساقي، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٥م.

٢٥٦. المعاصرون، محمد كرد علي، علق عليه وأشرف علىٰ طبعه: محمد المصري، دار صادر (بيروت).

٢٥٧. معايشة النمرة وأوراق أخرىٰ، جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٢م.

٢٥٨. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي.

٢٥٩. معجم الدخيل، الدكتور ف. عبدالرحيم، دار القلم (دمشق)، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٢٦٠. مغامرات قارض كتب، سام سافاج، ترجمة: أشرف القرقني، مسكيلياني، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٢م.

٢٦١. المغني لابن قدامه، تحقيق: عبدالله التركي وعبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض.

٢٦٢. مقال بعنوان: The Books That Saved My Life in Prison، في منصة Medium.

٢٦٣. مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، دار المنارة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٦٤. مقالات متنوعة، علي أدهم، إعداد: نبيل فرج، دار الكتب والوثائق القومية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤.

٢٦٥. مقدمات العقاد، د. عبدالرحمن قائد، آفاق المعرفة، الطبعة الأولىٰ ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.

٢٦٦. مكتباتهم، محمد آيت حنا، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٦.

٢٦٧. مكتبة باريس، جانيت سكيزلين تشارلز، ترجمة: دلال نصر الله. دار كلمات ٢٠٢٢م.

٢٦٨. مكتبة ساحة الأعشاب، إيريك دو كيرميل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية ٢٠٢١م.

٢٦٩. المكتبة في الليل، مانغويل، ترجمة: أحمد م. محمد، دار الساقي، الطبعة الثانية ٢٠١٦م.

٢٧٠. مكتبة هتلر الشخصية، تيموثي دبليو ريباك، ترجمة: سارة سلامة، دار ألكا، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٢م.

٢٧١. المكتبة، زوران جيفكوفيتش، ترجمة: نوف الميموني، تقديم : طارق الخواجي، دار أثر.

٢٧٢. من السجن إلىٰ الفلسفة، مقال للحسين أخدوش، في منصة معنىٰ بتاريخ ٤ ديسمبر ٢٠٢٠.

٢٧٣. من ذكرياتي في صحبة العقاد، محمد طاهر الجبلاوي، مكتبة الأنجلو المصرية.

٢٧٤. من كتبي (اعترافات قارئة عادية)، آن فاديمان، ترجمة: رشا صادق، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠م.

٢٧٥. من يجرؤ؟ مقال لبولانيو، جريدة الجزيرة، ترجمة الأستاذة: بثينة الإبراهيم.

٢٧٦. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي، تحقيق السيّد أحمد صقر، دار المعارف.

٢٧٧. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

٢٧٨. مي زيادة معشوقة الأدباء، خالد ناجح، كتاب الهلال ٢٠٢٠م.

٢٧٩. ميراث الصمت والملكوت، عبدالله الهدلق، الطبعة الأولىٰ ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٢٨٠. نفحُ الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر.

٢٨١. النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، محمد رجب البيومي، دار القلم.

٢٨٢. الهامسون بالكتب، دونالين ميلر، ترجمة: أميرة علي، هنداوي، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٦.

٢٨٣. هذه حياتي، عبدالحميد جودة السحار، دار مصر للطباعة.

٢٨٤. هروبي إلىٰ الحرية، بيجوفيتش ، ترجمة محمد عبدالرءوف، مدارات للنشر والأبحاث، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م.

٢٨٥. هكذا ربانا جدي، عابدة المؤيد العظم، دار المنارة، الطبعة الرابعة عشرة ٢٠١٩م.

٢٨٦. هوامش سيرة، خورخي بورخيس، ترجمها عن الإنكليزية: سنان أنطون، منشورات الجمل، الطبعة الأولىٰ.

٢٨٧. هؤلاء عرفتهم، عبَّاس خضر، دار المعارف.

٢٨٨. هؤلاء من الألفِ للياء، طارق حبيب، مطبوعات أخبار اليوم.

٢٨٩. هيجل، مقدمة قصيرة جدًا، بيتر سينجر، ترجمة: محمد إبراهيم السيّد، هنداوي.

٢٩٠. واحة الفِكر، عبدالله كنون، المطبعة المهدية.

٢٩١. الوافي بالوفيات للصفدي، تحقيق تركي مصطفىٰ وأحمد الأرناؤوط، طبعة إحياء التراث العربي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٩٢. وديع فلسطين يتحدث عن أعلامِ عصره، دار القلم، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٩٣. وزارة الحقيقة، دوريان لينسكي، ترجمة: نادر أسامة، دار كلمات ٢٠٢١م.

٢٩٤. الولد الشقي في السجن، محمود السعدني، أخبار اليوم.

٢٩٥. يا صاحبي السجن، أيمن العتوم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية ٢٠١٣م.

٢٩٦. يوليوس قيصر، شكسبير، تعريب: محمد حمدي بك، مطبعة مصر ١٩٢٨، الطبعة الثالثة.

٢٩٧. يوميات بائع كتب، شون بيثل، ترجمة: عباس المفرجي، دار المدىٰ، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠.

٢٩٨. يوميات كامل الشناوي، تحرير: رحاب خالد، دار الكرمة.

النَّاطِقُ الأخرَس

حَدِيثُ القِرَاءَةِ وَالكُتُبِ

لطالما كان الحديثُ عن القراءةِ والكُتب مُحبَّبًا إلىٰ شُداةِ العِلم والمعرفة؛ يأنسون به، ويتوقون إليه، ويألفون ذكره، ولا يَملُّون منه. لأجل هذا وغيره؛ أُقدِّم إليك أيها القارئ الكريم مؤلَّفًا يطوفُ بك فيما ينالك نفعهُ -إن شاء الله- ولا تفوتُك متعته، حول هذا الموضوع.

عن لذَّةِ القراءة وسِحرها ومقامها وأثرها، وعن قدرِ الكُتبِ ومكانتها وتأثيرها وخطرها؛ تُفصِحُ صفحاتُ هذا الكتاب الذي بين يديك.

لما أرادَ طه حسين وصفَ القراءة نعَتها بـ"زاد الشعب"، وقال بأن الحثَّ عليها هو خيرُ ما يُوجَّهُ إلىٰ الأفراد. وعندما وقفت المؤرخة باربرا توشمان أمام مكتبة الكونغرس عام ١٩٨٠، أطلقت وصفًا لافتًا للكتب، وقالت بأنَّها "مُحرِّكات التغيير"، فعلىٰ الزَّاد والمُحرِّكات يقوم هذا الكتاب.

آفاق المعرفة
AFAQ ALMAAREFA
٧٧

9 786039 208525

www.afaqpub.com